

خالد حبيب الراوي
الأعمال الأدبية الكاملة

تحرير وتقديم
د. أحمد خالد الراوي



خالد حبيب الراوي
الأعمال الأدبية الكاملة

خالد حبيب الراوي الأعمال الأدبية الكاملة

تحرير وتقديم
د. أحمد الراوي

بغداد 2006

المحتويات

7	مقدمة
26	خالد الراوي في سطور
29	الجسد والأبواب (مجموعة قصصية)
61	القناع (مجموعة قصصية)
105	القطار الليلي (مجموعة قصصية)
157	العيون (مجموعة قصصية)
215	قصص (مجموعة قصصية)
323	قصص بلا عنوان (مجموعة قصصية)
334	مسرحيات
385	خواطر
423	أشعار
	ملاحق
439	ملحق 1: كتابات ومراجعات نقدية
479	ملحق 2: قصص للأطفال
495	ملحق 3: خالد ... الإنسان

مقدمة

هذا الكتاب

خالد حبيب الراوي (1944-1999) عمل صحفياً وناقداً فنياً وأديباً وقاصاً وكاتباً مسرحياً ومحامياً وخبيراً إعلامياً وباحثاً ومؤرخاً وأكاديمياً ومراسلاً لعدة جرائد ومجلات. عاصر المؤلف جيل الستينات بالأخص، وهو يصنف عند النقاد كافة ضمن هذا الجيل بالرغم من معاصرته جيل السبعينات بكل ما فيه من تطورات واختلافات عن الجيل الذي سبقه. لذلك كان لا بد من نشر الأعمال الأدبية الكاملة للقاص خالد الراوي خاصة بعد وفاته بأكثر من ست سنوات.

والكتاب هذا قد تم جمعه من العشرات بل المئات من قصاصات الجرائد والمجلات العراقية والعربية المنشورة في فترة الستينات وبداية السبعينات من القرن الماضي. فضلاً عن ذلك، تم إدراج الكثير من الكتابات التي لم تنشر مسبقاً سواء في مجال القصة القصيرة جداً أو الأشعار. اعتمد الكاتب على نشر قصصه في الجرائد لكونها الوسيلة الأفضل والأرخص للوصول إلى الجمهور علاوة على كون الشكل الأدبي المختصر والمركز الذي يستعمله صالحاً للنشر في الصحافة. بدأ خالد الراوي الكتابة عام 1962 عندما كان في الثانوية العامة حيث اعتاد إرسال الخواطر والتعليقات إلى الجرائد. وبعد عام 1963 أرسل بعض القصص القصيرة إلى عدد من الصحف ونشرت حينها، وتعد من القصص القليلة التي ظهرت بعد ثورة 1963. وفي عام 1964، بدأ خالد الراوي عمله الصحفي المنتظم، حيث كتب عموداً يومياً في صحيفة (صوت العرب) باعتباره المحرر الثقافي لأن موقع الجريدة كان الأقرب إلى المقهى. وبعد توقف صدور الجريدة، انتقل إلى جريدة (الثورة العربية) ليعمل محرراً فيها، لكن سرعان ما عاد إلى جريدة (صوت العرب)

1 بلا مؤلف، "حكايتي مع الصحافة: د. خالد حبيب الراوي"، جريدة العراق، العدد 4283، 7 شباط 1990. يذكر خالد الراوي أنه خلال عام 1962 كانت السيدة سلام خياط تحرر إحدى الصحف المتنوعة وكنت أرسلها باستمرار، وحين انقطعت عن الكتابة إليها، أرسلت لي رسالة تحثني فيها على عدم الانقطاع عن الكتابة. وقد كان لرسالتها أثر كبير في نفسي... ومازالت السيدة سلام خياط تناديني حتى اليوم بـ "ابني".

بعد معاودة إصدارها. وكان العديد من الكتاب والقصاصين والشعراء ينشرون أعمالهم في هذه الجريدة علاوة على الصفحات الأدبية لجريدة المنار والأنباء الجديدة والفجر الجديد ومجلة الطيران وأبناء النور... الخ. وتكمن أهمية هذا الكتاب في توثيق مرحلة أدبية مهمة في الأدب العراقي، لأنه يعكس هموم الشباب وانتكاساتهم بسبب الحروب المتلاحقة والهزائم التي منيت بها الشعوب العربية. والكاتب لم يقتصر على القصة القصيرة جداً التي كان السباق والرائد في كتابتها في العراق، بل كتب أيضاً المسرحيات وخاصة العبثية منها والتمثيلية التي تم تمثيل معظمها في التلفزيون الوطني العراقي وقصص الأطفال والخواطر والأشعار. وتتميز معظم الخواطر والأشعار التي كتبها خالد الراوي برهافة الحس وعذوبة الكلمات وتعبر عن مرحلة الشباب التي كان يمر بها. وامتازت كتاباته اللاحقة بالهدفية والالتزام نحو قضايا مصيرية كالمسألة الفلسطينية والتحرر من الاستعمار المتمثل بالجهل والعبودية للتقاليد المتهرثة. لكن المؤلف لم يكن حريصاً على جمع كتاباته وضمها في كتاب واحد، ولم يكن يهتم بالسعي وراء الشهرة، حيث اقتصر على نشر بعض قصصه ضمن أربع مجاميع وهي الجسد والأبواب (1969) و القناع (1970) و القطار الليلي (1974) و العيون (1977). لذلك ارتأيت أن أقوم بنشر الأعمال الأدبية الكاملة وانتقاء ما هو أدب محض وإهمال النقد الأدبي والفني الذي اشتهر به في تلك الفترة. حيث تم تصنيف الكتابات المختلفة حسب الترتيب الزمني لنشرها بالرغم من أن بعض الأعمال قد أعيد نشرها في فترات أخرى، وتمت الإشارة إلى هذه التفاصيل في الهوامش. ويتضمن الكتاب مقدمة نقدية كتبها المحرر وتعرض فيها إلى طبيعة وأهمية القصص القصيرة جداً بالإضافة إلى أسلوب وهدف القصة عند خالد الراوي. ويحوي الكتاب أيضاً صوراً منتقاة للقاص من حياته منذ صغره حتى آخر صورة التقطت له من أجل التوثيق. ويختتم الكتاب بثلاثة ملاحق أحدها خاص عن خالد الإنسان ويحتوي كتابات متعددة تبدأ بوصية أبيه التي كتبها يوم ولادته ومقالات أخرى كتبها أصدقائه نشرت معظمها في الجرائد العراقية بعد وفاة الأديب. ولابد هنا أن اتقدم بخالص شكري إلى الأستاذ ستار زيارة الذي قام بالمراجعة اللغوية وأثرى الكتاب بأرائه النقدية.

1 د. خالد حبيب الراوي، 'جيل الستينات'، مجلة ألف باء، العدد 869، 22 أيار 1985، صفحة 49

القصة القصيرة والقصيرة جداً..

من الخطأ أن يقال إن القصة القصيرة هي نتاج القرن العشرين، حيث يمكن إيجاد القصة القصيرة منذ أيام السومريين والفراعنة وفي كتاب العهد القديم ومنها قصص روث ويوحنا. استمرت القصة القصيرة متداولة بين الناس في مختلف البلدان والثقافات في العالم لأنها الوسيلة المفضلة لنقل الحقائق التاريخية والعادات والتقاليد. وهي تختلف عن الرواية في الحجم وليس المضمون، حيث تتألف الرواية عادة من 20 ألف كلمة وأكثر بينما تتكون القصة القصيرة المطولة من كلمات أقل. وتختلف القصة القصيرة عن الرواية في التكتيف اللغوي والتركيز على الشخصية أو الحدث وامتلاك الوحدة في الموضوع أو حتى في الأسلوب. ويذكر نقاد آخرون أن القصة القصيرة تتكون من حوالي 15 ألف كلمة ومن المستحيل تمييزها عن الرواية سواء في استخدام عدد الشخصيات أو في وحدة الموضوع.¹ يقول الروائي الإنكليزي أي أم فورستر إن القصة مبنية على الترتيب الزمني بينما الحكمة تعتمد على السببية بغض النظر عن طول القصة، مثلاً "مات الملك، فماتت الملكة من الحزن". فهذه قصة بحد ذاتها لأن لها حبكة متكاملة تتمثل بإدراج سبب ونتيجة ونرى تطوراً أو تغييراً في الشخصية الرئيسية.² أما القصة القصيرة جداً فلا يتعدى حجمها صفحة أو صفحتين يستخدم القاص فيها لغة مركزة.

ويمكن أن تعد الكاتبة الفرنسية ناتالي ساروت (1900-1999) الرائدة في القصة القصيرة جداً، حيث اشتهرت بمجموعتها (انفعالات) 1938 والمكونة من 24 قصة. استخدمت ساروت منهج الوصف البحث للظاهرة الذي وضعه

1. Sylvan Barnat, Morton Berman, & William Burto, A Dictionary of Literary, Dramatic, and Cinematic Terms, Boston: Little, Brown and Company, 1997, p.100.
2. E.M. Forster, Aspects of the Novel, Middlesex: Penguin Books, 1971, p. 93.
3. F. C. Hugh Holman, A Handbook to Literature, New York: The Odyssey Press, 1960, p. 458.

الفيلسوف الألماني هوسرل. فكاتب القصة القصيرة جداً يكتب بدون مراعاة إدراج استنتاج أو استدلال أو حكم، فعلى القارئ أن يستنتج ويستدل ويحكم بحرية. حيث قطع القاص صلته بالقارئ لأن الهدف هو إمرار التجربة الإنسانية وإن كانت معقدة ورمزية لكنها تبقى تعبيراً صادقاً عن الواقع الخارجي المعقد وغير المنطقي.¹ وما يميز كتابات ساروت هو أنها تصف انفعالات الشخص وتحاول وصف مكنوناتها، لذلك "جاءت عباراتها منفصلة... وكلماتها متباعدة. كثرت النقاط الثلاث... والمعاني المبهمة والأفكار المترنحة التي تعبر عن حالة نصف شعورية، إن لم تكن لا شعورية على الإطلاق".²

على هذا الأساس، أنتج الكثير من الكتاب قصصهم لكنهم اختلفوا في الشكل والأسلوب، لذلك جاءت القصة القصيرة جداً لكي تعبر عن حقيقة وتركز عليها بدلاً من تشويش القارئ بتفاصيل روائية وجموع من الشخصيات. وتمتاز القصة القصيرة جداً بالشد والتكثيف اللغوي، حيث يعتمد القاص إلى استخدام أقل الكلمات الممكنة وأكثرها تعبيراً، لذلك تبدو القصة في النهاية قصيدة شعرية تكون عادة ذات طبيعة رمزية. ويعرف الناقد عباس الجبوري القصة القصيرة جداً على أنها "تمط فني يختزل الحدث الحسي والفني بصورة خاطفة، محاولة في اقتناص لقطة عابرة... وهي عملية تعتمد الدقة والتركيز في اختطاف الصورة - الواقع - الإحساس. وهي بالتالي تعتمد على قدرة القاص الفنية في تشكيل ضربة فكرية حادة إزاء الهدف المقصود".³

ويذكر خالد الراوي في مقال نشر عام 1966 يتعلق بالقصة القصيرة جداً، أنها "من الأعمال الأدبية الخطيرة التي تتطلب الدقة والفن والعلم... فقد انتهى دور السرد والتسلسل والوضوح وهي شروط كتابة القصة الكلاسيكية.. وأضحى واجباً على الكاتب المعاصر أن يراعى اعتبارات معينة لكتابة القصة القصيرة.. من هذه الاعتبارات.. اختيار المضمون المراد الكتابة فيه..

1 ناتالي ساروت، انفعالات، ترجمة وتقديم فتحى العشري، "ساروت.. والانفعالات والرواية الجديدة"، القاهرة: المطبعة الثقافية، 1971، صفحة 2.

2 نفس المصدر، صفحة 25.

3 عباس الجبوري، "مدخل دراسة (القصة القصيرة جداً)"، مجلة الطليعة الأدبية، العدد 6-5، أيار وحزيران 1976، صفحة 29.

بحيث ينطلق الكاتب اليه دون إضاعة خطاه في الجزئيات والحوادث الجانبية.. والأمر الآخر هو البحث عن شكل حديث في كتابة القصة.. هذا الشكل لا نستطيع أن نحدده سلفاً لكل كاتب طريقته الخاصة.. إنما المهم أن يتعد عن شكل الحكاية التي تشكل القطاع الأكبر في كتابة القصة.. أن يتعد عن نقل الأحداث الجاهزة التي هي حكومة الحكاية.. بالقدر الذي لا يضيع فيه المضمون أو يشوهه في التفاصيل الهامشية.. وخصوص هذه الكلمات يجزنا إلى البحث في مهمة القصة القصيرة.. إن غاية الحكاية هي تمضية الوقت بها والتسلية لسامعيها. ولكن أهذه هي مهمة القصة القصيرة أيضاً؟ لا نستطيع أن نلغي الواقع ونقول ليست هذه مهمة القصة المعاصرة.. إنما نقول إن مهمتها استجلاب اللذة والتسلية إلى حد معين.. يرافقه في معاصرة المضمون الذي يدفع بمأهيته عبر التسلية أو اللذة إلى القارئ.. كذلك فإن الجمالية أساسها في القصة القصيرة فالكاتب الجيد يختار وينتقي ويصفي القصة ويجعلها محدودة مثل القصيدة".

ومن أبرز الكتاب العرب الذين كتبوا القصة القصيرة جداً زكريا تامر من سوريا ورشارد أبو شاور من فلسطين وجمال أبو حمدان من الأردن. أصر هؤلاء الكتاب على إدخال الشكل الجديد في القصة إلى الوطن العربي بالرغم من الانتقادات الكثيرة التي واجهوها.

خالد حبيب الراوي : رائد القصة القصيرة جداً في العراق

بعد خالد حبيب الراوي من رواد كتابة القصة القصيرة جداً في العراق، حيث حاول إدخال الشكل الأدبي الجديد من أجل تغيير الشكل التقليدي للقصة. وقد استخدم تقنيات أدب اللامعقول في كتاباته، لكنه أصر في الوقت ذاته على ضرورة وجود هدف أخلاقي أو اجتماعي وحتى سياسي من وراء الكتابة. وهو ينتقد معاصريه قائلاً "إن الأشكال الجديدة ليست من (ابتداع) الكتاب العراقيين.. بل إن جميع كتاب الدول النامية تفتحو على الانتقالات الواسعة للآداب في الغرب (وراحوا) يختلسون الأشكال المناسبة لهم... إن الآداب العظيم لا يفاض بشكله، بل بما يرد فيه من كشوفات أصيلة وعصرية، وطالما أن أدبنا عاجز عن الإتيان بالكشوفات، فإنه يبقى مكتسحاً، وهامشياً... نحن إزاء أناس لا يشعرون بمسؤوليتهم تجاه الآداب.. كل ما

1 خالد حبيب الراوي، "كلمة المحرر"، جريدة صوت العرب، 2-8-1966.

يقدمونه لنا مختلف، وشكلي يتخذونه وسيلة للامتياز والاستعراض. وعلى هذا ينبغي أن نهتم هذه الأشكال البراقة، المجوفة. إن تجاربنا العظيمة، وحياتنا الهائلة ستبقى خلف النوافذ في ظلام جهل هؤلاء الكتاب ويهلوانيتهم".¹ ويبدو أن خالد الراوي اتبع نصيحة ميخائيل نعيمة الذي اعتاد مراسلته، حيث يقول الأخير في ما يخص هدف أدب اللامعقول: "إذا وجدت في أدب اللامعقول ما يهزك فاهتز. وإذا نفرت منه فدعه وشأنه. فالأدب، كالطعام. ما يهضمه وينتفع به الواحد قد لا يهضمه ولا ينتفع به الآخر".² أعتاد بعض النقاد على مهاجمة الكتابات التجديدية التي تقدم شكلاً غير معهود. ويعلق ميخائيل نعيمة عن هؤلاء النقاد قائلاً: "ليكتب الناس ما شأؤوا- أدباً معقولاً أو لا معقولاً. فالمهم أن يكون هناك تفاعل بين الكاتب والقارئ، وأن يكون ذلك التفاعل لخير الاثنين".³

يؤمن خالد الراوي أن التجديد يحصل دوماً كجزء من تطور الأدب، حيث تتغير الأنواع الأدبية لكن يبقى إيصال المعاناة الإنسانية والمشاعر الصادقة الهدف من وراء الكتابات الأدبية. ويتساءل القاص: "ما حقيقة التجديد.. يكشفه ممثلوه بأن تجديدهم كان إسقاط الشكل القديم و (اختراع) شكل جديد.. ومسألة الشكل هادئة أساساً.. إذ ما أهمية إذا كان شكلاً وحسب.. فانهيار أحد الركنتين - الشكل والمضمون- في كافة الأعمال والمدارس يجعل العمل هلوساً أو بوقاً لا غير".⁴ ولا يعني التجديد بالنسبة للقاص محور الأسس الصلبة للأدب، بل تشير إلى تغيير الهيكل الخارجي فقط، فهو يقول: "إن التجديد... لا يعني هدم الموجودات.. ولا تدمير المسائل المنطقية في الأشكال والصيغ والأفكار.. كذلك ليس بناء عمل أدبي من كلمات نافرة عن الالتصاق الشرعي".⁵ وقد كانت الكتابة بشكل جديد صعبة في البداية لعدم الاعتياد على النوع الأدبي الحديث، حيث يعلق القاص في هذا الخصوص:

1 بلا مؤلف، "هل القصاصون العراقيون الجدد هامشيون؟"، جريدة الجمهورية، العدد 1054، 27 نيسان 1971.

2 رسالة شخصية من ميخائيل نعيمة إلى خالد الراوي، 10 تشرين الثاني، 1964.

3 رسالة شخصية من ميخائيل نعيمة إلى خالد الراوي، 3 شباط، 1965.

4 خالد حبيب الراوي، "صفحة المحرر"، مجلة وعي العمال، العدد 13، 7 تموز 1969.

5 خالد حبيب الراوي، "كلمة المحرر"، جريدة صوت العرب، 26-10-1965.

جرى التطور في "القصة القصيرة" في الغرب نتيجة عوامله الطبيعية المعروفة. أما في الشرق، لا سيما في بلدنا، فقد حدث فجائياً، ولعل أهم سبب في (التطور) يرجع إلى (رغبة) الكتاب بأن يصبحوا معاشين للحضارة وأن يواكبوا مسارها ونموها، لذا كان التطور مسخاً هزئياً، لا يملك قوة وجودة الحاضر. وبلاستطراد قليلاً، نستطيع تحديد الانقسام الموجود بين الكتابة الأصلية وغيرها معرفة حقيقة مؤداها أن الكتاب انفتحت أمامهم فجأة عشرات المطبوعات الأدبية المترجمة التي كانت تنقص أسلافهم. وقد نجح المقلدون في نسخ اللغة والبناء على شاكلتها. أما المضمون والموضوع، فقد ظل منحلًا ومتهافتاً في الكتابات. والسبب أن الكتابات العظيمة ليست شكلاً مجرداً، بل هي فكر عظيم وأصيل. إذن فالتطور يعتمد على الوعي والتجربة، وبدونهما لا يمكن إلا صنع نسخ مكررة ومفضوحة. وبالنسبة لي، فقد عاصرت جيلين مختلفين. جيل انقرض تقريباً كان يعتمد على الحكاية الخارجية وملامسة الأفعال من سطحها. والجيل الجديد الذي بدأ بغضبه على سلفه ومازال غاضباً دون أن يقدم، فعلاً، الأعمال الأدبية التي تجعل موقعه ثابتاً. إن دأب الكاتب لا يتحدد ولا ينتهي. لذا فمهمته هي تعميق وعيه بالتاريخ. بالزمن الحاضر، بالعالم، مستخدماً كل التراث الإنساني والذهني في تعيين موقعه والاستمرار منه. وعلى هذا تكون علاقتي بالتطور. إن الأشكال وحتى تفصيلات الذهنيات تكون تجريبية في هذه المرحلة من فترة النمو. وعلى أن أبطل القناعات التي تجعل العمل يرتخي أو يقف عند نقطة الانتهاء.

ويقول حمدي مخلف الحديثي إن خالد الراوي "حاول أن يكون متفرداً من أبناء جيله" بالقصة القصيرة جداً، فهو جزء من الاتجاه التجريبي لجيل الستينات الذي يعرفه على أنه "يبحث في الشكلية ويروياً جديدة حاولت طرح أفكار ناقشت الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي بإحساس ممثلي بالرمزية ذات روح نقدية حادة. وأصحاب هذا الاتجاه حاولوا تجاوز جيل الخمسينات وعدم الاعتراف بما قدموه إلا من الناحية التوثيقية التاريخية

1 بلا مؤلف، "حوار مع القاص خالد الراوي"، مجلة وعى العمال، السنة الرابعة، العدد 57، 1 حزيران 1970.

لمسيرة القصة العراقية".¹ لكن الاعتماد على نوع أدبي جديد يعد خطوة جريئة لم تخل من انتقادات لاذعة. يقول خالد الراوي "أعتقد أن كل مرحلة أفرزت كتابها ولكن التركيز على كتاب الخمسينات كان يأخذ شكله المركز وكان للحركات السياسية الدور الكبير في تسليط الضوء على بعض الكتاب والتعظيم على بعض الأسماء الأخرى ولكن في الستينات واتصالاً مع حركات التمرد في جميع أنحاء العالم فقد جرى تقويض الكثير من التقاليد والأعراف القديمة وظهرت موجة كتاب الستينات بصفاتها المعروفة عنها..."² لكن بعض النقاد في فترة الستينات والسبعينات لم يستطيعوا تقبل مسألة التجديد ببساطة، لذلك عمدوا إلى السخرية من أدب اللامعقول ومن كتاب القصة القصيرة جداً. يقول فاضل عباس هادي بعد نقاشه عن الأسلوب البلاغي والقصصي لخالد الراوي في مقالته "الناشطون السياسيون والأسلوب الأدبي" (1970)، إن اللغة المجردة والمختصرة للقصص لا تجعله فاهماً للطبيعة البشرية فهو يخلق فوق السطح مضحياً بالعمق، وهذا ما يصعب فهمه مما جعله مؤخراً عرضة للسخرية".³ لكن تتساءل ناتالي ساروت أليس هدف القصة هو "إحداث هزة تؤدي إلى تغيير في شعور القارئ؟"⁴ أليس هدف الأدب إمرار رسائل مختلفة الأنواع بغض النظر عن الشكل والطريقة؟ لذلك يؤمن خالد الراوي أن التجديد هو وسيلة وليست غاية. وفيما يتعلق بهدف الأدب بشكل عام، يقول خالد الراوي إن "هناك نوعين من الكتاب ينشران، الأول يهدف إلى استمرار لتنبيه إليه للمحافظة على مواقفه التي إنشأها بالنشر المركز... وبالتأكيد أنا لا أحترم هذا النوع... إذ يحمل إدانته المتجددة مع كل نشرة جديدة. فهذا النوع قد كشف تجوفه ولا أهميته لكنه ظل منطلقاً بروح الوقاحة الفظة في النشر. إن من كان وقحاً مغلفاً لا يحس

1 حمدي مخلف الحديثي، "القصة القصيرة جداً: جيل الستينات.. موقف"، جريدة العراق، 2 تشرين الثاني 1996.

2 الرحماني، "بقائى مع د. خالد الراوي"، جريدة العراق، العدد 3466، 15 حزيران 1987.

3 Fadhil Abbas Hadi, "Of Political Agitators and Poetic Diction," Baghdad Observer, No. 823, 29-09-1970.

4 ناتالي ساروت، "الفعالات، ترجمة وتقديم فتحي العشري"، ساروت..والفعالات والرواية الجديدة، القاهرة: المطبعة الثقافية، 1971، صفحة 32.

بمسؤولية قط ولا تخرجاً إزاء الفكر. إنه كومة من كلمات مزوقة مزينة بتفاهة، خالية من الفكر والكشوفات. أما النوع الثاني الذي يريد التخلص من مرحلة سابقة وتجاوزها الى تقدم دائم وتفتح أوسع فهو المسؤول الذي يعتقد أن مهمته تبدأ. إنه عكس وانعكاس. أن يبقى جديداً حاراً. أن يهدأ وعيه ويكف عن الكشوفات".*

وربما اقترب الناقد شجاع مسلم العاني في تحليله للقصة القصيرة جداً وما يسميه بتيار الوصف الخارجي المباشر مما تهدف اليه ساروت، حيث يذكر أن قصص خالد الراوي "في اقتصادها الشديد بالكلمات، وفي اقتصادها في وصفها للعالم الخارجي على أقل ما يمكن من الموضوعات، وفي إصرافها النثري بعيداً عن سمو الشعر أو روح التحليل، هذه الأقصوصة تقترب من (السكتش). إن القاص هنا، لا يقدم لنا أقصوصة حية نابغة بالحياة، بل يقدم لنا هيكلًا عظمياً للأقصوصة وعلى خيال القارئ تقع مهمة إكساء هذا الهيكل العظمي باللحم والدم".¹ تعد العلاقة بين القارئ والكاتب إحدى مكونات الحداثة، فأصبح الاثنان يسيران معاً نحو فهم العمل الأدبي وتعبيره لتفسيرات أدبية لا متناهية.

نشر خالد الراوي أول مجموعة قصصية عام 1969 بعنوان (الجسد والأبواب) وامتازت برمزيتها ولغتها الصعبة وهي تمثل المرحلة الأولى لتطوره القصصي مع المجموعة التي تلتها (القناع) عام 1971. ويشير عنوان المجموعة الأولى الى الجسد، لأنه كيان مقدس، ويجب أن يعامل بكل تبجيل حسب رؤية القاص. وتتل بعض القصص على وجود اعتقاد لدى الكاتب بقدسية جسد المرأة خصوصاً والرجل عموماً. وهو ما يشير إليه دوماً بإحساس ابن الشرق نحو المحرمات ويتحول في بعض الأحيان الى إحساس نرجسي نحو جسده نفسه. وتؤكد رمزية العنوان أن الجسد هو باب الروح والكيان الذي يميز الإنسان ويعطيه ماهيته من خلال شكله وحاجاته الفسيولوجية. بالرغم من أن الرموز الجنسية واضحة في القصص بشكل عام، إلا أن الكاتب يمرر دروساً وعبيراً أخلاقية ملتزمة في الوقت ذاته. على

1 بلا مؤلف، "حوار مع القاص خالد الراوي"، مجلة وعي العمال، السنة الرابعة، العدد 57، 1 حزيران 1970.

2 شجاع مسلم العاني، "اتجاهات الأقصوصة العراقية الجديدة"، المثقف العربي، العدد 3، نيسان 1970، صفحة 82.

سبيل المثال، يحاول الرجل في قصة (مسافات) ضمن مجموعة (العيون) ممارسة الجنس مع امرأة غريبة، لكن ينتابه شعور بالقرع والضياح في الأخير. وهذا ينطبق على أغلب قصصه التي تتناول علاقات حب غير شرعية حيث تنتهي بالفشل، وهو ما يدل على البعد الأخلاقي والهادف للقصص.

وتتناول القصص في مجموعة (الجسد والأبواب) لمحات مقتضبة وقصيرة عن حياة العامة ومتاعبهم وخاصة بعض الناشطين السياسيين من الشباب. وتصور كذلك مواقف مختلفة من حياة خباز وبائع السميطة وزبال وبائع النفط وعامل البناء وصباغ الأحذية... الخ. ويظهر القاص تعاطفاً مميّزاً مع هذه الفئات المظلومة، نظراً لأنها تكدر من أجل لقمة عيش شريفة، لكن أغلبهم يصطدمون مع جشع وطمع الأرستقراطيين الأغنياء. والكاتب يمرر رسالة فحواها أن الإنسان لا يقاس إطلاقاً بطبيعة عمله بل من خلال حسن معاملته للآخرين، بغض النظر عن المال الذي يمتلكه. ويشير كذلك إلى حقيقة أن الإنسان يمكن أن يكون قاسياً وأنانياً إلى درجة يفقد معها إنسانيته التي تميزه. وهناك محور قوي في قصصه ألا وهو الصراع الطبقي بين الأرستقراطيين وطبقة الكادحين. والقاص يؤكد دوماً على دناءة الأغنياء لأنهم يسحقون الآخرين ويتحكمون بحيواتهم. حيث يتناول القاص مسألة الظلم في المجتمع وبالأخص ضد الفقراء الجهلة الذين لا يعرفون كيف يحصلون على حقوقهم الأساسية. وعلاوة على ذلك، يعرض خالد الراوي صوراً سينمائية من حيوات المضطهدين السياسيين ولو كانت متقطعة وقصيرة، لكنها تعبر عن معاناة إنسانية حقيقية. ويمكن بوضوح رؤية التفسير الماركسي للأدب عند القاص الذي يميز بين الكتاب البرجوازيين والاشتراكيين الثوريين الذين يريدون تغيير وهدم كل الأصنام القديمة والعادات الرجعية من خلال أدب اشتراكي عربي يؤمل منه أن يصل إلى مصاف الأدب العالمي. ولقد وصف أهمية الأدب في الحياة العامة والسياسية بالكلمات التالية: "إن بعض مهمة الأدب... يمكن أن يشار إليها بإسهامها بجد وصدق بترويض الثورة والدعوة لها.. وبث المفاهيم الاشتراكية وما ينبع منها من معتقدات وأخلاقيات وغرزها في طبيعة البشر.. مع احتفاظها بالطليعة في إنجاح معارك التحرر

والبناء.. مع اتصالها الكامل بالإنسان بداية ونتيجة".¹ لم يكن خالد الراوي مقتنعاً تماماً بنتائج الأقصوصة العراقية خصوصاً والعربية عموماً لأنها كانت مرتبطة بمرحلة رجعية عانت فيها الأمة الكثير وأثرت، تبعاً، على مستوى الكتابات السابقة. يقول القاص في هذا الخصوص:

إن الأديب الذي يعيش في رقعة مكانية معلومة تحكمها شرائع معينة وتحوطها عادات وروابط يكون ابن تلك الأجواء. فعندما يمنح وجوده الأدبي الحياة يستمد ما يعينه على الحياة والانطلاق من تلك البيئة.. فهو يرصد التحركات والغرائز والكوامن ويرصد المحيط العام.. ومن خلال عمق التقاطه لتلك الأشياء يستطيع بذلك العمق ذاته تفريغ إكسائه الشخصي لمحتوى تلك الأشياء.. وكلما كانت معاناته متفاعلة كان العطاء أنضج وأفضل.. ونخلص إلى أن الأدب للشعب هو الذي يكون من الناس وينتهي إليهم.. ومن سمات الأدب الاشتراكي أن علاقته التامة بالإنسان والعلاقات الإنسانية هما الجدولان اللذان يعترف منهما الأديب معينه.. والإنسان هو قمة الموجودات في العالم وهو الملتقي الأول والأخير للأدب لذا ينبغي البحث في مجاهيله وكوامنه وإسبار علاقاته مع الناس ليتمكن هذا - الإنسان - من العثور على نفسه التامة.²

ولهذا، وبسبب حسه الوطني والقومي العالي، ركز القاص على ربط نفسه بالواقع لكي يعكس أدباً محدثاً وهادفاً، لكونه عاش مرحلة مضطربة. وفي جوابه عن تصوير معاناة الثوريين في قصصه، يقول خالد الراوي:

أنا موجود ضمن أرض محددة لها حدود معلومة وتهب عليها رياح ذات روائح وألوان مميزة. فوجودي هذا أباح لي تقدير المسافة والأنواء والعوامل المؤثرة في الحياة على تلك الأرض. لقد مر معظم الشباب العراقي بتجارب سياسية، سواء حزبية أو لا منتمية. ولخلل في المسار التاريخي حصلت التباسات كثيرة وانكسارات متعددة قذفت بالفاعل السياسي إلى خارج الفعل وجردته تماماً من ديناميكيته لقد كبر الطفل وهو مصبوب في قالب سياسي. كبر بلا طفولة، بلا مراهقة، بلا عبث، بلا أحلام. كبر ورأسه يدوي

1 خالد حبيب الراوي، "الأدب والثورة العربية"، جريدة صوت العرب، العدد 183، 28-1966.

2 خالد حبيب الراوي، "علامات الخلاص والأدب العربي الحديث"، جريدة صوت العرب، 8-1966.

بالشعارات ومقولات الثورة، ثم اكتشف فجأة أنه وحيد، الآخرون انسحبوا أو اختفوا أو صاروا جلادين يلاحقونه فأية مرارة تملأ فمه ورأسه وقلبه بعد ذلك. والغريب أن ثورة 14 تموز بدأت كبيرة ثم بدأت تصغر مباشرة بعد انبثاقها، إن المرارة ومحاولة الجنون للبقاء في النظافة واليأس مع الأمل في الثورة هي التي دفعت إلى ارتباك النموذج الفعلي، إن التملص من الأرض أو من الإنسان الذي فيها هو سقوط في الفراغ وهو الحاجز الذي تتجاربه عليه الادعاءات والحذقات والثقافات الموهومة، إن معاناة العيش ضمن التجارب مع قدرة كشفها ضمن وعي عصري شامل هو الذي يخلق الأدب الحقيقي. أما قدرة فرز نماذج تجريدية منفصلة فلا يحمل دلالة ابتسار وعي الكاتب المحمل بمقدمات رنانة.

وعلاوة على ذلك، يتناول الكثير من القصص الرعب الذي ينتاب الشخصيات جراء مواجهتها الموت سواء داخل السجن أو في جبهة القتال أو الحياة العامة. أما معاناة السجن، فهو هاجس دائم اعتاد الكاتب تكراره كأنه كابوس يطبق على شخصياته، يشعر الكاتب أن الإنسان يضحي معزولاً وضعيفاً وفاقداً لإنسانيته في الزنزانة، لذلك ركز مراراً على هذه التجربة الإنسانية من أجل إيصال الشعور بالألم والمرارة التي تنتاب السجين. في مقابلة صحفية مع خالد الراوي عام 1969 وصف العالم العربي بأنه يحوي "نظماً جافة متركمة. الإنسان فيها صفر، لا يملك حق جسده وفكره. إنه مطارد للنهائية. لا يدري ماذا تخبئ له خطواته القادمة وعبر سنوات كثيرة امتصت الإنسان حتى عظامه. هذا الهول الإنساني أكبر وأكبر من أية قصة كتبت حتى الآن.. والقصة عندنا كما طرحنا تبدو خالية تماماً من الأرضية العراقية الحقيقية..."¹ وقد شخّص القاص الحالة السياسية المتردية للعالم العربي عموماً التي تنعكس دوماً على الإنسان الذي يضحي مسحوقاً وممزقاً نتيجة الاضطهاد والدكتاتورية، قائلاً: "إن تألق أي أدب.. هو ارتباطه بقضية ما... فكيف نطلب من كاتب كان يعيش في بلد يخشى إنسانه من ظله، وهو لا يأمل البقاء حياً في خطوة تالية، ويمسح في كل صباح أمطار الدم التي تملأ

1 بلا مؤلف، "حوار مع القاص خالد الراوي"، مجلة وعي العمال، السنة الرابعة، العدد 57، 1 حزيران 1970.

2 أسامة الصالح، "الجديد في القصة العراقية: الإنسان صفر ولا يملك حق فكره وجسده"، مجلة الأسبوع العربي، العدد 520، 26 أيار، 1969.

باحات حياته والتي كانت تنفجر في كل ثانية..كيف نطلب منهم ذلك ورؤيتهم كانت ابتسامة أو بصقة امرأة.. أو يعيشون شبه ذلك.. إن إنسان العصر الذي يبحث عن حريته الجسدية والمطلقة في شكلها الوجودي أو العقائدي.. أو الإنسان الفوضوي الذي يبقى تهديم كل شيء..هو الإنسان الذي افتقدناه..وهو وقضيته يشكلان الكتابة العصرية.."¹

ومن الموضوعات المتكررة في قصصه هي العلاقات الإنسانية المعقدة وخيانة الحبيبة والعلاقات الزوجية المتفككة، نجدها مثلاً في قصة (المعادلة) في مجموعة (القناع) وقصة (الانزلاق) في مجموعة (الجسد والأبواب) التي تتناول قصة امرأة أرادت خيانة زوجها، لكنها غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة.

في المجموعة الثانية (القناع)، يركز الكاتب على موضوع الشخصية في صراعاتها النفسية مع الذات والآخر. ويشير العنوان إلى أن الناس يرتدون أقنعة في تصرفاتهم مع الآخرين وحتى مع أنفسهم. وهذا الزيف الذي بدأ ينتشر ويعم بين الناس وبالأخص الأدباء هو من أكثر القضايا التي ينتقدوها الكاتب. يقول خالد الراوي في مقالته "هموم القصة القصيرة" إن بعض كتاب القصة القصيرة "يزيفون الكلمات ويكذبون حتى على أنفسهم..يكتبون عن الحب والجنس والرغبات الحارقة والضياح والابتذال المعنوي الخ.. وينسون أنهم على أرض.. إنهم في حقيقة.. حقيقة هائلة لا تنتهي.. إن الوطن سار في بحر مائج سنوات طوالاً وهم يكتبون وكأنهم كانوا نياماً أو مفقودين.. أهى غفلة أم تهرب؟ الجواب هو تهرب.. تهرب من وضعية خطيرة.. لا يستطيع لمسها إلا من يملكون إيمان المتعصبين وتضحية الأبطال الخرافيين.. هذا التهرب مقصود ويدخل الخوف عظامهم من محاولة الاقتراب لأنهم ما إن يقفوا حتى تصفعهم الريح وتنتزع تركيزاتهم وأذهانهم.. إنهم ينتمون إلى جيل الحكائيين المستهلكين الذين لم يعرفوا ما المراد من القصة القصيرة.. إن هؤلاء الناس الذين تستلب عقولهم فتيات حسناوات أو الكتابيين لأسمائهم أو الموسرين الذين يتسلون بالكتابة القول ينطبق عليهم.. إنهم الهزيمة التي تعيشها القصة في هذا البلد..إنهم يكتبون عن أفكار ومضامين دخل فيها آلاف المرات منذ مئات السنين..إنهم الشيخوخة التي تتعفن في هذا الزمن.. القصة القصيرة يا سادة ليست لعبة وليست سلماً لمضاجعة امرأة وليست تسلية..إنني

1 خالد حبيب الراوي، "صفحة المحرر"، مجلة وعي العمال، العدد 13، 7 تموز 1969.

أررد مع أحد النقاد العراقيين - إن كتابنا يبدأون من بداية البداية.. وما دامت النتيجة موحشة منهاره.. فلن يفيد هؤلاء الناس النصح ولا الإنذارات ما داموا يستمرئون الرقص على غباء بعض البشر..¹

وتميل الكثير من القصص الى السخرية من الذين يدعون ماليس لهم أو من الذين يلبسون الأقنعة في تصرفاتهم. ويستهن القاص بشدة الادعاء والكذب داعياً الناس لأن يتصرفوا حسب طبيعتهم رافضاً في الوقت نفسه التطبيقية في المجتمع. والدلالة الأخرى للعنوان (القناع) هو أن الرمزية اللغوية لهذه المجموعة ما هي إلا قناع يستخدمه الكاتب لكي يستدل القارئ على رسائله بشكل غير مباشر. وبشكل عام، هنالك نظرة سوداوية متشائمة نوعاً ما في القصص، يعود جزء منها الى الواقع المرير الذي عاشه مع جيله، وجزء آخر يعود الى وجهة النظر الشخصية للكاتب تجاه الآخرين.

وتنبثق رؤية خالد الراوي من فلسفة وجودية متمثلة في تصوير الإنسان الذي يكافح في حياته محاولاً التخلص والتخلص من حتمية المعاناة والألم. وتأتي هذه النظرة من الواقع الذي كان يعيش فيه القاص وخاصة في نهاية الخمسينات والستينات التي اتسمت بانتشار مفاهيم فلسفية وثقافية جديدة على الواقع العربي. وهو يتساءل على لسان إحدى شخصياته: "لماذا يولد الإنسان ليموت؟"²

وتنحو بعض القصص الى الخيال معتمدة على التحول الكيوني للشخصيات بما يسمى بالميتامورفوسس. ويشير القاص هنا الى عبثية الوجود ورؤية سريالية نحو الإنسان جاعلاً بعض قصصه أشبه بسرد أحلام ذات دلالات رمزية غير خالية من حس فكاهي. يقول الناقد عباس الجبوري إن خالد الراوي وهو "أكثر غزارة في كتابة" القصة القصيرة جداً من بين أبناء جيله، حيث "تجد عالماً فنتازياً تختلط به أجواء كافكا وكامو وسارتر الضبابية، (و) تتمسرح في قصصه شخصيات انطوائية وسوداوية قائمة تذكرنا بميرسو

1 خالد حبيب الراوي، "هموم القصة القصيرة"، جريدة الجمهورية، 21 تشرين الأول 1966.

2 خالد حبيب الراوي، "الجدار وزهور البحر"، في مجموعة الجسد والأبواب، النجف: مطبعة الغري الحديثة، 1969، صفحة 26.

الغريب، وبطل الغثيان والمسخ، والقصر.. ثم تبرز من خلال القصص علامات فكرية تجرنا إلى التمرد والوجود واللامعقول، (كولن ولسن)*. وفي مجموعته الثالثة (القطار الليلي)، غير خالد الراوي أسلوبه اللغوي والقصصي بعض الشيء، حيث أصبحت اللغة أسهل وقل استخدامه للرموز والأسلوب البلاغي. على الرغم من هذا، حافظ القاص على موضوعاته المعتادة ومنها معاناة السجين والقضية الفلسطينية وتصوير حياة الفدائيين الذين يقاتلون من أجل تحرير وطنهم المحتل. وحتى أسماء الشخصيات قلما تكون كاملة، إنما على الأغلب يرمز لها القاص بحرف واحد، للإشارة إلى أن ليس لها كينونات ثابتة ولا تشعر بإنسانيتها وهي ممثلة بالتالي لإنسان العصر الحديث. وفي هذا المنحى التجديدي، يقول الناقد فوزي كريم إن خالد الراوي يملك "المنهاج الشعري-الإنشائي وهو يبتعد ما وسعه عن الاسترسال ويلتجئ إلى ملاحقة الحدث والأبطال بلفظات سريعة"¹.

وتبين مجموعة (العيون) 1977 تأثير ناتالي ساروت أكثر من غيرها، وهي لا تتعامل مع شخص محدّد بل نماذج من شخص. ويشير القاص هنا إلى أن الأحداث المقتضبة التي يتناولها في قصصه قد تحدث لأي شخص في أي زمان، حيث يكون التركيز على الموقف أكثر من الشخصية. فقصّة (النافذة) على سبيل المثال، تعد لوحة فنية انطباعية بحد ذاتها.

الأدب الملتزم : والقضية الفلسطينية

تنبثق رؤية خالد الراوي من الواقع الذي كان يعيشه، فقد اعتاد انتقاد الاتجاهات الأدبية السائدة في وقته والكتاب الذين يفلدون الغرب من أجل التقليد فقط بدون وجود الهدفية. وقد ركز على أهمية الصدق والانفتاح في الكتابات النقدية، لأنه يشعر أن للكاتب مهمة أخلاقية ومسؤولية اجتماعية تمليها عليه ظروف محيطه، فهو يقول: "إن الأدب والسياسة محركان يدفع

1 عباس الجبوري، "مدخل دراسة (القصّة القصيرة جدا)"، مجلة الطليعة الأدبية، العدد 5-6، أيار وحزيران 1976، صفحة 31.

2 فوزي كريم، من الغربية حتى وعي الغربية، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1972، صفحة 242.

أحدهما الآخر حيويته فيمنحه البقاء الحقيقي".* وقد مر الوطن العربي في فترة الستينات بالأخص بمرحلة عصيبة شهدت انتكاسة حزيران 1967، التي تركت جرحاً عميقاً عند أبناء الجيل الملتزم في وقتها، حيث خلقت الانتكاسات الحربية للعرب واقعاً مريراً ومؤلماً عند الأجيال الشابة الواعية التي أرادت النهوض ثورياً بهذا الواقع. وبشكل عام، امتازت هذه الكتابات بالحدية والجدية المفرطة، وقد اشتمل نقد خالد الراوي على الأدب بأنواعه والفن وحتى بعض الممارسات الاجتماعية الخاطئة.

بعد انضمام خالد إلى اللجنة الإعلامية للجهبة الشعبية لتحرير فلسطين، كان يكلف بالذهاب إلى بيروت وعمان ودمشق في مهمات خاصة. ويذكر أنه اعتاد السفر بأسماء وهمية كجزء من التمويه وقد دون بعض تجاربه التي أغناها السفر في قصتي (مياه) و (الحدقة) في مجموعة (القتاع) وقصة (القوس) في مجموعة (القطار الليلي). وظلت المسألة الفلسطينية من الموضوعات التي انشغل بها في كتاباته وحياته. يذكر خالد الراوي عن دور الأديب في القضية الفلسطينية:

النهر الجديد الذي اكتشفه الكتاب العرب بعد 5 حزيران.. هو دور الأديب العربي في المعركة وأدب ما بعد حزيران.. وصار الكل يرمون بهذا النهر تخطيطاتهم وإبداعاتهم الفكرية الكلامية وتصوراتهم للأدب السحري الجديد وإبعاده! كان الأدب إختراع وليس حياة.. وغير جديد الاستنتاج أن النكسة الحزيرية امتداد لانفصال فلسطين عام 1948.. وإن ذات الأسباب- وإن اختلفت نسبياً- كانت منتجة للخسارة.. إن فلسطين- من خلال الأدب البرجوازي الزائف- كانت حلماً للشعراء الذين يتغنون ببرئالها ولبيومنها ويرثون لخيامها.. وصار الصهاينة محطات للعنة والتهديدات بأسوأ المصائر... بهذه العاطفة الحمقاء بهذا السعي الساذج، هكذا كان يواجه الأدب البرجوازي تلاقي وتفاعل الجماهير العربية المدعوة والمخدرة بقضية فلسطين. فخلال الكثير من السنوات.. طرحت مئات الآلاف من القصائد والموضوعات عن فلسطين.. واكتشفنا زيفها وبطلانها كلها في حزيران.. لأنها كانت خالية من الصدق والشجاعة والأصالة.. إن الحرب هي القوة والستراتيج

1 خالد حبيب الراوي، "تموز القاتل"، جريدة الثورة العربية، العدد 301، 16 تموز 1965.

والسرعة..والشعر العربي هو الشعر العربي: شباك نصطاد بها أنفسنا..إن المسألة الأساسية التي أريد توضيحها..أن الأديب الأصيل لا يمكن بأي حال أن يكتب عن قضية ما إلا من خلال انفعاله الداخلي بها.. وتكون عملية ربط الوعي بالإحساس هو النور النقي في ولادة الأدب الحقيقي..أما أن يقف الكتاب ويتحدثوا عن دور الأدب في المعركة..فهذا هو البؤس الذي نرفضه- أين كانوا خلال عشرين سنة من المعركة!!-..إنهم ممثلون زاحفون من الطين البرجوازي الذي كنا غرقى إلى أعناقنا فيه..

-إلى الأديباء- انكم تحدثون دور الأديب في المعركة..فأين دوركم الأدبي في المعركة!! إن النغمات الفجائية الفقاعية تبقى رنيناً مملاً مزعجاً.. إنها تدين -الإبداعات- التي تطلقها..إنها سقوط الجيل الأدبي القديم..أنه موته النهائي في هذا العصر..إن الأديب إنسان يملك من الحساسية والقدرة على التشخيص ما يفوق به غيره من الحرفيين..لذا فهو يعيش الحرب والنكسة والأمل والثورة كجزء منها..كفرد يتلقى ويعطي، وهو مرصود ومتحفظ..وعند الضرورة يحمل السلاح ليقاتل.. ومن هذه الأرضية يكون الأديب الحقيقي الذي يعيش دوره.. لا أن يكتب عن فلسطين ليقال عنه أنه ملتزم أو يشارك- بشعوره!!- في الأحداث التي تقع هناك!! إن عصر الوعي الحقيقي ابتدأ.. وكل عريات التزييف والاستغلال التي كانت تحمل الأدب لشعبنا العربي خلال المئات من السنين سيجرقها الشباب..الذين تولد الثورة من دمائهم وتنمو بهم..

ويخطئ الناقد رزاق إبراهيم حسن في وصف القاص خالد الراوي بأنه "يهمل الكثير من المعطيات المتوفرة في الشخصية، كما يعزلها عن الواقع الاجتماعي والسياسي، ويجعلها في مواجهة نفسها فقط".¹ ربما احتوت بعض القصص على تحليل نفسي مجرد لبعض الشخصيات، لكن ظلت القضايا المصيرية في مخيلة الكاتب تشغل همه وفكره كلياً وانعكست على شخصياته التي رسمها. يقول خالد الراوي في مقابلة صحفية إن "في جميع كتاباتي كنت

1 خالد حبيب الراوي، 'دور الأديب'، مجلة الشباب، العدد 12، حزيران 1969، صفحة 35.

2 رزاق إبراهيم حسن، الشخصية المعالية في القصة العراقية، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1977، صفحة 111.

أعبر عن نضال الإنسان وبحثه عن الحرية وقيمه الوطنية..¹ وهو يأمل بخلق أدب قومي له أهدافه المتمثلة بخلق وعي عند الشباب يتعلق بالقضايا المصيرية، وهو يقول: "إن الأدب الحقيقي في البلاد العربية نما بطيئاً كالأشجار ولذا فمسؤولية الشباب عسيرة لخلق أدب قومي - عالمي ولم يكشف النشر حتى الآن عن انطلاقة عظيمة".² وبكلمات أخرى، ينجح الأدب إذا ربط الإنسان بتاريخه وثقافته ودينه وهمومه، لكنه يضحى أدباً سلبياً، كما يشير إليه القاص، إذا كان "غايته تشويه العلاقة بين الإنسان والمحيط الخارجي لذاته"، ويضحى هنا "أدب مخرب.. مهما كانت روعة الأسلوب وفنية العبارات التي صيغ بها".³ لكنه كان يعتقد بوجود مؤامرة كبيرة من أجل محاربة أي أدب قومي هادف، لتثني الجماهير عن مواصلة نضالها أو حتى تعميق الوعي بهذا النضال. ففي مقابلة مع الأدبية المصرية صافيناز كاظم نشرت في مجلة الف باء، طرح السؤال التالي: "ما مدى صحة ما يقال من أن الأدب العراقي أو الأدب العربي بصورة عامة مهمل بقصد مسيق؟ فقالت بدهشة: كيف؟ هل هذا كلام خالد الراوي؟"⁴

وتجدر الإشارة إلى أن القاص كانت له حساسية مفرطة تجاه قضايا الوطن جعلته يعكف في بداية السبعينات وما تلاها عن التفكير في المشاركة الفعالة في الحياة السياسية نظراً إلى خيبات الأمل الكثيرة والأنظمة القمعية التي لا ترحم. لهذا فضل الصمت كردة فعل طبيعية نحو الفساد الحكومي والمصائب التي ابتليت بها الشعوب العربية، وابتأت الأنظمة الدكتاتورية الناجي الوحيد بفضل الظلم والإجحاف الذي مارسه.

- 1 الرحماني، لقاء مع د. خالد الراوي، "جريدة العراق، العدد 3466، 15 حزيران 1987.
- 2 حوار مع القاص خالد الراوي، "مجلة وعي العمال، السنة الرابعة، العدد 57، 1 حزيران 1970.
- 3 خالد حبيب الراوي، "السلبية والأدب المعاصر"، جريدة فتي العرب، العدد 2888، 28 آذار 1966.
- 4 صادق الصائغ، لقاء مع صافي ناز كاظم، ملحق الف باء، العدد (41)، 1969/4/16.
- 5 لمزيد من البحوث والدراسات النقدية التي تناولت القاص خالد الراوي، أنظر يوسف الحيدري، "الجسد والأبواب"، مجلة العلوم، العدد 8، آب 1969، صفحة 65-66 و حسب الله يحيى، "أبواب الراوي المفتوحة"، جريدة الجمهورية (العدد الأسبوعي)،

العدد 437، 10 مايس 1969 وعباس البدرى، "ملاحظات عن الجسد والأبواب"، مجلة العمل الشعبي، العدد 11، 16 نيسان 1969، صفحة 33 و حامد الهييتى، 'وجوه في الجسد والأبواب،' جريدة الجمهورية (العدد الأسبوعي)، العدد 409، 12 نيسان 1969، صفحة 14 و شريف الربيعي، "خالد الراوي.. العلاقة والتجربة"، مجلة الإذاعة والتلفزيون، العدد 7، نيسان 1969، صفحة 27 و شريف الربيعي، 'تحو بطل ثوري.. دون (قتاع)', "مجلة الهدف (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، السنة الثانية، العدد 60، 19 أيلول 1970 و حامد الهييتى، 'عن القناع.. ورعب الوجه المخدوع،' جريدة الجمهورية، 1971/1/15 و موسى كريدي، 'كتب عراقية صدرت،' مجلة المثقف العربي، أيلول وتشرين أول 1971، صفحة 164 و أنور القسائي 'دراسة في أمراض القصة العراقية القصيرة: من أجل إعادة علاقة القصة بالواقع' مجلة الأقلام، العدد الخامس، حزيران 1971 و أحمد فياض المفرجي 'مصادر دراسة القصة القصيرة في العراق' مجلة الأقلام، العدد الأول، 1972 و جهاد مجيد 'محاولة في الكشف عن القصة العراقية' مجلة الأقلام، العدد الرابع، 1972 و فاضل ثامر وياسين النصير، 'محاولة في الكشف عن واقع القصة العراقية' مجلة الأقلام، العدد الثامن، 1972 وياسم عبد الحميد حمودي، "هذه القصة العراقية القصيرة جدا"، جريدة الجمهورية، العدد 2014، 9 مايس 1974 و غالب هلسا، 'القصة في شهر،' مجلة الف باء، العدد 472، 5 تشرين الأول، 1977 و بلا مؤلف، 'العيون،' جريدة الثورة، العدد 2827، صفحة 6، 16/10/1977 و سلام كاظم، 'العيون ولماذا القصة القصيرة جدا...؟' جريدة الثورة، العدد 2819، 6/10/1977، صفحة 6 و يوسف نمر ذياب، 'العيون،' جريدة الجمهورية، العدد 3082، 7/10/1977، صفحة 6 ونقيسة محمد قنديل، 'العيون' مجلة الأقلام، العدد الرابع، السنة الثالثة، كانون الثاني 1978، صفحة 146-149 و علي عبد الحسين مخيف، 'العيون' مجلة الأقلام، العدد الحادي عشر، آب 1978، صفحة 125-129 و باسم عبد الحميد حمودي، 'القصة العراقية القصيرة في زمن الثورة: الثورة حنما.. الثورة واقعا،' جريدة الجمهورية، العدد 8525، 26 تموز 1993 وشكيب كاظم سعودي، 'حديث عن القصة القصيرة جدا،' جريدة العرب الدولية، العدد (6121)، 18/4/2001 و أحمد خالد الراوي، 'خالد حبيب الراوي: رائد القصة القصيرة جدا في العراق،' الأطروحة، الجامعة المستنصرية، كلية المعلمين، العدد الأول، السنة الأولى، آب 2002، صفحة 32...الخ.

خالد حبيب علي الراوي في سِطور

- ولد في بغداد في 1944/5/26
- نشر أول مقال له عام 1962 في جريدة الأخبار
- أكمل دراسته في إعدادية الأعظمية للبنين عام 1963
- دخل كلية الحقوق/ جامعة بغداد وتخرج فيها عام 1967
- سافر الى مصر ودرس الدبلوم العالي في التشريع الضريبي في كلية الحقوق/ جامعة القاهرة عام 1967 وعمل حينها مراسلاً لعدة جرائد ومجلات عراقية.
- رجع الى العراق عام 1969 وعمل محرراً في مجلة الشباب وسكرتيراً تحرير مجلة العلم والحياة التابعتين لوزارة رعاية الشباب
- عمل مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مسؤولاً عن الأبواب الأدبية لمجلة الهدف عام 1969 وسافر الى العديد من البلدان العربية بأسماء مستعارة لهذا الغرض من بينها الأردن ولبنان وسوريا
- عمل مديراً لقسم الإعلام والوثائق والترجمة والنشر في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي عام 1971
- سافر الى بريطانيا من أجل دراسة الدكتوراه في الإعلام عام 1978 من جامعة كيبل وكتب أطروحته عن "التلفزيون والتنمية في العراق"
- عمل مراسلاً ثقافياً لجريدة الجمهورية عام 1979 في بريطانيا
- أنهى دراسته للدكتوراه عام 1983، وبعد حصوله على الشهادة رجع الى العراق
- عين في قسم الإعلام/ جامعة بغداد عام 1983 وترأس القسم أول مرة ما بين عامي 1987-1989 وأكثر من مرة
- ترأس تحرير جريدة (الإعلام) لأكثر من مرة
- حصل على لقب الأستاذية (بروفسور) عام 1993 ليصبح أول عراقي يحمل هذه الدرجة العلمية في الإعلام بعد أكثر من ربع قرن من تأسيس قسم الإعلام عام 1964
- رشح لنيل لقب عالم عام 1993 المشمول ضمن قانون رعاية العلماء، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
- توفي في بغداد في 1999/4/6

من مؤلفاته

- الجسد والأبواب، قصص (1969)
- القناع، قصص (1970)
- منطلقات في الصحافة العراقية (1972)
- اساليب الدعاية الأمبريالية (1973)
- القطار الليلي، قصص (1974)
- من تاريخ الصحافة العراقية (1977)
- العيون، قصص (1977)
- الأشاعات حرب خفية (1986)
- تاريخ الإذاعة والتلفزيون (1991)
- الصحافة العربية في بلدان المهجر (مشاركة) الجزء الثالث - الموسوعة الصحفية العربية (1991)
- موسوعة إعلام العرب (مشاركة) الجزء الأول - بيت الحكمة (2000)
- وسائل الإعلام في العراق (غير منشور)
- تاريخ الصحافة العراقية (غير منشور)
- الدعاية الأجنبية الموجهة الى الوطن العربي (غير منشور)
- كتب في السبعينات العديد من التمثيليات التلفزيونية التي عالج فيها بعض المشكلات الاجتماعية في العراق. وقد جرى إنتاجها وعرضها على شاشة تلفزيون العراق مثل خيط العنكبوت، الدهاليز، طفيلي الدوائر، دائرة أصولية، أبواب وشوارع وغيرها.
- له أكثر من خمسين بحثاً منشوراً في دوريات ومجلات متخصصة متعلقة بالإعلام وتاريخ العراق الحديث.

من إنجازاته

- اشترك في العشرات من المؤتمرات العلمية المتخصصة في داخل العراق واحداً في جامعة العين في دولة الإمارات العربية المتحدة عام 1984.
- أشرف على عشرات طلاب الماجستير والدكتوراه وناقش الكثير من الرسائل الجامعية في مجال الإعلام والتاريخ والفنون.
- هو عضو نقابة المحامين والاتحاد العام للكتاب والأدباء في العراق ونقابة المعلمين ونقابة الصحفيين العراقيين ونقابة المحامين العراقيين.

الجسد والأبواب*

* نشرت هذه المجموعة في عام 1969، مطبعة الغري الحديثة ، النجف .

المرصاص: البيوت

بيست القرية فجأة : الأبواب موصدة، والشبابيك محكمة الاغلاق.
توقف الرجل الغريب وسط الشارع الخاوي ومد عينيه في الهدوء.
كان قد ترك المدينة الكبيرة هارباً من رجال الشرطة.. انه مطلوب - يزعمهم
- لاخلاله بالامن : سياسي مناوي..
تساءل وهو يرفع عنقه الى الشمس المنحسرة على السطوح ماذا حدث؟
وتقدم الى باب قديم يعرفه وقرعه..
رنين وحشي.
ورجع خطوة.
ثمّة ريح تتسكب في الدروب بروية.
دفع الباب بكفه، وتقدم نحو الشباك الخشبي ودفعه.
ثم اقترب من الباب ثانية وصاح:
- عزيز.. عزيز..
وتناهت اليه من نواح نائية إطلاقات نارية..
عاد هذه المرة بتصميم لدق الباب، لكنه انحنى بغتة الى الثقب وسطح نظره..
لم يبصر شيئاً.. لكن ظلمة ما انسحبت من الجهة الأخرى، فتكشف جوف
البيت، ان شخصاً ما كان ينظر اليه.
اعتدل وهو يهتف:
- انا محمد.. افتحوا..
حذق في العجوز الواقفة في فتحة الباب ودفع لها يده.
- كيف انت يا عمتي..
وضعت العجوز كفها الضئيل في يده..
- ليس على ما يرام يا ولدي
- هل حدث أمر سيء؟
- انقطعت اخبار ابني.. كان يزورنا خلصة في الليل.. اما الآن، وهزت
رأسها:

* نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة العمل الشعبي، 2 شباط 1969، العدد الثامن.

- فلا
- غمرها بالطمأنينة وهو يتقدم في الداخل:
- انه بخير.. سمعت احد الوافدين من هناك يتحدث عنه قبل يومين.
- تمتمت العجوز خلفه.
- الحمد لله..
- وقف الرجل على باب الغرفة الداخلية وحملق في العجوز متسائلا : كانت امرأة جالسة في الزاوية تتفحصه وطفل صغير أسند رأسه على ساقها.
- كشفتها العجوز:
- انها جارتنا.. قتل زوجها في الجبل، ولم يبق لها احد فجاءت معي.
- طرح الرجل دخوله، الى وجهها الحلو - بود. وقال وهو يجلس على الأرض
- قبالتها..
- هل انت بخير؟
- ثلث المرأة كلمات شكر غامضة..
- التفت الرجل الى العجوز:
- ما بال القرية مقفلة؟
- منذ أيام ورجال مجهولون يأتون من السهل، يقتحمون القرية وينهبون، ثم يفرون الى السهل.
- اندهش حائقا.
- والرجال هنا.. ماذا يفعلون.. ألم يبق أحد منهم؟
- هزت العجوز رأسها نفيا.
- كانت الظلمة تثقل في الخارج.
- طلب الى العجوز:
- هل أضىء الفانوس؟
- نفرت العجوز هابة:
- لا.. لا.. لا نريد ان يكتشف أولئك الرجال ان بيتنا حي.. سنتناول طعامنا في الظلمة.
- وفتحت قدرا نحاسيا كبيرا، ناولته رغيفا وتفاحة:
- أعطها لها.
- وقدمت المرأة المنزوية جذعها اليه.

ثم أخذ حصته.

أسند ظهره الى الحائط وهو يقضم التفاحة، نظر بعينين نصف مغمضتين الى المرأة المنكمشة، ولحظها عبر جفنيه المنكسرين تلمسه بعينيها.

طفر من حلقه السؤال.

- منذ كم مات زوجك؟

وفتح عينيه بكاملهما في وجهها.

أجابته العجوز:

- منذ خمسة أشهر.

انه يقيس المدة:

- زمن طويل..

وأغمض عينيه ثانية:

(متوحدة في جبل الموت)

لن تشرق شمس ما في غدها).

سعل الصبي مرتين طويلتين - هتفت العجوز:

- اذهبي به الى فراشه - وسألحق بك - اما انت فسأجيء لك بفراش.

نهضت المرأة وتدلى الطفل وهما تعبران قرب قدمه.

: (السلاح في الاكتاف)

والدم يبحث عن الدم)

أسقطت العجوز فراشا مطويا بجانبه:

مد ذراعيه.

- اتركه.. انا سأرتبه.

ووضع في أذنها قبل أن تخرج:

- سأقيم هنا زمنا ثم ارتحل لأنظم الى الآخرين في الجبل.

وحين تغيب العجوز سحب الغطاء الى صدره ودفن يديه تحت رأسه.

الريح في الخارج تحمل معاطف الثلج للأرض : لا شرطة ولا سجن في هذه القرية النائية، انه الآن يهتم بسماع تنفسه حيث لم تعد عيناه تبصران قسرتيهما.

شدت أصابع متصلبة من الذعر زنده.

- محمد... محمد

كانت العجوز منحنية فوقه، والمرأة الأخرى وسط الغرفة:

- ألا تسمع؟
- شد جمجمته للأعلى متسمعا.
- لقد جاؤا.
- أتمت العجوز وهي تنسحب الى جانب المرأة.
- اقترب الضجيج من البيت وأصبح قرب الباب.
- همست العجوز : اش.
- ثم ابتعدت الخطوات تماماً عن البيت.
- سحبت العجوز نفساً طويلاً مرتجفاً.
- دوت أربع إطلاقات
- من السوء الحظ الذي كسر بابه.
- امتص الصمت وجوهم.
- ومرت أقدام كثيرة تركض خارج الباب، وصوت نسائي يصرخ مستجداً.
- حدقت العجوز بوجه الرجل.
- لقد نهبوا جسداً آخر، وربما هاجمونا غداً.
- بقي الثلاثة واقفين، وانحنى الرعب مغرقاً جسد القرية مرة أخرى، والرياح
- ما زالت تحمل معاطف الثلج للأرض والأحياء.

* * *

القطار الذي لن يعود

لم يبق على انطلاق القطار، الا دقائق ضئيلة ..
انتبه الرجل النحيف الذي يقف الى جانب القطار. رجل يتكئ على حائط
المحطة القديم يرمقه.
ومن جانب آخر تعلقت به انظار بائع يرتدي دشداشة مخططة على رأسه
حلقات من السميط.

تضخمت رهيته لتأخر المسافر الذي اتفق معه ..
تحرك بائع السميط وكاد يلامس الرجل النحيف راصدًا الحقيبة الصغيرة
التي تدلت من يده. ودفع ناحية صاحبه المتكئ على الحائط إشارة سريعة.
اعتدل المتكئ ببطء وفرك يديه.. تقدم خطوات ووضع كفه على ساعد
الرجل النحيف وقال بصوت خفيض.

- افتح الحقيبة.

أجابه النحيف.

- لن افتحها. من تكون حتى افتحها لك؟

طارت غمزة سريعة من عيني الشرطي السري مع كلماته المتدفقة
الخافتة.

- سارغمك على فتحها ان لم تفعل.

أنزل البائع سميطه. ووضع كتفه في ظهر الرجل همس:

- دعه يفتشها بهدوء.

تلقت النحيف في المحطة.

كان المسافرون ينتشرون فوق الرصيف متأثرين.

أراد أن يجد له منفذاً ليفر منه.

ضغطت أصابع الشرطي على القفل ومد يده.

أغمض النحيف عينيه.

وأخرج الشرطي طبقة من المنشورات السياسية.

قرأ اسم الحزب ثم أعادها الى الحقيبة وأغلقها.

علقها بيده اليسرى.

ثم خنق بأصابعه ساعد الرجل النحيف.

- تحرك.

انتبه اثنان او ثلاثة من الواقفين وتابعوهما بانظارهم وهما يخرجان من باب المحطة وبائع السميط يمشي خلفهما كالظل.

قال ضابط المخابرات وهو ينظر اليه مستخفاً:

- تفضل استرح.

ثم أشار الى الشرطي السري:

- اخرج.

كانا وحيدين في غرفة وسيطة تضيف العتمة الى أاثاتها الفاتمة نفورا كبيرا.. استطرد:

- الله بالخير.

لم يجب الرجل النحيف.. ظل متحفز العينين، منتبها في رعشته : في عبور الصرخات من الاقبية السرية باذنيه عندما جيء به.

سأل الضابط..

- من أعطاك المناشير؟

كان الرجل النحيف يستحضر ذهابه للمحطة حاملاً الفشرات لمسافر الى البصرة، وكانوا قد كلفوه بإيصالها له.. فنفذ الامر وانتظر قدوم ذلك المسافر فلم يأت.

ضحك الضابط وهو ينظر الى الحقيبة وقال واعداً:

- يبدو عليك انك شاب طيب، اذا أعلمتنا عن الذي سلمك المناشير نعفر عنك.

هربت عينا النحيف.

انفضض الضابط صارخاً:

- انا أعرفكم، لا تتكلمون، انكم تموتون هباء، أعطنا أسماء الذين تعرفهم في تنظيمكم.

رد النحيف:

- ليست لي علاقة بأي تنظيم.. الحقيبة عثرت عليها في الشارع.

دوت ضحكة الضابط الساخرة ثم صرخ بسخط:

- هذا كلام أطفال، ابحت عن غيره، سنخرج اعترافك من عظامك.

وضغط على جرس بجانبه ودخل الرجل الذي قبض على النحيل.

ابتكره الضابط :

- منذ متى تعرفه؟
- أجاب الطاريء:
- نحن نراقبه منذ زمن.
- تلا الضابط : ألم يكشف لنا المسافر الذي لم يحضر؟
- آه، أجل.
- انكم تكذبون.
- ابتسم الطاريء بقسوة :
- ستتهار كالرمل، وتفتح الأصداف العليا.
- كان الرجل منقوعاً بقسوة الصمود : والضحكات تتضاءل في أذنيه وهم ينحدرون به إلى القبو.

* * *

الحائط*

كان البيت بعيداً عن المدينة، قرب خط الحديد على الشمال الشرقي منها، لا تحيطك به سوى أرض صلعاء ينسكب فيها ظل طريق وكانت الشمس منتقخة ثقلي ذلك البيت اللامنتمي.

انسرب رجل نحيف الى الخارج حاملاً (علاقة) خوصية

بصوت رفيع انقذف من نافذة مفتوحة صرخت امرأة:

- كن يقطاً لئلا يسرقك تجار المدينة.

قهقهة بصوت متخشب:

- يسرقونني؟!

تسطحت على شاشة النافذة فملاكتها.

- سينهبونك وانت تنظر اليهم.

- لا تسبئي بي الظن.

تلا كلماته المخنوقة وهو يمسك بدراجة هوائية شد على مقودها العلاقة، ضرب مقعد الدراجة بكفه.

- وهذه الدراجة العظيمة، هل سرقت فيها. لا يحصل المرء على مثله الا نادراً. رخيصة كالهواء.

- ما زلت مرتابة ببائعها.

هدر بضحكة طبلية وهو يسحب الدراجة عن الحائط:

- انت ترتابين أبداً .

ثم ركب الدراجة ومشى.

مسحت بعينيها خط الحديد الباهت، ومن بعيد كانت المدينة، الدور، الاشجار، أعمدة النور والهاتف.

امتلات بالحنين:

الحدائق والصغار. وعلى كرسي منزو يجلس عاشقان.

وهناك الاقدام التي لا تقف، المدينة، المدينة.

ركزت في خط الحديد:

1 نشرت هذه القصة اول مرة تحت عنوان (جدار في الشمس)، في مجلة العاملون في النفط، 4 كانون الاول 1966، العدد 57.

.. منذ ستة أشهر بنوا المنزل واسكنونا ليقيموا مشروعا للدواجن، لكنهم لم يبدأوا، وإخالفهم لن يبدأوا أبداً، ونحن وحيدان، ان لقمة العيش تفرض إرادتها.

تضخمت كتلة المرأة في النافذة:

- هذا رجل يتعجل دراجته الى منزلنا، ترى ماذا يريد؟
- أوقف الرجل الغريب دراجته على صفحة الحائط، وتحنح. همست بقلق:
- لا أعرفه، ولم أره من قبل.
- اندفعت الى أذنها رنة طرقة.
- هتفت:

- نعم.

طرقتان أخريان.

اكتسحت هيأتها بنظرة وعدلت ثوبها.

اندفع الباب من الخارج مكتسحاً يدها الواهنة.

- السلام عليكم.

كنل من الصدا تعلو الصوت.

رجعت الى الوراء خطوة.

- أهلاً

- سمعت ان زوجك اشترى بالأمس دراجة.

أجابته ورعبتها يرتخي.

- أجل.

- كانت دراجتي، سرقها الصبي الذي يشتغل عندي.

وعندما قبضت عليه دلني الى هنا.

كلماته سقطت دون حنق.

ارتبكت المرأة

- سيعود ما دام الأمر هكذا فتأخذ دراجتك.

أرادت ان تبني جداراً:

- عندما أطل الصبي كانت عيناه تحومان. أمسكت بزوجي وقلت له : انه

مريب، لكنه رمقتي بغضب : دراجة بدينارين ادعها نفوت؟ وأخذ يقنعني، قد يكون محتاجاً للنقد، وان دراجتنا القديمة قد تهرأت.

كان الرجل يتابع فمها، ينفث وينغلق.
تقدم إليها.
ارتعشت اجفانها صرخت:
- ارجع.
وثب عليها انفجرت أصابعه في ذراعها وانفاسه تحرث اذنيها : لا أريد الدراجة.
تجمعت قواها في كوعها وضربت في أواسط صدره.
- وركضت الى الخارج.
ناداها الرجل.
- لن تنجي، اين تفرين؟
انغمست بجذور الشمس.
- اخرج، سيحضر زوجي، لا نريد زرع الشر.
التفتت الى الشمس كانت ناراً تلتهب في رأسها
وبدا من مسافة وسيطة من الجوف الشرقي ثلاثة فلاحين يسوق كل منهم حماره.
- تذهب في الحال والا ناديتهم.
قال - انتظري.
- لن انتظر، اذهب الآن.
- اني ذاهب
وتلكا قرب الباب الآخر منتظرا دخولها، الا ان الصوت دخل وحيدا-
أسرع.
ركب دراجته وابتعد، دخلت وأغلقت البابين، كنست ما تعلق بوجهها من عرق براحة يدها، واستندت الى النافذة تنظر.
كان الرجل قد توقف ثم استدار عائداً الى المنزل.
- انه مجنون.
سددت حنقها بنظرة غاضبة.
اقترب من النافذة ثم صرخ:
- خبري زوجك، سأحضر عصراً لاسترجع دراجتي.
لم تجبه، استدار وأضحى نقطة في الافق.

الكلب*

- كلب آخر ميت، رمقه بحيرة ثم أدار وجهه ويصق.
وعاد ينظره ويتفحصه.
رصاصتان : الأولى تحت الأذن والثانية في الصدر.
رفع يده من عربة القمامة وحك بأظافره جلدة رأسه.
كان الفم مفتوحاً منغرساً في التراب.
ركله فقلبه على ظهره ورجع الكلب يميل منقلباً الى الجهة ذاتها.
- من من هؤلاء المترفين قتله؟ لم يفتح اي باب حتى الآن. أخذ يدفعه
تحت الحائط، ثم توقف.
ماذا لو خرج الضابط البدين صاحب هذه الدار ورأى الكلب تحت
سور بيته، سيصرخ بي ان احمله والقيه بعيداً.
وسأجيبه باننا سنتخلص منه عندما تحضر سيارة القمامة.
دس يده في جيبه.
في الاسبوع الفائت وجد كلباً ميتاً قرب بابهِ فعلقه الضابط بالشتائم.
فسحب الكلب بصمت ورماه في شارع آخر، يتعهده زبال غيره.
وعندما دفع عربته كان الضابط يحدث جاره.
- هؤلاء المبيتون لا يعملون اذا لم تضربهم.
كركرت العجلات.
(لا يعملون الا بالضرب)
- زبال
ارتفع الصوت الفظ منادياً، استدأر، وامتألت عيناه بالضباب.
(ماذا يريد، الكلب ليس تحت حائطه)
- الا تسمع؟
هتف الضابط حيث انتصب بمنامته قرب حرف الباب:
- تأمر سيدي
همهم الزبال:
- تعال هنا

* نشرت هذه القصة اول مرة في جريدة المنار، 25 تشرين الاول 1965.

ارتعش :

يريد ان يصفعني ويركلني وربما يخبىء عصا ضخمة وراء الباب.
مد نظره في الشارع الطويل، وكانت امرأة مغطاة بعباءة سوداء آتية من
نهاية الشارع.

كان على استعداد للاستدارة هارباً عند أية حركة مفاجئة.
ارتد الضابط قليلاً واختفى جذعه خلف الباب.
تشنجت عينا الزبال.
(سيلتقط العصا)
تراجع خطوة.
- احمل هذه التتكة.
قد تكون خدعة. يريد ان ادخل فيغلق الباب ويضربني.
بل ربما رماني برصاصة.
- تعال، انك بطيء.
تقدم بحذر:
دفع رأسه وحدق في التتكة ثم دخل:
- هل انت ميت؟
طوى الضابط حديثه.
- ماذا؟ تصلب ظهره وبقي ممسكاً بالتتكة ومؤخرته النحيلة مرتفعة.
الا تقوى على رفعها؟
ثار الضابط.
سحب الزبال نفساً عميقاً - عبر مسرعاً وافرغها، ثم مر بجانبه ووضع
التتكة على الأرض بأناة واندفع الى الخارج.
سأله الضابط :

- في الليلة الفائتة كان هنا كلب؟
وأشار بيده الى مكان الكلب المقتول.
ردد الزبال - نعم.
شزره الضابط ثم تلفت ناحية حائطه.
كنت نازلاً من السيارة فهجم علي، ولم أجد بداً من قتله.
ابتعد الزبال نحو عربته.
رأيته يسقط أمامي ميتاً، أين ذهب؟

سلط عينيه .
- ذاك هو
أشار الزبال .
وبصوت تلجي بنى الضابط السؤال:
- لماذا ترميه هناك؟
هرع الزبال صوب الحائط وأمسك بذيل الكلب،
وسحبه بعنف.
ناداه الضابط - اين ستذهب به؟
لم يلتفت اليه.
وكان ثمة خط متعرج يتعري بين التراب خلفه.

* * *

الشاحنة*

اندفعت عربة النفط الخضراء التي يجرها حمار ضامر - مرتجة وهي تعبر السدة الترابية المقوسة وقد اعتلى طرف البرميل القابع عليها - فتى كالح الوجه.

قرع القطعة المدورة المثبتة بالخشبة، المعلق بها اللجام، بقضيب حديدي قصير بقوة وهو يلقي أنظاره الى الاكواخ الكابية الممتدة كالمقبرة. ومن زقاق لا يتسع لمرور حصانين امتد رأس رجل ملفوف ببشماغ يصعد وينزل بين السقوف متجهاً ناحيته، ومضى رجال آخرون من أزقة مختلفة منحدرين الى المدينة الكبيرة التي تحيا في جانب السدة الثاني. تفرس بائع النفط بالرجل الآتي من الزقاق حاملاً بيده صرة قماشية مكورة هتف به:

- خالي، انك تبكر بالخروج. لا زال للفجر ساعة.
- رمى الرجل الصاعد بعينييه الذابلتين الى الفتى.
- بالامس لم اعمل، وقبله. وفي الاسبوعين الماضيين لم اشتغل الا ثلاثة أيام.
- ظل يشربه بنظراته. أتم الرجل الملطخة ملابسه ببقع بيض ولطخ جصية.
- الأعمال قليلة والايدي اكثر من الرمل.
- انسرب بعض الرجال وقطعوا السدة نازلين الى المدينة. فتح الشيخ كلماته

:

- لم يحالفني الحظ في يوم ما بالاستمرار في عمل دائم فأخذت اقف منتظرا المقاولين، وحتى في هذا لم أفلح فصفوف من الشباب ينافسونني. يلتقطهم المقاول. يملأ بهم سياراته ولا يراني.
- هز الفتى القضيب الحديدي بغضب، واندفعت زخة من عواءات كلاب تراكضت بين الازقة مبتعدة.

* نشرت هذه القصة اول مرة بعنوان (خبز الدم) في جريدة النصر، 21 ايار 1966. ويجدر بالذكر ان مجلة المتفرج في عددها الصادر في 26 ايار 1966 ذكرت ان القاص خالد الراوي سينشر قريباً مجموعته القصصية الاولى تحت عنوان "خبز الدم". المحرر

حرك الشيخ رأسه.

- سأذهب. ربما سأعثر على عمل في هذا الصباح.
أجابه الفتى:

- وأنا سأغدو إلى المحطة لأملأ البرميل.

رفع الشيخ يده مودعاً وهو ينحدر من السدة رافعاً جانب (شدأشته)
الأيسر قليلاً:

وعلى رصيف ساحة مسورة تبعثر عدد من الرجال الحفاة، السمر
الوجوه.

اندس الشيخ بين رجلين مستندين على الحاجز ينظران إلى فوق وقد
امحت النجوم وبدأت الظلمة تتضوي وثمة ارتعاشة من نور انطلقت تشفف
السماء.

ترقبت عيون الرجال الطريق الذي يلد سيارات المقاول الثلاث كل فجر.

همس رجل:

- حان الوقت وسيظهر في أية لحظة، لا بد لي أن أحصل على عمل
هذا اليوم : سأرمي بنفسى وراء أول صاعد وليكن ما يكون.

حك مخه صوت رجل عابس.

- وأنا إذا صعدت فلن أنزل ولو ضربني بخنجر. يكفي ما تلقاه.

- بيرود عاجز سأل صوت آخر:

- التريد اليومي الذي لا يتغير.

تصلبت حركات الرجال وهم يزدادون حدة في مراقبة الطريق.

سقط بينهم صوت بوق سيارة قادمة من المنعرج. تقارب الرجال والتحموا
في أول الطريق.

وانسابت سيارة غريبة.

حقق بها الرجال بيرود وانفك تلاحمهم، لكنهم لم يتفرقوا بل ظلوا
متلازمين وكل منهم يحمل صرة طعامه بيده.

ودوت ثمانية ابواق قريبة، فتجمعوا من جديد بتصميم.

ونبعث ثلاث سيارات (بيكب) وتوقفت حذاء الرصيف.

مد المقاول رأسه وبرزت عينه التي تملؤها غشاوة محدقا.

- اليوم يكفينا خمسة عشر وانتم تزيدون على الثلاثين .

حسنا سأختار.

اصعد انت.

وأشار الى رجل صلب العود، فأسرع الرجل باعتلاء السيارة.

- وانت..

- وانت..

أخذ الرجال يصعدون والشيخ لا يحس بعيني المقاول تقتربان من وجهه.

التف من خلف الرجال الواقفين وقفز الى مؤخرة السيارة، رمية المقاول وصاح به:

- تمهل.. اين؟

لم يجب واختفى بين الجالسين.

أخرج المقاول رأسه بكامله وصاح:

- أنزل، من قال لك اصعد.

فتح المقاول الباب حين لم يجبه، واستدار الى خلف السيارة، ثم مد ذراعه وأشار بأصابعه الى الشيخ.

- انت، أنزل، أنزل.

جر الشيخ جسده من بين الرجال بتخاذل، ومضى الى السور.

وانطلقت السيارة وعاد الرجال الى محلاتهم السابقة ينتظرون من قد يكون بحاجة الى خدماتهم.

هصر الشيخ الصرة بين كفيه، وخداه يرتعدان.

* * *

رجفة في الضوء

انقطع المطر لكن ظلت نتهدل من بطن السماء الكبيرة غيوم سوداء مضطربة، ترحف ببطء نحو الشرق.
وقرب باب مسجد تسمر شخص ناتئ الوجه انحنى ظهره قليلا للأمام وتشابكت كفاه واختبأتا في بطنه.
الرياح الباردة سريعة في الدرب.
لفت الرجل عنقه من فوق سور المسجد المظلم وقرع الباب الخارجي.
الرياح تجرف رنات طرقاته.
اهتز جسده وازداد التصاقاً بالحائط.
قبل ساعات طرده صاحب الخان الذي يسكن فيه بعد ان استولى على تختته الخشبية وأصباغ الاحذية :
قال له : ما دمت لا تملك أجرة منام الشهر الفائت فهذه الأصباغ والتختة رهن عندي حتى تحيئني بالدينارين التي أطلبها.
وخرج من الخان لا يملك الا ذراعيه .
مر لوري يدوي مملوء بشرطة مقرفين، وعندما ابتعد مرقت من الجهة الأخرى سيارة صغيرة.
- ما بال بيت الله مغلقاً.
حك كفيه بسرعة ثم نفخ نفخات متصلة وطويلة. صاحب الخان العجوز الحاد العينين جرده من ادواته ولم يستمع الى تضرعاته. كان يريد إيماله يومين يسدد بعدهما دينه.
لكن العجوز اعتبرها كمماطلات الآخرين التي لم يعد يصدقها.
البرد يدخل ذرات جسده متوغلا الى العظام.
أراد ان يجد له مكاناً آخر.
حك أذنيه وأرنبة أنفه ووس يدويه في جيبه سترته المتأكلة.
ترى لماذا لم يتمهل في ارسال النفود الى امه، لو تمهل يومين او ثلاثة لكان قد سد أجرة الخان ثم أرسل ما تبقى عنده.
كان متعجلاً ومضطرباً. نار الحرب غمرت قريتهم، فالتجأت امه واختاه الى قرية مجاورة. وهناك كان كثيرون مثلهم جاؤا من قرى متعددة مسحتها القنابل. الطعام هناك قليل ونادر وثمنه مرتفع للغاية.

البرد يتضخم ويتوالد اضعافا.
حين عاد في المساء الى الخان تسلل من جانب الحائط مبتعداً عن غرفة
العجوز المضاءة بفانوس قوي والمفتوحة الباب دائماً فوارب الباب الخشبي
الغليظ وأبصر في الظلمة الرجال الثلاثة نائمين فتسلل بسكون وارند الباب
مطلقاً خلفه.

كان يحس بفرح كبير لأن صاحب الخان لم يشاهده.
وبغنة اندفع الباب بعنف بعد دقائق وظهر صاحب الخان العجوز وببده
فانوسه القوي. أغمض الصباغ عينيه فوراً ولم تفت العجوز انطباقه الجفن
الخاطفة.

قال له:

- ها كاكّة حسن، اين الايجار؟
- لم يجبه حسن بل سحب نفساً طويلاً.
- تقدم اليه صاحب الخان وركله بقدمه.
- فتح حسن عينيه باندهاش زائف وتملى باستفهام.
- احتد العجوز.
- الايجار.
- اعتدل حسن في جلسته وهو يلم أصابع كفه اليمنى.
- امهلني يومين ثم أعطيك الايجار.
- أجابه العجوز:
- يومان، لا، هاتها الآن.
- قال حسن:
- ليس لدي الآن شيء.
- قال العجوز:
- انهض لأفتشك.
- وقف حسن فوق فراشه المفتق وفتح الرجال النائمون عيونهم.
- دس العجوز يده في جيوب حسن ولم يعثر الا على تسعين فلساً وضعها
في جيبه، ثم التقط التخت الخشبي والأصباغ وقال له:
- هذي عندي رهن، اطلع واجلب الايجار ثم تعال خذها.
- أراد بياس ان يستوقفه:

من أين سيجيء بالدينارين في هذا الليل: رفاقه في الغرفة مفلسون دوماً.
خرج يسحب خطواته مرعماً.
اصطكت أسنانه.
الحركة توقفت في الشارع تماماً.
رفع عينيه المرتجفتين مرة أخرى من فوق السور.
ثم أمسك الحافة واستطاع ان ينقلب الى الفناء الخارجي للمسجد واقترب
من الباب الداخلي وقرعه بقوة.
لا جواب.
رعود تنفجر في السماء وبروق تلتطمع في نثيث المطر الذي أخذ ينحدر
الى الأرض.
تكور حسن قرب الباب وانكفاً على جانبه وركبناه تلتصقان بصدره،
ورجفة حادة تهتز في جسده.
تكاثرت الرعود، والمطر أخذ يشتد.

* * *

المتربصون*

انحدرت شبكة من حمام رمادي قبل غروب الشمس، وقفت على المئذنة، وانقذت تكبيرة المؤذن فتناثرت هاربة الى الأفق.
ازاء باب خشبي مسود استطال رجل، أمسك باحدى يديه حديدة مثبتة على الباب وراح يقرع، وتدلى من يده الأخرى زنبريل طاقت في قاعه رؤوس بامياء وطماطم وقطعة لحم ملفوفة بورقة.
طُفلق المزلاج الخشبي عند رفعه وصر الباب.
سقطت عينا العجوز المنقعة بفوطة سوداء على الزنبريل. انحنت والنقطته.

صر الباب ثانية وهو ينغلق على درب ضيق خال.
قالت العجوز بعد ان غرزت يدها الى معصمها في الزنبريل وجست قاعه.
- جاء سيفو اليوم وهددنا بانه سينشرنا على حبال المدينة اذا لم نخل بيته ونرحل.

- ماذا يعني هذا الحوذي، مؤجر القبر.
لملمت العجوز اطراف فوطتها وطوحت بطرفها. على كتفها.
انزلقت كلماتها:

- قال انه سيذهب الى المقهى ويهتك هناك بأنك تشتغل في الشرطة السرية وانك السبب في حبس أولادهم - اذا لم ندفع له أجرة الشهور الخمسة الماضية.

انكمش الرجل.
ترك أقدامه تدب الى الغرفة المظلمة.
كانت عينا العجوز مصوبتين عبر الباب اليه.
قلب الفراش.
مد يده في جارورة.
ثم وقف على الباب، سعت اليه.

* نشرت هذه القصة اول مرة في الملحق الاسبوعي لجريدة الجمهورية، 9 كانون الاول 1965، ملحق عدد 14، العدد 694. ونشرت مرة أخرى في مجلة البريد والبرق والتليفون في شهر آب 1966.

- ما عاد بمقدورنا البقاء، لنرحل.
- كانت عيناه غارقتين في الجدار المقابل، توسعت حدقتاه.
- اصمتي.
- امتدت يده تتسلق الباب بتشنج وثمة عرق بارز يهتف في رقبته.
- ارتعشت شفتاها.
- لا جدوى من البقاء. ولئن يكلفنا الرحيل خسارة.
- تقدم نحو الباب الخارجي عابراً الممر.
- قلت لن نرحل، اصمتي.
- ثم انسد الباب على خطوات مبعثرة.
- أمسك سيفو لجام حصاني عربته على مقربة من باب محطة القطار محدقاً بالوجه العابرة وهو متربص على فوق مقعده.
- هجمت عيناه الى اليسار (الصوت مألوف للغاية).
- اهذا انت، والسلام عليكم.
- جئتك لتتزع ريشي.
- اي شر تلمع به عيناك في هذا المساء. اذهب ودعني واقفاً على باب الله .
- سيفو ثبت سوطك وأنزل.
- كان الرجل رافعا رأسه وسيفو مستدير اليه بنصف ظهره وركبته مرفوعة وببده اليسرى انتصب سوط.
- سحب سيفو اللجام معتدلاً وهو يهتف (ديخ)
- تحركت العربية خطوتين.
- قفز الرجل على يد سيفو وجر الزمام بعنف ولوى عنقي الحصانين.
- سنرى من سيتعري في المدينة.
- مرت سيارة بانطلاق رصاصي رامية اشعتها على الرجلين الواقفين في الظلام.
- المحطة اقفرت والحارس مقرص على الباب.
- نظر الحوذي بثقة.
- مثلما تريد لحقوك الا تضيع. كذلك لا اريد انا.
- سنتدم.

- ستدفع أجرة خمسة أشهر، والا فساشكوك الى الحكومة.
- الحكومة، ههها، اتظن الحكومة تفتح اذنها لحوذي. وتغلق الباب على شرطي.
- وضع الرجل قدمه على سلم العربة الرفيع ممسكاً طرف المقعد بيده اليسرى، وظلّ خائب ينحدر من قبضة اليد اليمنى.
- صرخ الحوذي بفزع.
- لا.
- انقلب الى الجهة الثانية ليفر.
- أمسك الرجل بساقه وزحف اليه.
- بقي الحارس نائماً على باب المحطة وضافدع كثيرة تنق بين الحشائش.

* * *

ناعور في نهر يابس*

- نهر من الناس ينحدر في دروب المدينة، يلوحون بأكفهم المنقبضة.
يسقط.
يعيش.
الموت. الموت.
نهر ينصب من اول المدينة ويغيب في الطرف الآخر.
همس صاحب مكتبة صغيرة في اذن صاحبه.
- من اين جاء هذا البشر الغاضب.
زم صاحبه شفتيه.
- لا أدري.
تقدم الاول الى باب المكتبة ثم كر راجعا الى وسطها.
- عجباً لم يكن هؤلاء الناس انفسهم يصفقون للسلطة السابقة.
مد الثاني رقبته بلا اهتمام.
- هم انفسهم.
- يبدو انهم لن ينتهوا، مضى عليهم سبع ساعات.
صحح الآخر.
- بل اكثر من تسع ساعات.
مسح الاول ذقنه براحة يده.
- من الخير ان ننصرف، فلا أدري ماذا يخبيء الليل.
انهمك الشريكان برص الصحف والمجلات وادخال قناني المرطبات في صناديقها، ثم مرق الاول حاملاً حقيبة جلدية سوداء يدوية.
ولحقه الآخر.
سحب الاول القمحي الشاحب - الباب الحديدي وضغط بكفه على القفل
ثم انصرف الاثنان كل في اتجاهه.
توقف الاول بعد امتار قرب مخزن مغلق.
الهتافات المتشنجة تصوضي والقطع القماشية المرفوعة تهتف.

* نشرت هذه القصة اول مرة في الملحق الأدبي لجريدة الجمهورية، 13 تشرين الاول 1966، العدد 58.

الموت للخونة.
الموت للخونة.
رمق وجهها مألوفاً لديه فأرجع رأسه في العتمة:
- من الخير ألا يشاهدني هذا الصديق القديم، انه لن يتذكر الصداقة
حتماً.
ومضى الرأس المألوف منحدرًا في نهر الناس.
قذف القمحي الوجه خطوة سريعة، تلاها بخطى طويلة في الظل ثم
استدار الى منعرج وتوقف عند باب خشبي مغرق في العتمة:
انسحب الباب شبرين فحشر القمحي الوجه جسده.
صاح به واحد من الداخل.
- اين انت يا سليم، خشينا عليك كثيراً.
حاول سليم ان يمزق الظلمة بعينه. أجابه.
- ها انت تراني، لا ازال حياً يا حمودي.
قال حمودي.
- لقد قلنا عليك ليلة امس الاول حين خرجت. فبعد ذهابك بدقائق
انطلق مشيطان من الرصاص.
- سمعتها ايضاً.
- لا أحد يضمن مصيره في الليل، فأقصى امنياتنا ان يمر ونبقى أحياء
الى الصباح.
تحركت أقدمهما.
تقدم حمودي وفتح باباً جانبياً فترنحت ظلال نور من قعر سرداب.
وقف سليم خلف حمودي ونزل الاثنان بصمت.
وكانت شمعة كبيرة ترمي نورها على مطبوعة صغيرة رمادية اللون،
صفت الى جانبها كومة عالية من المنشورات وفي الجانب الثاني من
السرداب جلس رجلان ملوحا الوجهين على تختين متقابلين وبينهما منضدة
صغيرة فوقها ثلاثة مسدسات.
هتف سليم.
- مرحباً.
قال حمودي:
- تم طبع المنشور . أجابه سليم.

- اذن سنوزعه فوراً، قال حمودي.
- لا تتعجل، سنتأني هذه المرة، فقد قبض في الصباح على نجم ومناضل.
- التصق ظهر سليم بالمسند.
- أتم حمودي.
- ومساء أمس فنشبت الشرطة دار كامل والثلاثة يعرفون محلنا.
- اهتز قلب سليم، أكد بقنوط:
- لن يعترفوا ولو سلخوا جلودهم، أنا أعرفهم جيداً.
- بتحد أجابه حمودي:
- مهما يكن فعلينا ان نتحسب لما قد يقع.
- هذا صحيح، لكن لنمض.
- وبغير اقتناع تراجع حمودي.
- لنبق في أتم حذر.
- نهض سليم والنقط ورقة من المناشير، قرأها ثم النقطة طبقة ثخينة منها.
- سأخذ هذه.
- لم يتكلم الثلاثة.
- كانوا ينظرون اليه وهو يفتح حقيبته ويضع فيها المناشير.
- لفحه صوت حمودي المندى بالتضرع.
- كن حذراً.
- ضحك سليم بجفاف.
- ستراني أمامك دوماً.
- ان هذا ما اريده.
- صعد سليم درج السرداب، توقف عند منتصفه وتبعه حمودي.
- استدار الى الرجلين الجالسين.
- سنلتقي قريباً.
- توقفاً عند الباب الخارجي، فتحه حمودي بأناة تامة.
- وحق في الدرب.
- همس:
- لا احد يستطيع الخروج.

أوما سليم برأسه.
 - الى اللقاء.
 كانت ريح خفيفة تهز اشجار النبق والتوت، فتتجدد ظلالها على الاسفلت.
 الشوارع ساكنة، عدا بعض الدراجات النارية للشرطة وسيارات جيش تعبر
 بسرعة في طرق بعيدة.
 اندفع سليم في موازاة جدران الحدائق والأبواب مخرجاً منشوراً من
 حقيبته، ملقياً به من فوق كل باب، وتوقف عند باب قضبانى.
 دس المنشور قرب المزلاج، وفتح أصابعه، صرخ صوت من نافذة
 مظلمة.
 - ماذا تفعل.
 اقشعر سليم.
 وسمع الصوت يصرخ بعد ثوان.
 - انه منهم، فف.
 كاد سليم يصل الى نهاية الطريق، النفث. كانت أضواء الأبواب الخارجية
 تعتلق على طرفي الطريق قرب ذلك البيت.
 تحسس جوف حقيبته الصغيرة.
 ولمس ورقة واحدة، اخرجها وطوح بها في حديقة منزل والصوت
 يرتفع.
 - أمسكوه، الحقوا به وأمسكوه.
 اندفعت تجاهه أربع دراجات.
 استدار في المنعطف وقفز فوق جدار مغطى بنباتات متسلقة.
 نظر الى المنزل النائم ثم أمسك حافة الجدار بكفيه وراح يرصد الطريق.
 انعطف راكبو الدراجات واثنان منهما يؤكدان:
 - اجل، انه مر من هنا.
 هتف الثالث.
 - ذاك هو.
 انكمش سليم وسقط الثلاثة على رجل يمشي قرب الجدار المقابل على بعد
 ثلاثين خطوة.
 صاح واحد منهم.
 - انه هو.

هتف اثنان.
- انه هو.
دفعهم الرجل.
ماذا تريدون.
انضم الرابع اليهم.
ذاب صوت الرجل.
- انا عامل في المخبز، ذاهب الى عملي .
صفحه الاول.
- لن نخدعنا ايها المتأمر.
سحبه ادهم واركبه أمامه على الدراجة واحاط به الآخرون. انفطر
صوت الرجل.
- والله انا برىء.
غاب راكبو الدراجات في المنعطف، والرياح ظلت تهب رخية.

* * *

الانزلاق

ظل صوت الوداع يملأ الغرفة الى ان اصطفق الباب فغمر الهدوء الاشياء الصغيرة البالية : حتى وجه المرأة التي سرعان ما ادارت ظهرها للرجل الجالس وانصرفت الى زاوية. حدق الرجل الكثر الشاربين في ظهرها. عندما مست يده يدها الناعمة الدقيقة بالامس- وهي تتاوله قدح شاي، ارتعش، وثبت عينيه بوجه زوجها الذي جلس مقدساً له. حرك السكر في القدح وهو يضغظ اسنانه ليطرد الرعشة نهائياً. قال للزوج ليخلق أرضاً جديدة.

- هل ذهبت اليه؟

- اجل اخبرته انك موجود في بيتي وقال عليك ان تظل مختفياً هنا الى ان يجدوا لك مكاناً آخر، فالشرطة السريون اطبقوا على عدة منازل كنت تختلف اليها.

شد الرجل الكثر الشاربين شفثيه بصرامة، فصمت الثاني. كانت أصابعها تحرك الاواني والقذور، المدينة الضخمة صارت أسواراً منخفضة حال لون جصها الى أسمر وجداراً مكعباً لا ينتهي. فتركز جسده على الفراش المسطح على الأرض.

سمع صوتها - هل ستنام؟

حرك عينيه تجاهها، كانت عيناها معلقتين بعينيه. أوما لها - كلا.

- انا ذاهبة لاسوق، وسأعود بعد قليل.

اصطفق الباب، وبقي الجسد ممدداً، انهم هناك يتوقون للقبض عليه، وصورته في جيوب الشرطة السريين.

(كنت متيقناً ان هناك جاسوساً في الحزب، كان أسرع منا، لما انحصر شكا فيه. انها نافذة مميتة تلك التي فتحتها علينا : حين كشف التنظيم).

نهض الشارب. وأطل من الشباك على نساء فقيرات يمضين الى السوق ورجال مكدودين: حدق بها وهي آتية وقبل ان تلامس الباب فتحه. سألته باندھاش:

- هل رأيتني؟
 - آه.. كنت أرقب الطريق
 وضعت حاجياتها
 سألها - متى سيعود؟
 - عند انتهاء العمل طبعاً.
 - ها
 كان الرواق الرطب والجدران الملفوفة تجذب جسده اليها.
 وضع قامته بجانبها.
 - دعيني أساعدك.
 انبهرت.
 - أبداً، لا يجوز.
 جسده يحتك بها، تقدمت خطوة للأمام، وافتترقت.
 جسده يتفتح في ظهرها مرتجفاً.
 - لابد أن أساعدك.
 زم كفيه في بطنها وضمها إليه.
 كان يرتجف في ظهرها.
 فتحت يديه بأظافرهما، واستدارت.
 كانت تدفعه بيد ناعمة وأخرى جسورة قاسية.
 إنها تلين كالقماش بين يديه، وجسدها يرتعش بين الكفين الكبيرتين.
 كان الشارب يريد إسقاط المرأة الى الأرض.
 انفتح الباب بسرعة.
 وانتهت هي الى الباب الذي انفتح.
 تصلب القماش بين يديه وصرخت:
 - ابتعد عني يا خائن.
 - ارتفع الشارب من ياقته واستطال بجانب الزوج.
 - إنك حقير للغاية. تخون بيتي. تعال.
 - انسحب الشارب من كفه، وصار بجانب الباب.
 - لن نهمي حياتك أيها السافل. إنك الجاسوس الحقيقي الذي طاردك
 وجعلك تخنفي.
 قذفه خارج المنزل :

- ليقبضوا عليك أولا يقبضوا، الى جهنم.
تقدم الرجل نحو امرأته. وكان عنكبوت صغير يركض في زاوية الغرفة
العليا. مر بذبابة ميتة في سراكه ثم اختفى.

* * *

القناع*

* نشرت هذه المجموعة في بغداد عام 1970، مطبعة الشعب.

الحديقة خرائط الرمل

في الطريق الصاعدة، والمنخفضة في امتدادها، كانت الأقدام تحدث وبشيء من الرهبة فواصل متعددة وحادة.

- أية ساعة مخيفة تلك التي تثب فيها مقررًا، بجرأة نهائية، حياتك. في هذا الزمن الذي فقد فيه الناس جرأة التصدي لضربة غامضة. انه ذلك النور الصاعق الذي يتفجر في بقاع موحشة، ومتباعدة في العالم، يلوح جذابًا أقدامًا، حنرة، تغيب في مجهولات حقيقية.

إحدى قواعد القتال:

جدارك في انسحاب المواجهة هو الرصاص
والأخصيت في الأرض

الأقدام تسير متوازية، متباعدة. رجال يتقوسون على نقطة متحركة، النقطة المتحركة تتوضح متذبذبة، بين الحجارة والأرض الحصوية، تدخل النقطة في الفوهات تمامًا، وتصبح خطوطًا ساكنة، متقاطعة قليلًا. ومن الجهة المقابلة ترتعش قدمان وتنتهيان على الأرض متمدنتين، وصرخة تعدو مع الأقدام القافزة، المبتعدة.

(- أيها السادة لا تَغْبِطُوا كثيراً لأننا قتلنا اثنين، فقد قُتِلَ لنا رفيق).

تقرير إلى القيادة العسكرية

قتلنا اثنين وفقدنا رفيقاً

لم نستطع سحبه

أطبقت الوجوه أجنحة أفواهاها في القاعدة. وكانت الجثة الغائبة تزحم بينهم فتكشهم فاسحين لها أقصى وسع.

كان واجباً سحبه.

(العائدون قدموا تبريرهم)

اثوثق الأفراد، منوحدين، بالجثة البعيدة

كدت أصرخ بالسائق مرعوباً - قف، أحسست برجفة مسننة وأنا أبصر رجلاً شاحق الطول يسير ببطء أمام السيارة غير آبه وآخر يشبهه يقف على جانب الطريق يراقب المسافة بين السيارة والرجل دون حركة في الطريق الحاد المربوط بأعلى الجبال الموصلة الى عمان.

اختفى الرجل ومضت السيارة في ليل يعمق ظلامه. وأيقنت أنني نجوت
من موت حقيقي .

الجنة في جمجمتي وكنت أرقبها بآلم طفيف.

- لا يجدي الحزن.

ومع ذلك كنت أرتب خطة لسحب الجنة. وكان الجميع بالتأكيد يرتبون
خططاً مماثلة.

(كنت ممدداً والرفاق يبتعدون. تقدم الأعداء، ينقبون في جيوبي
ويأخذون أوراقهم، يحيطونني بدائرة من الألغام. ثم يربطون جسدي بها،
وينسحبون. ثم يعود الرفاق، وعندما يرفعونني، يتناثرون في الهواء.)

صدمني صوت

- سيجعلونه فخاً لنا.. كما فعلوا دائماً بالقتلى.

- لن يصيد الفخ هذه المرة، لكن، ترى هل نتركه؟

أجاب بحزم

نعم

قراءة

الدم يبعث النفور. ليس لدى البشر

استعداد لإبصار المزيد منه

(أصرخ عالياً. فعندما ترفع البندقية لتكون حراً لن تخشى السفاكين. وإذا
كنت حراً لن تضطر إلى القتل أو الفرار. لكن تلك الحفنة من سفاكي العالم
تأبى ترك البشر يعيشون في مسراتهم الصغيرة.)

- أعتقد أننا نستطيع رؤية الجنة من هنا، بالمنظار.

- ربما.

- تناول المنظار المعلق على الحائط وتسلل خارجاً. وعاد بعد دقيقة
هامساً باكتشافه.

لقد أبصرتها. تعال.

نهضت وتبعته. ناولني المنظار وأشار إلى الاتجاه. اكتسحت الأرض
الممتدة. وثبتت بالزاوية المنفرجة لخطي العدسة المتقاطعين جسد صغير
للغاية، مموه لا تبدو ملامحه. تعلقت أيدٍ متعددة بالمنظار.

- دعنا نرى.

وكان الرفاق يرفعون أيديهم. قدمت المنظار. ونظرت في الاتجاه بعيني
المجربتين فلم أجد شيئاً.
استمر الرفاق يراقبون الجنة البعيدة.
وعاد الدور إليّ مجدداً في الرؤية. كانت الجنة ملتحمة تماماً بالأرض.
أعدت المنظار.
واختلطت طيور كثيرة، برزت من الجهة الغربية، بالمطر الكثيف.

* * *

انقسامات الزاوية

انتهى السيد م الى اتخاذ قراره الأخير.
اتصل بالفتيات الخمس اللواتي له علاقة بهن وحدد لهن، كل واحدة، موعداً متفقاً في شقته.
دخلن كلهن، وأجلسهن واحدة بجانب الأخرى. وجلس أمامهن.
اضطربت الفتيات وأخذن يتأملن. وطلبت عيونهن استفساراً من السيد م.
قال السيد م.
- انتبهن.

تفصيلات

ابتدأ السيد م برواية علاقاته بكل واحدة
منهن وذكر جميع الأحداث التي حصلت
معهن. هذه الأحداث لا تعيننا كثيراً.

واضاف بحزم بارد
- والآن استمعن. سأسافر.
توترن جميعهن بتأهب. لكنهن بقين رابضات ازاء السيد م الذي كان يضع
ساقه اليمنى فوق الساق اليسرى.
(بحار. مدن ضاحجة. طائرات تنتشر في ضوء الشمس. جبال مثلوجة.
زوارق في أنهار افريقيا. طرق مستقيمة. اشجار مزهرة. نساء لا يحصين.
عالم يتجدد بلا توقف)
اكّد السيد م
- رغم وسع العالم فانه صغير لا يحتويه. انني اطلب عالماً أشمل،
لا يحد.

نهضت فتاة نحيفة وأشارت تجاهه:
- لقد خدعنا نحن الخمس سوية. والآن تهرب.
(عربة تتطلق بسرعة نهائية وأنا راقد فيها. انظر الى العالم يتقدم
بكافة حركاته وأضاءاته وظواهره من شبكي ثم ينطفئ وتمرق العربة في
فراغ مهجور. اصبح اتجاهها فتعود الى العالم)
رمى السيد م الفتاة الواقفة

((لقد انتهى زمن الامتلاك. الإنسان يسعى لان يملك نفسه وحدها. كافة الأشياء لكافة الناس دون احتكار ودون امتلاك ايضا))

قال لها:

- اجلسي. سننتهي الى اجساد مجردة اذا امتلكننا بعضنا. انني اسمع كل ذرة في بقاع العالم تناديني، واخشى ان ينتهي زمني دون ان أتحرك.

انبرت النحيفة مجدداً

- سأجيء معك

ولاحقتها الأخريات

- نحن على استعداد لمرافقتك.

:(لكي نولد دائماً ومجدداً ينبغي الماضي وحننا، فلا فائدة من الكشوفات اذا كان هناك من يراقب).

قال السيد م:

- لن أخذ واحدة منكن.

اشتركن خمسين فجأة في البكاء فلم تعد هناك فائدة من التظاهر بكمته أمام تصميمه ومنظر حقيبتيه الصغيرة المهيأة.

- لن انهركن في اللحظة الأخيرة. سيسوى كل شيء. وأتمنى ان تخلقين لكن حياة سعيدة.

رفع السيد م حقيبتيه ثم نظر الى ساعته.

- بعد نصف ساعة ستقلع الطائرة.

نهضت الفتاة النحيفة

- لن ندعك ترحل. اننا نمنعك.

أزاحها بحقيبتيه لكن الاخريات وضعن ظهورهن على الباب. قالت النحيفة.

- لن تسافر سنضعك تحت رقابتنا .

قال السيد م للفتيات الأربع :

- دعوني أمر.

ازددن التصاقاً بالباب

نظر اليهن ثم عاد الى كرسيه، أسند حقيبتيه على طرف المقعد.

- لننتفق اذن، هيا اجلس.

اتخذت الفتيات موضعهن السابق أمامه.

أشار بهدوء كامل
- ماذا تردن بالضبط؟
رمقت الفتيات بعضهن بتردد وتأهبت كل واحدة للبدء في الحديث.
اختطف السيد م حقيته وقفز بسرعة غير مميزة إلى الباب. أداره ورننت
خطواته وهي تتعد.
كان السيد م يركض صوب المطار وهو قلق لتأخره وشاكاً بأن الطائرة
قد أقلعت.

* * *

انتظارات

اعتقلوني آخر مرة في حياتي وأنا في الرابعة عشرة من عمري.
وضعوني بينهم في العربة الخضراء المكدبة، وسلموني الى ضابط
عجوز.

- تفحصني ثم أسقط عينيه في ملف به اوراق قليلة.
- قال لي : تهمة خطيرة.
- أراد ان يكتسحني بكلماته. لم أجبه، فانا أعرف خريطة المحققين هذه.
- ماذا تخبىء خلف جلدك.. هيا.. اخلعه، ودعنا نرى .
- وضعت يدي في جيوبي وتفحصته .
- أتم في مودة مباغثة
- سنسير قليلا في مسافة جلدك والداخل.. ننتزه.
- ننزه بعيداً عني ايها السافل.
- (في الحقيقة لم اقل له - سافل - بوضوح)
- ليس من حقل ان ترفض : فهي رغبتي.
- اطلب منك ان تطلق سراحي فوراً
- اتريد ان تكون حراً
- (____)
- اخرج فانت حر
- استكثرت الى الباب وفتحته، فتشرعت حربة توسطت التجويف.
- انها مسمومة، اذا لامستك، لن ينفكك حتى الله. أقفلت الباب وعدت الى وجهه.
- سألني:
- لماذا لا تخرج ... اتخشى ازاحة الحربة كي لا تموت؟
- فكرت بذعر - ربما-
- ستحب هذا المكان وتعتمد عليه ... المطلوب ان تفكر قليلا
- وستصل الى نتائج مبهجة تملأ بها أيامك.
- الا تعتقد ان لعبتك هذه مملة؟
- استيقظ فانت أسير.

أغلقت عيني وأذني، وأنزلت رأسي من قمة جسدي ووضعت بين ثيابي.
نهض من خلف مكتبه وانتزع رأسي من كفي الواهنتين وأعاده إلى
الرقبة.

- ستموت وحدك ويبقى العالم.. ملايين قبلك ماتوا وظل العالم
يتكون. هل تنتظر أن تكون أنت مصير العالم : هيا اخرج احمل العالم بين
ذراعيك، دعه يكون جسدي.

قرع الجرس فانفتح الباب.

أشار إلى التجويف المملوء بالنور الصناعي.
الحربة اختفت

استدريت وقذفت خطواتي السريعة في الرواق.
استقبلني رجل جالس في نهاية الممر.

- اين تذهب؟

- ليس هذا من شأنك

- لا بد ان أعرف

- لقد طردني الضابط وقال اذهب فانت حر .

- انك مجنون.. لا يوجد هنا ضباط..

- الضابط الجالس في تلك الغرفة؟

- انك مجنون فعلاً.. لقد مكثنا بانتظارك.. هيا ادخل هذه الغرفة.

دفعني إلى غرفة بيضاء نقية مغسولة ناصعة.

- افتح عينيك على سعتيها، وانظر إلي .

ملاً ببندقية بالرصاص.. وأخذ يطلق علي النار..

سقطت أخيراً على الأرض البيضاء قتيلًا.. ولم تخرج من جسدي قطرة
دم.

* * *

مياه

الأشياء سوداء في الليل.. العالم أسود.. الفجر أسود.. الرجال.. النهر.. حملت خطتها الأجساد التي هزعت متسللة، واحدا إثر الآخر، وكانت القاعدة فوهة سوداء مضطربة..

أنا الراصد : هذه مهمتي..

الاثنان اللذان يسرعان في الأمام سيتوليان تنفيذ المهمة.. والاثنان اللذان يتبعانهما يتوليان الحماية..

خضنا النهر النحيف الضحل : نفذ الماء البارد الى عظامي وأحسست برعشة، ثم ارتجفت في الهواء الأسود..

تخطينا الجرف الطيني وتموجت تحت أقدامنا أعشاب سوداء..

الساعة هي الخامسة صباحا..

(أخبر زميلي في الرصد ان الجنود الأعداء يكمنون في ذلك الموقع في الساعة السادسة صباحاً.. راقبهم عدة أيام وتأكد من الوقت بدقة. كانت خطتنا : الاختباء في مواقعهم والقبض عليهم)

سنختطفهم ونفيد من معلوماتهم..

إذا لم تكشف مواقع عدوك فلن تستطيع القضاء عليه .

توقفت ومضى الرجال في الضباب والظلمة ولم اعد اميزهم بسهولة.

(كانت خطواتنا تتساقط سريعة في شارع مهجور..

قلت لها : أنت حبيبتي.. دعيني أقبلك.. قالت دون ان تلوي رأسها نحوي : لن أدعك..

.. قلت لها : ساقبلك بالعنف..

نفت : لن تستطيع ذلك.. لا يستطيع الطرف الواحد فرض إرادته على الطرف الآخر.

(دكاكين مضادة بأنوار باهرة..

(نساء نصف عاريات في بيروت.. يسرعن

(رجال ينامون في البرد.. ورجال ينامون في دفء المدينة)

لم اعد أبصر الرفاق.. كان الهواء الأسود المثلج يصفر بين الأعشاب النحيلة.. رفعت قدمي اليمنى على صخرة مراقبا ظلمة واسعة لا نهائية..

انزلق فجأة رصاص سريع متتابع..
 رشاشات..
 توتر جسدي وأصبح مركزاً في قبضتي يدي.
 لم أبصر شيئاً..
 (رجال يتحركون في مقر القيادة.. يشرحون التعليمات بهدوء وببطء
 وحميمية... رجال يتقاطعون وهم يعبرون. مدن... مدن : شوارع.. أعمدة
 ضوء في شوارع خالية)
 ضباب وجنود في الناحية الأخرى.
 ارجو ان تتجح عمليتنا..
 تفوق انفجار خاطف على الرصاص..
 مدفعنا.. انه مدفع الحماية
 وعاد انفجار المدفع مكرراً..
 (الموت والعبودية سواء. ماذا سنفقد في حياة منتهية.
 قد ننصر فنملك شيئاً وقد نموت ولن نفقد شيئاً لأننا لم نكن نملك شيئاً)
 (دم بعيد غير مبصر.. كنت بعيداً لا أعرف هل سيعودون ام سيبقى
 جثثهم مدماة مرمية لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها).
 توقف الرصاص
 كنت عصبياً متوتراً.. الظلام كامل أمامي، وخلفي حفرة النهر.. جلست
 على الأرض..
 وكانت حرارة هائجة تغمر جسدي وانا انتظر..
 سيجيئون جميعاً.. سنشرب الشاي وندخن وننام قليلاً..
 انهما الحماية
 اثنان فقط. اين الآخران؟
 - هيا
 صاح بي أولهما
 - أسرع..
 ركضت بجانبه صوب النهر..
 - اين هما؟
 كان يحتضن مدفعه الثقيل ويركض
 صرخت به :

- اين هما؟
 - سقطا هناك
 ارتعشت في برودة الماء..
 كنا نركض نحو القاعدة السرية وخلفنا رجل الحماية الآخر .
 - هل تأكدت من موتهما؟
 انزلنا في فوهة القاعدة. وهب الرفاق الستة من أسرهم الأرضية، وهتفوا
 مستفسرين :
 - اين (... ابو علي ومحمد)؟
 - هناك
 غيبتنا الظلمة في الصمت..
 كان المدفع بين يديه وهو جالس على الأرض.. سحبته منه وأسندته على
 الحائط..
 - تكلم.. كيف، كيف؟
 - عندما وصلنا الى الكمين.. فتحوا النار علينا من مكمين خفيين..
 فصوبنا بأسلحتنا الخفيفة. وكان بحوزة (سليمان) المدفع المضاد للدروع..
 صرخت به : اضرب.
 كان نائماً فوق مدفعه متجمدا..
 ناداه (محمد وابو علي) : اضرب
 لم يتحرك..
 صرخا به : قتلنا.. قتلنا..
 زحفت اليه ودفعته. أخذت المدفع وصوبته الى اول كمين فأنهيت ناره..
 وصوبته الى الثاني.
 كانت نار (محمد وابو علي) قد توقفت.
 صحت : محمد.. ابو علي..
 وسمعت همسة بطيئة : لقد قتلنا..
 وكانت النار المقابلة تنزل وتغيب في زبد الجسدين الممددين وتحول
 علينا.
 هتفت بـ (سليمان) وكان لا يزال متحسراً على الأرض هيا ننسحب..
 زحفنا لننجو.. ولم نستطع سحب الجثتين لان نجدات للعدو بدأت تصل.

لو ضرب من البداية لكننا قضينا عليهم. لا أدري لماذا جبن مع انه اشترك
في عمليات ناجحة سابقا.
دخل سليمان واختفى في نهاية المغارة.
- سيحاسب..

وانصت الى الهواء الأسود وهو يعبر مصفرا خارج فوهة القاعدة.
وفي الصباح حدثت خارج الكهف.
كانت الأرض المنبسطة المسطحة حادة واضحة. والبرتقال الأصفر يشع
من بين الاوراق الخضراء الكثيفة في الوادي.. وعبر النهر.. كانت الأرض
بعيدة وجرداء يرتفع فيها جبل.. وكانت سيارة منخفضة لكسح اللغام تنهب
سريعة مثيرة خلفها خيطا ترابيا أبيض.

* * *

الخوذة

حرك الهواء الباب الخشبي ودفعه بعنف فدوى وهو ينغلق. ارتج الزجاج الخشن الضخم الذي يفصل بين الغرفتين، وتذبذب الظهر الأخضر خلف الزجاج ثم سكن.

الأوراق البيضاء المستطيلة فوق المنضدة، وفتحة الهواء في السقف تنفذ، من جهات سرية، عواءات غامضة، وعشر عيون تصعد من رقبتي إلى ذقني وصدري.

في الطابق الثالث، كانت غرف أيامنا الصباحية تمتد الواحدة في الأخرى.. مملوءة برجال ونساء، كانوا يتلامسون بالغناء والرقص والحزن ثم يذهبون إلى بيوتهم ظهراً ليعودوا في صباح اليوم التالي.

- بالأمس اشتريت قمائشاً .

تذبذب الآخر خلف الزجاج والتوى جسده على المنضدة الغامضة. وتحرك جسد آخر من الزاوية وصار بجانب الظهر المتموج على الزجاج. انحني ثم انسحب بعيداً واختفى، وقعت الأوراق المتراكمة دون اهتمام.. فقد وقعت آلاف الأوراق هنا، في هذه الغرفة، من قبل، وستأتي آلاف غيرها. فواجبي أن اكتب واكتب ثم يأخذون الأوراق مني.

وكانت رؤوس عديدة تمتد فوق منضدتي وهي تهمس.

- كثف قوتك، يجب أن تملأ الأوراق.

أمسكت بأحد الرؤوس

- يجب أن أفرغ يوماً من هذه الأوراق.

- عليك ألا تفرغ منها.

- سامزقها وانثرها مغطياً بها المدينة.

تدخلت خلف الزجاج أجساد سرية عديدة، متحركة، تتوضح ثم تغيب . وتعود سريعة في فتحة الضوء المتوهج في زاوية الزجاج المصلع الخشن جمعت الأوراق البيضاء ووضعتها أمامي ورفعت عيني إلى عشرات الأذرع المشعرة.

كان رسغي يلتهب فوق المنضدة.

خارجنا يتساوى البشر، كلهم يتشابّهون.

ارتفعت ذراع مبهمة في الغرفة الأخرى وامتدت، وضوضوت الأصوات.

- الشاي
- السرير
- الحصان
- دينار
- التلفون
- الحب

العرق يغطي جمجمتي، نهضت لأفقر، وفكرت. سيمنعني الحارس من الخروج لأن الدوام لم ينته وسيقول:

إذا كان لا بد لي أن أخرج فعلي ألا أعود أبداً.

انسحب شبح في الزجاج وأمسك بقبضة الباب وفتحته فاتصلت الغرفتان وامتزجت الأصوات.

جلس الرأس الجميل بجانبني

- ماذا ستفعل؟

- سأفعل.

مدت أصابعها النحيلة الطويلة كأفأع قصيرة وطوقت رقبتني. نزعته بعنف وطردتها من الغرفة : وانتبهت الى عواءات الفتحة الهوائية، وحين أغلق الباب، امتزجت الأجساد المبهمة مرة أخرى في حركات متقاطعة تلتحم وتنفك، ثم تلاشت جميعاً.

* * *

الطيور..العشب الأزرق

انترعت اغفائي المتنبية في الصورة الصغيرة لـ ن..وشعرت بعينيّ ف
تتوقدان بتركيز في رأسي.. طويت الصورة، وبرفق دسستها في جيبي.. قالت

:

أرني ذلك الشيء الذي أخفيته؟

مسست ذراعها وحدقت في عينيها، برقة:

- انها ورقة خاصة.. لا تهلك أبداً..

- ف شريرة ودمائتها تجاهك زائفة، صدقني، لست غيبي.

ف ما زالت تتفحصني.

أتمت ن بدون ضجة : ثق.

امحت ن عندما شدتني ف : انك الرجل الذي أصنعه كل ليلة .

سكنت ف.

منذ مدة فقدت قدرة التمييز والاحساس نحو فتاة واحدة.. الفتيات
تساوين لديّ عندما فقدت الحب. وأضحت الواحدة محطة تنتهي أثراً عندما
أتركها..

هاتان الفتاتان تريدانني.

ترجبت ف فاخترقتها نظراتي.

نهضت الفتاتان في الساحة الترايبية الخالية. كنت جالسا على الحافة
أرقبهما.. اقتربنا. ووضعت كل منهما يدها في شعر الأخرى واشتعل الصراع
بينهما.. تخدش وجههما والنقت على الأصابع خصلات من الشعر.. ثم
اقتلعت ن العين اليمنى لـ ف، وتركتها تسقط على التراب الأحمر .

حدقت بعين ف وفكرت : اللعبة تجاوزت الطرافة. صحت بهما:

كفي، كفي.

اتكأت ف على المنضدة أمامي.. وكانت عيناها سليمتين.. وتحسست

صورة ن في جيبي. الشقيتان : تبأ لهما.

بينغي ان تتزوجني، فقد انقطع الطمث. انني حامل .

حامل!

ماذا يعني حملها. ربما كنت السبب في حدوثه، لكن لن اتحمل نتائجه.

مسست الصورة في جيبى
 ن ايضا حملت، لكنها خبأته ورحلت به. لم تقل لي مد يدك والمسه وتأكد
 منه ثم التصق به. كانت تدرك ان الطرف الاول يجب الا يزعج الطرف
 الثاني. لم أقل لـ ف ذلك، فلا اريد أولا كشف علاقتي بـ ن. ثم لانها تحمل
 جنينها بخوف.

- سيجيء واحد، ان لم تتزوجني، ذات يوم، ويرفع ثوبي. سيصرخ
 به الجنين.

حدثت بالرقية للزجة والسكين تدخل في القصبه الهوائية مفتحة الجلد
 الرطب عميقا. وخيط رفيع أحمر يلتصق ازاء النصل.

- ف لن يقتلك أحد، فالنساء يستطعن إخفاء أشياءهن.

- انك تتخلص مني.

الماضي هنا هو الحاضر والمستقبل: شيء مخيف ان يكون حاضرا
 ومستقبلا ماضيا.

الى الأبد تنتهي الحركة السابقة ولا اريد ان الصق فيها. انني أعرفك
 الآن وعلاقتي الماضية انتهت.

ن في حقل للرز في الصين تحمل بطنها المتورم. ن في كوبا تعبر أعواد
 القصب وبطنها منتفخة. ن تحمل مكنسة تنظف درج فندق في الولايات
 المتحدة وهي منحنية على بطنها... ن تتقي المطر الاستوائي وأمامها عشرات
 الزنوج العراة يقفزون فوق أشجار افريقيا.. انها مشغولة به في نهار العالم
 وليله.. وانا منفصل عنها.

- انفصلي يا ف. وافعلي ما شئت بجنينك.

سحبت ف آلة حادة صغيرة وأرادت ادخالها بين اضلاعي، أمسكت
 رسغها وأسقطت سكينتها..

التوت فوق المنضدة وهي تبكي.

دخلت ن الغرفة وسحبت ف من كتفها بعنف وغيبتها خارجا.

مسست الصورة، وكانت ف تبكي.

- سأعود ثانية لنتفق، لن تتخلى عني، قل لي لن تتخلى عني.

- اتركيني وشأني.

- لن تتخلى عني.

وانصرفت ببطء ملوحة بكلماتها.
نهضت في الغرفة الرمادية عابرا ريشا صفرا.. وأمسكت بالتفون
المرن..
انا ب.
- عرفتك.
- انني وحيدة، هل تأتي الي؟
- انتظريني.
علقت التفون. وارتديت معطفي. ثم أغلقت الباب ومضيت.

* * *

الفارب

- التاريخ طبقات من تراب متراكم.
اشتغلت بحمية في الحفر والتنقيب. اخترت ثلة مغطاة بالقحوف الطينية
الجافة المكسورة : انها علامات الحضارة .
- الوجوه تكشف سرها، والأشياء تنفذ اليها وتزن ثقلها فتسقط
جميعها أمامك، وتبقى وحيدا شامخا.
أشار مساعدي وهو من أهالي المنطقة.
- لنحفر ثقباً في هذا المكان.
رفعنا معولينا وابتدأنا الضرب، تجمعت كومة من التراب الصلب، انحنى
مساعدي ونقلها.
قلت له :
- لقد حفرنا مئة سنة.
ضحك ببلاهة، وانتسى بضحكته فلوى معوله برفاه.
قلت:
- مئة سنة، مات فيها ملايين من البشر، وولدت ملايين جديدة.
وفي يدي حفنة من تراب، يا للمعادلة؟
كنا منحنيين عرقين والقربة التي جئت منها بهذا الرجل منسرحة بعيداً.
- ستدفع لي اجرتي كل يوم.
- سأدفع.
- شيء ممتع أن نتقب الأرض فقط لنحصل على المال.
حدجته بغضب فكف وجهه المتغضن عن الحركة.
يتساوى هؤلاء كلهم، وما عليك الا ان تراقبهم وهم يرفعون معاولهم.
أصبح الثقب عميقاً أسود. رفعت سلة التراب ورميتها فوق الثلة الجديدة
الصغيرة، وناديت المساعد. خرج من الثقب فقلت:
- سننصب الخيمة ثم يمكنك الذهاب.

انه يبتهج اذ يلمس النقود ويسمع صوتها.
استدار المساعد ومضى نازلاً. كنت أراقبه الى ان اختفى في القرية.
أوقدت المصباح ورقدت على الفراش النحيف.
- أتوحد الآن مع التاريخ، انا متحرك وهو متحرك في سكونه معي.
كل شيء يهرب الى الظلام يتوحد فيه، ما عدا يدي الملتصقتين.
أمسكت المصباح وخرجت الى الثقب، دليت النور فضاءت الحافات المعتمة.
عدت بالمعول، ثم هبطت الى القاع.
- أمامي الظلام بكامله.
كنت واعياً بحدّة.
وكنيت أغرز بفرح ذلك التراب الذي تبلل وراح يتفتح بمعولي.
رفعت سلالاً كثيرة، ثم رن المعول. أزلت التراب ولمست صخرة.
- وصلت الى موضع ما.
صعدت الى السطح وتنفست هواءً بارداً، ثم شددت المعول وعلقت النور على خشبة غرزتها في جانب الثقب. كانت الصخرة ترن.
هويت عليها بعنف، انزلت الصخرة، وكنيت منثنياً خلفها منسحباً في الظلمة.
كانت يداي مملوءتين بالتراب، نفضتهما ولمست جسدي، ثم نظرت الى السقف. المصباح يحيط الحافة العليا بنور أشقر غامض.
أخذت أتمس الأرض بجائبي. زحفت الى اليسار وتصلبت حافة سلم تحت يدي. استدرت وأنزلت قدمي الأولى بحرص وضغطت على الدرجة. كانت صلبة فأنزلت القدم الأخرى.
هبطت درجات كثيرة وانتهى السلم الى ممر. الهواء ثقيل عطن.
- ستصيبني هذه القناة من الهواء الفاسد.
مددت يدي لأفتح طريقاً في الهواء الثقيل. ارتطمت بجدار. رجعت فوجدت ممراً جديداً فدخلته.

- اشتد ثقل الهواء، وتحول الى قبضات تعصر رئتي.
- ينبغي أن أعود الى الفوهة.
كنت أتخبط في الممرات.
- ساموت قيل خمسة الاف سنة.
انغرزت في التراب البارد.
- لن أجد الطريق. عسى ان يعود المساعد مبكراً ليعثر علي. وكان
الهواء أحزمة معدنية تشد وتضيق على جسدي.

* * *

الساعة تقف على الصفر

- هل انت عضو؟
- كلا
- هل لديك أوراق تثبت انتماءك لهذا النادي؟
- ليست لدي أوراق على الإطلاق.
- سوى البواب بزمته الرسمية وأشار بسبابته
- اتبع هذا الطريق وستصل الى الجحيم.
- ودفع الباب مقدمه ليقلعه. منعت ذلك بقدمي. نفذ صبره فقال:
- ألم أعلن، لا حق لك بالدخول، ماذا تريد؟
- انا مواطن، سمعت ان النادي مكان جميل فدعني ادخل.
- يا بني انتبه. ينبغي ان تنتمي لتحصل على امتيازات المشاركة في الأشياء. خذ هذه الورقة، اقرأ الشروط ثم قدم طلباً فيوافق عليه الاعضاء، وسأرفع يدي لك بالتحية عندما تجيء.
- أمسكت بالورقة فأقفل الباب.
- طرنق!
- انفتح باب سيارة ونزلت منها ثلاث فتيات مرفهات. تقدمت منهن مبتسماً وحييتهن. تتحين بازدراء فمركت الى الشارع.
- انني صامت في مواجهتهن. واذا ما تكلمت سأجعلهن يحضرن الى غرفتي، عاريات، يهرعن الي من بيوتهن البعيدة.
- الشمس تعكس القير الأسود وأقدامى تغوص خفيفة فيه، وجسدي ينفرد لزجاً بالعرق الكثيف.
- السيارات تقف أمام النادي، ينزل الاعضاء ثم يدخلون في قنوات الأضواء الشفافة.
- امتلاً جلد الحذاء بالقير وأخذت اقتلع خطواتي.
- لا اطيق ان أرى فتاة تحب رجلاً غيري. انني اكرهها. وشرطي ان تلحق بي جميعهن.
- فحصت ورقة النادي.

- يا لشروطهم القذرة.
أسقطت الورقة.
- وعند مفترق الطرق في نهاية المدينة خرج جندي من الكوخ الخشبي.
تعال. أين تمضي؟
- لا أدري.
- هذه الطرق تؤدي الى الخارج. أرني جواز سفرك.
- لا أملكه.
- ادخل هذه الغرفة، ستمر الدورية فتأخذك للتحقيق.
- ههاه. ههاه.

* * *

الخيول تركض والفرسان يضحكون

كانوا يتقاطرون: من الواحات، وضاف الفرات، والقرى الصحراوية.
لوريات مملوءة بالبدو والفلاحين والتجار والمهريين تزحف الى المدينة:
تطلع من رمل الصحراء المحيطة بها .
الغتر البيض والحمر والزرق تنسدل من الرؤوس على الظهر، والبنادق
على الاكتاف.
الخيام طويت. والجمال المضيئة تزحف.
كانوا كثيرين. وجوههم شاحبة متوترة. ينطون في الظلام.
- ثمة أمر مبيت وخطير.
اندلع الكلام بين عدة رجال يحتلون سطح مقهى.
- الجميع بالانذار.
نهضوا ونفروا في الطرقات، وانطوا مع الغتر البيض والحمر والزرق.

-2-

مكبرات الصوت تغمر المدينة بالصوت المتسق الذي يهوي من المآذن
الثلاث.
أيها المؤمنون. هل ترضون الله أن يسقط؟
البنادق بجانب الأجساد المترتبة على الأرض والممتدة كالامواج في
الباحة الضخمة.
ارتفعت الرؤوس الى القاضي مفتوحة الكفين، منفرجة الى الاعلى.
- من يقتل يدخل الجنة.
تطلعت الامواج وارتطمت الوجوه الغريبة بألاف غيرها.
الايدي تشد البنادق والخناجر.
صرخة القاضي جمعهم من قراهم البعيدة. وها هو يختتم خطبته ويترك
المنبر فتتفرج الامواج ويتقدم هو بينها.
خلع عمامته على باب الجامع ونشرها على كتفيه.
تحفزت الامواج وصرخت أصوات.

- سنعيد العمامة الى رأسك.
استطالت الامواج واختضت.
توقف القاضي وتوقف أثرياء المدينة الكبار على جانبيه وانتظمت الامواج
خلفهم.

-3-

كانت مقرات التجمع التي يقيمونها في منطقة واحدة متقاربة ممتدة في
الشارع الرئيسي، وثمة مقاهٍ صيفية بجانبها محتشدة بالكادحين.
تباحث رجال المقرات القلائل في الليلة الماضية عن الزحف الذي جاءهم
من الصحراء.

هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً في هذا العالم. خدعهم وجاءوا بهم. أما
كان الأجدر بهم ان يسحقوا الذين يسلبونهم حتى أجسادهم. الفقراء يقتل
بعضهم بعضاً.

المقرات أفلتت أبوابها، والمقاهي تحفز فيها الرجال.
زحف القاضي وخلفه الامواج ترفع سكاكينها وينادقها الى السماء.
التمت الرؤوس على سطح المقهى تحديق بالغتر.
- انهم كثيرون، اذا وصلوا سيحطمون المقرات ويضرمون النار في
الكتب والأثاث وسيصيدونا في الطرقات برصاصهم.
كان الشارع متحركاً بالغتر الغزيرة.
رفع أحد الواقفين في المقهى الصيفي يده، وأطلق عياراً نارياً. تركز
القاضي والغتر.

حمل الهواء طلقين آخرين، ثم أربعة، ثم ستة.
ضحك رجل في المقهى.
- القاضي ينقلب راکضاً متدحرجاً في نهاية الحشود.
استدارت الحشود وانطوت في الأزقة وفي دروب الصحراء.
أين بنادقكم أيها الجبناء.
انمسحت الغتر والبنادق من الشارع الرئيسي. ومن مقهى آخر في نهاية
الشارع مزقت الهواء الجاف الراكد رصاصات قليلة.
استدار حشد صغير فارا الى الخلف.

نزل الرجال من المفاهي واتجهوا نحو الحشد الذي انحصر. كانت الغتر
مبللة بالعرق والغبار متفرقة في الاتجاهات، والأيدي سقطت منها بنادقها
وسكاكينها وهي تحمل ارتجافات متصلة.

* * *

المعادلة

- انقذف لسانه خارجاً، ماسحاً شفته العليا.. وسطح صوته:
- لك علاقة بزوجتي؟
 - أجبته - ذكرت ذلك.
 - أقنعني.
 - طيب.
 - أخرجت عليه صور كنت التقطتها بالة توقيتية، أعطيتها له، وأخذ يفحصها ليتأكد من عدم التزوير، ثم رفع رأسه.
 - ماذا تريد الآن؟
 - (ماذا؟)
 - لست أدري
 - إذن لم حضرت؟
 - دفع تجاهي اللعبة.
 - ضعها في جيبك. وأخرج.
 - انه لا يثور. لا يثب لقتلي.. ربما سيقتل زوجته؟
 - ستقتلها؟
 - لا.
 - إذن أخبرني عما سيحل بها.
 - رأسه الثلجي لا يتحرك وسكونه هذا يضطهدني. لن يصرح طير الدم في رأسه، كما يقولون.
 - فتحت اللعبة وقلبت صوراً عدة، وضعت واحدة منها أمامه.
 - انها جميلة هنا.
 - صحيح.
 - ووضعت أخرى في عينيه.
 - وضع قبيح هنا.
 - ليس كثيراً
 - انه لا يتحرك، طويت الصور ونثرتها أمامه. نظر اليها برتابة .
 - ليس من رجل في العالم لا يثور لانتهاك أملاكه.

كان يلذ لي مراقبة الآخرين في ارتباكهم، غير ان هذا الرجل جاف للغاية، أخذ هو يعذبني باهماله اثاراتي.. أصبحت مضطهداً.
- انك تقسو عليّ.

قال:

- وحدك تقيس الألم وتحمل المقدار الذي يلائمك، كل العواطف خاضعة لك.

وتناول صحيفة وجعل يقرأ باهتمام.

انه يزداد إهمالاً لي.

تحركت نحوه.. رفعت الجريدة من يديه ودفعت قبضاتي في وجهه ورأسه.

تراخى على المسند محنياً جذعه الأعلى.

قلت له :

- ارفع رأسك.

لم يجب

وخرجت ببطء شديد .

* * *

الجلد، القوس

حددت الجسد الأنثوي المضرب الذي كان يصر على التسلل راعشاً غير أنني لم أستطع تفسير حركته الى غضب او استسلام. وعندما كانت تبتعد، تتوقف بيقظة هائجة، منتظرة يدي الزاحفة اليها. وحين تستقر كتلة جسدها بين أصابعي المتعددة وتهتز وتزيلي. نتبعت الى اننا كنا نتطارد عبتاً. قلت لها:

- انت تسحبيني في الفراغ، اقول لك للمرة الأخيرة : توقفي ولذهبي سوياً، او لنفترق الى الأبد. أطبقت جفنيها وصار وجهها جلداً محدباً بلا عيون.. وانهمكت في صمتها الكثيف الذي أنهى دذببتها الإنسانية.. ما هي هذه العلاقة المتأمرة؟ انه تماس افعله وأنا مندهش منه، بل استغربه.. لماذا استمر في هذا التواطؤ القذر؟ كان الجلد المحدب واضحاً أمامي.. وضعت كفي على ذراعها وقلت بحزم:

- لننه هذه المطاردة ونفترق . لم تتحرك. استدرت ومضيت في الطريق الضيق الى الخارج. (منذ سنوات توقف نمو الحب في داخلي، وأنهت اهتماماتي الرأسبة تلك العاطفة حجراً صغيراً، صلباً مجهولاً) يبدو انها توقفت، ماذا تفعل؟ أردت ان ألثقت لأرى ماذا سيحدث. - انني أتواطأ من جديد اذا التفت. (لكنني أغرم، أحياناً، بمعرفة النتائج) (لا بأس ان ألثقت عنقي يسيراً لأبصر بجانب عيني ما تفعل، دون أن أجعلها - اذا كانت ترصدني - تنظن انني انظر اليها).

- لا أستطيع الا ان أبرر، واني من الضعف مع الفتيات بحيث لا أتمكن من طردهن مباشرة.
- كانت تمشي خلفي محدبة رأسها للأرض.
- (أستطيع ان أوكد انني شعرت بالانفصال يتوسع بيننا ماسحاً الانعطافات نحوها)
- امتدت الأشياء وأحسست بوجوداتها النقيضة المميزة، وهي تنتصب أمامي متحدية وجودي.
- وانتهت الى ملامسة لذراعي نصف العاري.
- كانت تنزل رأسها الى جانب ذراعي وتمسه:
- (رأس أشقر منحدر، غائب)
- لماذا لحقتني.
- انها صامتة أيضاً : ذلك مفزع.
- (ماذا يهمني..)
- كنت غائباً.. وكانت تسير مع جسدي، بصمت حاد.

* * *

الصيدون

استحالت قدماي الى فضاء صلب، تصعدان وتهبطان على صحراء شاسعة.

اختفت تقاطعات الأضواء وضجات الآلات والناس..
(كان جسدي مدتي الوحيدة التي ظلت بعد انهيار المدن الأخرى)
أحدهم الآن يركض، بعيداً خلفي، يبحث عني في الوجوه الكثيرة..
اختفيت وراء زجاجة مقهى وراقبت الطريق : وعبر هو مسرعاً.
عدت من الجانب الثاني.

وجاء آخر من أمام فاتحاً لي ذراعيه، استدرت وفررت وقابلني آخر..
كانوا يتقدمون جميعاً من أمام وخلف. عشرات من الرجال والنساء
ليحاصروني.

مئات الأذرع المشعرة والأذرع الملساء.
آلاف من الأصابع المقوسة تجاهي.
كنت محاذياً لفندق ما.. فقفزت على السلم ودخلت إحدى الغرف.
حدقت في المرأة.
- أيتها السحنة، كم يودك هؤلاء القتل.
أقفلت الباب من الداخل، أمسكت وجهي وغيّرت كل شيء فيه ولوننت
جلدي.

هذا لهائي.. وأخذت أغني.
انتبهت الى صوتي.
- الصوت لم يتبدل.
صرخت، همست : لم يتغير.
(- سابقى صامئاً ولن يكتشفوا سحنتي الجديدة)
تركت الفندق ومررت بواحد كان يعرفني، حدّق بي ومضى. انتشيت
وانتبهت الى رجل يمشي إزائي.
- كم الوقت؟
- لا أدري
- لماذا لا تلبس ساعة، ينبغي ان...

- اصمت ايها الكلب، اتركني.
- انك تسيء اليّ.
- وأمسكني من أبطي وهو ينادي:
- ايها المارة، هذا الرجل يشتمني.
- تكسوا علينا، وأخذت أتصيب عرقاً.
- صرخ الجميع وهم يرفعون قبضاتهم.
- اعتذر له.
- لا تتعجلوا، فهو المسيء.
- هذا لا يقنعنا. اعتذر له.
- واقتربت من أذني فتاة سوداء الشعر.
- سينفكون بكلمات قليلة. والكلمات، يا صديقي، هواء لا ينتهي.
- كانت عيونهم تملأ جسدي وهم يتكاثفون.
- قلت له:
- اذا كان يرضيك الاعتذار فخذ.
- الآن.. أتركك.
- توردت سحنة الرجل وانصرف، وتبعه الحشد. ظلت الفتاة السوداء الشعر واقفة، وقالت:
- هذه هي مدينتك، لا تغفل ذلك.
- لا مدينة لي.
- انها مدينتك القديمة والأبدية، لنذهب الى بيتك، هيا.
- كانت ساقاي متخشبتي ومنفصلتين عن بطني، كنت متعباً للنهاية فسقطت مغمى عليّ بين ذراعي الفتاة.

* * *

الحقائب*

انغرز حذاؤه في الوحل المغطى بالطين. قاس كتل الأشواك والحشائش البرية المرتفعة، ثم مد قدمه في خط نحيف عارٍ.
انهم هناك خلف النهر ينتظرون في اكواخهم السرية. سأتفحص بنادقهم ثم نشعل النار في غابات القصب.
انه يمضي، كفاه طليقتان دونما حقائب وجمجمته مملوءة بالأشارات.
أنزل من القطار في مدينة (س)
استقل زورقا الى النقطة ل
(ستجد الطريق الى الأكواخ)
لقد تركه البلام في النقطة المعنية.
ستقودهم.
تعلمهم متى يطلقوا النار ومتى يوقفونها.
(ثم تنشر الثورة)
أصدقاؤه الذين سبقوه كتبوا اليه ان الزيت بانتظار من يسكبه ويشعل النيران، وعليه الآن تحويل كتب الثورة الى يديه ورأسه : الثورة الحارة التي تتناسل في جسده منذ ان تحرك الى غابات القصب.
النار هي الولادة النظيفة.
تكاثر الشوك الأخضر وأصبحت الأرض أكثر ليونة، وامتدت كتلة الطين اللزجة تبقي أطرافه السفلى. بحر القصب ساكن وأيديه ساكنة.
وانتبه الى كوخ مخفي.
- وصلت أخيراً
استعجل خطاه في نشوة عثوره على الكوخ.
- ساستريح قليلاً ثم أجمعهم.
تثبت حذاؤه في كومة الطين ومن خلل القصب تشرعت قبعات صفر .
- انهم ينتظرونك، ولكن ليس هنا. انما في مكان بعيد آخر .
تعبت جسده رصاصات كثيرة.

* نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة المثقف العربي، آب 1969.

تقدمت القبعات الصفرة والتمت فوق جثته. حملته أيدٍ عديدة وقذفت به في
النهر.
كان الرجل مسافراً من جديد، ودونما حقائب أيضاً.

* * *

أصبحت أقدامى طيوراً

- استدعاني مدير الاستقبالات.
- في الغرفة المجاورة ثلاثة ضيوف جاءوا لرؤية مدينتنا .
 - حسناً .
 - سهل لهم كل شيء، فرضاؤهم يعني ان مدينتنا جميلة.
 - كان الضيوف الثلاثة مستغرقين في أنفسهم.
 - توقفت قليلاً قبل ان ألقى اليهم بالتحية.
 - أداروا إليّ وجوهاً جافة وعرفت اثنين.
 - ايزنهاور وسارتر.
 - وشذرت الآخر مستفهماً، فأدلى بصوت مختل:
 - انا النبي ب
 - أشرت الى الباب
 - تستطيعون ايها السادة إلقاء نظرة على مدينتنا.
 - والتقى الثلاثة على الباب برهة ثم انفكروا مبتعدين.
 - أشرت الى السيدين ايزنهاور وسارتر.
 - انكما لم تزورا مدينتنا من قبل. اما السيد هذا، فهو يعرف بعض
 - الأقدام التي مرت من هنا منذ آلاف السنوات.
 - أيها السادة لا أعرف لماذا جئتم، وهذا فضول مني، فمهمتي ان أريكم فقط.
 - كان الثلاثة منفصلين وانا بينهم أمد يدي أمام عيونهم.
 - ايها السادة، مدينتنا لها تاريخ مهيب. كانت مركز العالم في ما مضى، ثم مرت بها عصور من الظلام. كان الناس غائبين في بيوتهم وكانت بيوتهم غائبة، ثم هزتنا مدن بعيدة أخرى: هيه ايها الغائبون اخرجوا. فتسللت الجموع لتبصر الضوء العجيب.

- ايها السادة، أرجو ان تكونوا معي. لقد وصلنا الى الحاضر، انكم تبصرون هذا النهر الأبدى الذي يكوم الثمار أمام العتبات، وهذه الشمس التمزجية التي تنفذ الى نهايات العتمة بدفئها البخاري. اما سكان هذه المدينة ايها السادة..

- ما هذا.

قفوا.

قفوا.

الدور اختفت، النهر اختفى.

ملايين الأجساد مطروحة على الرصيف الممدود الى غير نهاية. وثمة كتلة شفافة شاسعة من الغبار تأتي من الجهة المقابلة وتطمر نهايات الأجساد المرمية.

- ايها السادة، ثمة أمر غريب يجري. لنعد الى مدير الاستقبالات. التفت وكانت دائرة الاستقبال قد اختفت ايضا، وامتدت الأرض الصحراوية الخشنة الى الأبد.

- لنترك هذا المكان.

احتج واحد من الثلاثة.

- هناك مناجى لنا. لقد جئنا الى المدينة ولن نتركها قبل ان نخبرها.

- ولكن يا سادة أرجو ان تلاحظوا ان الأمر قد اختلف.

- الأمر سواء لدينا. اننا لا نعرفكم ولكنكم انتم الذين دعوتهمونا.

بدأت خطواتهم تتركني.

قلت بصوت مرتفع:

- هل أبقي وحيدا؟

ونظرت الى الصحراء مغتمة ثم لحقت بهم.

كان الثلاثة يتفحصون الأجساد، وكانت عيون الأجساد المائلة لصيقة بأقدامهم دونما حركة.

وامتزج التجمد لدى الجميع.

عبرنا آلاف الأجساد وظلت في الأفق آلاف غيرها ممتدة.

- كلهم متشابهون ايها السادة، انكم تتعبدون هباء.
- لم يابجوا بي. توقفت ونظرت الى الأجساد وصرخت.
- ايها المسحورون انهضوا، ايها المفنيون الأموات.
- ابتعد الثلاثة عني وهم متعاقبون.
- ركضت وأصبحت أقدامي طيوراً.

* * *

100 ذراع

كان السيفان الصدئان معلقين في بهو المنزل الداخلي.
حدقت بهما ملياً.
منذ متى هما في موقعهما؟
كانا قد استلقتاني برغبة غامضة منذ مساء أمس.
(ذكرت والدتي منذ زمن بعيد ان جدى الذي كان ضابطاً في الجيش
العثماني قد تركهما.)
قفزت فوق كرسي وتناولت واحداً منهما. كان ثقيلاً بعض الشيء.
مسحت طبقة من الغبار الناعم عن نصله بحذر.
(ملمسه يبعث حرارة مفاجئة في الدم)
أمسكته من قبضته، رفعتة الى الأعلى ثم طعنت الهواء وأعدته الى مكانه.
البهو خال، غير ان أصواتاً نحاسية قرقعت في المطبخ (انها امي).
(سيدخل أخي الكبير المفتاح ببطء ويدبر الباب، ثم يمرر وجهه
الممتلئ وقامته المتوسطة، ودون تحية سيدلف الى غرفة الطعام، ثم يرقى
الى غرفته في الطابق الأعلى. سأنهي اليوم القضية).
دخل المفتاح ثم طق الباب ودخل أخي الكبير.
واجهني بنظرة فارغة وهو يغلق الباب وراءه.
قلت له - تمهل.
نظر باندهاش للهجتي الأمرة.
قلت له - سنسوي مسألة معلقة قبل ان نتناول غداءك. تحفز وجهه
ووضع يديه في جيبه بظلولونه.
قلت:
- انت مسؤول عن وضعي الذي انا موجود فيه. ضحكك بشغف.
- هل تورطت في قضية ما.
ثم نظر الى فمي باهتمام.
- لقد مسحتني من خارطة الوجود الحقيقية، جعلتني ظلاً لك ايها
المبتز.
قفزت على الكرسي واقتلعت السيفين، مددت واحداً اليه.
- خذ، سننتابرز.

- هز حاجبيه واستدار الى غرفة الطعام.
قلت له:
- لن أتركك، سنتبارز بعد الطعام.
أمسكت سيفاً بيدي وأسندت الآخر على الكرسي، وركزت عيني على باب غرفة الطعام.
(منذ ان توفي أبي، وكنت صغيراً جداً، أصبح أخي الكبير حاكم البيت. لم يتفقدني في يوم ما. وإذا صدف فيتدخل بفضاظة وقسوة في أتفه الامور، ثم يتركني ملغياً فترات طويلة. كان ينهي هواياتي ويرغمني على الاقتناع بهوايات يخططها ويوفرها هو).
شدت مقبض السيف.
(عندما أقيس موقعي الآن، أحس ان الدنيا مختلفة عني. فلم يدعني هذا الأخ اكتشف شيئاً يلغي غرابة العلاقات والترابطات الكثيفة التي تحرك الحياة. ان فراغاً كاملاً يملأ صدري).
لقد أطلت في تناول طعامه.
هتفت
- انني أنتظرك.
انه المسؤول عن ترددي الدائم في النزول الى صميم حركة الحياة.
ترددت أصوات أقدامه وهي تتقدم.
أمسكت بالسيف الآخر، وقلت له:
- خذ
توترت عيناه بالغضب، ورفع يده ليصفعني:
- لقد هذرت كثيراً.
وجهت سيفي صوب صدره بثبات، تراجع خطوة مبتعداً عن سيفي. أمرته.
- خذ أهدأ، فقط، سيبقى.
- كن عاقلاً، الأخوة لا يتقاتلون.
- اللعنة عليك وعلى الأخوة، سأقتلك اذا رفضت مبارزتي.
تناول السيف وتراجع الى الحائط.
قلت:
- سأعد حتى الثلاثة ثم نهجم

ورجعت الى الحائط المقابل

تصميم
ساملك حريتي بحياتي
ساملكها الى الأبد

واحد

اثنان

ثلاثة

وخطوت بسيفي نحوه. انفتح باب جانبي ودخلت أُمي منتفضة :

- ماهذه الضجة؟

ثم صرخت بهلع:

- ماذا تفعلان؟

أجابها صوته الملتصق بالحائط:

- يريد أن يقتلني.

تقدمت مني.

صرخت بها:

- ابتعدي

ورفعت يدي.

(سأشطرها الى نصفين)

وكانت سريعة جداً. طوقتني كالوثاق. قالت:

- اشفق على أمك المسكينة. إنها لا تملك في الحياة غيركما.

فرقع السيف الذي بيد أخي ساقطاً على الأرض.

ثم خطا الى الباب الخارجي ليهرب. صرخت به وأنا أتملص من وثاق أُمي:

- أيها الجبان. قف، لا تهرب أيها الجبان.

أبعدت أُمي ذراعها

(لقد تحررت منك أيها المبتز. أحس بقوة هائجة تضج في جسدي)

وكانت أُمي في مواجهتي تردد نصائح وكلمات كثيرة لم أفهم شيئاً منها.

* * *

رجل له 7 أقدام*

- انتفض الوجه المرفه المرتخي الذي يمد ساقيه باستقامة أمامي:
- هل تعرف الفتاة التي كانت برفقتك اليوم في المطعم؟
- طبعاً. إنها تدرس في نفس الكلية، تعرفت عليها قبل عشرة أيام.
- هل تعرف أنها يهودية؟
- لم أسألها.
- لقد أخبرتك لئلا تمنع الأمور السيئة قبل وقوعها.
- لم أجبه.

اضطرب الوجه المرتخي ونهض عابراً إلى الباب وخرج.

المكان

غرفة في بناية تابعة للجامعة

في لندن

كنت أرتبط بالتلج الذي يتساقط نثراً خفيفاً ويتجمع حتماً على حافات البناية وفي الشوارع، قافزاً من دفاء الغرفة إلى الطرقات الخالية المغسولة بالمطر. قبعات منحنية قليلاً وأيدي مدسوسة في المعاطف تسرع (كانت جالسة وحيدة.. سحببت كرسيّ بجانيها. بدأت بالطريقة المألوفة: الغيوم رقيقة. سنرى الشمس. أدارت وجهها وكأنها تنتظر. سألتها - هل تحبين الشمس؟ سألت: أجنبي؟ أكدت لها بهزة من رأسي. وأضافت: إنني أيضاً أجنبية. ثم سألتني إن كنت أدرس هنا. لم أسألها عن وطنها فقد نسيت ذلك في اندفاع الأحاديث الكثيرة.

- كيف عرف هذا اللعين أنها يهودية.

هامش

العلاقة لا تبدأ من جوازات السفر
والدين. إنما تبدأ من التطلعات الإنسانية
العامة..

قرع الباب ثلاث مرات. هتف

- ادخل

* نشرت هذه القصة أول مرة في مجلة إلى الأمام ، بيروت، 5 حزيران 1970، عدد 302.

أغلقت الباب وراءها. وجلسنا سوية على مقعد عريض متباعدين تفصل بيننا فجوة صغيرة. أرخت ظهرها على المسند وأرخيت ظهرتي. كان رأسها يصل الى جانب كتفي. حدقت الى وجهها الرقيق والى يديها.

(هل هي مسؤولة عن الدمار؟)

أمسكت يديها. كانتا دافئتين وناعمتين. قلت :

- هل تعلمين بأنني عربي؟

بسطت يديها بين يدي وأجابت :

- نعم. عرفت ذلك من اسمك. لماذا تخبرني؟

- أخبرني أحدهم أنك يهودية.

- هناك شيء سري في الداخل أقوى من الكلمتين المتجردتين.

أنا د وانت ح. إن وطني هنا في الداخل. لم نقدم لبعضنا حين تعارفنا تضاريس وتاريخ جوازات سفرنا. إننا إنسانان في هذا العالم المملوء.

(سحابة من جراد تطير في الصحراء. مدافع لا تنضب)

وأضافت:

- هل تتحول العواطف والأحلام اللامحدودة والشخصية الى عنف دائم.

وهل الإنسان آلة حربية ترضخ لزمان محدود؟

- أحبك أنت. لكن دولتك تبدو خالفك.

تركت كرسيها

- لازلت تربطني ببلاد وسياسة وحرب. ذلك مؤسف. قد نلتقي.

ثم خرجت من الغرفة

(بواخر تنفخ صفاراتها في الموانئ ورجال مرهقون يعودون من سلمها

الملابس للمرفأ. البواخر تبعد في البحر وتغيب. والرجال يختفون في

الميناء. تلج لا ينقطع ودقات وهمية على الباب. وحروب غير منظورة. كل

البشر ينهضون، يتحركون بملايين الأفعال المختلفة في لحظة واحدة)

تحسست المكان الذي كانت تشغله الفتاة وقلت:

- انتظري قليلاً.

لغرفة المجاورة تتوسع وتضحي مترامية لاتبصر جدرانها. رفعت الشباك

لأهتف اليها من الطابق السادس أن تعود. كان الشارع لامعاً بالجليد الأبيض،

وخالياً تماماً.

* * *

القطار الليلي*

* نشرت هذه المجموعة في عام 1974، مطبعة الحرية ، بيروت.

رجل ما.. دون التقاء*

اشتبه الرجل المنعزل في غرفته بأنه سيموت.. وكان صراخ الأطفال اللاهين يصل اليه من اسفل المنزل.. وتخيل النسوة يتنقلن، مشغولات بأعمالهن اليومية، دون ان يعلم الجميع بان رجلا، في غرفة عليا، يموت وحيدا.

أراد ان يزحف من سريره الى الباب، فيفتحه، ويهتف طالبا المعونة، ولم يتجرأ على الخروج من فراشه لان الحركة شقت عليه، وتصور انه اذا صرخ فان روحه ستفصل عنه !
كان النزل الذي يرقد الرجل في غرفة عليا منه واسعاً وقديماً، وجميع غرفه مليئة بعوائل مهاجرة مضنكة.

- ماذا سيفقدون لي؟

التمس الرجل عواطف منقطعة وتذكر زوجته وأطفاله الثلاثة الذين قتلوا في نزاع قبلي منذ سنوات، وود لو بقي أحدهم الى جانبه.. لقد هرب من قريته والتجأ الى المدينة، واشتغل عامل تفرغ في احدى العلاوي، وكانت اجوره زهيدة لم تمكنه من الزواج ثانية.

(انفتح الباب وظهرت امرأة يلتصق بها ثلاثة أطفال.. تسلت ببطء كي لا توقظه، ومشى الأطفال على أصابعهم ووقفوا بجانب السرير ينظرون الى الرجل ويتفحصونه.

ابتسم الرجل ومد يده الى اقرب الأطفال وداعب رأسه.. كانوا جميعاً ساكنين ينظرون اليه بتمعن.

استقام في سريره ولمس المرأة.. نظر في عينيها ومرر يده على جسدها وهمس:

- عدتم أخيراً اليها الاعزاء.

ولم يجبه احد.

- انتم متعبون.. تعالوا وناموا بجانبني.

واندفع الى طرف السرير.

* نشرت هذه القصة اول مرة مع قصة اشراقات في مجلة الف باء، 6 ايار 1973، عدد 245.

- تعالوا.
- ولم يتحركوا.
- زوجتي العزيزة الا تسمعين؟ وانتم يا أطفال؟
احتد صارخا:
- تعالوا وناموا..
- استدارت الزوجة الى الباب، وتبعها أطفالها، وخرجوا)
- تعالوا ناموا، انتم متعبون، انتم متعبون.
- كانت الغرفة مظلمة، والرجل على سريره ينتبع صدى كلماته الأخيرة..
ومن خلف الباب ارتفعت ضحكة رعناء.

* * *

أفراح

اقترب خادم المستشفى من المريضة الثرية الجميلة، وهي تفقد وعيها في الطابق الثاني من المستشفى، وكانت ابنة فتاة جميلة حلمت مستحيلاً في حياته... انحنى فوقها وقبلها، انفرجت عيناها وصرخت.
ركض الممرضون والخدم ودخلوا الغرفة .
كانت المريضة قد فقدت وعيها.
وكانت أجساد كثيرة منحنية فوق خادم مستشفى تحطم في الحديقة عندما قفز مذعوراً من نافذة في الطابق الثاني.

* * *

إشرافات

نظر الشاب النحيل المتصلب الى فوهات في الأرض يسيل منها ماء.. وكانت الغرف المتينة التي شاهدها من قبل، مهدمة، وحجارتها مبعثرة على السفح الصغير المقعر.. التحم بصره بالحجارة المتناثرة وانفج فمه حزناً.

كان يحسن بالظما يشفق جوف فمه وأراد ان ينحني فوق الفوهات:

- هذه المياه لم تكن تتدفق سابقاً، لا بد انها باردة في هذه الجبال.

توقفت أصابعه فوق المياه والتمت على راحة يده ونهض.. ابتعد عن المياه وراح ينظر الى الغرف التي دخلها سابقاً.. لم يبق منها شيء.. (كانوا احد عشر مقاتلاً يحرسون القاعدة عندما انقضت الفانتوم الاسرائيلية واستشهد الحراس جميعهم) برزت بقع من الدماء تشع في زوايا الحجارة.. اقترب منها ولم يجد شيئاً.. برزت في اماكن مقابلة.. كف عن الذهاب وانحدر قليلاً.. (لقد فجرت القنابل المياه من الأرض).

انحسر طير من اعلى السفح ومر فوق القاعدة هابطاً ثم عبر دون ان يقف.. تابعه... ثم وضع يديه في جيبي قمصته وبدأ يرتجف. كانت الأرض لينة مبللة بالمطر الجديد في بداية الشتاء.. علقت بحذائيه كومة من الطين وتكاثر وعندما انحرف الى جانب صخري ضرب حذائيه وتحرر ثقله.

عندما وصل اول مرة الى القاعدة كان الرجال يتحركون وكانت القاعدة تبدو وكأنها تتحرك معهم وكان مقاتلو الدورة الجديدة تفيض عواطفهم وتتوحد مع القاعدة والافق والسلاح.

كانت المدينة بعيدة. وكان السلام الشخصي مضموناً فيها، ولكن هنا، ثمة هواجس وحركة أخرى، كانت المدينة تستيقظ أمام التخيل أشد سطوعاً، وتفاصيل دقيقة، ثم تغم وتلاشى أمام الحجارة الحقيقية والغرف المنحوتة في الجبل.. هنا يتكور الرجل على الأرض محدقاً في خرائط ومدن مفقودة. مدن بعيدة تصبح نقاطاً على الورق. ويتذكر بعض الوجوه ويحس بالحرارة والصدق.

- لم يبق شيء في هذه القاعدة، آلامى تتحرك في كل مكان وتذكر فجأة ان ثمة أشياء تملأ المكان... هناك الدماء الخفية التي تتأثرت من أجساد الشهداء... وربما بقيت بعض الايدي تحت هذه الصخور او قطع أخرى من

اجسامهم. ونظر مرة أخرى الى المياه المتدفقة وهي تتحول، ثم تتصلب الأرض.

أحس برأسه ثقيلًا وأمسك جبهته الملتهية. نزل رويداً بين الصخور مأخوذاً، وغاصت قدمه في المياه المتفجرة.. كانت برودة الماء ترجف قدمه وحرارة الدم تغلي في رأسه. ترك القاعدة ركضاً، وهويفيض قدمه نفصات متتالية.

* * *

العنكبوت

امتدت كتلة سمراء كثيفة من خلف الزجاج. احس الرجل الراقد أنه
يختنق، صرخ:
- أغلقوا الأبواب، الغبار سيقتلني.
هرعت امرأته الحامل الى سريره وهمست:
- انها مغلقة.
تباطأ صوته وهو يعلق نظرتَه بالبطن المنتفخة:
- عسى ان يكون صبياً.. حافظي عليه ليدوم اسمي.
تشنج الرجل الباحث عن الخلود ومات
لحظت المرأة موته. تحاملت على نفسها وفتحت الباب لتطلب نجدة، ثم
سقطت على الأرض.
كانت دماؤها تنزف والغبار المتدفق يتراكم فوقها.

* * *

آه

اتكأ الموظف على منصته الخشبية القديمة : ثلاثون سنة فقط في الوظيفة! ثلاثون فقط !
الموظفون الشباب ينتقلون في القاعة الواسعة، يتحاشون النظر اليه، وكانت الأوراق المكومة فوق منصته قد رفعت في الصباح.
- تقاعد، كتاب شكر، مطالعات جديدة، اصابير، رائحة الأوراق العذبة، الصراخ كان ضحكاً، مقهى، مقهى. يقولون ان الراتب سينقص ديناراً واحداً، لماذا تعمل من اجل دينار؟ تكوم الموظفون عليه فجأة وامتدت عشرات الايدي تضغط على يده الرخوة اللاهية.
ولم يجد بداً من الخروج وهو يمسك ورقة إحالته على التقاعد.
كانت مناضد متهرئة تتخلع عن جسده وأوراق صفراء تتطاير من رأسه.
كان يبتعد ويبعد.. ثم تلاشى .

* * *

نمور من ورق

كان الهاربون مجتمعين حول مائدة في زاوية معتمة ثم أخرجوا دفاتر من جيوبهم وبدأوا يقرأون تواريخهم كانت التواريخ تصطدم مع بعضها وتحدث جلبة، حين فتح الباب وانتصب شرطي أخذ يحدق فيهم. دس الهاربون دفاترهم خفية تحت المناضد، ثم ادخلوها بهدوء الى جيوبهم.

تقدم الشرطي سائلاً :

- اين دفاتركم؟

تناثرت أجوبتهم :

- ليست لدينا دفاتر .. أية دفاتر تقصد؟

- هاهها. وماذا خيأتم تحت المنضدة عندما دخلت؟ لقد شاهدتكم! مد يده وتلمس جيب احدهم ثم انتزع دفتره واستدار الى الجميع وأخذ دفاترهم. كانوا يرتجفون وهم ينظرون اليه.

انسحب الشرطي الى منضدة يشع فوقها ضياء مقلبا الدفاتر. كانت الدفاتر ممزقة، بيضاء متسخة لم يكتب فيها اي شيء، رفعها ورمها الى منضدتهم، ثم خرج.

* * *

الاختفاء

فتحت عينيها وهي تبتسم لي بمقت.
ملأنتي سخرية مشفقة وأنا احذق في وجهها.
ارتفع صوتها ساخطاً:
- اترك هذا المكان.
لم آبه بهتافها وتناولت جريدة وأخذت أقرأ.
(كانت تعتقد انني رمز عذابها، نتيجة ملابس افقدتها حبيبها، وجسدت لها انني السبب، ادركت هذا الامر، الا انه لم يثرني على توضيح موقعي، فالمسألة لا تعنيني إطلاقاً، وبالتالي لا تهمني حالاتها).
- غادر الغرفة والا اثرث حولك فضيحة .
كانت قد تركت كرسيها ووقفت أمامي.
طويت الجريدة ونهضت، حذقت في عينيها بقسوة وقلت :
- لم لا تغادرين انت المكان؟
التقطت حقيبتها اليدوية وهي ترتجف، فأتممت:
- انك تصدعين رأسي وطالما تغاضيت عن الاعيبك الحبيثة. سأعاقبك بشدة اذا تعرضت لي مجدداً.
(لم أدر حقاً كيف اعاقبها، فلم يسبق لي ان عاقبت امرأة، ان ما يهمني هو التخلص منها وحسب). تركت الفتاة الغرفة، ثم الشركة.
(ينبغي ان اتبعها لأبصر ما ستفعل. النساء يستطعن التوازن في النهاية).
بدت من بعيد وهي تستدير الى النهر، فأسرعت خلفها. وقفت على الحافة ثم أسقطت حقيبتها وقفزت، كان الماء سريعاً.
تساعلت وأنا انظر اليها وهي تخرج رأسها من المياه :
(اذا تركتها تموت، سأخلص من تنغيصها لي).
ولم أدر اي دافع أهوج جعلني أقفز نحوها، فقد ازداد كرهها لها عندما أبصرت عينيها الجزعتين.
حاذيتها وضربتها بقيضة يدي على مؤخرة رأسها فأصبحت لينة، سحبتها واستطعت رفعها الى الجرف.
وانتهت الى رجفة انبعثت من جسدي، كان الهواء يضرب ملابسني المبللة، وكانت الفتاة غائبة عن الوعي.

(يبدو ان ضربتي كانت قوية).
 علقت حقيبتها في ذراعي وحملتها الى الطريق العام.
 أوقفت سيارة أجرة ونقلتها الى شقتي، وعندما أقفلت الباب غمرني السلام، خلعت ملابسها وأرقدتها على سريري.. تأملت جسدها العاري (استطيع الانتقام منها الآن انتقاماً شريعياً حاسماً) .
 ولم أعتبط لهذا التصور السهل فغطيتها بدثار ثقيل وخرجت، وحين عدت كانت قد فتحت عينها وصرخت :
 - ما الذي جاء بك الى هنا؟
 قلت: انها شقتي.
 انزلت أصابعها على جسدها من تحت الدثار ثم ولولت دون ان تجرؤ على الخروج من الفراش.
 - ماذا فعلت بي؟ اين ملابسي؟
 - ستجف، لقد انقذتك من الغرق.
 - الغرق؟؟
 تساءلت باستغراب ثم انقبض وجهها :
 - هات ملابسي.
 سألتها بسخرية:
 - هل ستتحررين من جديد؟
 لم تجب.
 أحضرت لها ملابسها وكانت تقارب الجفاف، رميتها على الفراش وتركت الغرفة.
 كنت واقفاً في الممر انظر الى الأرض المتسخة بالبلل. ومرت الفتاة بجانبني ثم صفقت الباب.
 دلفت الى غرفة النوم وألقيت نظرة على سريري ثم مسست، محموماً، الدفء الذي خلفه جسدها العاري على فراشي.

* * *

القوس*

السيدة، السيدة

انها تثبت في الذاكرة، وتبسط ويده لتدخل في الأعصاب، لم اعد اميز ما اذا كانت قد ذهبت تماماً، انها تظهر فجأة من الماضي، كأنها ستبقى دائماً، ثم تغيب من جديد.

كنت مسترخياً في الغرفة الظليلة، احدى في ورقة ملتصقة بالأرض.
(ان الحماسة للأفعال تفقد حيويتها عندما نتبين ابتذال هذه الأفعال ويطاؤها: الوضع العمومي يدمر أفعالنا اليومية). لم تكن السيدة قد فارقتني الا منذ فترة قصيرة، ورغم إحساسي بنشوة تدخلني، الا ان عذاب علاقتي بها يترسخ، عندما أملت لها لي تماماً تفتحت مسؤوليتي ازاء العاطفة، وكنت اهرب من أية مسؤولية، لذا انكرت، وعاقبت العاطفة لكونها تحمل خضوعاً، ان وحدتي وحريتي ينبغي الا تمسا وانا الذي اقرر متى تبدأ علاقتي ومتى تنتهي:

انني اشعر بحبي مترقباً اقترابها مني، وعندما اتأكد من عاطفتها، اثور غاضباً على خيانتني. لانني بلا عواطف) انا والسيدة معاً.

- اخبريني، هل سنلتقي في ما بعد؟

- لا أدري سأرحل.

- سأتبعك اينما ذهبت، سنلتقي هناك.

- لا لن اراك.

(انني أدمر عاطفتها، لهذا تقذفني خارجها).

- ستكون أياماً جديدة لنا.

- سافر اذا تبعنتني لن أدعك تراني.

- يا صغيرتي المجنونة .

انها تذهب دون ان تبسم، كي تؤكد عزمها.

كان الهواء اللافح يتدفق من الشباك الموارب: دفعت الشباك بقدمي وأغلقتها.

هذا الهواء الخائق يمدد السيدة في ذهني الى أجزاء منتفخة ثم يغيبها.

* نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة الاقلام، عدد3، السنة الثامنة 1972.

السيدة لقد ترسبت في الرأس وأصبحت مرأة من الداخل تلوح للعينين
بانفها الدقيق وعينيها السوداوين التركيتين.

- كيف تعوم هذه التفصيلات اللعينة منفردة عن السيدة التي مضت؟
انها أحداث منسية.

السيدة. انني اعشقها بتوجس.

انني اطفو الآن في ذاكرتي، تغيب السيدة (في تلك اللحظة لم انتذكر ان
السيدة كانت موجودة) ان قلقي يكمن هنا : لماذا اخشى منح عاطفتي تماماً
لامرأة ما وبمسؤولية تامة؟

ان القلق يغلق نفسه بعد انتهاء العلاقة.

السيدة انها تبتعث وجودها من عدم الغرفة وتجلس الى جانب السرير،
فأمد يدي : المس كنتفها وجانب بطنها، وبطن فخذها ويعوم جسدي في
حرارته فأغلق عيني واطرد السيدة بدفعات غاضبة محتدة.. ويغيب جسدها
جزءاً جزءاً.. الا انها تبقى مع ذلك في الغرفة فأرضة وجودها على إرادتي
الرخوة. وتبقى السيدة الطافية تحضر وتغيب بتصميم كسول بطيء.. انني
انخلع من جسدي متصغراً في قمة رأسي وارقب ذلك الشيء الذي تركني
ليحيا مع السيدة بوجود تائق وغزير.

- انه سعيد منفصل عن العالم.

لكنني مخنوق بالمي وجسدي يتحطم.

انني مدين لك، فقد علمتني أشياء كثيرة كنت اكتشفها بدون ان احسمها،
وأحياناً يملأني الندم لانني تركتك ترحلين غير ان قلع الالم في زمن محدد
اجدى من تركه ينتشر في الجسم الى الابد.

الزمن يتركني.

انني اتكلى في صحراء جافة محرقة بالشمس القذرة. (لكي انجو او احافظ
على توازني علي ان أفر دائماً من المكان الذي يعتاد).
نهضت واتجهت مسرعاً الى غرفة صديقي. كان راقداً في سريره يقرأ
كتاباً.

رقدت على السرير الآخر في الغرفة : سألني بصوته المتعب اللامبالي:

- كيف هي السيدة؟

(نظرت الى وجه السيدة ولم اجرؤ على لمس يدها: أصبحت علاقتنا
الآن واضحة).

- نحن نقول النساء متشابهات. ثم نستثني واحدة دائماً.
- تقلص جسده النحيل الطويل وجلس فوق الفراش.
- يمكنك ان تركز الى فتاة واحدة؟ ألم نقل اننا نحتاج الى اكثر من عاطفة، الى عدة فتيات لنفقد عاطفتنا كلها.
- هنا تكمن حقيقة هربنا من الفتاة الواحدة. وعدم التورط في علاقة نهائية معها، قلت:
- عاطفتنا ليست كبيرة بل صغيرة جداً الى حد تشك في وجودها، لذا نحتاج الى عدة فتيات ليؤكدنها. ان العاطفة عندما تؤكد وجودها تكشف نفسها وتقبل التملك.
- نحن بحاجة الى عواطف تتغذنا من تاريخنا الدموي.
- (كانت السيدة قد ذكرت في مرة سابقة انها لم تعد تعرف كيف تواجه حاضرها ومستقبلها وانها يائسة من وضعها ولا تستطيع البقاء متوازنة في وضع اجتماعي وسياسي يناقض تكوينها ويحاصرها).
- كانت تتوقع - ربما - ان اتزوجها، لكنني كنت مبعداً الزواج عن رأسي، وكنت أوجل مباهجي وحياتي الى حين خروجي من البلاد، وراقتني فكرة ان نرحل معاً واتزوجها هناك، لكنني لم أقل لها ذلك.
- كان ياسي من ضرورة افعالي قد خفف حماستي ورجائي.
- لذا لم أدع عواطفي تلتهب وتلحقها.
- كنت أحس بالطمأنينة المطلقة عندما اكون بجانب السيدة، فهي مليئة بالحماسة والامل، كنت اتيقن انها تشبع عمقا بعيداً ممتازاً في داخلي.
- كنا جالسين ذات أمسية في مقهى، قالت:
- ان ما نفقده لا يعود، لكن ينبغي الا نفقد كل شيء.
- اننا خارج الأحداث .
- وبختني، وضربتني على كففي ضربة رقيقة.
- انني أعرف ياسك
- كنت أحاول تيقينها من ياسي، ومن ثم اسحبها الى ياس مماثل يفضي بها الى عبثية تقارب عبثيتي.
- لا جدوى من التغيير. ان جديتنا تجعلنا خارج الأشياء.
- اقوى! اقوى!
- مطنت الكلمات بفمها استهزاء .

كنت أود لو أحيطها وأقبلها وأقول لها أيتها الصغيرة دعي عنك هذه الحماسات الخاطئة.

- لسنا أغبياء يا صغيرتي، لقد تجاوزنا زمن إغماض العينين والاندفاع إلى الهاوية. ان العديد من الاغلاط نرتكيبها بحماسة ازاء اقتناعات متمائلة.

انها لا تفقد أملها في الامكانيات المجهولة.
وانتهيت الى انني أخوض معها طريقاً خطراً في الحديث. ان قناعة المرأة جذرية. وعلي ان ابعد هذا الحديث بحديث آخر لكي لا اجعل التناقض يبدو. نظرت الى وجهها الوداع بشغف.

(إلام ستمضي علاقتنا؟ كان هذا التخوف ينتزع أحلامي جميعها وكنت اطيع به كلما تبادر. وكان رعي يتأهب لسماعه من الفتاة نفسها).

- في النهاية تكتشف انه لم يتبق لنا شيء. ولم يكن لنا شيء. ان هذه النتيجة تفرغ حماستنا وفرحنا وحاضرنا. وان الشيء الوحيد الذي نحفظ به في هذا العالم هو نقاؤنا وصفاؤنا .

(أية حيلة مفضوحة نبرر بها هامشيتنا).

- لا يبعث الأمل سوى النضال.

كنت اتوقع ان تلقى علي درساً في وجوب النضال فعاجلتها بسؤال موفق.

- اعتقد انك تأخرت في العودة.

نظرت في ساعتها ثم نهضنا ومشينا بهل.

- لا أدري لم اخترتلك انت من بين كل أولئك الرجال. حقاً تساءلت (لم اختارتني؟).

(انه يؤس مغلق لها ان تختارني انا) .

وأحسست بنذالتي تطعنني بسمها فكيف لا انقذ هذه المرأة العظيمة.

كنت احس بالقنوط حين افكر بالزواج، وكان عذابي يتوسع.

(لم تذكر لي تسلط حبها لي. بل سمعت عنه ما ملاني فخراً).

هل يمكن ان ننفها ونغرب عن بعضنا؟

وأحسست ان وهمي سيتبدد. وانني سألقي من جديد خارج العالم فامتزجت

رغباتي مع قنوطي في القبول. قلت لها لأقنعها بوضع لا يفقد طمأنينتي وحضوري الدائم لديها:

- من الخير ألا نفقد الأمل. وسيحدد المستقبل شكله في ما بعد.

- انك تلقى نفسك في الوهم، عليك ان تدرك حاضرك لتكتشف مستقبلك.

انني امقت اللغات التبشيرية، أيتها السيدة، لكنني اصمت على مضض، ماذا يجدي تنويرك في كل شيء، ان معارضتي لكل ما لا يوافقني مع امرأة سيديني في النهاية كتلة محشوة بالكلمات لا غير.

ان رجلاً يظهر من اتجاه، وتظهر امرأة من اتجاه آخر، فيلتقيان فجأة دون ان يكون تاريخهما مهيئاً لهما ذلك. ويشعران انهما يجب ان يرتبطا، ويبدأ تاريخ موحد يسوقهما وينفي تاريخيهما المنفردين.

لقد كان تاريخي معزولاً، او هذا ما كنت ألح على تصوره ويبدو لي كأنه حقيقة وسط الخراب الذي كنت أعيشه وكنت موقناً ان انفرادي كان اختيارياً رغم إحساسي بعبئه وضرورة تبديله.

واذكر ما حدث بعد توثق المعرفة بيننا، انني انتشيت وانا امارس لعبة اغرائها، لقد كانت تنفتح لي انفتاحاً كاملاً، وأخذت ارقب احتواءها لي. كنت مسروراً اذ كشفت لي حقائق كنت اشك بوجودها في اعادة علاقتي مع العالم بعد ان كنت مقررراً ان عبثاً مطلقاً يحتوي كل فعل نمارسه او نتلقى به فعلاً من الخارج.

كانت الحماسة التي تواجهني بها السيدة تهز ياسي المتعمد. وتوقظني على اسئلة حاسمة.

- انك تقول ان العالم باطل، لأوافقك من خلال شروطه التي تعيشها هنا. الا يتبدل العالم في شروط أخرى. ليست شروطه مختلفة في مكان آخر؟ قد يكون. لكنني لا أستطيع رؤيته ب كله من هنا الا من خلال شروطه الحالية التي أعيشها.

- عليك ان تتسلف حياتك.

- هذا ما لا أستطيعه، انني محكوم، ولذلك انتظر ان تبدل الشروط نفسها لكي اتبدل.

أمسكتني من ذراعي وأحسست بنشوة خائفة.

- لم لا تساهم انت بالتغيير. ان كل تغيير يجيء من خارجك ييقبك في الوهم.

نظرت الى انفها الدقيق وعينيها السوداوين وساقبيها البديعتين، وأحسست ان قنوطي يدفعني للاستخفاف من حماسها فصمت.

ان عجز الإرادة يدفع للتبرير. واني ابعد مساهماتي وافترض ادواراً
مستحيلة تجعلني اعيش في وهمها زمناً غير محدد.

ملأتني الحماسة وانا ارى السيدة تتحرك نحوي دائماً. ان وجودها يخلص
وجودي. كان اهتمامها بي وبأفعالي ومشاريعي محيراً لي. اذ كنت انا
شخصياً لا اهتم بها مثلها. وخشيت من ذلك الاهتمام فلم اعتد ان اهتم
بمسائلها ولا ان يهتم بها شخص آخر وكنت اقبل اوضاعي الحياتية كما
توجد ولا افكر بمستقبلها ولا اسعى الى تبديلها، وان كنت اشعر بالسخط
دائماً عليها و (اقرر) ضرورة تغييرها.

- لقد أصبحت تمثالها.

وسخرت من تفكيري الذي التوى وأحال الإخلاص الى استعمال.

ان انطباعاتي تتناقض.

(كان قميص السيدة مفتوحاً من الأعلى وكان بامكاني رؤية استدارة
ثدييها، وأحسست برغبة لان ادخل يدي وامسهما : ولم اجرؤ).

وتبدل صوتها : أصبح عميقاً مرتجفاً.

- سنذهب سوياً.

سألته بخبث وانا ادرك ما تقصده.

- الى أين نذهب؟

وأشارت عينها البراقتان الى مكان نذهب اليه وأجبتها بتواطؤ:

- سنذهب، سنذهب.

وفكرت بالحرارة التي ملأتني فضغطت اظفاري في راحة يدي لأتماسك،
كانت الحرارة تغمر المدينة والطرق خالية من السيارات تقريباً. كنا واقفين
تحت مظلة السيارات العمومية، قلت لها:

- لنذهب الى مرسوم صديقي، انه هنا قريب .

وأشرت الى نهاية الشارع المقابل، وضغطت المفتاح في جيبي متمثلاً
انفرادنا.

- هل صديقك هناك؟

غزنتي برودة. لم اكن قد فكرت باقامة علاقة جنسية معها، اذ كانت
علاقاتي في حدود العاطفة المجردة.

رطبت الطعم المر الذي صعد الى حلقي. مازحتها :

- هيا

فضحكت بسرور منتشية وأنوثنها تدعو بلهفة (إنها تخشى ان يراها).
قلت لها مطمئنا:

- كلا، انه ليس هنا.

ابعدت رأسها وقالت بغضب:

- لم تريد أخذي الى هناك؟

فوجئت بقرارها المضاد. لقد دفعتني هي الى دعوتها، وكانت رغبته
جائشة، الا انها تستوقفني الآن وتلومني على دعوتها :

- كيف تريدني ان ادخل المرسوم وليس فيه احد انكم لا تختلفون.

وأحسست باهانة وضعي في تعميمها، وخفت من نتائج رفضها المفاجيء،
ربما أحسست بذنبها او تكون رغبة المرأة في التعذيب قبل الحب.

- انني اتركك وداعا.

قلت لها:

- انتظري، ماذا حدث؟

- كيف سؤل لك دعوتي الى هناك؟

انها تمثيلية سخيفة، لكن لن اخرج منها برغمي فكذبت عليها وكانت تعلم
انه تبرير ساذج :

- كنت افضل ان نجلس عنده قليلا، انه موجود هناك.

- كلا. انه ليس هناك.

واقسمت لها انه هناك. وطبعا لم يكن موجودا في مرسومه، وكانت تعرف
ذلك.

وتأملت اضطرابي الحرج وحاولت إدراك ما تفكر به.

الا ان المفاجأة افسدت علي التفكير.

لم اقل لها انها هي التي دعنتي وهي التي وضعتني في المفاجأة، ولم اعد
أعرف ما اجيب به.

(انها تترك تفكيرها يتوالى بغضبه، ولم استطع الجزم انها تختبرني:
انني ابدو لها غرا معدوم التجربة، لا يعرف كيف يخدع الفتيات، بل كل ما
يطمح له إمالة عواطفهن نحوه. وأحسست بمرارة من سلوكها، وانفصالا
يقضي على الحماسات التي بثتها في داخلي).

السيدة تستيقظ من غفلتها ووهما وترى الفراغ يحيق بها. ربما لا تريد
تلويث علاقات القلب، فالجنس يخلق ابداناً قرفة من بعضها وعواطف

مستحيلة التواصل، وفسرت لماذا ثارت وهي التي دعيتني الى جسدها، لكن أيتها السيدة. العواطف كامنة في الجسد في هواء خارجه لقد نبهتني السيدة الى ضرورة الجسد بدعواتها المتكررة، لكنها رفضت الاذعان في لحظة التحقيق. وثارت علي لانني ساخرجها من طقوسها التي كرس لها وضعها. واكتشفت ان علاقتنا العظيمة انقلبت الى لعبة يخفق احدنا في المضي الى نهايتها.

سألتني السيدة:

- هل تحبني؟

انتابنتي قوة مفاجئة فكذبت بمهل:

- نعم.

ثم انهار تماسكي. لماذا اكذب عليها؟ لكنها أحست ببرودة صوتي، فهتفت ببأس.

- سأسافر.

شعرت بفرح صامت لقرارها، فدفعتها لتوثيقه وتصميمه:

- انه خلاصك الحقيقي.

ووضعت أمامها بتصميم وغد، كافة الامكانيات البائسة التي تشدها بالأرض والبشر، وكشفت لها بمواربة خبيثة انني ذلك الرجل الذي لا يعتمد عليه ولا يمكنه تقرير اي خلاص لإنسان آخر.

لذلك لم أفاجأ حين أعلنت لي انها سترحل. وطلبت منها ان تدون لي عنوانها لاكتب اليها الى ان يمكنني اللحاق بها:

- لن تجدني.

قالت لي صديقتها:

- سافرت اليوم، ذهبت الى المطار لتوديعها وكان آخر ما قالته لي ان أبلغك بحياتها وحبها.

كنت وحيداً، فأحسست بمكانها الفارغ وبوجودها الخفي يلامسني ويدخل الى أعصابي ودمي.

وأحسست بحزن حقيقي يغزوني ببطء. وبذلك الراحة المموهة التي شعرت بها بعد تخلصي منها تحال الى تعذيب لخياراتي ومواقفي الزائفة المدلسة.

اننا نعيش بفظاظة حياة ناقصة متوحشة بزيفها اللائق، فتيات، فتيات،
انهن اليأس الذي ينساق اليه أولئك الرجال الذين فقدوا شيئاً من تماسكهم
وتتظيمهم.

لقد عاد وجود السيدة يحثني على التماسك.
انني لم أعد أصلح لشيء أيتها العظيمة، لم أعد. عندما كنت فتياً، كانت
تهزني بطولات مهووسة وآمال عميقة، لكنني الآن بعيد عن كل شيء.
أيتها السيدة، أيتها السيدة، لا تتعدي اتي اعبدك، السيدة نفر من ذهني، لم
استطع إيقافها، وأعود الى وحدتي التي اريد الخروج منها.
انني لا انتمي الى أي شيء، متحرر من وجودي، الصفاء يتوفر لي.
لكنه يفقدني الحركة ويسجنني في السكون. السيدة، أه لو كنت هنا، لتبذل،
لقد كنت أجدد انتمائي، لكنك تركتني معلقاً، كنت قد هزرت رقادي الطويل.
معادلة :

إذا اتجهت العواطف احادياً فجميع العلاقات الآتية ستفرغ من صميميتها،
وتصبح الذاكرة آلة لتزقيم الفتيات.
كانت حركاتنا محددة ومعلومة تكشف نهايتها مسبقاً. أيتها السيدة انني
اكتشف أفعالي المدمرة وفي أي كهوف خالية نمضي الى مجاهيل مبتذلة.
انني اختنق ... اختنق..

لوح ساعي البريد برسالة أمام عيني، ثم وضعها على الطاولة.
(رسالة من الجبهة)

قفزت يدي عليها، قرأتها بعجلة وأعدتها ببطء:

- وصل الى خلاصه.

السيدة انبثقت كناية بقميصها وتورتها الأبيضين ونفتني من الأشياء، انها
صامتة. تستجوبني بعينيها النفاذتين.

انغمزت بالسيدة..

(هل صحيح ما كتبه؟ لا أدري.. ربما غلبته حماسة خلاصه، لكنه وضع
جديد لم يمر بنا. لو كان مشابهاً لوضع معلوم لاستطعت كشفه وتقديره).

لقد هبت في الحماسة. وأضياء ارتقابي الممل لعالم جديد.

- ساذهب وسأعرف كل شيء.

ادخلت الرسالة المطوية في جيبني.

حلم يقفز من أغوار صحيفة ليصيب فكرنا: من كوبا والهند الصينية وإفريقيا وأمريكا الجنوبية: هذا العالم يرتبط ويظهر دفعة واحدة يتحرك نحونا.

- بدأت اتحرك نحو مكتب المنظمة في مدينتنا.
- قلت للرجل الذي ظهر من بين قامات الشباب.
- وصلت منه رسالة.
- كان المسؤول فتياً يميل شعره الى الصفرة.
- أشار الي فجلست وانسحب الرجال الى غرف وممرات جانبية.
- اردت معرفة مكانه؟
- انه في عمان.
- ماذا يفعل هناك؟
- نسب الى الجهاز الاعلامي.
- ظننت انه في القواعد مع المقاتلين.
- ليس شرطاً ان يقاتل. كل يؤدي دوره في الثورة.
- وماذا يقدم في الجهاز الاعلامي؟ سألت بريية خافتة.
- كان الشاب يقرأ جرداً حسابياً. لم يجب.
- كانت الكلمات الآتية منه تدوخي بأحلام جديدة (انهم رائعون، حياة مغامرة لا تقبل).
- حدقت بوجه الفتى المنحني وقلت.
- اطلب الالتحاق.
- رفع وجهه ليحدد جدية كلامي فاكذت:
- ينبغي ان اذهب الى الجبهة.
- اذا كنت مصمماً، سندبر لك ذلك.
- قلت في لهفة : متى؟
- أجاب : متى شئت .
- اللهفة الغامضة تترسخ في تصميمي وتجعلني انتشي واغيب من مكاني.
- لطالما حلمنا بخلاصنا، اننا نحققه.
- كانت المدينة منفصلة عني. لم اعد اشعر بتقلها، وتلك العلاقات التي طالما جعلتها مخففة، لتأجيلي حياتي، نفضتها جميعاً، مرة واحدة، وشعرت

بارتياح لكوني تحررت من ارتباطات كنت مقسوراً على اقامتها. الدائرة تتوضح بعد خروجي منها. ان اللعبة ستستمر، والذين بداخلها يدفعون صراعاتهم الصامتة وغيابهم غير المحسوس. ان اللعبة لا تنتهي.. لكنهم لا يملكون ما يؤكدون به وجودهم الا الصراع. انن فلعبتهم لن تنتهي وسيضطر كل طرف الى اسقاط الآخر باستمرار داخل الدائرة. ولن يتاح لهم ان يخرجوا منها الى الحرية والحب.

- انها حياة دامية بليدة. فالرغبات المحاذرة في الحياة ستقتلنا الى الفراغ حيث نطفو بلا أفعال ولا مستقبل ولا ثورة، وطالما كان الإنسان صفراً ليس له وجود، فكل شيء باطل.

السيدة. انهم يطاردونها في الطرقات، انها تعرف ما سيصيبها لو أمسكوا بها، أه أيتها السيدة لو نفق معا وانقذك منهم، سانسفهم جميعا.

لكن السيدة تطير وتنعم بسلامتها في مدينة أخرى بعيدة.

- سنزودك برسالة وتسافر، انهم يعتمدون على نقتنا بك.

كان المكتب هادئاً وبارداً.

(يجب ان تأتي).

لقد خلفتنا الصراعات وحيدين، لا نؤمن بالماضي ولا باية رابطة للنفاعات، لذا كانت دعوتنا للرحيل.

الحرية تغري.

تركت المكتب هارعا بلهفة.

- سأترك هذا المكان المسمم، ساذهب الى الجبهة. كنت فرحاً انتقل من مكان الى آخر. وتذكرت الشركة التي اعمل فيها. ان اربتياحي يتضاعف عندما سأترك وظيفتي، تلك الوظيفة القذرة التي ارغمت عليها لا تدبر مصروفاتي، سأخلص من نظام مدمر يقنن أفعالي وأيامي، وينهي حريتي. رفعت حقيبتي المغطاة بالغبار، ومسحتها بتأن ثم وضعتها بهدوء فوق كرسي.

كان مسؤول المكتب يضرب على الآلة الطابعة اسماً مستعاراً لي. اخرج البطاقة الخضراء ثم الصق صورتني عليها. كنت احرق من فوق كتفه الى الورقة التي وقعها ثم دفعها نحوي. تأملتها من جديد وأمسكتها بحذر.

- انني أعلن وجودي في الثورة باسم مستعار.

وضعت الورقة في جيبى مع رسالة، اكد علي ان اسلمها الى رجل بالذات في عمان.

كانت السيارة الضخمة متهيئة، رفعت حقيبتي فوق المسند العلوي.
- أصبحت المدينة منفصلة عني تماماً ولا يربطني بها سوى هيكل السيارة الخارجي الذي يتخطى الأرض، ان وطناً جديداً سينتقل معي. ان أرضي هي قلمي.

كانت فتاة صغيرة تبكي إزاء السيارة، رجعت نظري من الخارج وحدقت لاتكهن من هو المسافر الذي تبكي من أجله تلك الفتاة. كان الجميع يحدقون فيها ويحنون لعواطف مفتقدة، وعندما تحركت السيارة أخذ شاب يجلس أمامي مباشرة يلوح لها. وكانت تلوح له من بين دموعها.

- سيعود اليك أيتها الفتاة! سيعود يوماً. ولكن نحن من سينتظرننا، ونكن له عواطف حقيقية؟

كانت السيارة تقطع الشوارع المفضية الى خارج المدينة. وكنت احرق في الأشياء بنظرة أخيرة لا مبالية.

كان الطريق يمضي في الصحراء والشمس المدمرة تضمحل وتغوص في نهاية الأرض السمراء، والهدوء الذي يبعثه الامتداد الممل يدفع تصوراتي للاحتداد. المدينة انها تعود.

كنت محاصراً في غرفة ما. وشعرت بانني يجب ان اخرج من جسدي والا انفجرت. فتحت الباب وخرجت راكضاً، ركضت بجانب النهر ورأيت قارباً مربوطاً بجذع شجرة. قطعت الحبل وتركت القارب يتمايل بي. صرخ رجل واقف على الشاطئ..

- زورقي... أين تذهب به؟

مرت بطة نهريّة بيضاء من جهتي الثانية. لم أدفع رأسي نحوه. استدرت وكان يخلع ملابسه ويقذف جسده تجاهي. جذفت الى الجانب الآخر.. تركت القارب على الشاطئ وهبطت راكضاً.

(مدينة بديعة للغاية ! يحاربون فيها بأفواههم!)

لقد مضت المدينة وأصبحت بعيدة جداً وملاحها بدأت تتلاشى من ذاكرتي خلا اشباح غير محددة تطفو من وجوده. ان هذه الصحراء التي يعبرها ظل السيارة تؤكد خروجي. نظرت بنعاس الى الخارج وكان الظلام

يغطي الصحراء. حاولت الا افكر بشيء الا ان حماستي كانت توقظني
(سأجده في عمان، سيتفاجأ بمجيئي) وتمثلت اللقاء العاطفي بيننا.
ولاحث أضواء بعيدة في أفق الصحراء.
هتف رجل من مقدمة السيارة:
- وصلنا الحدود الأردنية.
سألت شرطياً بدوياً مشيراً الى أوراقنا:
- أين نختمها؟
أوما الى كوخ صفيحي مضاء:
- هناك.
كانت الريح الباردة توقظ جسدي المحتر. ووقفت وسط الطريق الهاديء انتفس عميقاً.
يا وطن
عندما يغيب الاسم، او تولد الهيئة لأول مرة بينهم، سيكون الاسم: وطن.
قبة من ضوء، سرية، مرمية بعيداً، على أرض ملتوية سوداء، تلوح.
أرض صحراء دموية في السهل، حزمة هائلة من ضوء مساكن..
نقل مدفعه الرشاش الصغير وأسندته الى الأرض .
- لا أحد، لم يحضر بعد.
لم أر لون الأرض هناك، كانت الأرض تنتهي عند الحواجز ويصبح
لونها هواء.
(يتكدس العالم جميعه في اي فعل حقيقي).
امرأتان وصبيبة تمرق اطرافهم العليا خارج النافذة المطلة على الطريق.
بيانات وصور قتلى معلقة على الحائط، غابت الاطراف العليا وأصبحت
الفجوة المنورة ساكنة : الفراغ ثابت، والاطراف العليا تتحرك من البداية الى
النهاية وتعود من جديد.
مد (الوطن) رأسه وحدق نحوي دون تحديد ثم عاد الى الباب الأمامي.
نهضت. وضعت ذراعي على حافة النافذة وكان مطر خفيف يسحق على
الأرض، والفجر الشتائي يمر خارج الدار ببرده الثلج. توقفت سيارة
صغيرة قرب الباب، وهبط رجل.. فعدت الى كرسيي. كانت الخطوات
الثقيلة تقترب من الغرفة .
دخل الرجل والحارس فأخرجت الرسالة، قراها وأشار بود.

- نحن نرحب بك معنا.
- التصق كرسيانا.
- (قبة من ضوء، سرية، بعيدة : الهواء الأسود الثلجي يتسرب داخل السيارة المنطفئة).
- امتلات الممرات والغرف خلال دقائق معدودات برجال ناعسين.
- سألني:
- هل انت متعب؟
- نقبت. فقال لي:
- هل تأتي معي؟ سأزور القواعد.
- (مددت لها يدي فنظرت، ولم ترفع يدها فانسحبت بدون حزن).
- سنذهب أولا الى 127
- وتذكرت الطريق المتعرج المحاذي للمدينة حين تطلعت من اعلى المرتفع: ليس هناك إنسان واضح ولا بيت مكشوف :
- اضواء في الهواء.
- نظرت اليه : هيا.
- وأجاب : هيا.
- استدارت السيارة فوق جبال عمان.
- سنهبط الى الغور.
- كان الانحدار مستمرا والحرارة التي داهمتنا اضطررتنا الى فتح النوافذ وخلع الجاكتات. كانت الطرق والوديان خالية، أشار الى منزلق بين كتلتين هائلتين من الحجر.
- انهم يقصفون هنا دائما. ونحن معرضون لمجيء مفاجيء في كل دقيقة.
- انه يلقي كلماته بتلقائية تتناقض مع الخوف الذي أحسست به (على المخاطر تعويد نفسه على المفاجأة) انبتقت في الاسفل كتل كثيفة من الاشجار الحمضية:
- سنصل الى اول قاعدة لنا.
- انني اندمج في حقيقة محددة.
- ابتسم الرجل
- هذه المنازل يسكنها رفاقنا بعدما دمرت سكانها القنابل والطائرات.

استدارت السيارة في طريق ترابي واخفاها الرجل تحت غصون شجرة ضخمة.

- سذهب الى القاعدة مشياً.
قفز الرجل من فجوة بستان وتبعته واتجهنا نحو منزل مخفي.
- تفرقوا، انها الطائرات.
انتشر المقاتلون بين الاشجار، ومرت الطائرتان، كضوئين، مزمرتين تيرقان.

همس : أرى من الأفضل ان نذهب.
كنت أتعجل الدخول في السيارة لئلا تصطادني الطائرة برصاصها.
أين هو؟ ربما أجده في اربد.
كان القنوط يلازمي لاني لم التقي به عند وصولي، وتلمست الرسالة التي بعثتها اليه خطيبته.
كان الظلام يهبط عندما دخلنا الى مناطق عسكرية نظامية واحسست براحة متعبة كئيبه.
في اربد.

لم اجد صديقي. قال احدهم: ذهب الى دمشق في عمل عاجل. قلت للقائد - لقد ذهب الى دمشق.
اجاب - لنعد الى عمان.

كانت أنوار السيارات تغمر الطرقات وتتقاطع بسرعة بين المدن.
كانت يقظة شاملة لجسدي وفكري تستيقظ وانا اهبط في شوارع عمان.
- السيدة تظهر شفافتها فانزلق بهدوء وحنين اليها واحس بخطاي اكثر وقعا ورسوخاً.

أيتها السيدة. انني أستطيع الآن التصميم والحسم.
القائد والرفاق، انهم يتحركون جميعاً وانا جزء منهم.
- صديقي كنت اتملك مفاجئاً بي وانا ادخل المقر. لكنك لم تكن هناك. لقد سلمتني خطيبتك هذه الرسالة.

- مسست الرسالة برقة - وقالت بحزن ان احثك على الكتابة.
صديقي بقامته الطويلة ومشيته المهله المخدرة يفعل شيئاً ما في دمشق.
سألت مسؤول التنظيم : الم يعد؟

- نعم.

- اين هو؟
- في المستشفى.
- فر هدوئي وأخذ شيء ما يتقرغ من رأسي:
- ماذا حدث له؟
- لا أدري.
- بتر تصوراتي الفلقة بجموده.
- ثم أوقفني أمام باب وفتحته ببطء. كان صديقي راقدًا وجانبه ممرضة :
- ماذا حدث له؟
- أصابته شظية قطعت ساقه.
- كانت الساق ملفوفة وبارزة تحت الغطاء .
- لبثت صامتاً محدقاً الى وجهه المخدر . انساب صوت خلفي:
- كانت الطائرات تضرب سيارات المواطنين على الطريق فتوقفوا ليختبئوا فأصابته شظية. القنابل لا تميز.
- جلست بجانب صديقي.
- (سيارة تطير في الهواء منفتحة على أجساد محترقة ممزقة، تسير ثم تهبط في الوادي وتحترق ساق مبتورة محتفظة بحذائها على جانب الطريق العام. طائرة صغيرة لامعة ترمي سلسلة من القنابل والرصاص على فقراء مهاجرين. موتى، موتى. محترقون على الطرقات. انهم لا يكفون عن القتل).
- ساق مقطوعة. ممرضة.
- (وجه أصفر مخدر. صديقي نائم لا يعلم انني قربه. انه لن ينهض لعناقي، خطيبته تسلمني رسالة. انها تنتظره، تحلم ان يعود اليها يوماً. غبار يهب في طرقات مدينة مدمرة، أصوات تدعو وتدعو. خطابات، اعتذارات عن الثورة. شبان صغار يكمنون في مخابئهم. الفتاة المشتاقة سارسل اليها الساق.
- كلا. كلا. انها ستمد يدها وتلمسها، ستصرخ وتوقظ صديقي، صديقي الراقد في المستشفى بساق واحدة. أصابعي تتشنج. صمت. ضجة. لا شيء.
- رجال يحملون انفسهم ذنوباً لم يقترفوها كان سيقانهم جميعاً قطعت. السيدة تبكي. من اخبرك أيتها السيدة : انك ترين ساقي وقد قطعت. كيف ستتفاجأ به أمه وأختاه عندما يقرع الباب وعكازته في يده).

- انت هنا.
- أخرجني الصوت من جسدي، كان الفأند واقفا قرب الباب.
- نحن جميعا بحاجة الى من يخفف عنا.
- لكنه بساق واحدة.
- فتح صديقي عينيه وتصلب وجهه عندما رأيته ثم ابتسم، جلس بجانبه أحرق فيه الألم، سألتني بمرح.
- أتيت أخيراً.
- ابتسمت وأنا مرتج، ثم فاجأني:
- سنعمل سوية.
- كان وجهه جادا ومصمما فوق السرير الأبيض.

* * *

البنادق

- تستطيع الآن ان تتحرك، بل وان تمشي قليلا. ارتخي جسد الرجل فوق السرير، ونظرت اليه الممرضة بعبوس:
- سنسمح لك بالمشي، ولكن داخل الغرفة فقط! انها تبدي جفاءها كلما التفت عيناه بعينيهما. لقد تعود عليها وهي تعود منذ شهر : منذ أسره. أراد ان يعبر لها عن امتنانه ولكنه يصطدم بنقاطيعها الصارمة. عندما خرج الطبيب العسكري تقدمت منه وسوت فراشه. رفع يده وحطها على يدها وأمسكها برفق. سحب يدها بعنف ووبخته أعاد يده بحزن ووضعها الى جانبه وتمتم معذراً.
- وتكرر دخولها عليه لعيادته وكانت تلين يوماً بعد آخر وهو ينكيء على يدها ويخطو في الغرفة.
- وعندما ضغط على يدها وهي تعيده الى السرير لم تسحب يدها وتركته الى ان فك أصابعه.
- أنباته : انتهى علاجك.
- وتذكر لجان التحقيق الكثيرة التي زارته.
- حنق في وجهها ودفع الباب. أمسكها من كتفها وقبلها. وأحس بحرارتها وهي تحتضنه.
- ابتعدا عندما سمعا خطوات قرب الباب، وظهر ثلاثة جنود قال أمرهم بخشونة : هيا.
- تسأل الرجل - الى أين؟
- أجابته :
- الى السجن، هل تريد المكوث هنا الى الأبد؟
- أدارت الممرضة ظهرها، وأحس الرجل عندما اقتيد انها كانت ترتعد.

* * *

الجدران

ضربته ريح الليل. ارتجف وهو في مكمته. كانت القرية العربية كتلا منحنية في الظلام. وكان معزولا فوقها.

- كادت القرية تتحرر.

ازداد ارتجاعه في الريح القارصة. خشي ان يموت من البرد. وكانت ثمة أشباح تترصد في مفارق الطرقات.

زحف فوق المنحدر ملتصقا بالأرض وأصبح قرب وسط القرية. كانت الأصوات العبرية تمر بين فترة وأخرى في الصمت الشامل.

ادرك الرجل انه محاصر ولن يستطيع النجاة اذا اكتشف. لم يعد يشعر بالخوف، استمر في زحفه واستدار خلف بيت قديم وانصت عبر الباب.

وكانت دورية معادية ترن خطواتها قرب الجدران.. (انا وقدرى) همس الرجل وقرع الباب بخفوت واستمر يقرع. سأل صوت محاذر - من؟

أجاب الرجل بهمس - افتحوا الباب، انا صديق ثم نهض على ركبتيه وولج الى الداخل.

سأله صاحب المنزل.

- من انت؟

- هل ينفذ الضوء الى الخارج؟

- كلا

أضاء الرجل عود ثقاب، ورأى الرجلان بعضهما، وانطفأ عود الثقاب.

قال الرجل - كنا مجموعة في مهمة خاصة وعدت وحدي.

سأخبتىء هنا فترة قصيرة. ان قواتنا ستحرر القرية. اجلس الزائر

الليلي على كرسي وناوله رجل الداخل رغيفا وجبنا ثم قال:

- لو اكتشفت، سنموت كلانا.

أجابه الثاني - أعرف ذلك.

زحف صوت نسائي:

- من معك؟

أجابها الرجل :

- هس. ثم زحف اليها.

بدأت معالم الفجر تضيء معالم القرية. وكان الرجل غافياً على كرسيه، وعندما سمع أصوات صاحب المنزل استيقظ وتناول الفطور. وكانت المرأة تختلس النظر إليه.

قال صاحب المنزل:

- لو حدث شيء، اختبئ هنا.
وأشار إلى غرفة مليئة بركام من اليراميل والقناني والغارات.
- أقفل الباب وراءك وافتح الباب المؤدي إلى الخارج، وقل أنك تسلفت دون علم أحد واختبأت.

قال المحارب:

- لن أعرضك لخطر.
ابتسم صاحب المنزل برضا وحذر زوجته من الإشارة إلى الرجل مع الجارات.
راقب الرجل، من خلف الستارة، الجنود الأعداء وهم يمرون في القرية.
عاد صاحب المنزل ظهراً وقال:
- انهم يتحدثون عن إيقاف إطلاق النار، يقولون سيتوقف الليلة في الساعة الثامنة.

كانت أصوات القذائف تشد وتتكاثر، ابتسم المحارب:

- انهم يقتربون، لن يتوقف القتال.
انقطع جري الأعداء في القرية واقفر الطريق. وتسلفت بعض النسوة بجانب الحيطان وهن يحملن أرغفة خبز وحزماً صغيرة من الخضراوات.
فجأة طرق الباب. نظر الرجلان سوية تجاهه ثم التفت عيناهما. قفز المحارب إلى الغرفة الصغيرة وأغلق بابها. وسمع المحارب رجلاً يتحدث بسرعة عن إيقاف إطلاق النار، وصوت إغلاق الباب.
هس صاحب المنزل - انه جاري .

قال المحارب:

- انها خدعة... لن تتوقف الحرب.
في الموعد المحدد لم تطلق قذيفة.
في اليوم الثاني أطلقت قذائف قليلة لكنها ليست قذائف حرب.
وعندما حل الليل، قال المحارب:

- لم تتحرر القرية، لقد حوصرت.
أجابه صاحب المنزل:
- لا عليك، امكث هنا ما دمت حياً، لم يدم احتلال الى الأبد.
نظر المحارب بحزن الى البيوت التي انطوت في الظلام. في منتصف
الليل، سمع صاحب المنزل صوت انفتاح الباب وانغلاقه، قفز من فراشه
وتقدم بحذر الى فراش المحارب. كان خالياً، فتح ستارة النافذة وحدق في
الظلام.
كان المحارب يزحف في الليل ويصعد السفح. ظل يتابعه بنظره الى ان
اختفى في شعاب الجبل.

* * *

- انتبه يا رجل. ماذا أسديت لحياتك طيلة السنوات الماضية. ولدت في مخزن وستموت فيه.
- رفع الرجل عصاه خفية، وضربني على ساعدي ثم على صدري.
- فتراجعت الى الباب قائلاً :
- تمهل.
- لا ترني وجهك ثانية والا قتلتك.
- مضيت وألم ينبض في ساعدي. (في هذه الممرارة، كلما حاولت خلق منفذ للحرية أدركت فناءه).
- ترسخ فيّ، وأنا احدى من بعيد الى المخزن، ان التاجر مسؤول مباشر عن تناقضاتي، فتقدمت منه بتصميم وهنقت به:
- اخرج ايها النذل.
- رفع عصاه وتقدم مني فتتيت قدمي وركلته على خصيتيه فسقط على الأرض.. وعدت بهدوء مطلق.

* * *

الشاهد

انحدر الصياد وسط الضباب الصباحي الى حافة النهر، وألقى سنارته الصلبة في المياه. وكانت زوارق الصيادين تعبر غائمة. ثقلت السنارة وأخذ الصياد يسحبها:

- ربما نشبت في صخرة.

ثم ظهر رأس امرأة. أمسكها من شعرها وجرها الى الجرف. كانت امرأة عارية مقتولة وممزقة، تتدلى حلية فوق صدرها.

ارتجف الصياد والتفت. لم ير أحداً، خلص حبل سنارته واقتلع الحلية وفر راكضاً، وراحت الأمواج تضرب الجسد الممدد على الجرف.

أحكم الصياد غلق باب كوخه وأخرج الحلية من جيبه، ضغط عليها فانفتحت وبرزت صورة شاب يبتسم. اقتلع الصورة بأظفره وقرأ خلفها - الى حبيبتي. والى الأبد-. رمى الصورة على الأرض وابتسامتها تتوسع وكانت المياه الطينية تضرب جثة المرأة الممزقة على الجرف.

* * *

العلبة

- ضغط على الأكرة ودفع. كان الباب مغلقاً.
قرع الباب بقيضته فألمته، تراجع وهتف:
- افتحوا، افتحوا، لقد عدت.
كان قد ارتحل منذ سنوات الى الخارج ليعمل ويصبح ثرياً. انتظر انفتاح
الباب أو رأساً يطل من نافذة، ثم صاح مجدداً:
- افتحوا، لقد عدت.
ناداه أحد الجيران، عندما سمع صخبه:
- لا يوجد أحد في المنزل. رحلوا منذ سنوات.
اتحنى وحمل حقيبته، وسار لا يعرف ماذا سيفعل؟

* * *

العصفور الأسود

- صرخ صوت:
- عبد الرحمن.
 - تلقت الرجل : همم!
 - أمره الصوت:
 - قف.
 - سأله ببرود - ماذا تريد؟
 - تعال هنا. بجانب الجدار هنا.
 - همم!!.
 - هبت نسمة خفيفة عبر الظل.
 - سأله الصوت - لماذا طلقت أختي؟
 - كانت تخونني.
 - صاح الصوت - أختي لا تطلق.
 - صرخ عبد الرحمن، ثم هبط يتلوى ببطء الى الأرض والخنجر يدفعه، واستطالت ساقاه فغمرتهما الشمس، ومضى الآخر عابرا الطريق، ثم اختفى.

* * *

الشاحنة

التمتعت بقعة من الضوء على كتفه.. كانت تتحدر بخط مستقيم من النافذة الصغيرة المنحوتة في أعلى الجدار، رفع كتفه فنزلت البقعة على صدره. كان رأسه تجاه الآخرين في القاعة المربعة الرطبة، ينظرهم للمرة المليون ويستشعرهم مترسبين كحصوة في أعماقه، متفرقين بمناماتهم الملونة، منسوجين على الأفراسه الأرضية. كلهم يذوبون في بؤرة صغيرة واحدة تخترقه وتتكتف في أعماق صدره، وتعجزه عن الحركة. استدار إليه جسد طويل ممد، الى جانبه، قائلاً:

- أعطني سيكارة.

وكان الجسد يوازيه من الجهة الثانية، يداه معقوفتان تحت رأسه، وعيناها يابستان بين جفونه، والأجساد الأخرى خطوط متعكسة مثبتة بالأرض.

(لا تملك ان تحبهم او تكرههم. هم موجودون وانا موجود دائماً) انه ليدهش في هذه اللحظة بالذات. ان شخصاً آخر يحل في جسده يتعامل مع الآخرين: يتكلم ويتناقش ويتحرك معهم، لكنه هو، في الداخل، بعيد عنهم، في مكان آخر منفصل، لا مسافة بينه وبين هذا المكان.

كانت العينان اليابستان اللتان تجاورانه، تتحركان على جريدة بعيد محدد، لا يتغير، وكان يراقب وجهه، وحين اتصلت عيناه بحدة، في جزء من الجريدة.. سأله:

- هل من جديد؟

استمرت العينان في اتصالهما بالجزء، ثم انفصلتا وتراخت الجريدة بين يديه وهو يواجهه.

ضحك الجسد، وعاد يسأله:

- هل من جديد؟

امتدت الجريدة في يده مستقيمة، لكنه لم يأخذها، وتصلب وهو يراقب بقعة الشمس، تصل الى عنقه، وعناقيد الدخان تتجمع في عمود الضوء الكثيف، تمتد فيه وتتصاعد متسلقة ثم تتلاشى منتشرة في هواء الخارج.

انحسر وعيه، وأصبحت عيناه فجوتين ملامستين لجميع الأجساد المنطرحة مرتبطتين بأنبوبيتين في أذنيه اللتين رهفتا للاحاديث الكثيرة:
- لم يعودوا يتكلمون الا لماماً عن السير الطويل في الشوارع، لم يعودوا يفكرون بالحرية.

التمعت عينا جاره وهمس له:

- كف عن أحلامك الثقيلة بالحرية.

حقاً، كان البشر والطرقات والمباني في مدينته خطوطاً مشوشة ولم يعد يقوى على تصور أبعادها.

واضاف: ان يدي ترتجفان كلما تمثلت نفسي ألمس امرأة وزحف الى جانب أذنه - اتبعني عندما تبدأ الزيارة. انتشر الحراس في باحات السجن وفتحت أبواب الزنانات وأخذ السجناء يبحثون عن أقربائهم وأصدقائهم ويهرعون اليهم ثم ينتحون بهم بجانب أحد الحيطان.

بقي الرجلان جالسين، لم يكونا ينتظران أحداً يزورهما، ودلف ذو العينين المتيسيتين الى المرحاض وأشار للثاني ان يلحقه، ثم اشرب بعنقه الى النافذة الصغيرة ورفع يده اليه ليحذو حذوه.

كان صوت نسائي يتحدث من أسفل النافذة الى أحد السجناء بلهفة، كان صوتاً عذبا وأنثوياً.

قال الثاني - ما الأمر؟

وضع الأول يده على فمه وقال - اسكت. ثم أخذ يرتعش.

خرج وتركه معلقاً يده في النافذة.

لم تكن لديه رغبة في الخروج الى باحة السجن ورؤية البقع البشرية المتناثرة فيها. ورقد في مكانه، وعندما انتهت الزيارة وأخذ السجناء يعودون وأيديهم محملة بالأكياس المنتفخة والقذور، خرج الرجل الأول من المرحاض وهو يمسح عرقه بكفه، وعاد وتمدد بجانب الرجل الثاني، وقال له- لقد ذهبت المرأة. كان الرجل الثاني مشمزاً وأراد ان يدير ظهره ويبتعد عن ذلك الرجل، عندما سمعه:

- أليس عظيما ان تسمع صوت امرأة ليست منتبهة اليك، في الوحدة الجارحة التي نعيشها، انها الحرية.
لم يجبه، كان يائسا للنهاية، والنور راح يشحب في نافذة الزنزانة العليا.

* * *

أضواء

كان يصحو دائماً على فقره، وحين لا يعود ينظر الى شيء معين. ينثني بين الأرقام الضخمة للنقود ومسررات لا تحد.. كان يتوقع أحياناً ان يلتقط حافظة مرمية، محشوة بأوراق نقدية كبيرة، وفي أحيان أكثر يعثر على حقيبة مليئة بأكداس الأوراق النقدية.

(حين تصبح النقود بين يديه ينتهي حاضره، ويطفر الى مستقبل بعيد، في مكان بعيد، لحياة لا يمكن ان يظفر بها في مكانه).

لكنه حين يذهب الى عمله الوظيفي المستتب تأسره العلاقات المحددة وتمحي من ذهنه أكداس النقود ويصبح ضليعاً بالمسائل الصغيرة.

كانت الشمس تنشر أشعتها الصباحية الدافئة عندما انطلق الموظف الى دائرته ماراً بجانب حديقة عامة. أخذ يوجه أنظاره المتفحصة الى كتل النباتات المتكاثفة وانتهى الى شيء أسود بارز بين فسائل نخلة.

تمهل الموظف في مشيته مضطرباً وقلبه بخفق، وكان بعض الموظفين يلوحون من بعيد مسرعين الى دوائرهم، وفيما عداهم لم يمر أحد في الطريق المنعزل بجانب الحديقة. (ستمر بضع دقائق ويبدأ الدوام، سيخلو الطريق من المارة وعندئذ سالتقط الحقيبة، سأقول غداً انني كنت مريضاً ولم أستطع الحضور).

استدار الموظف حول الحديقة متباطئاً وهو يرمق موضع الحقيبة لئلا يسبقه أحد إليها.

(كنت أعلم أن حلمي سيتحقق يوماً)

أصبح الطريق خالياً فلم يضع الموظف لحظة. رفع ساقه فوق السور الوطيء. دانت الحقيبة المخفية سوداء صغيرة، انتشلها من بين السعف الصغير واندفع الى جانب السور. كان يود ان يختفي فوراً من المكان وأراد ان يركض ولكن خشي ان يراه أحد فيشك فيه.

تمهل بعد ان قطع أربعة شوارع (سأعود الى المنزل، هناك أستطيع إخفاء النقود ثم أمزق الحقيبة وأتلفها).

استكان رعبه بعد ان أغلق منزله خلفه. ولم يستطع الانتظار وفتح الحقيبة. كان في أعلاها ثياب نسائية قديمة، ابتسم الرجل، وضغط الثياب بكفه ورفعها. وأبصر في قاع الحقيبة رأس امرأة أسمر مقطوعاً، وكانت

عينا الرأس مفتوحتين. اشتدت نقات قلبه وأعجزه رعبه عن الحركة والتفكير.

سقطت الحقيبة من يده وارتطم الرأس بالأرض. خيل إليه أنه يسمع لغطا أمام باب منزله.. أعاد الثياب بسرعة الى الحقيبة وأغلقها، وأرهف سمعه وذهب الى الشباك مرتجفاً، ودفع بأصبعه جانب الستارة ونظر الى الخارج ولم يبصر أحداً.

تساءل برعب (ماذا سأفعل؟ سيقولون انني القاتل لو وجدوا الرأس لدي، لن تصدق الشرطة لو أخبرتها بالحقيقة. ستنتهي حياتي وسأفقد وظيفتي). توقف الموظف (سأخرج بها ليلاً وأرميها وأتخلص منها) وعاد بحسب الوقت الطويل الذي سيمضي. ربما شاهده أحد وهو يحمل الحقيبة. سيقبض عليه بلا شك. وتساءل (ماذا لو دفنت الرأس في حديقة منزلي؟ كلا سيكتشف يوماً ما ويقبض علي).

(اسمه وعنوان وظيفته ينشران في الصحف. القاتل؟ اللص؟ اللص القاتل).

(انني لم اقتل ولم اسرق، لكن من سيصدق؟ وهل يوجد أكثر اثباتاً من رأس مدمى مخبوءاً في حقيبة داخل المنزل؟ ربما سيعثرون على الجسد في مكان آخر. وما فائدة الجسد؟ لقد قطع الرأس لاختفاء شخصها، إذن الرأس هو المهم. والرأس هنا في المنزل).

توتر جسد الموظف. رفع الحقيبة وخبأها تحت كومة من الأفرشة والأغطية. ثم خرج الى الطريق ليؤكد من عدم مراقبة منزله. وأبصر ثلاثة أطفال يلعبون بعيداً.

نظر الى حائط جاره (ماذا لو قذفت الرأس الى منزله؟ لكن صوت الارتطام سيجعلهم يقفزون ويكتشفون الأمر). وعند حلول الظلام كان الموظف متعباً وجائعاً وصورة الرأس المخبوءة ماثلة أمامه.

(سأعدم في النهاية. لا بد من التخلص من الرأس). خرج الموظف من منزله وسار في الطريق المؤدي الى الحديقة العامة وهو يراقب المنعطفات والزوايا بدقة. ثم عاد الى منزله وأخرج الحقيبة وانتزع الرأس ممسكاً به شعره الطويل ووضع في كيس ورقي كبير.

- لن يشك بي أحد. سيعتقدون أنني أحمل بعض الأطعمة. توقف الموظف بجانب السور، وتهيأ كما لو كان سيتبول إذا حدث وإن سأله أحد ماذا يفعل.

لم يكن هناك أي عابر في الطريق المظلم. فتح الكيس ودفع الرأس إلى أرض الحديقة ثم طوى الكيس ووضعه في جيبه.

وصل إلى منزله (الحقيقية. لا بد من إزالة البصمات عنها).

أمسكها ومسحها بعناية ثم رفعها وخرج مسرعاً. توجه نحو النهر ونزل ببطيئاً، المنحدر الترابي، وصار بجانب الماء .

جلس ووضع الحقيقية أمامه. وبعد أن تلفت دفعها بقدمه حتى غاصت (ستمحو المياه البصمات المتبقية). ولم يستطع الموظف ان ينام. كانت الرؤوس المقطوعة تحدد فيه من حقائب كثيرة مصفوفة حوله.

وفي الصباح جلس الموظف خلف مكتبه وراح يحدد في الأوراق التي بدأت تلتصع في أطرافها بقع الدماء.

* * *

الالتحام

كان المطر كثيفاً وسريعاً والريح تدفعه مدوياً مرتطماً بالطريق. والبيوت مغلقة، وأسترة النوافذ مسدلة. كان الطريق خالياً والمطر يتسطح تضيئه كتل النور المرتجة من الأعمدة الكهربائية.

أسرع رجل مبتل بجانب الحيطان راكضاً وانزلقت قدمه في فجوة ترابية وهوى نصفه الأعلى إلى الأمام، وأحس بالماء ينفذ إلى صدره والمطر ينغرز في شعره وملابسه.

كانت قدمه تؤذيه وأخذ يدفع رجليه متقدماً بصعوبة، وكان بيته ما يزال بعيداً (سأصل بعد قليل وأطلع ملابس المبتلة ثم أضع فوقها الأغذية الثقيلة). والتمعت في ذهنه صورة امرأته واقفة خلف الباب تمد رأسها بين دقيقة وأخرى لتلمحه، وعندما ستأكد من وصوله ستفتح الباب وتخطو إلى الخارج وتقول له بصوت قلق - تأخرت كثيراً، فيجيبها باعتياد: أقفلنا المطعم وأتيت مباشرة. لماذا لم تنامي؟ فنقول له: لا أستطيع النوم قبل أن أراك. ثم يدلغان إلى المنزل.

أحس أنه لا يستطيع الخطو وألمه يشتد، وكان المطر قد بل حتى ملابسه الداخلية. توقف تحت شجرة يوكالبتوس ورفع قدمه وفركها، اشتعلت فيها نار من الألم (سأستريح قليلاً ثم أمضي. البرد قاس). طوى رجليه الصحيحة ومد ساقه المصابة وجلس.

كانت الريح تسوق المطر على جسده المحمي خلف الجذع وساقه الممددة (أنها تقف خلف الباب ترتجف من البرد) يبيلها المطر عندما تمد رأسها من الباب. سأصل بعد قليل وكالعادة يكون الأطفال نائمين) ونظر إلى ساقه المغمورة بنثيث المطر (ترى هل أستطيع العمل غدا؟ سيفكر صاحب المطعم حالتي ويساعدني. لكنه سيجد بديلاً لي فوراً إذا لم أحضر. ترى هل يعيدني إلى العمل إذا شفيت؟) وابتسم بوثوق (طبعاً سيعيدني إلى العمل. سبع سنوات وأنا أعمل عنده وتعرضت من أجله لثلاثم وضرب السكارى والقساة لكنه ليس وفيًا. ماذا سيأكل الصغار وأهمهم لو انقطعت عن العمل؟) انتابته حماسة فقلص ساقه واستقام على الرجل الصحيحة، وأراد أن يتقدم إلا أنه لم يستطع أن ينقل رجليه خطوة واحدة. وأحس بالفرع يغمره وتضاعف البرد اللاسع لجسده (ترى ماذا سيحدث؟) أنه لا يستطيع التحرك (سأجمد في

البرد) عندما وعى انه سيموت، حذق مرتاعاً في الطريق والى الدور المقفلة (سيمر شخص من هنا وينقذني) لكن الطريق كان خالياً والوقت متأخراً. وانتظر الرجل طويلاً مرور عابر. وسرى في جسده الاعياء (لن أموت. من يطعم الصغار؟). ونظر الى بيت كبير أمامه مظلّل بالظلام (سيدخلونني ويطلبون لي سيارة اسعاف وربما أوصلوني الى منزلي). كان الألم يسحقه وهو ينقل خطواته البطيئة ويغوص في الماء متجهاً الى بوابة المنزل. تمنع في الجدار باحثاً عن زر الجرس، ولمحه فمد يده وضغطه ضغطة خفيفة وانتظر وهو يمسك حديد البوابة المتقاطع ويتشبث به. وشعر انه يتداعى، وزحف يائساً الى الجرس وضغط بيده عليه واستطاع ان يسمع الرنين المتصل في الداخل. وبدأ عبر الزجاج نور يضيء، فرفع يده عن الجرس وأمسك الباب بيده الرخوة. صرخ رجل من النافذة:

- من؟

قال الرجل نحو مصدر الصوت بإعياء:

- افتح الباب. سأموت من البرد.

صاح الصوت ساخطاً:

- هذا ليس فندقاً!

هتف الرجل متوسلاً:

- من سيطعم الصغار، أدخلني لوجه الله.

صاح الصوت : انتظر .

قوي الرجل فجأة وتماسكت يداه على الباب، ولم يأل به بالمطر الذي يغمره ولا بالريح التي تتلج جسده، وانتظر صوت الباب وهو ينفتح. لكن الباب لم ينفتح.

(ذهب ليحضر المفاتيح. لا بد انها في غرفته، سيحضر المفاتيح). انطفاً النور وبدأ الوقت الثقيل يفقده توازن جسده، وكانت ساقه الصحيحة مثقلة ومتعبة لا تستطيع الاستقامة. هوى الرجل على ركبتيه وجمع قبضة يده وأخذ يضرب الباب ويصرخ متوسلاً:

- افتح الباب، افتح الباب سأموت.

ولم ينفتح الباب.

وشع فوق المياه ضوءان قويان يبرقان وصوت سيارة سريعة. كان الرجل ممدداً عندما توقفت السيارة، وانفتحت أبوابها وقفز منها أربعة رجال. وجهوا نحوه أسلحتهم، وقرع أحدهم الجرس هائفاً:
- الشرطة.

أضيت أنوار عديدة وخرج رجل سمين يرتعد وهو يمسك مسدساً بيده.
قال للشرطة :

- كان اللص يقرع الباب عندما خابرتكم.
- التمت أعين الشرطة على الرجل الممد، وسأله المفوض.
- هل هو هذا؟
- تقدم السمين بحذر ناظراً إليه وقال خائفاً.
- انه هو، انه هو.
- رفع رجال الشرطة الرجل المملطخ بالطين، وأدخلوه سيارتهم وكان مغمياً عليه. وضعوه بينهم، وانطلقت السيارة. التفت المفوض الى الشرطة قائلاً:
- سيموت من البرد.
- وكان نثار المطر يغمر زجاجات نوافذ السيارة المقفلة الدافئة المسرعة.

* * *

زوجة المحارب

عادت زوجة المحارب من مقر القيادة صامتة، متذكّرة وجه ضابط الاستعلامات وهو يستثنيها من صرامته :

- لا أخبار جديدة.

(لا أخبار جديدة)

(لا أخبار جديدة)

(لا أخبار جديدة)

كان منزلها مغلقاً، وعندما فتحته، وجدت طفلها الصغير جالساً بجانب جدته العمياء وهي تقص له حكاية قديمة.

قطعت الجدة حكايتها وسألتها : ماذا يقولون؟

وضعت الزوجة حقيبتها على المنضدة وأجابت بتهديد.

- لا أخبار جديدة.

تعلق الصغير بها سائلاً : ماذا جلبت لي؟

أخرجت من جيب معطفها كيساً صغيراً من الحلوى ووضعت في يده.

عندما تكون وحدها، وتنجو من عيني الطفل المتعلقين بها، تبكي بصمت ويمثل زوجها الضابط بين دموعها. انه حاضراً باستمرار في الغرفة. كانت ملابسه المعلقة وأحذيته وأدواته وعطوره وكتبه ومنفضة سجائره تجعله يتنقل بينها ثم يوجه لها كلمة بين وقت وآخر وضحكته المرتفعة تهز خمودها.

انه يرتدي ملابسه ثم يضع لمسة من العطور على شاربيه، ويجلس على الكرسي يدخن، يتحدثان معاً. يلتقط الطفل ويضعه على فخذه، يداعبه ويرقصه ثم يهبط ويقدم الطعام لأمه العمياء.

كم كانت تفرح عندما يبتعد ليلة عن منزله؟ فقد اعتادت وجوده الغريب الأسر.

(لا أخبار جديدة)

عاد الضابط قبل أسابيع من عمله وقال لها - سنذهب الى الجبهة.

وكانت حماسته وبهجته قد خففا قلقها وجعلها تتساق خلف حماسته وهو يحدثها عن النصر، وعن الوقت الذي حان للثبات. وبدأ يجمع أدوات حلائته واستبدل ملابسه ثم حمل حقيبة صغيرة وقبلهم جميعاً وهو يضحك.

قالت إحدى جاراتهم: سمعه ابن عم زوجي وهو يتحدث من راديو العدو في مقابلات الأسرى، ويبيع بثحياته لكم. وأخذت امرأة أخرى تطرق الباب مستبشرة: سمعه ابني بأذنه، وقيل لهم انه شوهد وهو يتحدث في تلفزيون العدو وان صورته نشرت مع مجموعة من الأسرى، لكن اسمه لم يرد في قوائم الصليب الأحمر.

كانت المرأة تنصت والأمل يشع على وجهها متذكرة الدرقية التي نالقتها قبل أيام كثيرة (وقع أسيراً بيد العدو، وسريته العسكرية على استعداد لأجابة جميع طلباتهم).

ذات مساء حضر أحد الجنود وقال انه كان يعمل تحت إمرته. وفي ذلك الصباح أصيب بشظية صغيرة في كتفه فحملته الى الطبيب العسكري فعالجه وطلب منه الذهاب الى دمشق للاستراحة. فقال للطبيب: هل انتهيت؟ انها لا تؤلمني كثيراً ثم خرجنا، وقلت لسائق سيارة القيادة ان يذهب به الى دمشق. لكنه أمرني بالعودة الى الدبابات، ولم أستطع مخالفة أمره، وعدنا الى الميدان، حيث ركب دبابته من جديد وانطلق الى الأمام. وفي الليل عاد اثنان من طاقم الدبابة وقالوا ان الدبابة اصببت وانهم جميعاً قفزوا منها واضطروا تحت ضغط هجوم العدو الى الانسحاب، وانهما شاهدا الضابط ينقذ الى الجهة اليسرى، لكنهما لا يعلمان ماذا حل به.

ننتظر قدومه طوال الليل، لكن العدو تقدم ووصل الى المنطقة التي اصببت فيها دبابته. ولم نعلم عنه شيئاً منذ ذلك الحين.

كانت الجدة العمياء جالسة، صامتة تستمع الى رنين الجرس. قالت للزوجة:

- من؟

قالت الزوجة - انه صديقه. يسأل عن آخر أخباره. وكانت المرأتان تهبان عند سماع صوت جرس الباب او التلفون وكانتا تتوقعان عودته في كل لحظة وتحجبان اليأس بالأخبار التي تصلهم وبحب الحياة. قالت الجدة - سيعود. قلبي يحدثني انه سيعود. وكانت الزوجة مبددة في التناقضات وفي الأيام التي تمضي دون ان يظهر، لكنها تحمي أملها بشجاعتها قالت: أجل سيعود. واستمرت المرأتان تفكران فيه صامتتين، وتنتظران جرساً يرن.

* * *

العيون*

* نشرت هذه المجموعة في عام 1977، دار الحرية للطباعة، بغداد.

العيون*

شع ضوء مصباح (اللوكس) في باب المقهى الوحيدة على الطريق وكان المطريهطل في الخارج، وانكمش الركاب الخمسة في زوايا التخوت، ووضعوا أقداح الشاي الى جانبهم، عندما دخل السائق وأعلن:

- محرك السيارة لا يشتغل

وهب الرجال الأربعة متسائلين.. واقترح احدهم :

- لنندفعها

وايده الآخرون، وخرج السائق راكضاً الى السيارة الجائمة في الظلام، وانسل الرجال مسرعين خلفه، ودفعوا السيارة عثرات الامتار، ولم تشتغل، وبللهم المطر، ثم عادوا بها دفعا، وأوقفوها أمام المقهى، ودخلوا الى الرواق الذي اعد لصنع الشاي والطعام ومضوا ينفضون ملايسهم بأيديهم، ويمسحون شعرهم بمناديلهم، وتجمعوا حول منقلة الفحم وهم يرتجفون، وغسل السائق يديه من الدهن، واستمرت المرأة الجالسة تنظر اليهم، لتظفر بجواب. وعاد رجل وجلس على التخت القريب منها، واتخذ الرجال الآخرون اماكنهم متوزعين.

وصاح السائق:

- شاي للجميع

وسأله احدهم:

- ماذا ستفعل؟

وشتم السائق سيارته، و اضاف:

- لولا هذا المطر، لفعلت شيئاً... كما انني لا أستطيع ان ارى شيئاً في الظلام.

وسأل احد الرجال:

- يعني سنبقى حتى الصباح؟

وأجابه السائق معتذرا:

- وماذا يمكنني ان افعل؟

* نشرت هذه الفصة اول مرة في جريدة الانباء، 1977/6/1، عدد 54.

ولم يستطيعوا صب سخطهم على السائق، فقد كان حائراً مثلهم، وبادر
احدهم صاحب المقهى، بعد ان تفرسوا جميعهم في الزوايا والتخوت:

- هل نستطيع النوم هنا؟
- واستعد صاحب المقهى لتجاذب حديث طويل:
- دائماً تعطب سيارات، وينامون هنا.
- وأشار الى التخوت، و اضاف:
- نعم، يمكنكم ان تناموا على هذه.
- وعاد الرجل يسأله:
- وهل لديك وسائل وأغطية؟
- وأجابه صاحب المقهى:
- نفوا بعض ملايسكم واجعلوها وسائل، ولكن ليس لدي اغطية.
- وتحسس الرجل الجالس بجانب المرأة الحصير والتخت الخشبي الصلب،
- وعلق:
- من الافضل، ان نبقى جلوساً الى الصباح.
- واقترح السائق:
- الا يوجد لديك فراش للاخت؟
- واعترضت المرأة:
- سأبقى جالسة مثلكم.
- ثم التفت بعباءتها.
- وعاد صاحب المقهى الى ركنه، وأخذ الرجال يتحدثون، عن المطر،
- والسيارات العاطلة، وحواشي وقعت في الماضي.
- واصطفق الباب، ودخل رجل بدوي، ملفت بعباءته الثقيلة، وحرك يديه
- من داخلها ونفض عنها المطر، وبقي مختبئاً فيها، ونظر الى الجالسين،
- والقى السلام، ثم ذهب الى تخت خال، وجلس، ووافاه صاحب المقهى، ثم
- جلب له طبقاً من الثريد..
- وأشار البدوي الى الجالسين وصاح:
- تفضلوا
- واعرب الرجال عن اعتذارهم وشكرهم، ورمق البدوي المرأة بنظرة
- خاطفة، ثم انحنى على طبقه وأخذ يلتهم الثريد بسرعة.

وكف الرجال عن احاديثهم، وأخذوا يراقبون البدوي وهو يلتهم طعامه،
وحين جيء له بالشاي، راح يتملى فيهم وهو يرتشفه وازاحوا انظارهم عنه،
وتشاغلوا بحركات افتعلوها، واتم البدوي تدخين سيكارة، ثم تمدد على التخت
متدثرا بالعباءة، وسمعه الرجال يغط وانتظمت انفاسه.

وسأل رجل باندھاش:

- من اين جاء؟ لا دور قريبة من هنا، كما انه جاء مشياً في الظلام.
وهز السائق رأسه:

- لا احد يعلم.

وظلوا ينظرون اليه فترة، ثم لم يعد يثير اهتمامهم، وانحنى رأس السائق
مائلا للأسفل وراح يشخر، وأغمض الرجال الثلاثة عيونهم، وبقي الرجل
الجالس بجانب المرأة يقظا يراقب وجوه الرجال النائمين، وهو يتوق الى
التحدث مع المرأة. ثم نهض ورفع قطعة القماش ونظر الى الخارج، وتمتم
قائلا للمرأة:

- ما زال المطر كثيفاً.

والتفتت اليه، ولم تجبه.

وعاد يتحدث:

- من الصعب النوم على هذه التخت.

وهزت المرأة رأسه.

وفتح رجل، يقابلها، عينيه، ونظر اليهما برهة، ثم أغمضهما، واستطرد
الرجل:

- علي ان اكون غدا، من الصباح، في الوظيفة.

ولم يجرؤ ان يسألها عن اسمها، او المكان الذي تقصده، وصمت قليلا، ثم
اضاف:

- لو تمر سيارة من هنا، فساذهب، فانا اول من يصل الى ناحية (ح)

وهي لا تبعد كثيراً.

وتحدثت المرأة لأول مرة وسألته:

- هل انت موظف في ناحية (ح)؟

واهتز الرجل لاهتمامها المفاجيء، وأجابها برقة:

- نعم

واضافت المرأة بعدما التفتت اليه اكثر:

- زوج اختي موظف في نفس الناحية.
- من هو؟
- انه (ع)... هل تعرفه؟
- واجابها على الفور:
- طبعاً أعرفه، انه صديقي.

وتذكر وجه اختها، وقارن بينهما، ووجد ان المرأة التي تجلس الى جانبه اكثر حيوية وجمالاً منها، وقال:

- انها لا تشبهك كثيراً؛

وفهمت المرأة انه يقصد أختها، واجابت:

- صحيح، هذا صحيح

وانته جسارة مفاجئة:

- انت تختلفين عنها... أعني... انك اجمل منها.

ثم ضحك وأشار بسبابته مهدداً:

- اياك ان تذكرى لها رأيي، لانها ستحرمني من بعض وجباتها اللذيذة.

وابتمت المرأة، وهي لا تعرف ما تجيب به، وأثرت الصمت، وشعر الاثنان ان شيئاً مشتركاً يخصهما، ويجعلهما اكثر قرباً من الآخرين الغرباء. ولم يابه الاثنان لنظرات الرجل المقابل الذي استيقظ وأخذ يراقبهما.

وتبسط الرجل في حديثه:

- امضيت سنتين في الناحية، اسكن وحدي، وأخذت اجازة قضيتها عند عائلتي في بغداد، فالحياة شاقة في مدينة بعيدة، لرجل وحيد من المدينة.

وكان صوت المطر يسمع واضحاً في الداخل، في فترات الصمت المنقطعة، وكان جو المقهى قد ازداد دفئاً بعد ان دفع صاحبها قطعاً من الحطب في المنقلة.

ومضى الوقت طويلاً، وتبدد إحساسه بالوحدة، فالمرأة تجعل الرجل يقظاً ومتأهباً، واستطاع ان يرى قامتها المتناسقة عندما انفرجت عباءتها وفكر:

(لم تذهب هذه الليلة سدى، فلنبق حتى الصباح ما دامت هذه المرأة موجودة، وانا اتحدث معها، فلن نستطيع دائماً ان نقضي ليلة نتحدث مع امرأة في

مقهى منعزلة، في الطريق، نحو مدينة مغلقة وصحراوية). وانقطع صوت المطر وتضاعف الصمت في المقهى.

وقال الرجل وهو يتجه صوب الباب:

- توقف المطر

ثم عاد الى مكانه وهو يؤكد:

- توقف المطر

وأراد ان يوقظ السائق، وتذكر الظلام الذي يمنعه من رؤية آلات السيارة. وحين أضاءت بقعة الصباح الصفراء، استيقظ السائق وكان الجميع نائمين، وخرج الى سيارته وفتح غطاءها الأمامي وانحنى فوق الآلات واكتشف العطب، وأبقى المحرك دائراً، وعاد الى المقهى، فوجد الركاب قد استيقظوا بعدما سمعوا ضجة المحرك.

وقال:

- اشتعلت، لنشرب الشاي ونتحرك.

ثم انطلق السائق وهو يعتذر عن تأخيرهم، في الطريق المبلل، واستدار السائق في الشارع الرئيس للاحية (ح) ثم توقف قرب كراج السيارات، وفتح الصندوق الخلفي للسيارة واخرج حقيبتى الرجل والمرأة ثم انطلق.

- سأوصلك الى بيت اختك.

ولم تمنع المرأة.. وتقدما وسط الشارع المبلط، ثم انعطفا الى زقاق تحول الى كتلة لزجة من الطين وحاذر الرجل والمرأة في سيرهما بجانب الجدار، ووصلا الى بيت اختها، وقال وهو يقرع الباب:

- كانت سفرة متعبة.

ولم يجبه احد من الداخل، وعاد يقرع الباب بقوة، وانتظرا.. ثم استنتج:

- لا بد انها نائمة.

ونظر في الطريق الخالي، وعاد الى الشباك، ولم يفتح الباب.

وسأله المرأة بخشية:

- لماذا لا يفتح الباب؟

وأشار الرجل اليها، بالانتظار في مكانها، وذهب الى البيت المجاور، وسأل الرجل الذي اطل وهو يشير الى الباب:

- لا احد يفتح الباب.

- وقال الجار متسائلاً:
- ألم تسمع؟
 - وانتبه الرجل وطلب منه ان يخفض صوته:
 - لم أكن هنا، ماذا حدث؟
 - وهمس الجار:
 - سرق اموال البلدية، واقتادته الشرطة الى السجن.
 - وسأله الرجل:
 - متى؟
 - قبل يومين.
 - وعاد الرجل الى المرأة وهو يخفي انفعالاته، وبادرته المرأة بالسؤال:
 - ماذا يقول؟
 - انه لا يدري اين ذهب، فقد خرجا منذ يومين.
 - وقالت المرأة:
 - لكنهما لم يجيئا الى بغداد.
 - وعلق الرجل:
 - ربما سافرا الى مدينة أخرى. وسنعرف الى اين ذهبنا من الدائرة.
 - وعادا يحملان حقيبتيهما. وسألها في الطريق:
 - الى اين ستذهبين؟
 - سأعود الى بغداد.
 - وعادا صوب الكراج، وأجابهما صاحبه:
 - لا تتوفر سيارة قبل العصر.
 - ونظر الرجل الى المرأة قائلاً:
 - هل سمعت؟
 - ثم قال:
 - ساذهب الى الدائرة، وانت تستريحين في بيتي الى ان تتوفر سيارة ما رأيك؟
 - وترددت المرأة.
 - فأردف قائلاً:
 - انت متعبة، وستكونين بمفردك.

ووافقت المرأة، واتجها الى بيته، واحتدمت في ذهن الرجل صورة (ع) وهو منغمر في ليالي القمار في هذه الناحية البعيدة وكان (ع) يبررها بانها وسيلة ترفيهه الوحيدة، في مدينة نائية لا وسيلة ترفيه فيها، لكن خسائر وارباح القمار لا تتناسب مع رواتب الموظفين، وقد لعب هو مرة وخسر عشرة دنانير، وقرر الا يلعب ثانية، ولاحظ ان النقود التي توضع على المائدة اكثر من الرواتب، ولم يغره الحاح مدير الناحية، الموظف القديم في ان يشاركهم اللعب، واستطاع ان ينجو منه، اما (ع) فكان يردد ان اللعب ربح وخسارة، ولكن الموظف الصغير لا يمكنه تحمل خسارة، ولو صغيرة، عندما يكون متزوجا واقتربا من البيت وهو يفكر.

- حسنا فعلت، اذ لم اخبرها بالحقيقة لانها ستحزن، وسافقد سحر الليلة الماضية.

ودخلا المنزل، ووضعوا حقيبتيهما في الرواق، ثم ذهب واشترى طبقاً من القشطة وارغفة من الخبز، وعاتبها حين وجدها اعدت شايًا، ثم خرج الى دائرته، واستقبله زميله في الغرفة مرحباً، ثم نهض زميله من مكانه واقترب منه:

- حدث شيء لا يصدق، في اجازتك. (ع) سرق سبعمائة دينار من البلدية..

وهمهم الرجل مندهشاً، و اضاف زميله:

- واحيل مدير الناحية على التقاعد، ان الاحداث لا تصدق.

ونظر الرجل اليه وكأنه لا يصدقه، وانساب حديث زميله :

- يقال ان مدير الناحية كان يعلم باختلاسات (ع) لكنه غض النظر عنه، لانه زميله في اللعب، وتسربت انباء الاختلاسات، وسمع بها مسؤول المنظمة الحزبية في الناحية، المعلم (م) انت تعرفه؟

- نعم أعرفه.

- وكتب المعلم تقريراً الى الحزب، وجاءت لجنة تحقيق من المحافظة، ثم وردت الاوامر بتوقيف (ع) واحالة مدير الناحية على التقاعد.

وسهم الرجل ثم سأل زميله:

- واين ذهبت زوجة (ع)؟

وتابع زميله حديثه بنفس الحماسة:

- انها سألت الشرطة الى اين سيذهبون بزوجها، ثم أقفلت دارها، وذهبت خلفه الى سجن المحافظة، لكنني اعتقد انها ستذهب الى بغداد.
- وانتقلت افكار الرجل الى منزله، حيث تجلس المرأة، ثم سمع زميله يقول: لم يكن لديه مال، ليعيد ما اختلسه.
- وضحك ثم استطرده:
- كان مدينا لمدير الناحية ومعاون الشرطة باكثر من ثلثمائة دينار.
- ونقر الرجل على منضدته الخشبية وهو يردد:
- انه القمار... القمار.
- واقرب منه وهو ينحني الى جانب اذنه:
- يقال، ويشهد الله انني لا اردد سوى ما سمعته، ان مدير الناحية اجبره على تأدية ديونه فاستحال عليه ان يفيها ثم اتفق معه على ان ينال زوجته، ويترك له الديون، ويقال انه نالها.
- واهتز الرجل بعنف، وشرست نظراته، وضج رأسه بالصخب وعاد زميله الى مكانه وهو يرفع يديه:
- انهم يهمسون بما قلته، والمدينة كلها تعرف ذلك.
- وتلبث الرجل جامدا في كرسيه، ثم سأل:
- هل انت متأكد مما تقول؟
- واقسم زميله، انه لم يزد اي حرف على ما سمعه، وردد الرجل بصوت مرتفع:
- اذن كانت عاهرة؟
- وأشار اليه زميله ان يتكلم بهدوء وبصوت خافت.
- وانبعثت المرأة التي في بيته، في ذهنه، ولم يعلن لزميله عن وجودها، وادرك انه لو اخبره، فان الخبر سينتشر على الفور، ونهض وهو يتأهب للخروج، وقال لزميله:
- السيارة التي اقلتنا من بغداد عطلت في الليل، وسأذهب الى البيت، لانني لم أتم بالامس، وقل لمن يسأل عني، انني سأعود بعد قليل.
- وتواطأ زميله معه هازا رأسه مؤيدا، وانحنى على اوراقه. وعاد الرجل الى بيته، وحين فتح الباب، شاهد المرأة منحنية على الأرض تمسحها، واستقامت المرأة حين سمعته، وتراجع هو الى الباب معتذرا وطلب منها ان

- تكف عن مسح الأرض، واخبرته بانها اوشكت على الانتهاء، ومررت الكيس القديم المبث على الأرض، ثم نهضت وقالت:
- يبدو ان الأرض لم تمسح منذ أشهر؟
- وأجابها:
- من يمسحها؟ انني لا امسحها مطلقا.
- وجفت يديها، ثم جلست، ومكث الرجل في الباب وسأله:
- الم تعرف اين ذهبيا؟
- وأجابها:
- نعم سافر باجازة الى البصرة، وصحبته اخذك.
- وتساءلت المرأة:
- هل يجوز انه ذهب الى بيت اخته هناك؟
- قال الرجل:
- ربما.
- وكان يفكر، لو انه اخبرها بالانباء التي يعرفها، فماذا سيحل بها؟ وردد:
- الموظف يحتاج الى فترة راحة بين حين وآخر.
- وتنهدت المرأة:
- لو كنت أعرف انهما سيسافران لما حضرت.
- وود الرجل لو يجلس الى جانبها ويداعبها، ولكن خوفه وخجله جعلاه ينحرف الى مقعد منفصل، واختلس الرجل نظرات الى ركبتها وساقها، ولاحظته المرأة واندفعت يداها تشدان طرف ثوبها الى اسفل الركبتين.
- وثارت صورة (ع) في ذهن الرجل والاقاويل حول زوجته، وحاول انهاه ارتياكه:
- انت جميلة، جميلة جدا.
- ثم نهض وجلس الى جانبها، ومد يده الى يدها، وانكشفت في الزاوية وأراد ان يطوقها بذراعيه، وقالت مستاءة:
- انني اخطأت اذ أتيت الى بيتك.
- ونهض الرجل وأمسكها، وحاول ان يقلبها، ودفعته:
- اتركني، اتركني.

وضحك الرجل مهتاجا، وقرر أن يدلي لها بالمعلومات التي سمعها، لكنها تناولت عبايتها وليستها وانحنت ورفعت حقيبتها، وردد:

- انني اعتذر، ارجوك ان تبقي وتتناولي الغداء.
ثم أمسك بيدها:

- ارجوك ان تبقي، اين ستذهبين؟
وسحبت يدها بقوة، وهي تقول:

- اتركني.
وخرجت.

وهذا احتياج الرجل، وتجول في الغرفة، ماداً يده، فوق المدفأة، في راحه ومجيئه، ثم خرج الى الشارع وسار صوب الكراج، وشاهد المرأة جالسة، ومر متمهلا، ثم عاد، ولم يحاول ان يقترب منها، وعاد الى بيته منتبها الى انه وغد حقيقي.

* * *

الرجل*

ينحدر مركب الحمل المستطيل قرب شواطئ دجلة، من بغداد الى البصرة، ناقلًا الحبوب والتمور، ولا يترك إلا دويه البطيء، وتلويح أطفال على الضفاف.

وينتقل سائق المركب بين الأكياس الكبيرة على سطح المركب عندما يمر قرب القرى والمدن، محدقا في النسوة اللاتي يغسلن الملابس على الجرف او يملأن جرارهن.

وأسند السائق ظهره على كيس من الحبوب وانطلق يغني بصوت مرتفع عن مسافرا لا يتوقف الى ان يموت، وراح غناؤه يتعالى، وارتفعت رؤوس بعض النسوة تتطلع اليه، وصاح مساعده الذي يدير المركب:
- الله، الله.

وأخذ السائق ينمق نغمة صوته ضابطا لحنه، وكانت الاشجار تقترب وتتبعد عن المركب، وانكشفت امتدادات من الأرض الجافة الخالية، وتأمل السائق الجرف الذي يتحرك ببطء وهمس:

- كم هو مرير ان يقضي الرجل نهاية حياته وحيدا.
انه الآن يعيش في المركب ويقضي أيامه متقلًا بين بغداد والبصرة، يحمل اكياسا ويفرغ اكياسا، ولا يتوقف الا قليلا للتزود بالوقود، فقد أصبح المركب بيته:

(كان متزوجا منذ سنوات بعيدة ولكنها هربت بعد ان طالأت أيام سفره) ولم يستطع ادراك المكان الذي هربت اليه. وكان كلما عاد يتوقع ان يجدها، لكن بيته ظل خاليا، ثم باع البيت والتجأ الى المركب.
انه يحرق الى الشواطئ، في النسوة الكثيرات، لعلها تكون احداهن، لكنه يهجر انها ليست مع نسوة الشواطئ، انما في المدينة، في مكان ما فيها، ويتأمل بحزن فكرته: (البيت الذي فيه امرأة يشع منه دفء خاص وساحر)،

* نشرت هذه القصة اول مرة مع قصتي الهروب والقفزة في مجلة الاقلام، العدد الاول، السنة العاشرة، تشرين الاول، 1974.

ويتحد في هذا المركب مع البرد والمطر والشمس المحرقة وماء النهر
وأشجار الضفاف ويردد: (لقد شاخت الآن، هي الأخرى، لو كانت حية)
وأمن بتردد أنه لن يعرفها بعد هذه السنوات.
انه يرفع صوته مغنيا في المساءات اللطيفة وينظر الى البيوت المظلمة
التي تلوح من ثقوب تتخللها انوار ذابلة ويستمر المركب يهدر وهو ينحدر
في الماء الأسود والرجل يغني عاليا.

* * *

القفزة

تقدمت الدبابات وهي تقوس قنابلها وراء القرية العربية، وكانت قنابل الأعداء تنهمر بلا تحديد، وثارت من الأرض المرتفعة كتل الغبار، وشكل الغبار خطا منحنيا كثيفا، واستمر التقدم بطيئا ومتواصلا، وزمجرة الدبابات المرتجة تتناسق متحدة، وشعلات اللهب تضيء وتتطفيء من أعلى المنحدر وحتى امتداد الطريق البعيد، ووصلت الدبابات الى مقدمة القرية وكانت دبابات الأعداء قد تقهقرت على الطريق الجبلي ولم يعد يظهر منها سوى قنابلها التي تنفجر بعيدا.

وتوقفت الدبابات المتقدمة وأخذت التي تتلوها تبطيء تقدمها، وظهر رجل في الشارع يحمل علما عربيا مدعوكا، وهو يفتح ذراعيه، وأخذ يضحك ويرقص وهو يلوح بعلمه للدبابات المتقدمة. وارتفع برج قيادة دبابة وظهر رأس حدق في الرجل ثم لوح له بيديه. وصرخ الرجل: لقد هربوا.

وتقدم من الدبابة الاولى وراح يقبلها، وجاوزها محييا الدبابات الأخرى بعلمه، ثم استدار نحو الرأس المطل من برج القيادة وقال له: - كنا ننتظركم كل يوم.. ولم نصدق ان الحرب ستكون. وابتسم الرأس وهو ينظر الى الأرض القصية وركز الرجل عصا علمه في الأرض.

وصاح الرأس المرتفع فجأة:

- ابتعد عن الطريق، اختبئ، أئت الطائرات. وانسحب غطاء البرج واختفى الرأس. وانزلقت طائرتان صغيرتان وهما ترميان شريطا من الرصاص، وارتفعت من الدبابات فوهات ملتفة نحو السماء، ثم اختفت الطائرتان. وارتفع غطاء برج الدبابة الاولى، وامتد الرأس ينظر ملتفتا، وكان رجل العلم منطرحا على الأرض والدم يتفجر من جذعه الاعلى ويده تمسك بعصا العلم المغروسة في الأرض.

* * *

رمال

انهم يمرون وينظرون الى الناس الذين يصفقون لهم، او يحذقون في وجوههم للاحتفاظ بذكرى، وسارت الشاحنات في قافلة طويلة، وعبرت القافلة المدينة القديمة بدون ان تتوقف، وتجمع رواد المقاهي والمارة على جانبي الطريق يلوحون، ومرت القافلة، بسرعة، بسرعة، بسرعة.. ورفع الجنود المتكئون على حواجز الشاحنات اذعهم، وجلسوا على المقاعد الخشبية الطويلة، عندما تركت قافلتهن المدن، وأخذوا يمدون سيقانهم وايديهم ليشعروا بالخدر، وقد أنزلوا قبعاتهم على جباههم.. والقافلة ترتج.. وترتج.. والشمس حارقة.

وتوقفت الشاحنات، ونهض الجنود يستطلعون عبر الحدود، عليهم يبصرون الحرب، وانظارهم ترتفع الى السماء تبحث عن طائرات، وكانت الحدود بعيدة عن مرمى القذائف، وانتقلت الأصوات عبر الشاحنات تتسائل بتوتر وغضب عن سبب التوقف، وتدفقت الشاحنات من جديد، تمر فوق الشريط الممتد في الصحراء.. انهم سيصلون في اي منعطف الى الحرب.. هكذا حدس الجميع.

وانبعث صوت خافت يهتف للثورة، وتصاعدت الأصوات من الشاحنة وسرت الى الشاحنات الأخرى، وامتد الهتاف متسقا قويا في تلك الصحراء ذات التلال الرملية.

وازدادت نقاط التنقيش على الطريق، وكانت الشاحنات تبطئ ثم تتطلق بعد دقائق.

وعند النقطة الأخيرة للتنقيش نزل الجنود من شاحناتهم وهم يحملون رشاشاتهم وبنادقهم وتجمعوا حول ضباطهم.

ولاول مرة سمعوا أصوات القذائف البعيدة، والتفتوا جميعهم نحو افق الجبهة.

وهموا بالمسير نحو ذلك الافق، لكنهم انتظروا التعليمات، وانتهى اللاصمت، ودوى نشيد الثورة قويا.. قويا.. قويا.

* * *

الطيور الجبلية*

رصد الضابط من مكمنه سقوط القنابل المتناثرة، وشاهد جنديا يغني وهو يركب حمارا والقنابل تتفجر متقاربة حوله وهو يتقدم غير آبه.

وصرخ الضابط وهو يرفع رشاشته:

- أنزل.

وقفز الجندي تاركا الحمار، وعاد متمهلا الى الخنادق.. وصاح به

الضابط :

- الا ترى القنابل؟

وقال الجندي بشبات :

- انني لا اخافها.

امتلاً الضابط بالفخر لارتفاع معنويات جنوده، لكنه قطب وقال:

-ان حياتك تهمنا، لا تعد الى هذه الفعلة ثانية.

وحياه الجندي وانسحب.

قرع الجندي الباب وفتحته امرأة، شهقت ثم فتحت الباب الى نهايته ورحبت به وقفز ثلاثة أطفال نحوه وتعلقوا به وبحقيبته الصغيرة، وكان الجندي يضحك، واستمر يضحك وهو يلمس المرأة التي ركضت نحو القنبر واشعلت نارا تحته، ثم عادت الى جانبه.

وتمدد الجندي الى جانب زوجته، وكان الأطفال قد ناموا وهمست :

- الا تنام؟ انت تعبان.

وأجابها:

- لا اقدر، الهدوء يجعلني استيقظ.

* نشرت هذه القصة اول مرة مع قصة رجل الممرات في مجلة صوت الطلبة، السنة الخامسة، عدد 87.

وفي أيام اجازته الخمسة لم يشعر بفرح في قريته الهادئة ذات الحياة
الثقيلة.

وعندما عاد الى الجبهة، كان يضحك ويغني.
ناداه الضابط :

-لم اسمعك تغني منذ أيام.
صمت الجندي وحيا ضابطه.
وعندما ابتعد راح يغني من جديد.

* * *

مسافات

ثمة حمامة تتحرك على سطح المنزل، على امتداد نظره، وخلف
البنائيات كانت القمة تلوح، وطيور مسرعة تظهر ثم تختفي.
وارتفع بكوعه على حافة النافذة ثم استدار وتفحص غرفته عندما سمع
جرس الباب.

وابتسمت امرأة تحمل طفلاً وهي تنتظر.. وفتح الباب بكامله وأشار
إليها أن تدخل، ثم أغلقه خلفها، وعاد نحو النافذة، وجلست هي على السرير،
ثم انحنت ووضعت طفلها على الأرض وانتظرت.
سألها مشيراً إلى الطفل:

- هل هو طفلك؟

وهزت رأسها مؤيدة، وهي ترفع مؤخرتها وتجلس في وسط السرير،
واستطرد بسأل:

- هل له أب؟

أجابته:

- ذهب إلى الحرب.

وأخذ الطفل يتحرك ويزحف متعلقاً بحافة السرير، وكانت المرأة لا
تشبه اللواتي يقرعن الأبواب، لكنهن أصبحن كثيرات ولم يعد التمييز بينهن
يسيراً.

واستدار إلى النافذة، وكان الألم الغزير يتدفق في جسده ونظر إلى
السطوح العالية للبنائيات، وإلى الطيور المسرعة، واستمر يحرق في الأفق
الذي استحال إلى آلاف الجثث، وكانت المرأة تنتظره.

* * *

الجسر الضوئي*

كان الرجل ممددا على الأرض، وفوقه بطانية خارج المستشفى الذي يحترق، ولم يقترب منه احد في بادئ الامر، فقد ظنه المواطن العجوز الذي رآه من بعيد، ميتا.

وتصاعد الدخان عاليا، ثم راح يخبو، وجرفته الريح السريعة، ولم تبقى في اليوم التالي، سوى اللطخ السوداء حول الأبواب والشبابيك. واقترب المواطن العجوز من الرجل، ناويا ان يحفر قبرا له، وحين انحنى فوقه سمعه يتنفس.

وكان العجوز قد شاهد في الأيام الثلاثة السابقة بعض الناس يحضرون الى المستشفى ويحملون مرضاهم ويذهبون بهم، وهرب المسلحون الذين يحتلون المنطقة، بعد ان اخرجوا بقية المرضى، وقذفوا بهم الى الشارع، ثم احرقوا المستشفى، وبقي الرجل وحده.

وعندما وجد العجوز ان عيني الرجل تحدقان به، قال له:

- سأخذك الى بيتي.

ونظر الرجل اليه بامتنان، وازاح العجوز البطانية وظهرت ساق الرجل الملفوفة بغطاء متسخ، ثم رفعه من تحت ابطه، واستند الرجل على ساقه السليمة وراحا يهبطان الشارع.

وعندما أخذ الجنود يتقدمون في المنطقة، سمع العجوز قرعا على باب كوخه، وشاهد ضابطا شابا وخلفه أربعة جنود، وارتبك العجوز، وايقن انهم سيجهزون على المريض الذي سحب البطانية واخفى نفسه تحتها.

ابتسم العسكري وقال:

- انا طبيب، هل لديكم من يحتاج الى علاج؟

* نشرت هذه القصة مع قصص: الاختناق، خطوات على المنحدر، شمس بعيدة، رجال الثلج في مجلة الف باء، 5 حزيران 1975، العدد 353.

ولاحظ العجوز ان الجنود يحملون الحفائب بدل البنادق، واطمان وأشار
برأسه نحو المريض، وتقدم العسكري ورفع البطانية، ولمس الغطاء المتسخ،
وفكه برفق وهو يسأل المريض المتشنج:

- ماذا بك؟

وحاول المريض ان يتخفف من ذعره وهو يجيبه:

- انها مكسورة.

وعلق الطبيب بصوت واضح:

- ستشفى

وازاح الغطاء وأخذ الجنود يفتحون حقائبهم ويخرجون منها اللفافات
والادوية.

وعبر الصمت في تلك الدقائق، سمع جميع من في الكوخ، أصوات
السيارات والمدركات المتدفقة، وهي تتقدم الى الأمام.

* * *

الهروب

كان البيت الأخير في القرية مظلمًا، اجتزت سوره وانطلقت في الصحراء، كنت منشرجًا، اكاد اغني، لولا تذكري المهمة التي اوكلت الي: قيل لي ان شخصا مهما سيقته (لوري) علي ان انقله عبر الحدود، لقد ساقنت شهرتي في تخطي الحدود وتهريب اثن الأشياء سمعة خطيرة بين سكان القرية، ورغم نشوتي بأهميتي بينهم، الا انني كنت اهجنس خطورة هذه السمعة، وكنت اتوقع ان تكون طرقات الليل على بابي من الشرطة الذين ينزرون في وسط القرية، ثم يقذفون بي الى الابد في سجن المدينة.

أصبحت القرية بعيدة، عندما التفت وانزويت قرب تل، وسمعت هدير سيارة، ثم رأيت هيكلها يقترب، وتقدمت الى وسط الطريق، وانا أتفرس فيه..أبطأت السيارة ثم أضاء وسط الطريق، وأنا أتفرس فيها..أبطأت السيارة ثم أضاء سائقها انوارها علي برهة، واطفاً الانوار ثم المحرك، وفتح الباب وقفز ثم قال لي:

- تبدأ الان مهمتك، انت مسؤول عنه منذ هذه اللحظة.
كنت متلهفا لرؤية الرجل المهم، ولم يسبق لي ان شاهدت شخصا مهما سوى المسؤول الاداري الاول في المنطقة، حددت الى الفراغ بجانب مقعد السائق وقلت:

- اين هو؟

واستدار السائق الى خلف السيارة وهتف:

- وصلنا يااستاذ نحن في المرحلة الأخيرة.

ودفع الرجل مجموعة من الغرارات ونهض، وكان يرتدي ملابس قديمة ممزقة، ولحيته طويلة، وراح ينظر في الظلام متلفتًا..

قال له السائق:

- ستذهب معه، وسينقلك الى الحدود..استودعك.

سأله الرجل وكأنه متعلق به:

- هل تذهب؟

- سيتولى إيصالك، اما انا فعلي ان أعود.
- ونظر الي الرجل وسألني:
- هل توجد شرطة في القرية؟
- سأخذك معي الي بيتي، ثم ننطلق في الفجر.
- وعاد الرجل يسأل:
- الشرطة؟
- انهم نائمون الان، لا احد يخرج منهم في الليل.
- وإزداد ارتجاف الرجل:
- لن اذهب الي القرية، يجب ان نرحل الان.
- قلت :
- من الافضل ان نسافر في الفجر لكي نرى الطريق.
- يجب ان نرحل، الحكومة تطاردني! قلت بتصميم .
- الطريق محفور، وستحطم دراجتي النارية.
- سأعطيك ما تشتري به دراجة جديدة.
- وفقدت الاهتمام به بعدما رأيت رعبه، ولم يعد بالنسبة لي سوى صفقة وسمعته يردد:
- سأعطيك مائة دينار.
- وتدخل السائق :
- ولكنهم أعطوه عشرة دنائير لنفلك.
- وأجابه بازدراء :
- هذا ليس من شأنك
- وصمت السائق وقلت لآخفف حسده:
- انني عند اتفاقي، وقد استلمت الدنانير العشرة. وهتف الرجل:
- أسرع واجلب دراجتك، سنرحل الان.
- ووافق السائق مستسلما :
- يجب ان تسافر فورا.

أسرعت الى القرية واخرجت دراجتي وأخذت اسحبها كيلا تثير بصوتها انتباه الشرطة، وعندما ابتعدت عن البيت الأخير، ادرت المحرك وانطلقت.

كان الرجلان يدخانان ولمحت التماع الجذوتين، وتوقفت قريهما وأسرع الرجل واعلى الدراجة خلفي، وصاح السائق:

- مع السلامة.

وراح الرجل يسألني عن الشرطة، وقلت لاشعره بأهميتي :

- انهم في كل مكان، لكنني لا اكترث لهم.

صمت الرجل وأحسست بحرارة سيكارتته تمر قرب كتفي.

كان سيرنا حذرا وبطيئا، واردت التحدث معه في تلك الصحراء:

- لماذا تهرب؟

- انني سياسي.

سألته بسذاجة :

- وهل يهرب السياسي؟

وتصلبت يده المرتعدة المتمسكة بي ورمت يده الأخرى السيكارة وقال

متضايقا :

- ارجوك ان تسرع.

وعدت اقول :

- حكومتهم تعادينا.

وشعرت بكفيه يرتجفان وقال بصوت مداهن وكانني ساسلمه للشرطة:

- لا لا.. ابدأ، ولكنني لن اسجن، هه؟ اليس ظلما ان يسجن رجل

بريء؟

وأخذ يتحدث عن نفسه وخشيته، وثيقنت انه رجل فزع وكدت اقول له

ان الرجل الذي يخاف، عليه ان يتجنب السياسة، ولكن انزلاق الدراجة في

حفرة وارتطامها بحافتها الحادة، رمانا على التراب، ولمست الرجل:

- هل اصابك اذى؟

ونفض الرجل ثيابه ونظر الى الدراجة :

- انني بخير لنستمر .
- ورفعت الدراجة من الحفرة وحاولت تسغيلها ولم تتحرك وقلت له بغضب :
- ألم أقل لك ان نسافر في الفجر .
- وأجابني وهو يتلفت:
- هل تستطيع اصلاحها؟
- سأحاول.
- ورفعت الدراجة على مسندها وبدأت المسها في الظلام، وأصبحت منهكا، ولم تعد لي رغبة باصلاحها، واخبرته :
- انها لا تشتغل.
- سألني بخوف :
- وأنا، ماذا سأفعل؟
- واجبته ببرود :
- لا أدري .
- وكان هواء الليل المنعش يحرك ثيابنا، واقترحت :
- دعنا نذهب الى القرية لعلنا نعثر على حل.
- هل تستطيع الحصول على دراجة؟
- وكنت أعلم انه لا يوجد من يمتلك دراجة في تلك القرية. واوشك الرجل على اليكاء وردد يائسا :
- ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟
- تعال معي الى القرية لننام ثم نسافر.
- كم تبعد الحدود؟
- حوالي خمسة عشر ميلا، والطريق يمتد مستقيما.
- وسألني :
- اذا ذهبت مشيا، هل اصل قبل الصباح؟
- الطريق متعب، وأنا مسؤول عن ايصالك.

- لا عليك ساذمب.
وأخذ يبتعد ويصغر في الأفق والظلام.
وسحبت الدراجة وتوجهت نحو القرية، وطرقت باب احد اصدقائي
وكننت متعبا، لكنني لم استطع النوم.

* * *

رجل الممرات

كان مشلولاً ومرتبخياً على السرير، وهو ينصت الى أصوات ماء، في ممرات المنزل.

منذ سنوات اصيب بشلل في رجله، واستمرت زوجته تعمل وتتفق عليه، وغمره خجل في البداية، افسد عليه شعوره بالامتنان الخفي، لكنه اعتاد وضعه، وان راح في بعض الأحيان يفكر في حالات مرعبة: كما لو ان زوجته تتركه، او انها تموت، ويبقى هو في البيت الى ان يتعفن وتتحلل جثته، وهو يتوازن في النهاية عندما تحضر زوجته وتحميه برعايتها. واحس منذ اسابيع، ان زوجته تنصرف عنه تدريجياً، وان بقيت ترعاه بنفس الدأب القديم، وأراد ان يكشفها بتقليبها، وادرك وهو الملقى على حافة الهاوية، انه وحده الضحية في النهاية، وصمت، وحزنه وكمده يكبران، وبقي غاضباً ومذهولاً لا يستطيع ان يفعل شيئاً، ولم يستطع، عصر ذلك اليوم ان يقاوم هياجه، عندما ناولته قدح شاي.. وقال:

- انك تتغيرين.

وانتهيت الزوجة وحدقت في وجهه:

- لم اتغير.

وأكد بغضب:

- اني احس بانك تتغيرين.

ووضعت قدحها على المائدة التي تفصل كرسيها عن سريره وقالت:

- انك تشك بي، اليس كذلك؟

صمت الرجل منتظراً، مليئاً بالارتياح، وانتظرت هي جوابه، لكنه بقي مترقباً بلهفة، وبغثة انفجرت الزوجة:

- لم تعد محتماً، الا تترك ذلك؟ انني افني حياتي من اجل ميت، ثم ترميني بلؤمك ووساختك.

هلع الرجل من غضبها، وأشار اليها ان تمنحه فرصة للكلام وهو يردد:

- انك مخطئة، لا اعني شيئاً..اسمحي لي..

ولكن انفجارها لم يتوقف، وهي تستجمع كل ألام تضحياتها:
- انك تطعنني، لم أعد أطيقك، هل فهمت؟ لم أعد أطيقك.
ونهضت من كرسيها، واختلطت حقيبتها الصغيرة وتركت الغرفة.
وسمع الرجل، الباب الخارجي يغلق بقوة، ونظر الى اقداح الشاي، والى
كرسيها الفارغ، وزحف فوق سريره مستديرا واتكأ على مسند كرسيه
المتحرك واستطاع ان يحرك عجلاته، وتقدم في ممرات المنزل الى الباب
الخارجي.
وعندما فتح الباب واطل في الشارع، كانت زوجته قد اختفت.

* * *

نوافذ مظلمة

- قال الرجل - لننهض.
وأجابته - لن اذهب معك.
ومد يده عبر المائدة وضغط على كفها بقوة وحاول جرها وتقلص وجهها من الألم.
وكانت الموائد في الطابق الاعلى من المطعم خالية الا منهما، وقال لها متسائلا وهو يتصنع الهدوء:
- لماذا أتيت اذن؟
ونظرت اليه وقد تحرر كفها:
- هكذا.
ونظر الرجل صوب السلم الخشبي ليؤكد من ان احدا لن يرقيه، ونهض وانحنى فوق المائدة، متجها بجذعه نحوها، وكاد يتوسل:
- لنذهب معا.
- انك لا تفهم.
- ستذهبين معي، اليس كذلك؟
ورفعت المرأة قدحا زجاجيا وقرعته بالمائدة قرعا متواصلا فعاد الرجل بسرعة الى كرسيه.
وانّ الدرج الخشبي تحت أقدام النادل.
وكلمته السيدة : الحساب من فضلك.
وأسرع الرجل مضطربا، في اخراج نقوده، وهرعت المرأة تغادر المطعم بدون ان تنتظره، وغذت خطأها صوب اول منعطف.
وسمعت الرجل يقول لها وقد أصبح بجانبها.
- الى اين تذهبين؟
ثم ردد:
- هكذا اذن؟ هكذا اذن؟
ودفعه أمله لان يستمر متابعا لها، لكنها لم تعد تجيب عليه.

* * *

نوافذ مظلمة... مظلمة

- بعد ان انتهيا من تناول الطعام.. قال لها:
- ما رأيك في ان نذهب الى غرفة املاكها؟
 - وارتعشت، ثم تماكنت هدوءها وأجابته:
 - انك تمزح بلا شك.
 - انني لا امزح.. وهذا هو المفتاح.
 - وأراها المفتاح.
 - كان الرجل زميلها في الوظيفة، ولم تخيب رجاءه عندما دعاها لتناول وجبة طعام.
 - قالت له:
 - الا يمكننا ان نحفظ بصادقتنا بدون ان نذهب الى الغرفة؟
 - صمت قليلا، ثم قال:
 - لنذهب معا.
 -
 -
 - قرعت القدح بالمائدة، نهضت، أسرعست مستديرة في المنعطف، ولحقها الرجل، الا انها لم تعد تجيب عليه.

* * *

التصاق

تعبت العجوز من الانتظار، فزوجها لم يعد بعد، وكانت الغرفة الصغيرة باثائها القديم المتهاك، مضاءة بمصباح صغير. الأولاد، الأولاد، كانوا حلمها الدائم، فهي لم ترزق بطفل، وسواء كانت هي السبب في العقم، ام زوجها، فان النتيجة التي ناقشاها طويلا، قد أصبحت سواء، لكنها لا تتخلى عن الحلم، كانوا سيصبحون رجالا او نساء، يتزاحم حول أرجلهم، أطفال عديدون، وكانوا سيزورونها، ويندفعون ضاحكين الى تقبيلها، فتخرج لهم من جيوبها، كانت ستخرج لهم من جيوبها، قطع الحلوى الصغيرة وتوزعها عليهم، وستتخذ موقعها الذي حددته منذ سنوات طويلة، في وسط الغرفة، بحيث ترى الجميع، ويستطيع الجميع التحدث والوصول اليها بسهولة، لكنها لم ترزق بطفل، ولم تتخل عن أحلامها، حتى بعد ان ادركت انها أصبحت عجوزا، وهي تملأ وقتها الطويل... الطويل بالأحلام، فلم تكن تملك شيئا جميلا غيرها، فزوجها عامل لا يكسب الا ما يبقينهم أحياء، وهو الان عجوز، ولم يعد قادرا على العمل المتواصل، وهما يجوعان في أيام كثيرة، لكنهما لم يموتا بعد من الجوع، وهو يتجول لعله يقتنص فرصة لتقديم عمل او خدمة.

* * *

التصاق... التصاق

العجوز يائس من حياته، فعليه ان يعمل ويكسب النقود، وهو يتحامل على نفسه، في كثير من الأحيان ليخرج باحثا عن عمل، لم يعد يقبلونه، وهم ينظرون اليه، ثم يعتذرون، وتعلم منذ زمن طويل ان الاقوياء وحدهم يستطيعون العيش بشكل افضل، ولو كان لديه اولاد، لكان في هذه الدقيقة نائما في فراشه، وعليه ان يقطع الطريق مشيا، فلم يكن يملك نقودا، وارهقه المشي، وبقيت مسافة طويلة الى بيته، وفكر في النوم على الرصيف والذهاب الى بيته صباحا، لكنهم سيوقظونه ويطلبون منه الذهاب.. او ربما وضعوه في السجن.

وتلاشت قواه، وسقط على جانب الطريق، وتطلع اليه بعض المارة، ثم استمروا في طريقهم.

وكانت زوجته العجوز تغط في نومها.

* * *

شرفة في بيروت*

- سمع الاب الباب ينفتح، وقفز من غرفة النوم صارخا:
- من بالباب؟
 - ووقف الطفل الصغير مسمرا اثر الصرخة، وصاح به الاب:
 - ماذا تفعل؟ اين تذهب؟
 - تلجج الطفل وهو ينظر صوب الدرج:
 - الكرة، سقطت من الشرفة.
 - وسحب الاب من يده واقفل الباب، وردد الطفل:
 - الكرة.
 - وافهمه الاب:
 - ستموت ان خرجت الى الشارع.
 - ولم يفهم الطفل، واتجه الى الشرفة، وشاهد كرتة مرمية على الجانب الاخر وبكى.

* * *

* نشرت هذه القصة اول مرة مع قصتي الوليمة والاقاصي في جريدة الثورة، 1977/2/27، عدد 2629.

الوليمة

تعثرت المرأة العجوز وهي تضرب الأرض بعصاها الرفيعة. ونفرت على الرصيف وعبرت الى الجهة الثانية، وأسرعت عندما تأكدت ان دوي الانفجارات ليس بعيدا.

وسمعت صوتا ناهرا :

- انت أيتها العمياء؟

وتجمدت العجوز في مكانها وراحت تدمدم، وضحك الصوت الناهر :

- انت فلسطينية؟ هاه؟

واتاها صوت آخر يأمر:

- أقتلها ! ماذا تفعل؟

وانقلعت العصا من يد العجوز بسحبة سريعة، صاح بها الصوت

الناهر:

- هيا اركضي وابتعدي من هنا.

ومدت العجوز يديها في الهواء تتلمس طريقها.

- أركضي والا مت.

وهرولت العجوز، لكنها انكفأت على وجهها، وتمددت قرب الرصيف.

وانطلقت ضحكتان مدويتان في الشارع المهجور.

* * *

نافذة*

تحركت خمس نقاط في انحسار الشمس، وانبعث ضوء باهر باستقامة
من الجهة المقابلة، والتصقت النقاط بالأرض، واكتسح الضوء الأرض باحثاً
عن اية نقطة بلا توقف.
ودوت أصوات الرصاص والقنابل وشعت الأضواء على النقاط
الخمس، وأخذت تتراجع أربع نقاط تركض.
ثلاث
اثنان
واحدة
وأصبحت النقطة رجلاً، ومن بعيد كبرت النار.

* * *

* نشرت هذه القصة أول مرة في مجلة الاذاعة والتلفزيون، 1975/9/14، مع قصص:
زوارق، اوتاد، المزلاج، طاحونة، والصحراء.

زوارق

جلست الصلعتان الشائبتان على مصطبة في الشريط الأخضر الممتد
على الشاطئ، وراحتا يتابعان الفتيات العابرات.
وقالت الصلعة الأكثر النماء:
- أه.. لو عاد الشباب.
وضحكت الصلعة الأخرى مواسية:
- لا تحلم.. لا تحلم.
- الدنيا تزداد جمالا ونحن نبتعد عنها.
ووجع العجوزان برهة.. ثم استمرا يتابعان الفتيات العابرات يشغف.

* * *

أوتاد

تواثب الأطفال حول المرأة العانس، الجالسة في الحديقة العامة، وكان بعضهم يصرخ وآخرون يتكحرجون.
ابتسمت المرأة برضا وقالت لهم.
- العبوا وأصرخوا يا أولادي.
ثم رددت بخفوت :
(لا بد من الضجة عندما يلعب الأولاد، لن اضيق بهم مهما صنعوا)
وأخذت الشمس تتحسر، وحين نهضت المرأة كان الأطفال قد اختفوا،
وسارت وحدها متجهة نحو بيتها الموحش.

* * *

المزلاج

اختفت المرأة في الرواق عندما دخل الضيفان خلف زوجها وتتحنن
احدهما بصوت مرتفع:

- احم

وحملت لهم صينية الشاي، ووقفت خلف الباب وقرعته، وخرج زوجها
وتناول الصينية، وتقهقرت المرأة، وحين اطمأنت الى ان زوجها يتحدث مع
الضيفين، دلفت الى المطبخ وراحت تراقب حديقة الجيران، حيث جلس
الزوجان الشابان في الارجوحة وهو يمسك يدها.
وتتهددت المرأة وتمنت لو أن زوجها لمس يدها يوما، واخبرها بانه
يحبها.

* * *

العكازة

أمسك صاحب معمل الطابوق بالحمار ولمسه من رقبته، ثم شدها برفق وقبله على رأسه وخاطبه:

- أنت الوحيد الذي بقيت مخلصا لي، لأنك لا تطالب بزيادة الاجور ولا بالضمان الاجتماعي أو التقاعد، ولست منتميا الى نقابة.

وتوقف العمال المكثرون عن العمل، وشاهدوا جميعهم، دموع صاحب المعمل الذي اخفق في ابتزازهم، وللحظة ايقنوا انه جن، وفجأة قهقهوا من اعماقهم.

* * *

السكة

تخلت عنه وداعته عندما أصبح موظفا.. انه يمشي بين البدلات الانيقة
والنساء الجميلات والبيوت الواسعة، ويعود الى بيته المتداعي في اخر
المدينة ناضبا متوحشا، ولا يجد سوى زوجته فيوسعها ضربا.
وقالت له زوجته يوما بعد ان تحطمت العصا على جسدها:
- ساموت.

وابيض وجهها وهي تنهار على الأرض، وتجمد لحظة. هل يرفضها
ويخرج؟ او ينتظر الى ان تموت؟ لكنه جثا الى جانبها وبكى.

* * *

عزيزتي سميرة

حمل الفتى حقيبه وغادر الزقاق الى بيت عمه في الجانب البعيد من المدينة، وسمع بعض الاسئلة تتعقبه :

- هل تسافر عزيزتي سميرة؟

وود لو ينقض على مطلقى الاسئلة ويهشمهم لكنه لم يلتفت.

وكان الفتى قد كتب رسالة، منذ زمن، الى جارته سميرة التي يحبها بدأها بـ(عزيزتي سميرة)، وحملت الفتاة الرسالة الى صديقاتها وانتشر الخبر، وطفق سكان الزقاق ينادونه (عزيزتي سميرة) وظل الاسم يطارده، فحزم حقيبه وترك الزقاق.

وتوقف على الجسر، وراح ينظر الى الطيور البيض التي تعلق وتهبط على الماء، وسمع بغتة صوتا هادرا :

- عزيزتي سميرة

والتفت بسرعة، ولم يشاهد احدا.

* * *

المنحنى

صرخ بأعلى صوته حاثا حصانه على الاسراع، لكنه لمح بعينه
المدربتين ان حصانه انغمر في الوسط، ولم يتلاش أمله الا عندما اجتازت
الأفراس الأخرى خطوط النهاية، وطفق يشتم، وشق طريقا بين الرجال
المتلاصقين وراح ينظر الى الأرض عله يعثر على ورقة نقدية ليعود الى
اللعب، واجتاز الباب الرئيسي وعادت الصرخات تعلو من ساحة السباق..
وود لو يصل الى بيته بسرعة ليوسع أطفاله الجياع ضربا.

* * *

نجمۃ الظهيرة

هبت الطيور على صفحة النهر، والقي الطفل حصوة مدورة، وراقب ارتفاع الطيور وتبعثرها وتابعها وهي تتجمع وسط النهر.

وقال لوالده :

- لم اصطد واحدا منها.

وسحبه والده من اذنه وهو يقول :

- تعال ايها الكلب.

ونفرت الدموع من عيني الطفل وهو يحاول ان يفتح قبضة والده بكفيه الصغيرتين.

واضاف الاب :

- كن عاقلا والا رميئك في النهر.

ثم ارتخت اصابع الاب عن اذن الطفل، وحمل ولده بين ذراعيه، وكان مديره كالموجة في ذهنه وهو يبصق عليه ويطرده.

واعتصر ولده بذراعيه وهو يرتعد.

* * *

الجزيرة

استفاقت المرأة مذعورة على صوت طائرة تحوم فوق سطح المنزل حيث تنام، وكانت الطائرة الهليكوبتر قد استدارت ثم عادت، وبدأت قريبة من سريرها واسرة أطفالها الثلاثة، وخيل اليها انها ستسقط عليهم، وأرادت ان تنهض وتحمل أطفالها الذين استيقظوا وراحوا يتفرجون على الطائرة، لكنها شعرت بالخدر والعجز.

ومضت الطائرة بعيدا، واستيقظت في ذهن المرأة، وبهلع صورة زوجها الضابط في الجبهة، وأصبحت دقائق قلبها سريعة جدا.

* * *

شمس بعيدة

نظر الى الحلقات الحديدية المثبتة على جدار الحمام، ومس الحبل المتدلي منها، وتذكر صرخات السجناء الذين ادخلوا قبله، واحس بالاختناق. لقد قال لهم (لا) عندما طلبوا منه ان يصعد الى الجبل ويحمل السلاح، ثم اقتادوه وادرك انه في السجن حين افأق من غيبوبته. واخرج الفتى قطعة معدنية من جيبه وحفر صورة شاب يقدم زهرة لفتاة، وتراجع ثلاث خطوات وتملى في الصورة. وانفتح الباب ودخل الحارسان، وأمسك احدهما يده اليسرى ورفعها وربطها بالحبل، ثم علق يده اليمنى، وتهايا للبدء بتعذيبه، والتفت الفتى الى الصورة التي حفرها. ولم يعد يراها.

* * *

الوهج

رفع سائق الشاحنة صوته مغنيا عندما شعر بالنعاس في الطريق
الطويل وود لو يتوقف ويغفو قليلا.
وشاهد بعيدا، وعلى انحاء الأرض المغيرة فارسين يطارد احدهما
الآخر، ورأى الفارس الاول يلتفت نحو مطارده ويطلق عليه رصاصة،
وسقط الفارس الثاني هو وحصانه، وشكل الاثنان بقعة سوداء، واستمر
حصان الفارس الاول يحدو، واختفى في الافق.
وكف السائق عن الغناء، وضغط على البانزين وردد مع نفسه:
- انني لم ار اي شيء.

* * *

السلام

صرخ الفتى المدلل في دهليز المنزل :
- اين انت يا بنت الحمار؟
وكانت أمه راقدة على فراشها ورددت بوهن :
- انني أموت.
ومد رأسه وحدق فيها، وقاس قوتها، ثم أمرها:
- انهضي واغسلي ملابسك.
ولم تجبه.
وفكر في انها ستموت، واسف لانها لن تغسل ملابسها. وسمعها تنن
قائلة:
- لا أستطيع.
وجذب الباب وصفقه بقوة وخرج. وكان مهموماً يفكر في ملابس
المتسخة.

* * *

السواحل المظلمة

سمع الرجل صوت هدير بعيد، واستيقظ تماماً، وخرج ونظر في الظلام، وتأكد أن السيل يقترب، واندفع إلى الداخل صارخاً بزوجته أن تستيقظ وتهرب، ثم ركض إلى باب جاره وقرعه بقوة وهو يهتف محذراً، ووثب إلى بيته وحمل طفله الصغيرة وإخاها الأعصاب، وطلب من زوجته أن تساعد ابنيها الأعرجين في الصعود إلى المرتفع، والهرب إلى جهة المستشفى. وانطلق الرجل وهو يحث زوجته، التي كانت تنتظر إلى الأثاث وتفكر في استنقاذها، وحين استدار الرجل صاعداً في المطر، شاهد كتلة ماء ارتفاعها أربعة أمتار، تتدفق نحو بيته، وحين أصبح في أعلى الوادي، استدار وهو يستحث زوجته بصوت مدو.

لقد قال لجاره عندما هطل المطر بكثرة، أن السيل سيجيء، وأجابه الجار:

- عندما يجيء السيل، سنسمعه ونراه، قبل أن يصل إلينا.
ثم أقفل بابه ونام هو وزوجته وبناته الست.

وبقي الرجل يقظاً، واستمر يخرج بين حين وآخر، ويلقي نظرة إلى مصب الوادي في المرتفع، ولم يقترب من فراشه. وكان قد اطمأن حين أقام بيته الصغير، على جانب الوادي، خلف كتلة كبيرة من الصخر، وإيقن أنها ستصد المياه المندفعة لو حدث سيل، ولكن بيت جاره كان مكشوفاً للمياه وكانا قد بنيا على جانب الوادي لأن أرضه رخيصة.

وارتطمت كتلة الماء بالصخور، واستدارت سريعة نحو المنزل، وأمسكت الأم بطفليها الأعرجين، وتعثر أحدهما وسقط، وعجز عن التقدم، وأمسكت الأم بالطفل الآخر، وانحنى تساعد ابنها على النهوض، وارتفعت الأمواج الضخمة الهادرة، وافلت من يدها الطفل المطروح على الأرض وحاولت إمساكه حين تحرك مع الماء، وغمرتها موجة جديدة، وكانت قد افلحت في مسك ثوب ابنها، وجرفت الأمواج الهائلة وهي تحتضن طفليها وقد غاصا، وحاولت الوقوف، لكنها سقطت.. وحاول الرجل من مرتفعه أن يحدد مكانها، لكن الأمواج كانت سريعة.

وانتبه الرجل الى دوي انبعث من منزل جاره، الذي هوى واصبح كتلا صغيرة في المياه.. وصمتت الصرخات الصغيرة اليائسة، وشاهد قامه جاره، الذي افلح في الخروج من بيته، وهي تتحنن، ويجرفها الماء.. وانسحب الرجل مبتعدا تجاه المستشفى، وأخذ الماء يملا مجرى الوادي. وفي اسفل الوادي، كانت البساتين المثمرة، تنتظر من يقتطفها، ومكث اصحابها فيها، خشية ان تسرق في الليل، وردد الرجل:

- وصلهم السيل.

وأمل الرجل ان تلقي المياه بزوجه وولديه على جانب الوادي فيستطيعوا النجاة. وارتحف الطفلان اللذان يحملهما، وغسلهما المطر، وغمرته الشفقة عليهما، واستعجل الوصول الى المستشفى، واستقبلته الممرضة الخفر، وسألته بهلع عما يحدث. واندفع الى الداخل متخلصا من المطر واتجه نحو المدفأة:

- السيل.. السيل.. لم نشاهد مثل هذا السيل ايدا. وتناولت الممرضة الطفلين، واختفت في رواق المستشفى، ودخل ثلاثة مرضى وانهالوا عليه بالأسئلة. وعادت الممرضة، وقد لفت الطفلين بمفرشي سرير، وقربتتهما من النار وهي تدعك شعرهما بمنشفة، وتعلق المرضى بالشبابيك المطلة على الوادي، وهم يقدرون الخسائر.

ونظر الرجل الى المدينة، وسمع هتافات الناس الذين يقظهم هدير السيل وشاهد الأضواء تضئء متتابعة في البيوت، وخرج من المستشفى وهبط بحذر نحو مجرى الوادي الذي ينتهي الى البساتين. وتحركت سيارات من الجهة الأخرى ثم توقفت. واقترب جمع من الناس، وفجأة انقطع التيار الكهربائي بعد ان جرفت المياه العمود الذي يوصل بين المحولة الموجودة قرب المستشفى وبين المدينة، وعم الظلام الجهة الأخرى.

وعلت أصوات اصحاب البساتين من اسفل الوادي، تطلب النجدة، ولم يعد الرجل يرى أي شيء، وانبثق ضوء مصباح يدوي، توجه نحو البساتين، وتلاشى الضوء بين الاشجار، والتمعت وهجة المصباح في المرتفع، ثم

أضاعت سيارة أنوارها التي لم تنش سوى نهايات الأشجار العالية، ثم انطفأت، وساد صوت المطر المنهمر والماء الهادر الكثيف، وكانت صرخة تعلو بين حين وآخر موجهة نحو المدينة.

واستمر الرجل ينقرس في كتلة المياه وجوانب الوادي ثم صرخ مناديا:
- نجبية، نجبية.

وأجابه رجل من الجهة الثانية:

- من؟ محمود؟

وصاح محمود نحوه:

- هل شاهدتم زوجتي وولدي؟

وعاد الصوت مدويا في الصمت:

- اليسوا معك؟

وتقدم الرجل خطوات نحو حافة الوادي وحدث في الصخور وهو يرد:

- اذن لا زالت في الوادي.

وهتف رجل من أسفل الوادي:

- انقذونا.

والتفت الجميع صوب الصوت، وكان الرجل يجلس فوق شجرة ضخمة، وأشار بيده، وارتفعت ست أيد تلوح، وهي تنادي مجتمعة:

- انقذونا.

وكان الرجال متوزعين فوق الأشجار، والمياه تحيط بهم، وهي تتدفع، منحدر، ثم تستدير نصف استدارة حول كتلة صخرية، ثم تنغمر في النهر.

وناداهم رجل من فوق:

- كلكم أحياء؟

واتاه صوت من الوادي:

- كلنا أحياء.

وإزداد المطر كثافة، وأقبلت سيارة المسؤول الإداري وتوقفت خلف الرجال المتجمعين، وتطلع صوب الرجال الذين يجلسون فوق الأشجار، ونحو الرجل الوحيد الواقف في الجانب الثاني من الوادي.

وأوعز إلى رجل، فصاح:
 - ستصل طائرات الهليكوبتر، وتتقذك.
 ثم تحول إلى الرجل:
 - محمود، من معك؟
 - ولد وبنت.
 وقال الرجل للقائم مقام:
 - فقد زوجته وولديه.
 ثم صاح الرجل من جديد:
 - وجارك؟
 وأجابه محمود:
 - لا أعرف عنه شيئاً.
 - اليسوا في المستشفى؟
 - لا.
 وأوضح الرجل للقائم مقام:
 - جاره لديه زوجة وست بنات.
 وراحت عيون الرجال تتفحص كتل وجوانب الوادي، ومشى اثنان منهم
 متجهين فوق كتلة الوادي الصخرية المنقطة حول البساتين، وكانا يسيران
 ببطء، وهما ينفقان في الكتل البارزة والمتحركة، التي جرفها السيل، وفي
 الأشجار المقتلعة الطافية، والغاطسة، والمتكسرة، ثم عادا بنفس البطء،
 وتجمعت نسوة الرجال المتسلقين وأطفالهم وأقاربهم وكبر تجمع الناس
 وأصبح خطاً طويلاً فوق الوادي، ومضت نسوة الرجال يصرخن واحدة بعد
 الأخرى:
 - أبو محمد "أشلونك"؟
 ويجيبها زوجها باقتضاب:
 - كما ترين.
 وتبارى الأطفال في مناداة آبائهم واسماعهم أصواتهم، وعاد البعض إلى
 المدينة بعد أن تبلل بالمطر، ومكثت عوائل الرجال المتعلقين وهم يرمقونهم

وينظرون الى القائممقام ليتحرك بسرعة ويعمل اي شيء لانقاذهم، وركب المسؤول الاداري سيارته وعاد الى المدينة، واقبل عدد من رجال الشرطة والامن والموظفين، وراحوا يبحثون عن طريقة لانقاذ الرجال، وبقيت المياه المرتفعة حائلا امام اقتراحاتهم، ثم نصح احد الموظفين الشرطة:

- اركبوا زورقا وانقذوا الرجال.

وهب مفوض الشرطة، الذي ادرك بحذره، مدى الورطة التي يحاول

ذلك الموظف زجهيم فيها:

- وهل تأتي معنا؟

وصمت الموظف وهو يراقب الجذوع الضخمة الطافية وهي تتقاذف مستقيمة وسط المياه، ثم ترتطم بجانب الوادي وتستدير سريعة ثم تظل تدور وهي تهبط نحو المصب.

واحاط اناس خرجوا من خلف المستشفى بالرجل الوحيد، وارتفعت صرخة قريبة من زوجته، ثم تعالت صرخات من نساء اخريات، واستفز الصراخ جميع النساء، حتى نسوة الرجال المعلقين، رحن يولولن ويندين، وأشار الرجال اليهن بالصمت والابتعاد، فما زال رجال أحياء ينتظرون فوق الاشجار، وابتعدت امرأة صوب البيتين وهي تلطم رأسها وتنوح.

وعاد المسؤول الاداري من جديد وقال لاحد رجال الشرطة :

- اتصلت بالعاصمة، وستجيء الطائرات.

وردد شرطي بصوت مرتفع.

- ستجيء الطائرات.

وارتفعت جميع الرؤوس الى السماء وهي تبحث عن الطائرات.. واستمر اناس يحضرون. رجال وأولاد يركبون الدراجات، ورجال ونساء وعباءاتهم تتطاير في الريح والمطر، وانصرف آخرون الى المدينة او غابوا خلف المستشفى البيضاء.

وتراجع محمود ودخل المستشفى، وكان طفلاه يجلسان في غرفة الممرضة وهما يلتهمان قطعا من الحلوى ويضحكان لمداعباتها.

وناداه الطباخ :

- تعال وكل شيئا.
- وأجابه بفتور :
- لا اشتهي.
- وتقدم الطباخ منه وسحبه من ذراعه قائلا :
- لا بد ان تأكل.. انت جائع.
- ورضخ الرجل ومشى خلفه ودخلا المطبخ...
- وشيعه الرجال بنظرة رثاء.
- ورقد محمود مع ولديه في غرفة بالمستشفى، وهو يتأملهما، ويفكر في زوجته وولديه الاعرجين الذين غرقوا، ثم يتوقف ويعود الى مسألة تقلقه، فاين سيذهب بعد ان يتوقف السيل، فهو لن يبقى في المستشفى، كما انهم لن يسمحوا له بذلك، والتمعت في ذهنه فكرة وهي ان يذهب الى بيت شقيقته في المدينة، ثم يبدأ حياته من جديد، ولم يستطع ان يقرر كيف سيبدأ حياته الجديدة.
- وومض ولداه الاعرجان في ذهنه، وقرر انهما نجيا من حياة بائسة تنتظرهما في المستقبل، وتخلص هو من عبئهما عليه، وطلب توبة ربه في لحظات المه الهائجة، وتثبتت فكرة تخلصه منهما بعقله، وتخفف شعوره بالاثم تدريجيا.
- وانبعث تعليق الممرضة الذي سمعه صدفة سريعا :
- الرجال لا يحزنون.
- ولم الحزن على حياة قاسية؟ ولا سيما بالنسبة للفقراء الذين يقضون حياتهم المريرة بكد متصل واقصى امنياتهم ان يشبعوا؟ وهمس:
- ليتني مت، وليتني لم أولد.
- وحرك الابن الاعضب يده.
- هذا المسكين.
- وتذكر الولدين الاعرجين.
- انه افضل منهما، فماذا سينتظر صبي اعرج، لأسند له في هذا العالم من الحياة؟

وزحف نحوه الطفلان واستكانا قرب قدميه، وانحنى عليهما وقد انفجرت عواطف دامية في داخله، وخاطبهما.

- ماذا كان سيحل بكما لو مت؟

ونظرا اليه بدون ان يفهما، وصمت واشاح ببصره، ثم اضاف:

- لن اترككما، سأتزوج امرأة تعنى بكما.

وكانت فكرة الزواج قد لاحت له منذ ان تيقن ان امرأته ماتت وأصبح وحيدا. واطمأن وشعر بالتعب يملاً جسده، وود لو ينام، وأخذ جسده يتراخي.

وواصل الرجال المعلقون صراخهم برجال الشرطة :

- اين الطائرات؟ متنا من الجوع والبرد.

وكانت الاشجار الضخمة يهزها الماء، وهم ينظرون الى كتل الثمار الطافية بأسى، وكانوا قد انتزعوها من الاشجار في النهار، وكدسوها في زوايا الاكواخ، لكن السيل داهمهم، ونجوا عندما سمعوا صرخات الرجل في اعلى الوادي وهدير السيل، ولم يستطيعوا الهرب الى خارج الوادي الواسع والمرتع، واختاروا الاشجار الصلبة واعتلواها، وتأكدوا من نجاتهم جميعا عندما تنادوا. واستمر الهدير الصاخب يصدم اسماعهم، ويفكرون في مصيرهم لو ان الاشجار لانت للسيل وانجرفت، واستمرت ايديهم تشد بقوة على الاغصان، ويحاولون الجلوس بشكل يتفادون فيه السقوط.

وبحثت أصابعهم، وعلى متناول ايديهم، عن الثمار اليابسة والمعطوبة، وحاول احدهم ان يبت فيه الصبر، وقرأ لهم آية قرآنية، ولم يجيبوا عليه، ولبت خوفهم في اعماقهم وراحوا يتضرعون يائسي، واستمر الرجال المعلقون يرتجفون من البرد، وهم يتمسكون باغصان، وانصرف الجمع في اعلى الوادي تباعا، وثبت شرطي في مكانه، وبقي القائم مقام وحده يجيء بين حين وآخر، ثم يعود الى دائرة البريد، ينتظر برقية او تلفونا او إشارة تخبره بوصول الطائرات.

وبدا الوادي الفسيح الذي توسع، من اعلى، مغرقا في الظلام، عندما مرت غيوم ثقيلة.

ثم انقطع المطر وهبت الريح المثلجة من الصحراء، وبدأ الهدير يتلاشى وانتبه الرجال المعلقون، وصاح احدهم:

- توقف السيل.

وانصت الآخرون، وعلق احدهم.

- يبدو انه توقف.

واعترض آخر:

- ربما هدر من جديد.

واضاف :

- هذه الصحراء كبيرة، لا تعرف اين تتجمع فيها الامطار وتسير، وقد يجيء السيل من مكانات أخرى، فالمطر كان كثيرا.

- لكن المطر توقف.

واستهجن رجل التعليق:

- يجوز ان المطر توقف هنا، لكنها ربما تمطر في مكان آخر في الصحراء.

وصمت الرجال، وهم موقنون بان السيل توقف، ولكن احدا منهم لم يجرؤ على الهبوط والخوض في المياه.

ونظروا الى المياه السوداء، التي تمور حول أشجارهم، وراقبوا السماء المليدة بالغيوم والتي ينفذ من فجواتها نور القمر وبضياء كتلة الماء الكبيرة والوادي الأسود الذي يحيط بهم، ثم يختفي الضوء وتغرق الأشياء في السواد.

وظل انتباههم موجه الى الصوت المنحدر من الاعلى، وعلق احدهم مؤكدا:

- انقطع السيل.

وتشكى واحد متوجعا :

- انني مريض.

وأجابه آخر بصوت أعلى :

- وانا أكثر مرضاً منك.

وعلق ثالث :

- كلنا مرضى.

وارتفع صوت من اعلى الوادي:

- توقف السيل.

ورد الشرطي مؤيداً.

وعلق رجل طالبا تأييد الآخرين لفراسته:

- ألم أقل لكم؟

لكن الرجال لم ينزلوا في المياه المتحركة، واشتد تعلقهم ببيوتهم وبالدفاء والطعام، وأخذ اناس يفدون، وانارت السيارات الوادي باضوائها الوهاجة.

وفي الفجر زحف الكثيرون الى الوادي، وكانت المياه قد توقفت عن الجريان، ونزل الرجال من فوق الاشجار وأمسكوا جذوع الاشجار وتمطوا وحركوا أرجلهم، وغمرهم الماء الطيني الى افخاذهم، وأخذوا يسيرون حذرين وبطيئين وهم يخوضون ووصلوا الى منحدر الوادي، ثم مضوا يتسلقون واحداً بعد الآخر، وحين أصبحوا في اعلى الوادي، تمددوا على الأرض، منهكين وجائعين، وحمل الناس الرجال الى السيارات، وانطلقت بهم، وركضت نسوتهم صوب المدينة، ليكن بجانبهم.

وبقي اقارب اصحاب البيتين اللذين محيا، ومجموعة من رجال الشرطة.. ومن الجهة الأخرى هبط محمود، وأخذ الجميع يبحثون عن الجثث التي جرفتھا المياه، وكانوا كلما عثروا على جثة رفعوها ووضعوها في الاعلى. واستمر الرجال يخوضون متجهين نحو الاسفل، ووجدوا آخر جثة مطمورة قرب الشاطئ.

ونقلت الجثث الى المدينة، ومن ثم الى المقبرة، وما ان سوي التراب عليها، حتى اختلطت في ذهن محمود صورة المرأة التي سيتزوجها. واشرقت الشمس في الظهيرة، وبدت الصحراء الممتدة غامقة ومروية. ومن الاقّ البعيد ظهرت طائرتا هليكوبتر قائمتين، وحلقا عاليا، ثم هبطتا في ساحة واسعة وسط المدينة

العربة

دفع عربته الحديدية الصغيرة، وشمس الصباح الحامية تغرق جسده بالعرق، وكان يحس بخيوط باردة على رقبته التي يلامسها الهواء. توقف أمام بيت كبير، وتقدم من الباب وهو يشعر بدقات قلبه الصاخبة، انفتح الباب وظهرت امرأة شقراء.. نظرت الى عربته، ثم اليه، وهزت رأسها داخلة.

كانت هذه المرأة الشقراء حلمه الدائم. لقد رأى نساء الحي كلهن، لكن هذه المرأة وحدها، استطاعت ان تترسخ في ذاكرته، وطالما نظر اليها بتضرع عليها تفهم نظراته، لكنها كانت لا تعيره اهتماماً. انه منذ ثلاث سنوات يعمل جامعاً للقمامة في الحي، وهي مهنة احقر من ان تحقرها، وقد شزرت في باديء الامر بنظرات متحسسة، لتحفظ ملامح وجهه، كرجل مشبوه، يمكن تقديم اوصافه. انه لا يعرف كيف بدأ ولعه بها، ثم سيطر عليه، لكنه يعلم ان لهفة حياته هي رويتها صباح كل يوم.

وأمام الباب الداخلي، سمع صوت ارتطام ثقيل على الأرض وأنها متوجعة. نظر من فوق الحائط، وشاهد القمامة منثورة من فوهة البرميل الصغير والمرأة تستند على الحائط وهي تمسك بأسفل ظهرها. حرق في وجهها المتقلص من الألم، ولم يتجرأ على دفع الباب والتقدم اليها. وزحفت عجوز من داخل البيت وسألتها :

- ماذا حدث؟

أشارت المرأة الممسكة بأسفل ظهرها، برأسها، وهمست:

- ظهري.

وأرادت ان تعود الى الداخل، ولم تستطع التحرك. وهزعت العجوز الى الباب الأمامي لتطلب نجدة، فتراجع جامع القمامة والتصق بعربته.. مدت العجوز رأسها وشاهدته، لكنها تخطته لتبحث عن رجل آخر، وأحس

جامع القمامة بخدر، اذ ان الطريق كان خالياً، وعادت العجوز تنتظر اليه..
ثم نادته.

تسأل متردداً - انا -؟ انا..؟

- تعال ساعدنا.

ترك عربته ودخل خلفها، ونظر الى المرأة الشقراء المتألّمة وشاهدها
تنتظر الى يديه، وأحس بوساقتها، فرفعهما ودعكهما بقميصه. ثم سأل
العجوز - ماذا افعل؟

قالت العجوز - ساعدها على الدخول الى البيت.

انتظرت المرأة، الرجل، ان يساعدها. ومد جامع القمامة يده بحذر، ولم
يستطع ان يحدد اي مكان يسمح له بلمسها منه، ليساعدها. ثم أمسك يدها
برقة، وانتظر ان تتحرك، لكنها تأوهت ولم تستطع ان تنقل قدمها خطوة.
وقالت:

- لا أستطيع المشي.

واجهته العجوز :

- أسندها بقوة.

ترك يدها، ويتردد، مد يده الى خصرها، ورفع يدها وأدارها فوق رقبته
وتمسك بها.

تقدمت خطوة، وأحس بنهدها يلامس كتفه، وبعطرها الخفيف ينفذ فيه.
كان دائها، وود لو يدخلها بسرعة. وتقدمتهما العجوز وفتحت باب غرفة
النوم، وببطء، دخلا. وكانت أصابعه تلتصق على بطنها، من فوق ثوبها..
وعندما وصلا الى حافة السرير كان عليه ان يفلتها.. ولم تستطع التمدد
لوحدها، فأمرته العجوز ان يرفعها..

أحنى جذعه ووضع يداً تحت فخذيهما ووضع الأخرى على ظهرها،
واستطاع ان يرقدها، وبقي واقفاً بجانب السرير يتأملها.

انحنى العجوز عليها، وسحب ثوبها الذي ارتفع الى ركبتيها، ومسحت
بكفها المكان الذي كان يمسكها منه، ثم تراجعت ومدت يدها الى جيبيها
وأخرجت درهماً، ناولته له وهي تأمره:

- خذ.

نظر الى الدرهم، ثم الى المرأة التي كانت تراقبهما... تراجع الى الوراء وهو مباغت:

- لا.. لا.

وانطلق مسرعاً الى الخارج.. وأمسك بعريته ودفعها باستقامة. وكانت ضجة عنيفة في رأسه.. المرأة الحلم بين يديه، لقد لمسها وضغط على جسدها، وربما لن يتحقق له ان يلمسها من جديد، الى الأبد.. وهو يدور في وضعه المهان.

وعاد مسرعاً الى مركز تجمع العربات الخالي في ذلك الصباح، دفع عريته وأوقفها في الزاوية، ولم يجب على تساؤلات الموظف، وخرج. كانت الشمس المحرقة والهواء الساخن، يلفحان كل شيء، ولم يبد على الرجل الذي كان يمشي وسط الطريق انه يحس بأي شيء.

* * *

قصص*

* معظم القصص الآتية تم نشرها في جرائد ومجلات عراقية وعربية وبعضها يمثل البدايات التي ميزت أسلوب خالد الراوي. ويذكر أن قصاصات القصص موجودة في مكتبة القاص، لكن هنالك البعض منها مفقودا. على سبيل المثال، أرسل خالد الراوي ثلاثة قصص من بينها قصة "الموت الأبيض" التي لم يمكن إيجادها إلى الأديب العربي ادونيس. ففي رسالة مرسلة إلى خالد الراوي من ادونيس، ذكر فيها الآتي: "الأخ خالد الراوي، أعذر أولا عن تأخري في الكتابة إليك. قصتك "الموت الأبيض" أعجبتني. أتمنى أن ترسل لي قصتين أخريين قصيرتين مثلها لنشر القصص الثلاث معا، تقدير ومودة. أدونيس، 21 آب 1969".

وشهيد يمضي*

دق القصاب بعنف على المنضدة ليخمد الجلبة التي اعتورت جو الغرفة حين دخلها احد الشبان وهو مصفد اليدين، يمسك به اثنان من افراد المقاومة الشعبية. وكان الشاب طويل القامة نبيل التقاطيع رغم تمزق ملابسه ورغم النماء المتجمدة على صفحتي وجهه. .

أدار الشاب وجهه في الغرفة الواسعة فشاهد زمرة من المقاومة الشعبية يقفون وهم يحملون المدافع الرشاشة في ايديهم وعيونهم تكاد تقترسه.. اما في صدر الغرفة فقد جلس على منضدة صغيرة رجل متجهم الوجه عرفه الشاب حالاً..

انه القصاب. .

اذن فالقصاب سيحاكمه. ثم هز رأسه بلامبالاة..

ودق القصاب ثانية على المنضدة.. فران الصمت الثقيل على الغرفة. ولم يك هنالك الا بصيص من نار يشع من عيون الواقفين. .
وانبعث صوت أجش من القصاب وهو يوجه حديثه الى المسكين الشاب: ما خطب هذا؟.

فيأبده أحدهما: انه متأمر يا سيدي..لقد اشترك في الثورة ضدنا.

فقال القصاب للشاب: أصحيح ما يقوله؟.

فلم يجب الشاب، بل انه تطلع الى أفراد المقاومة الشعبية بازدراء.. والذين كانوا بدورهم ينظرون اليه بقسوة ... وصرخ القصاب بغضب: تكلم. ألم تشترك بالثورة؟.

فنكس الشاب رأسه ولم يتكلم. فعاجله احد الواقفين بلطمة شديدة على أم رأسه. .

وشعر الشاب بقواه تتلاشى، واستدار وهو يحاول تخليص يديه من الاغلال وهو ينظر بضرارة الى ضاربه. ولما ينس من عقم محاولته تكلم وقال بصوت عميق: انك جبان يا هذا. .

* نشرت هذه الفصة في جريدة الثورة، 8 آذار 1963، عدد 14.

وبين لحظة وضحاها تكوم الحاضرون في الغرفة على الشاب وأخذوا
يوسعونه ضرباً وشتائم مقذعة.. ويسط الشاب راحتي يديه على وجهه
ليحميه..

فهتف القصاب: كفوا أيها الرفاق.. ولنعد إلى محاكمة هذا الشخص..
قل لي.. هل انت عربي؟
فمسح الشاب خيطاً من الدماء انساب من جانب فمه، ونظر إلى
القصاب نظرة ثاقبة وقال: نعم.. انا عربي.. وسأظل عربياً..
فدوى المكان بالضحك..

وصاح احدهم يقول: إنني عربي.. ها.. ها.. ها..
فصرخ الشاب: احرص أيها الكلب..
فتقدموا إليه، بيد ان القصاب أشار إليهم فتراجعوا..
ثم قال للشباب: وتؤمن بالقومية؟
فهتف الشاب: نعم أو من بالقومية.. فما تسمية العربي بالعربي اذا لم
يؤمن بقوميته؟

فقال القصاب: حسنا وهل اشتركت بالثورة؟
فأجاب الشاب بعد ان هز رأسه: انظر إليّ لاخبرك.. إنني أرى مصري
مكشوقاً أمام ناظري.. وأعرفه جيداً.. وما دمت قد عرفته فلاقل ما يجيش
في خاطري وليكن ما يكون.. نعم انا اشتركت في الثورة ضدكم وضد قاسم
أيها المناجيس انكم دنستم ربوعنا.. وملأتموها بشعارات الشعوبية والتحلل
والضياع.. ولهذا ثرنا عليكم.. ان عروبتنا أبت علينا ان نظل مكلمي الافواه
والأيادي تجاه أعمالكم.. ونحن نراكم تعيثون في البلاد فساداً.. ولولا
الانتكاسة الرهيبة التي منيت بها الثورة لكنتم الآن في خبر كان.. ولكن
القدر، ويا لسخريته المريعة، أدار الدوائر علينا في الختام.. فأخذنا نقدم
القوافل الطوال من الشهداء.. ولم نفتأ نقدمهم.. ولن نكف عن تقديمهم حتى
نراكم ترقدون تحت الأديم بين أحضان الشياطين..
فجار القصاب وفار كالثور: صه أيها الخائن.

فقال الشاب.. انا لست خائناً. أنا عربي أذب عن حياض امتي.. ومن
كانت شيمته هذه فليس هو بخائن.. إنما الخائن من يستوحي مبادئه من تربة
غير تربة وطنه. .
فتعالت الضجة بين جوانب الغرفة وهي تنادي بإعدامه. .
فأصمهم القصاب بإشارة من يده ثم قال بتؤدة: ان هذا الشخص خطر
علينا.. اصدرت المحكمة حكمها بالاعدام رميا بالرصاص حتى الموت على
هذا الشخص.. اخرجوه.. وهاتوا غيره..
واخرجوا الشاب وهو يسير بهدوء ورأسه مرفوع الى الأعلى ينظر الى
السماء..
وبعد لحظات شق السكون صوت إطلاق نار.. خر على اثرها جسد
فتى يتخبط بدمائه..

* * *

أرض الموت*

قتل شاربته.. ثم مسح عليه برفق ومسده بأناة... وانبعث صوته بارداً يدل
على السأم الممض.
إن رأسي يكاد ينفجر من الألم.. فهل تعرفون أيها الرفاق وسيلة أسري
بها عن نفسي..
وانبرت الزمرة تبدي اقتراحاتها..
بيد انه قال لهم.. كل هذه المقترحات لا تجدي فتيلاً لما يدور في داخلي
من سأم..
فيادره شاب قميء زري المنظر..
أنا أعرف طريقة تدخل المرح والسرور الى قلبك..
فقال له: هاتها.. كيف؟
فأجابه القميء: لن أتحدث اليك بالتفاصيل.. هيا قم معي.. وأنتم يا رفاق
اتبعونا...
وخرجوا جميعاً من الغرفة..
وانعطف القميء في احد دهاليز السجن.. وتوقف أمام أحد الزنانات
ومد رأسه يتطلع من الكوة الصغيرة.. ثم التفت الى رفاقه وقال لهم..
قيدوا الشاب الموجود في هذه الزنانة واجلبوه لي..
فأولج احدهم مفتاحاً في الباب.. وصر الباب وهو ينفتح..
وما هي الا لحظات حتى خرج الجميع وبينهم شاب مربوع القامة قوي
العضلات مصفد اليدين..
وهنا التفت الرئيس الى القميء وقال له: وماذا بعد هذا..
فرد القميء: لا عليك.. اتبعوني..
وخرج بهم من السجن الى الطريق.. ثم فتح باب سيارة شحن مكشوفة
ودلف وتبعه الرئيس ثم السائق.. بينما دفع الآخرون بالشاب المقيد الى ظهر

* نشرت هذه القصة اول مرة في جريدة العرب، 20 آذار 1963.

السيارة وصعدوا معه..وأشار القميء الى السائق ان يذهب بهم الى (الدملماجة..).

وانطلقت بهم السيارة وهي تصدر القرقعات والضجيج.. ثم خفت الضجة وتوقف المحرك.. فنزل الجميع من السيارة.. وانصبت نظراتهم جميعا على القميء..

فقال لهم: اراكم في لهفة.. حسنا لا تتعجلوا.. هل لديكم معول.. هذا فأجابه احدهم: وأي شيء تفعل بالمعول.. أتتوي ان تقتل به؟.. هذه طريقة غير مجدية.. دعني اضربه بالرصاص..

فصرخ به القميء: كلا.. لا تضربه بالرصاص، وكل ما عليك هو ان تأتي الي بمعول..

وانسل الشاب من الجمع وذهب الى السيارة فاخرج منها معولا أعطاه للقميء..

وقال القميء: فكروا وثاقه..

وتحررت يد المربوع.. ثم ناوله القميء المعول وقال له.. احفر..هيا احفر بسرعة..وارتفعت يد المربوع بالمعول وضربه بالأرض ضربة يائسة... وضربة تتلو ضربة حتى اكتملت الحفرة.. وتقدم إليه القميء غاضبا.. بيد ان الشاب أخذ يقاومهم بيديه الواهنين.. وسرعان ما أصبح ورقة هابة في الريح بين ايادي الرفاق.. ثم تناقلوه بينهم وقذفوا به الى الحفرة، وأخذوا يهيلون عليه التراب بسرعة.. حتى لم يبق سوى رأسه فوق الثرى..

وقال له احدهم: هه أيها المتآمر.. ما هو شعورك الآن؟.. فقال لهم: اني أمنت بالله وتوكلت عليه. فتعالت ضحكاتهم تقطر بالسموم وابتدرة القميء مقهقها:..هه.. ومن هو الله.. ها.. ها ... ها...

فأجابه: من الطبيعي ان تستهزئ بالله.. وليس هذا غريباً ما دمت شيوعياً دنساً لا تؤمن بالدين ولا بالعروبة...

فتقدم منهم رئيسهم وركله بقسوة على رأسه..

ثم قال له: إن لسانك يا هذا لطويل.. تعال يا كاظم واقطعه..

فتقدم كاظم وجثا على ركبتيه ثم اخرج سكيناً حادة.. فحذق به المدفون برعب..

بيد انه لما رأى العزم والتصميم في وجه الرفاق صرخ قائلاً: لا.. لا تقطع لساني قبل ان اقول كلمة.. انكم ستنبحونني لكنكم لن تقدرؤا على ذبح الشعب كله.. انكم ستنبحونني وسيضيع دمي هدرأ في هذا الوقت.. لكن لا تنسوا ان هناك يوما ستتالون فيه العقاب على ما فعلتم..

فانقض الجميع على الرأس الخارج من الأرض وأخذوا يكيلون له الضربات.. حتى ارتخى الرأس..

فصاح أحدهم: لقد فقد وعيه.. هيا لنقطع لسانه..

ثم فتحوا فكيه واخرجوا لسانه..

وفي هذه اللحظة فتح المدفون عينيه بقوة..

بيد ان كاظم حز اللسان بسرعة.. وانبتق الدم ينفجر من فم المدفون ..

وقال الرئيس للمدفون: ان لسانك هو الذي اوصلك الى هذا المصير..

وكان من الخير لك ولنا قطعه..

ثم تقدم القميء وقال: لئن المسرحية.. وتناول السكين من كاظم.. واقترب من الرأس الذي تحوطه الدماء.. وبحركة مباغتة ادخل السكين في العين اليسرى للمدفون فاقتلعها وتفجر ينبوع آخر من الدماء.. ثم أنزل السكين الى تحت العين وحز بسرعة لحم الخد الايسر.. ثم تحول الى الخد الايمن وكشط لحمه.. ثم رفع السكين وأهوى بها على رأس المدفون.. فأخذ الجميع يقهقهون بفرح جنوني وهم يشاهدون خبطاً أبيض ينساب من رأس المدفون..

وقال القميء: هذا يكفي فلنذهب الآن نترك الرأس للغربان تنهشها.. ثم مسح السكين بشعر المدفون..

ومضى الجميع والسرور الوحشي يدغدغ أعماقهم.

* * *

عريضة الجروح*

كان كل شيء ينذر وينبئ بالتمرد.. فالسمااء ملبدة بالغيوم الداكنة..
والغبار ينثر في عواصفه على المدينة.. ووجوه الناس تغدو وتجيء وهي
عابسة مكفهرة ولا تبدو فيها حركة خلا التماح الأعين..
وفي احدى المقاهي الصغيرة كان يجلس شابان يتحدثان عن الأمور
السريعة المفاجئة التي حدثت أخيراً..

فقال الأول: حقاً ان رفع اسعار البنزين ليعد لطمعة لسائقي السيارات..
فقال الثاني: هذا أمر لا ريب فيه.. فأنت تعلم ان هؤلاء السواق جلهم
من الفقراء المدقعين الذين لا يملكون شيئاً والذين يقع على عاتقهم اعاشة
عوائل كبيرة.. فاذا ما رفع سعر البنزين ستقل مواردهم حتماً.. وبهذا تسيطر
الحكومة عليهم وتسيرهم وفق رغائبها.. لان الفقر يجعل المرء ذليلاً ان لم
يؤمن بمبدأ او عقيدة..

فهز الأول رأسه وقال بصوت خافت: إيه.. إيه.. إني أرى بعين خيالي
العواصف تهب، وأرى الغليان قد وصل الى أقصى مراحل.. فالانفجار لا بد
أن.. والله وحده يعلم ما سيحدث واين سترسو السفينة..
ثم انهمكا في حديثهما.. وعلى حين غرة باعتهما صوت عميق: السلام
عليكم..

فقالا: وعليكم السلام.

كان القادم شاباً مربوع القامة مهيب المنظر.. وسرعان ما قال: هلم يا
مؤيد فلدي كلمة أود ان اقولها لك.. ونظر الى الشاب الآخر مستأنفاً. فنهض
مؤيد وسار معه الى زاوية المقهى..

وهمس الشاب المربوع في اذن مؤيد: غداً صباحاً.. عليك ان تذهب الى
الساحة المقابلة لجامع الأعظم، فهناك ستجري مظاهرة لقسر الحكومة
الخائنة على ان تتراجع عن رفع اسعار البنزين وستكون المظاهرة قوية..
لان الغبن الذي لقيه الشعب منذ امد طويل أن له ان يزول ويندثر..

* نشرت هذه القصة في جريدة الثورة، 27 آذار 1963.

فقال مؤيد: حسنا سأكون هناك وسأجلب مسدسي معي. .
فأجابه المربوع: حسنا اني ذاهب لأبلغ الآخرين.. لا أرى حاجة
لتوصيتك بأن تبلغ كل من تراه من الصحاب.. مع السلامة.
فأجابه مؤيد: مع السلامة..
ورجع مؤيد الى صاحبه وهو يفكر فيما سيحدث غدا.. وأشار الى
صاحبه وقال له: هيا نخرج من هنا علنا نستطيع مساعدتهم في لصق
المناشير او ما اشبه..
وخرجوا من المقهى الصغيرة، وكانت الشمس قد بدأت تتكون وتتضاءل،
والظلام الأسود بدأ يزحف الهويئا.. وحين أخذوا يزرعان الشوارع شاهدا
مجاميع متعددة من الشباب تقف في منعطفات الشوارع هنا وهناك.. وكانوا
متحفزين تطل العزيمة من عيونهم.. وكانت أعمدة النور وحيطان الدور
ملينة بالمناشير التي تحرض الناس على الاضراب العام..
ثم انصرف الاثنان وتعاهدا على اللقاء في الغد..
انصرف مؤيد يسير الهويئا الى منزله وهو يحس قرعا في اعماقه
ويحس بكيانه يختلج، عندما تراءت له في مخيلته صورة المظاهرة..
وحين رقد في فراشه كانت الهواجس تنتابه والأحلام تتراءى له.. فقد
حلم بانهم سوف يكتسحون قوات الانضباط العسكري والامن حين يحاولون
صددهم ومنعهم من تقدمهم.. وانهم سوف يمضون قدما الى الدفاع ويسمعون
أصواتهم لقاسم. .
وأخذ مؤيد يتقلب في فراشه والكرى لا يدنو منه..
وحين انبلج الصباح هب مؤيد من فراشه تنفض في بدنه القوة ويشيع
في كيانه النشاط..
النقط ملابسه من المشجب وارتماها بسرعة.. واخرج المسدس من
تحت الوسادة ووضع فيه الرصاص ثم خبأه تحت ثوبه يسنده الحزام..
وخرج بمهل من غرفته.
وتطلع الى الممر فلم يجد احدا من اهله فيه.. فتنفّس الصعداء ودرج
بخفة وخرج من الباب.. وفاجاه نور الشمس الوهاج.. وحين خطا في

الشارع رأى عددا من الشباب يغذون الخطى مسرعين الى جهة الجامع.. فتبعهم وهو ينظر الى الشوارع وقد أغلقت مخرجها بسدود واطئة من الحجارة لتمنع تقدم السيارات وسيرائها حتى يعم الاضراب ويجتاح المدينة بكافة مرافقها..

ثم انعطف الى الشارع العام.. كانت المحال مغلقة والشارع الطويل صامتا من حركة السيارات خلا بضع سيارات تابعة للجيش تمر بسرعة هائلة..

ومن بعيد شاهد عشرات الشباب وكل منهم يقف في جهة ويتشغل مع زميل له بحديث وكلام.. وصل اليهم وانضم الى أحد اصدقائه وأخذ ينظر الى مركز الشرطة الذي يواجه الساحة التي يقفون فيها.. ورأى على سطح البناية عددا من افراد الشرطة والأمن ينظرون اليهم..

واستمر تقاطر الشباب من جميع الانحاء.. وبعثة هتف أحد الشباب بأعلى صوته منددا بالسلطات.. فتحرك الواقفون والتحموا وعلا هتافهم... وتقدم ضابط وبضعة جنود وأمسكوا بالهاتف المحرض.. بيد ان الشباب انتزعوه من ايديهم وراحوا يهتفون بملء حناجرهم. وأشار الضابط الى جنوده فهجموا على المتظاهرين يوسعونهم ضربا بالهراوات.. فرد عليهم المتظاهرون الضرب بالمثل.. فانسحب الضابط بحف به جنوده الى داخل المركز وأمسكوا في طريقهم بعدة شباب.. وفي لحظات معدودة دوى الرصاص من اعلى بناية مركز الشرطة... فتناثر كثير من الشباب يلوذون بأذيال الفرار.. وانسحب الآخرون الى اماكن ترد عنهم عائلة الرصاص.. واخرجوا اسلحتهم وأخذوا يبادلون الشرطة الرصاص..

كان افراد الشرطة يختبئون خلف الحائط ويخرجون بنادقهم مخصصة فيه.. والمتظاهرون يقفون في اماكن شبه مكشوفة.. وسقط بضعة شباب والدماء تتطاير من جراحهم..

وتسلل شاب من المتظاهرين الى سيارة عسكرية واشعل فيها النيران..
فتعالى الالهة في الفضاء.. وحمى سفير المعركة.. واشتدت أصوات
الرصاص..

وفجأة صرخ احد الواقفين: مؤيد.. مؤيد.. ارجع بسرعة.. ارجع.
وكان مؤيد قد اندفع الى جهة المركز وجثا خلف قطعة حديدية كبيرة
وأخذ يطلق رصاصه على المركز. وفي هذه الأونة.. حجب الشمس غمامة
داكنة كبيرة.. وتعالى في الفضاء صرخات امرأة متوجعة..
كان مؤيد راقداً على الثرى وجرح كبير في عنقه تتدفق منه الدماء
وتسيل على الأرض فتصبغها باللون الأحمر..

* * *

عندما تنطفئ الأنوار*

كوربيقات صفر اقتطفها بفضاطة عصفة ريح في نهار خريفي ممض ...
نفخ الحارس الليلي في صفارته.. تعالى الصغير الاجش من تلك الصفارة
الحديدية الصغيرة.. وحين ابتلع الصدى الرنين المتتابع.. انت الى اسماع
الرجل الهرم أصوات صفارات تنطلق من مناطق بعيدة ... حينذاك زم شفتيه
برضا.. ومضى يجوب الحي على دراجته الهوائية... وعجلات دراجته
تدور ببطء.. ولا يسمع لها في الشوارع المظلمة الساكنة اي صوت...
ان نظراته لم تفقد حدتها.. رغم انه لا يعرف سني عمره.. انها
تنطلق كوخزات ابرة الماكينة.. تكتسح البيوت.. ولا تقف عند شيء..
فالاشجار التي تهزها الريح فتجعل ظلالها ترتعش، لم تعد تثير اهتمامه.. هو
خبر كل الامور المتعلقة بعمله.. لذلك يعرف حركات اللصوص.. وقد نال
شكر المسؤولين في دائرة الشرطة ورفعت رتبته الى رئيس عرقاء. ومع ان
البندقية التي يحرص على ان يضعها على ظهره بشكل خاص من مخلفات
الحرب العالمية الاولى الا انها كثيرا ما اصابته.. وافضل مكان لديه هو
الساق.. لم يخطئ ابدأ الاصابة في الساق.. كلا ... فمن العار عليه وقد
اقسم منذ امد بعيد على الا يقتل إنسانا ولو كان لصا.. ولكنه كان يكره
اللصوص.. ابناء الليل.. لذلك لم يترك واحدا منهم يهرب بغنيمة الا نادرا.
كان الحارس قد وصل الى نهاية الشارع، وحين رجع ثانية، كان
البيت الوحيد المضاء قد انطفأت انواره.. ان عمله يتضاعف حين تنطفئ
انوار كل المنازل.. والمسؤولية تنقل عليه.. ويحس مع كل خطوة جديدة ان
أصابه.. والزناد.. والمنازل.. واللصوص.. هي محوره... انه يحيا في
الليل وينام في النهار.. فهو ابدأ يتحرق الى لص.. اجل.. قد مر عليه مئات
اللصوص.. أمسك بعضهم واصاب بعضا..

* نشرت هذه القصة في جريدة الجامعة ، 24/10/1964، عدد 6.

وشاهد بعضهم في دائرة الشرطة.. الذي يعيش في الظلام يرى جيدا ذلك الذي يعيش في النور. لذا فهو يعرفهم من اول نظرة. وغالبا ما أمسك بعضهم وهم يجربون الحي.. ومن كانت هذه اوصافه فلا بد ان ينتشر خبره في المجتمع الذي يعيش فيه.. وكثيرا ما سمع اللصوص يحدثون بعضهم في السجون عن حكاياته الفذة..وقد حدث أربع اوخمس مرات ان حاول اللصوص قتله...الا انه نجا بأعاجيب ولم يصب الا بجروح ظلت اثارها الى هذا الوقت.. وهويكشف موضعها حين ينغمس في الحديث عن ذكرياته ويتحدث عن الأيام المرة التي قضاها في المستشفى بعيدا عن الشوارع التي ألفها واحبها من اعماقه.. ولا ينسى مطلقا ان يعقب على حديثه.. ان اللصوص حين فشلوا في مساعدتهم تلك.. حاولوا اغراءه بالمال ليغض عنهم النظر وعرضوا عليه مبلغا كبيرا.. الا انه أمسك رسولهم وقاده الى دائرة الشرطة..

ومن بعيد سمع ساعة الجامع الكبيرة.. تفرع اجراسها لمولد الساعة الرابعة.. وانفجرت في الجهة الشمالية الشرقية رقعة باهتة من الضوء.. وكمولد عالم جديد.. يأتي الضجيج ونيدا.. فتتقل حركات الحارس.. وحين تبدأ السيارات تنثرى والناس يفتحون أبواب بيوتهم وشبابيكهم.. ويكون الضوء وضاحا قويا.. يلقي الحارس نظرتة الأخيرة.. ويستدير راجعا الى دائرة الشرطة.. ليعطيهم بندقيته ... ويوقع في السجل ان لا حادث وقع.. ليذهب الى بيته وينام.. وهو على موعد مع الغروب.. كيما يعود..

* * *

القلعة*

كان الهدوء المخيم على تلك القرية الصغيرة الهاجعة على سفح جبل.. ومن جبال عمان.. هدوءا غريبا.. صمتا عميقا.. ومن اعلى.. كان بيت كبير... قلعة.. تنتصب فوق البيوت بناها الانكليز لرجلهم الموكل بمراقبة الطرق.. للابلاغ عما يحدث ويريب...
كان العميل القصير واقفا على سطح داره ويده المنظار المكبر يجوس بانظاره البيوت.. والطرق البعيدة..
اين الناس.. همس العميل.. ما بال القرية هاجعة بصمت..هذي الديار لم يمسه الخراب بعد.. فأين الناس.. يا ترى هل ينكتمون امرا لا اريد ان اعرفه.. حسنا.. ساهبط بنفسي.. لاسترق النظر من وراء الأبواب..
وحين شرع يهبط السلالم... صاحت زوجته.. اين انت ذاهب..
فقال - سأعود عما قريب - دعي انتباهك متحفزا..
وحين فتح باب القلعة.. لفحه الهواء السريع.. فلم عبائه جيدا على جسده المترهل.. وشرع يخطو بتمهل.. نحو القرية.. وحين اضحى في دروبها الضيقة.. ترك خطاه تتحرك ببطء.. ومن فتحة باب رمق رجالا كثيرين.. جلوسا.. متقاربين.. يهمسون.. فحاذى الباب.. واصاغ سمعه.. كانت الصيحات المتمردة.. تنفث من صدورهم.. ترمي كل شرارتهم المتقدة.

وصرخ العميل.. يا الله.. انهم يتآمرون..
وجمع قوته ليخطو بسرعة فرمقه احدهم.. وصاح..

* نشرت هذه القصة في جريدة الجامعة ، 24/10/1964، عدد 6.

لقد افتضح امرنا.. سيعطي اشارات للانكليز باللاسلكي..
وصرخ اخر.. المجرم.. الجبان.. وقفز راكضا عبر الباب..
وحين التفت العميل.. وشاهد الرجل راكضا نحوه.. أطلق ساقيه
للرياح.. بيد ان الرجل كان أسرع عدوا منه.. فقاربه وصرخ..
ايها السافل.. اتببع اخوانك للانكليز..
فصرخ العميل.. صه.. ايها الراعي.. فلفظه الرجل بجمع يده..
ترنح العميل.. فاعقبه الرجل بضربة اشد منها... فتدحرج العميل على
الصخور الناتئة... ونهض العميل بنفض ثيابه وهو يتوعد الرجل العماني..
حسنا.. سنلقى مصيرك ايها النعس...
فقال له صمنا ايها.. ولم يكمل كلامه.. اذ طرقت اسماعه صرخات
زوجة العميل.. فالتفت فالفأها واقفة على سطح القلعة.. وسمعها تهيب
بزوجها..
هيا هلم.. لقد أعطيت إشارة الى الانكليز لبيعثوا قواتهم..
فالتفت الرجل ناحيتها وبصق في الهواء تجاهها.... ثم اقترب من
الزوج... وطوق عنقه بكفيه.. وهو يقول ...
سنلقى مصير الخونة.. وان شئت فأعلم ان الرجال هنا اجتمعوا.. ولن
ترهبهم كل قوات بريطانيا.. ولكنك لن تنعم بايصال الخبر الى اسياذك.. ايها
الخائن..
واسئل خنجره.... وبلحظة غامرة اغمد النصل كله في صدر العميل...
وانطلقت صرخة مبجوحة من العميل.. وتداعى الى الأرض..
وخرج الرجال على أصوات الصراخ والضجيج.. وشاهدوا صاحبهم
يمسح خنجره.. ويدخله الى غمده.. فالتفوا حوله.. وصاح رئيسهم..
حسنا فعلت.. فقد قررنا التخلص منه منذ وقت بعيد..
فقال لهم الرجل.. احذروا فان القوات الانكليزية تتقدم الينا..
فصاح واحد.. ها قد جاءت الساعة.. وابتدأ الجهاد.. ارجعوا الى
المنازل.. وليأخذ كل منكم ما يلزمه من طعام.. وذخائر.. الى اعلى الجبل.

واندفع الرجال كل من دربه.. مسرعا.. ثم عادوا ثانية.. يصعدون
الجبل..
حين وصلوا الى الشعاب المتفق عليها.. اتخذ كل منهم مكنه.. ومن
بعيد.. تناهت الى اسماعهم.. السيارات الهادرة ... تتحو اتجاههم.. فصرخ
احدهم..
سنجعلهم يعرفون جيدا.. اي شعب عربي نحن..

* * *

الفرسان*

الرمال تتوهج وتتطاير.. الريح تعصف.. والخيام تهتز.. وخارج خيمة تربية اللون وقف رجل طويل أسمر البشرة يلبس عقالا رفيعا وغترته ملفوفة على فمه.. وقصيرته تتطاير في الهواء.. شاهد فتاة خارجة من خيمة أخرى.. فتقدم منها.. كان اسمه محمد.. واسمها نسمة.. هي ابنة عمه.. يحبها وتحبه.. أراد أن يتزوجها.. فلم يعطها أبوها وأخوتها.. أجفلت وقالت في فزع: ماذا تريد يا محمد؟. أسرع وإلا شاهدنا أخوتي.. فقال محمد.. (أنشد الرجال من هذا المكان.. ونذهب إلى حيث الطمانينة والأمان.. وشعت في عينيها نظرة.. مادام أخوتها يابون زواجهما.. لماذا لا تهرب معه فينعمان بحبهما بعيداً عن العشيرة؟. وارتسمت خناجر في فكرها فهزت رأسها ببأس بينما عاد محمد بهمس من جديد ماذا ترين؟. فقالت بحزن وتسليم.. الرأي رأيك.. فقال محمد.. سنهرب عند انتصاف الليل.. فكوني على أهبة.. وتركها الشوق يضوع من عينيها ليلوي على شيء.. ونسمة أمام خيمتها تنظر إليه بشغف وحنان..

انعطف محمد إلى طريق جانبي ودخل خيمة واسعة.. وصاح.. أماه.. أين أنت يا أماه.. فأجابته.. أي بني.. ماذا تريد؟. فقال: أعدي طعاماً فسأسافر الليلة.. إلى مكان أقصى.. وحين صممت أمه تمدد على أحد الأبسط وراح يفكر.. ونهض فجأة من مكانه.. فأخرج سيفه من غمده.. وأخذ يمر طرف إبهامه على حده.. وهز رأسه قائلاً: إنه والنار سواء.. وأرجعه إلى غمده.. وحين حلت الساعة خرج محمد من الخيمة فحل رباط الجمل ووضع عليه خرجه الذي يحوي متاعه.. ومشى قائداً الجمل، وحصانه ينتقل خلفه.. وشاهد محمد شبحاً أسود.. فدق قلبه.. وحين دنا من الشيخ قال بهمس.. إنها هي.. وهنفت نسمة بقلق: هيا أسرع.. فركب على الجمل وأردفها خلفه..

* نشرت هذه القصة في جريدة الثورة العربية، 1964/10/28. يذكر القاص بأن هذه القصة هي من الحكايات الحقيقية التي يتداولها العرب البدو في مسامراتهم والتي تتناول موضوع الحب والغدر والولاء للقبيلة. (المحرر)

كانت النجوم تتلألأ في السماء.. والرياح تهب باردة تبعث النشوة في الأوصال.. والقمر يرسل أشعته الفضية..
والتفت محمد إلى الورا.. فشاهد خيام العشيرة تغوص في الأفق فقال:
في أمان الله يا عشيرتي.. الحياة قصيرة وحبنا كبير.. فلماذا يريدون إطفاء
وهج حبنا لماذا..

كان السكون مخيماً على الصحراء الواسعة.. وكان الجمل يرفع رجله ويهوي بالأخرى.. واشتد البرد.. فالتصقت نسمة بمحمد.. وقطعت رحلة الصمت نسمة.. ومماذا لو طاردنا اخوتي؟.. أنت تعلم أنهم فرسان شجعان.. فغماس أشهر فارس في ربوعنا.. وقال محمد.. بالله عليك.. دعينا من هذه الأفكار المزعجة.. فأنا فارس وهم فرسان.. وعلى كل حال.. سأطلب الحماية من الشيخ حردان.. ورفع رأسه إلى السماء وقال.. إننا في منتصف الليل.. وعلى وجه الصباح نكون وصلنا إلى عشيرة الشيخ حردان.. وسمع محمد أصوات ركض بعيدة فأشرق عيناه.. وجمد مكانه ساحباً سيفه من غمده.. واقترب منه الفارس.. وقفز من حصانه.. كان القادم طويل القامة عريض الكتفين أسود البشرة.. إنني فداء لك يا سيدي.. هتف العبد شعلان.. فقال محمد.. ما الذي أتى بك؟.. فأجابه.. خشيت أن يصيبك مكروه فتبعتك.. فقال محمد.. هلم بنا.. وقفزا إلى جمليهما.. وغمزا الجملين فأسرعا.. وبدأ الظلام ينجلي.. وخيوط ذهبية تلتصع في الأفق.. ومن بعيد جداً لاحت ببوت عشيرة الشيخ حردان.. وازدادوا اقتراباً.. وحين وصلوا دخلوا راجلين في المنطقة.. وشاهدوا الشيخ حردان واقفاً.. فذهب إليه محمد وحياه.. فرد تحيته.. وبعد تفرس خاطف من الشيخ قال.. ماذا تريد يا ولدي؟.. فقال محمد.. مستجير بكم.. أطلب حماية.. فهتف الشيخ.. حللتم أهلاً.. ووطأتم سهلاً.. أنتم في حمايتي.. وصاح على رجل.. أعطهم البيت الذي يقع جانب بيتي.. فشكره محمد.. وتبع الرجل هو وعبداه وخلفهما نسمة.. وجلس الثلاثة في الداخل يتكلمون.. ويمضغون الطعام الذي وافاهم به رجال الشيخ.. ومرت الأيام.. كومضات البرق.. وانقضت ثلاث سنين ونسمة لم تتجب.. كان هذا يحز في نفسها.. وهي تتمنى لزوجها ولداً.. فأخذت تتصح زوجها بالزواج من إحدى فتيات عشيرة الشيخ حردان.. بيد أن محمد رفض

طلبها.. ألحفت عليه بالرجاء.. فتزوج محمد إحدى الفتيات الجميلات.. كانت هذه الفتاة أجمل من نسمة.. بيد أن حب نسمة كان راسخاً في قلب محمد.. وحملت الفتاة.. وبعد تسعة أشهر وضعت طفلاً جميلاً أسماه والده- بلال- وبعد ولادة بلال بشهرين.. همس محمد بأذن نسمة أثري منازعة مع تلك الفتاة.. وسأقسم أن أفرقكما في منزلين.. فقالت له: حسناً.. وفي ليلة ارتفع الصراخ.. وتدخل محمد مقسماً.. كان الشيخ قد حضر على أثر الصراخ.. فقال وهو يبتسم بمكر: أجل.. أرم تلك الكلبة في منزل وحدها.. مشيراً إلى نسمة.. وحملت نسمة أمتعتها ومضت إلى بيت آخر.. وحدث أن ترك محمد العشيرة ماضياً إلى إحدى العشائر لأعمال تخصه.. وفي منتصف الليل تقدم شيخ أسود ملتفاً بعباءة إلى كوخ نسمة.. ودق الباب.. فخرجت إليه امرأة عجوز أسكنها محمد مع نسمة.. ولما شاهدت الطارق قالت: أهلاً بك يا سيدي الشيخ.. ماذا تأمر؟.. فقال الشيخ مذكراً نسمة.. وأحشائي تنور.. والآن أريد أن أجامعها.. فارتعشت أهداب العجوز.. وقالت: ولكن اليوم محيضها.. فقال الشيخ.. ذلك من سوء الحظ.. وانصرف يلوم المحيض.. واندفعت العجوز إلى فراش نسمة تهزها.. فاستفاقت من نومها فحكّت لها العجوز عن مجيء الشيخ.. فتمرغ الذعر في عينيها.. ومضت إلى جانب من البيت وجمعت كمية من الرماد ووضعتها في كيس وناولته للعبد بعد أن أنهضته من نومه.. وقالت له: اذهب بها في التو إلى محمد.. واكل سرعة.. وركب العبد واختفى عن ناظري نسمة.. وغذ العبد في المسير.. حتى وصل منازل العشيرة التي قصدتها محمد.. ووجد بدويًا دله على مكان محمد.. طرق العبد الباب.. فانفتح نصف انفتاحه وصوت يقول: من أنت.. وماذا تريد؟.. فقال: أنا شعلان عبد محمد.. أريد رؤيته الآن.. فقال الصوت: إنه نائم.. فهتف شعلان: أيقظه.. وأتى محمد.. فأعطاه عبده الكيس.. ولما فتحه شاهد الرماد.. وأخذ ينظر إلى وجه عبده متفكراً.. وبغته كره إلى الداخل مودعاً القوم.. وفك جواده من المعلف وركبه.. لكز محمد جواده بقوة.. فانطلق يسابق الريح.. والعبد وراءه يحاول اللحاق به..

ومع إشعاعات الشمس الأول.. دخل محمد بيوت العشيرة.. وربط الجواد قرب باب نسمة.. ودخل عليها.. فحككت له الحكاية.. فوجم محمد وصرخ: يا للخائن.. أطبق فاه.. ثم خرج وذهب إلى منزل أم بلال.. فألفاها نائمة وبجانبها بلال.. وانحنى محمد على بلال وحمله بين يديه وخرج إلى منزل نسمة وقال لها: أسرعي واحملي الحاجيات الغاليات.. وبعد دقائق أرفقها خلفه.. وخرجا من بيوت العشيرة يتبعهما العبد..

طوحت أم بلال يدها حولها فوجدت فراش بلال خاليا فهبت جزعة صارخة.. وركضت إلى بيت نسمة فوجدته فارغا.. فوقفت في الطريق تصرخ.. وتجمع على صوت صراخها كل من سمعه وفي مقدمتهم الشيخ.. وقالت لهم أم بلال وهي تضرب رأسها إن نسمة وزوجها محمد سرقا ابنها بلال وهربا.. فأمر الشيخ رجاله أن يجلبوا أسلحتهم.. فتفرق الجمع وعادوا بعد قليل.. وابتدأت عملية المطاردة.. محمد وزوجته والعبد لا يبدون في الأفق.. والشيخ ورجاله ابتدأوا المطاردة.. قال الشيخ لأعوانه: نتفرق في الأرجاء وكل يبحث في رجاء.. وانفرد الشيخ بعشرة من أعوانه.. وبدأ بعد إجهاد لأعينهم محمد ورفيقاه في الأفق البعيد.. فساورهم الأمل في اللحاق به.. فأهمزوا حصنهم فركضت كالشهب المارقة.. والتفت محمد فرأهم فقال لأمراته: هاك بلال احفظيه.. وقال لعبد.. هيا يا شعلان لننتظي سيفينا.. وما هي إلا برهة حتى أطبق الشيخ برجاله على محمد وعبد.. ودارت معركة طاحنة.. صال فيها محمد وأسقط من رجال الشيخ ستة وعبد أسقط ثلاثة.. وعندما رأى الشيخ ذلك استدار وولى الأديار وهو يصرخ.. سأتيك بجيش جرار.. فقهقه محمد ضاحكا.. وعاد للمسير قائلا لزوجته: لقد ابتلينا بهذا الشيخ الأحمق.. ولا أرى خلاصا لنا إلا الرجوع إلى عشيرتنا.. فتفكرت نسمة قليلا وقالت: الإنسان يموت مرة واحدة.. هيا لنذهب.. فهمس محمد بأذن نسمة: لكل شيء نهاية.. فإن أراد الله موتنا فسنموت.. وإن لم يرد فسنحيا " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا". ولم يتبق على منازل العشيرة إلا ثلاثة أميال.. شاهدوا خربة على جانب الطريق.. فقال محمد: هيا ندخل هذه الخربة.. عسى الله يفرج الأمر.. فنزل ثلاثتهم ودخلوا إلى الخربة وشدوا رواحهم في الداخل.. وعندما جلسوا التقط محمد من خرجه طعاما

جعلوا يبلعونهم وشراة.. وأردف محمد يده في الخرج وتناول ربابة جعل يمرر يده عليها.

وفي الخارج تسللت أشباح تروم الخربة.. كانوا أخوة نسمة قد علموا بقومهم من بعض الرعاة.. وكانوا يتأبطون سيوفهم يريدون قتلهم.. وجمدوا في أماكنهم عندما تنامى صوت محمد مع أنغام الربابة من الداخل يحكى قصة ظلمه من أبناء عمه وهربه مع محبوبته نسمة والتجائهم إلى الشيخ حردان.. وزواجهم هناك.. ثم بيان نية الشيخ الرديئة.. فهربهم ولحق الشيخ لهم.. كان الصوت متهدجاً متقللاً بالأسى.. وترقرقت الدمعات في مآقي أعين أولاد عمه.. وصاح كبيرهم وهو يرتجف انفعالاً.. أنا معك يا محمد.. وردد أخوته نداءه فكف محمد عن العزف.. وخيل إليه أنه يسمع أوهاماً.. وارتعدت الفتاة وقالت: إنهم أخوتي يا محمد.. أخوتي.. وبرز على الباب أخوتها وأعينهم كسيرة.. وسادت سكونة مؤثرة على المكان.. وطرق أسماعهم وقع حوافر جياد.. فانتنفض محمد واقفاً وقال.. لقد أتوا.. فضحك ابن عمه الكبير وقال: أهلاً بهم.. سترهم سيوفنا أنواع الترحيب.. وأنت يا نسمة اركبي دابتك واذهبي إلى أمك ثم أخبري القوم بما يجري.. واشتبك الفرسان.. فرسان الشيخ الذي يربو عددهم على الخمسين فارساً وفرسان العشيرة وهم أحد عشر فارساً.. وعلا الغبار.. وارتفعت الصرخات.. وانجلى عن نصف فرسان الشيخ على من هو بين ميت وجريح.. ومن تبقى منهم هرب.. وتفقد محمد جماعته فشاهد ثلاثة من أبناء عمه جرحى، فحملوهم.. وعادوا إلى القبيلة.. يتحدثون بمجامع قلوبهم عما جرى لهم في السنين الثلاث الماضية..

* * *

الطين*

الوهم المحشو بالرجفة ينزلق في الجمجمة.. القدمان تعدوان صوب
الضفة الطينية بوله.. كانت الفتاة ترفع ساقها بسعادة بوهيمية وهي تمسك
بالحبل الليلي المجدول بكف وتلمع شظايا بالكف المتحرر.. تلكاً على باب
حديقته.. مد رقبته الحمراء.. تركت نظرها ينحدر صوب الباب..

هتف.. من هناك.

دفع جثته متقدماً.. كالاسير الجبان.. دفن وجهه في الأرض.. نزلت
بخطرة تهز سوطاً بيدها.. الهبت جسده.. لم ينبس بلفظة ولم تلد لحنجرته
أهه.. قذفت السوط..

صاحت.. الآن هيا.. رفع نظره.. كانت فاتحة يديها مهينة شفيتها..
انقض عليها.. سقطا في التراب.

انحدر زنبور أسود كان واقفاً على عشية صفراء طويلة.. لدغ الرجل..
ارتفع في الجو وانغرز في الطين.

جاء ابو الفتاة يحمل طبقاً لابنته المعززة.. كان ظهرها ملطخاً بالطين..
والرجل يجرف الوحل من فوق فخذه.. فغر فاه.. أنزل الطبق بروية فوق
قطعة حجر.

سأل ابنته.. ما هذا.

أجابت لا شأن لك.. املا فمك جمراً..

تحول الى الرجل مشمراً عن ذراعه.. ماذا تفعل هنا..

لا جواب.. رفع الرجل المقعي على الأرض.. سكينه عملاقة.. تدحرج
الرجل المقعي على الأرض.. انبطح ليقبل انامل قدم الاب متضرعاً..

اصفح عني.. ركله في رأسه بحذاءه الخشبي.. ثم قطع اذنه واجتز
قطعة من لحمه.. طرده..

اخرج ايها البرغوث الاحول..

كان الدم يلطخ الرجل الراكض.. صوب نظره الى المنزل المتكور نحو
ابنته متسائلاً

* نشرت هذه القصة في جريدة اتباء النور، 1965/1/19.

- وانت .
همست له.. احملني يا ابي وضعني على الارجوحة .
أجابها سأحملك بين ذراعي الحريريتين واناملي النسيمية.. ها اني
افعل....
وقف الرجل المدمى فوق التلة... صوب نظرة على المنزل المتكور
في بطن الوادي... كانت الفتاة تهتز في ارجوحتها.. وثمة كلب متقوس
يزدد..
صعدت الفتاة نظرها الى رأس التلة. كان الرجل يمسك جراحه راقدا
عليها.. التفت اعينهما.. كان ابوها يدير ظهره اليها منشغلا بمص عود
قصب سكر.... تناولت رمحا منغرزا في الأرض.. بقوتها ثقت الظهر..
انبتق الرمح من الصدر.. تنفست.. هوى الاب..
نزل الرجل من التلة راكضا.. خرجت الى باب المنزل.. تعانقا وسقطا
على الأرض..
قال لها.. هيا نضع المسافة في جيبنا ونرحل عن هذه المدينة المعبأة
بالإنسانية البليدة... وافقته انطلقا بعد ان وضعا عود تقاب ملتهب في البيت
صوب الجهة المتألقة.. وحين انتهيا الى الحدود.. التفتا.
كان المنزل زهرة نار مهجورة.
الى البحر.. قال الرجل وهو يشد غطاء الرحلة على جيبه..
أجابته - الى البحر. وجدا ربان باخرة سوداء. سألاه ان يقلهما الى بلاد
الذات.. ابتمس لهما يرفق.. شقت الباخرة دربها البحري..
وذات امسية كانت الفتاة تستند بمرفقيها على الحاجز.. اقترب منها
القبطان ولم تفزع.. واتقفا على أمر...
جاء الرجل يحمل كأساً من الشراب لفتاته.. وضعاه في المنتصف..
انحنيا وقذفاه في البحر.. أخذ الرجل يصرخ مستجدا.. صعد البحارة
يركضون..
قال القبطان.. لا تأبهوا.. انه صوت الاسد البحري الاصلع.
رفع الرجل الطائف في البحر رأسه.. أبصر القبطان وفتاته متعانقين..
ثم غرق..

* * *

نخلة الدم*

ابتلع رعبه.. قهقهه بخوف.. لا.. لا.. صرخ به الرجل الآخر-
سئلتهما، حتى الحوافر. مسح مسدسه الضخم بقميصه.. مشيراً بقدمه نحو
كومة منتفخة مصبوغة بتراب.. لا تمزح. بحق متضرع فرش جبهته محدقاً
بصمت غاضب وذليل.. كح الرجل القوي كلماته- أنا أمزح؟ هل سمعت
يوماً بذلك.. تضرع الآخر- كلا.. اقتان من غضب طوح بهما الرجل
الأقوى- ستجثو لصوتي مديداً يا شقوتي. في الدهليز الأسفل ارتعدت
حروفه- كذابون. زرعوني في بؤبؤيك. لم أمد لك يوماً إصبعاً سيئاً..
بضحكة متصلبة أجابه الرجل القوي في ذلك التيه.. الشمس تمدد الخراب
الترابي.. لم يكن هناك غير الشخصين وسيارة صفراء.. عجوز وعمار
منتفخ والمسدس.. دخلت في ثقب الرجل الأسفل أفاح تلجئة- أنت لا تريد
الصدق.. تكلمت على الكذب فبت تخشى من الحقيقة، بسوط نبرة، نهره-
صمتاً. الحقيقة هي - حقيقتي- التي عشتها.. عليها تسمرت مئات الأيام
تشنجت قبضة الرجل الأسفل.. بنفاذ ثاقب أعدم الرجل القوي عزيمة الآخر
فهوت على الترية.. غسلت تكثيرته عنجهية الكأبة الخائبة السائلة.. ضحك
ضحكات فأسية متلاطمة.

وفي فاصلة مباغثة جف وجهه.. ارتفعت جبهته- غايته- كانت قتلك..
لم أعود أصابعي على صنعة في السجن.. دربتها على الفتك المؤكد.. انتشل
الرجل الأسفل كلماته بمشقة من جوفه.. رماها إلى خلفية الرجل القوي-
ستسجن حين تقتلني.. يفرعون جمجمتك.. امتلأت أظفار الرجل بدهن أسود

* نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1965/11/1. يلاحظ إن القاص يستخدم في هذه القصة لغة مكثفة جداً ذات مفردات صعبة نوعاً ما. وتشكل الإنفعالات الحادة التركيز الأساسي في القصة بدلاً من الاعتماد على الحبكة وهذا نموذج للبدائيات القصصية لخالد الراوي، حيث تختلف قصصه اللاحقة التي تتصف بسلاسه اللغة وبساطتها. بالإضافة إلى ذلك، تمتاز هذه القصة بالعنف المفرط والذي يعكس رعب القاص من ممارسات السلطة في السجون وتشير بالوقت نفسه نحو قدرة الإنسان على التدمير والقتل. ويكرر موضوع التعذيب في السجون والمعاناة فيها ومشاهد الدماء في الكثير من القصص اللاحقة. (المحرر)

حين غرز يده في شعره- تدبرت أمري. رفع الرجل الأسفل حمالة بنطلونه.. ما زالت عيناه ناعورية الدوران- أعود بمحضك تجرك أذنوية وضيفة.. بيد سامة أوقفه.

لا تعترضني بزيفك، تيبس رأسي على النار منذ اللحظة التي التصقت بها يداي في قيد. ابتلع الرجل الأسفل لسانه.. أتم- الأول- أحد عشر عاماً.. ضحكائك نصل بين جبهتي وقفاي. انقب كوة في الماضي واضطر إلى مقتل ذلك السكر. كنت أيها الخائن تلهث وراء الأصابع الممتدة علي.. مد الرجل الأسفل كفه ليعترض هدر به- صه لا تتكلم.. لم يصطبر. صرخ، واهم أنت واهم.. تقالت والمستحيل من أجلك.. إلا أني خويت فالتقطك المحققون وعاثوا بك.. بصوت ميت أجابه الرجل القوي- عندما أقول سأنتقم أعني قولني سناكل الجنة هذا هو الانتقام.. ضحك الآخر بكاء متيبس، أنت مجنون.. أفرغ الرجل القوي جوابه الحدي- تقدم، ذاب نصف الرجل الأسفل عرقاً وتضاعل حتى انكشيت رقبتة. كان محشوراً بين الأفاق المشمسة المغلقة.. المسدس ينعض في جوفه الانهيار.

شم حفنة من أمل حين انحدرت من فمه حفنة كلمات بسلاسة- سأقدم براهين تنفي عنك ظنونك. ردعه قد تكون طيباً وأنت بلا لسان.. أه ليتني أطرق رأسك على هذه الصخور لأنثر مخك الأسن.. وبغم المسدس رمى إشارة إلى الجنة. رجع خطوات إلى الوراء قاذفاً سكيناً - مزق البطن. ضع رأسك فيها حتى يمتلئ جوفك الخسيس. تكثفت في عيني الرجل الأسفل بقاياه- لن أفعل.. لن أفعل.. بصوت متهم قدمه الرجل القوي- بل تفعل.. رفع المسدس بصورة أفقية تجاه الرجل الأسفل التقط السكين.. انحنى ببطاء ملتقطاً السكين البالية- تقدم.. هز الرجل الأسفل رأسه- هل تفضل القتل.. سألت من عينيه أشرطة غضب. أقام كوعه.. في السماء ضاعرت رصاصه.. نظر الرجل الأسفل إلى السكين.. قلبها في يده.. انبطحت فوقها دمعة.. تعجله- لا تزرع قدمك في الأرض لحظة.. بفتور انكفاً قرب الجنة.. زحفت الشمس حتى التصقت بحنجرة السماء.. ومن الأفق الجنوبي الغربي عبر طائر رمادي..

* * *

النخلة اليابسة*

أغلق الأستاذ الباب خلفه... عبر الرؤوس المشرثبة.. أزاح كرسي المنضدة وأسند حقيبته بأناة..
وضعت رأسي على الحائط راصداً بروية سعد الذي أسند كوعه على الرحلة ومد رأسه بحياء هامساً لهالة:
- هل تسمحين بدفتر المحاضرات.

بصمت وبتأزان ناولته الدفتر دون أن تبدل جلستها المتصلبة. قلب سعد الأوراق بسرعة.. نظر إلى جانبيه ثم مد يده في جيب سترته واختلس ورقة دسها في الدفتر.. وأعاد بهدوء.. وقبل أن تحطه قلبت جلد الدفتر واعتدلت بقوة.. ورقة متمددة وغريبة!!.. التفتت إليه فوراً.. كان غارقاً في وجه الأستاذ.. وعادت تنظر إلى الورقة تسحب الكلمات بعينيه.. ثم تقافزت أصابعها الرفيعة على ظهر الورقة ترصها بعنف وتكورها.. ثم وضعتها في راحة يدها وهذأت.. وحين قرع جرس الخروج.. تدلت يد هالة فوق سلة في الممر وسقطت الورقة المكورة فيها.. رصدت الممر حتى تفرغ.. انحنيت مختطفاً الورقة.. مغوصاً إياها في جيبتي.. وفي زاوية من نادي الكلية نشرتها بين أوراق الكتاب.. هالة..

حين وقعت عيناك عليك لأول مرة هتفت.. ها هي خاتمة الإبحار تلوح على الشاطئ المأمول.. كنت أراقبك تمضين من وراء الزجاج تخرجين من الباب ولا تعرفين إن فارساً يذوب من الانتظار.. فارس تاه في ندى عينيك.. ثلاث سنوات مصلوب في صحراء قلبي.. هالة.. عندما يصل اليأس إلى الهاوية.. لن يابه بشيء وما إني أهتف.. أليس لديك قلب..

* نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1966/1/19. يعد موضوع القتل من أجل الثأر أحد الأمور التي ينتقدها القاص على الدوام في قصصه، لأنها عادة قبلية قديمة لا تجلب سوى الدمار. في نفس الوقت، يشير القاص بشكل غير مباشر إلى أهمية تطبيق القانون في المجتمع والذي يجب أن يكون الحكم الفصل في المنازعات كافة. (المحرر)

رفعت عيني عن الورقة.. وكانت هالة تجلس مع صديقتها على مقربة
مني.. كانت تحدثها بإنهاك.
- إنه لا يدري أن عمه قتل خالي.. إن صوت الدم يحول بين سمعي
وهمسه.. صككت علبة النقاب بعود كبريت.. وحين نهضت كانت تنهشم
على المنضدة قطعة رماد حنبااء..

* * *

الجسر*

نتف من الغيوم البيض تبحر في السماء، على مدى الافاق.. وثمة يد مرتعشة، لاحت من فرجة باب موارب تقتلع ورقة تقويم.. وصوت منطفىء، ينسل الليل الاتي هو الليل الفائت ولا جديد.. شبك كفيه تحت فخذة الايسر ورفع ساقه... مددها على التخت.. علق عكازه على المسند - هذا الشلل الملعون.. يلصقه بالمنزل ليل نهار.. يلصقه بالتخت وبالعكازتين.. ما عاد بمقدوره الخروج خشية سقوط الرثاءات التي تغسله من قمة رأسه الى أخمص قدميه.. انها الضريبة يدفعها لهذه المدينة المداهنة..

تتناثر رنين الجرس.. ببس وجهه، لعله زائر آخر.. ما بالهم يأتون واجمين.. يحكون وجهي بنظراتهم اللثيمة المنقصة.. يسألون عن الحادث.. وبعدئذ يلقون كلمات سريعة ومبللة ويخرجون..

لم تقترب أقدام من غرفته.. اذن فليس هو المقصود.. ابعد العكازة عنه.. تحسس ساقه.. ساشفى.. لا بد ان يكون ذلك.. فمن الجنون ان ابقى على هذه الحال.. ساشفى.. حرك ساقه الايسر لينزله.. لم يتململ.. رويدا.. تخثر وجهه، كانت هدى ملقاة في الطين وقبضات ضخمة من دم أسود متعفن متجمدة حول رقبته.. عيناها مصلوبتان فوق شعرها المدفون في الوحل.. مسح الصورة حين فتح نظره... الاحوال ساءت كثيرا..

في يوم الخميس تملكه قنوط متوحش.. كان عليه ان يحسم الامر بعد ان اخبرته هدى بأنهما وصلا الى حد الزواج.. والا فستغرب عنه نهائيا.. لم يجيبها.. وبعد انتهاء المحاضرات في يوم السبت جرتة الى خلوة.. سألته الى اين وصل.. انه يرقب لعبتها التي تمارسها بنات المدن المعتمدة الثلاثي يعجلن فتياتهن بتخويفهم من الرجال الآخرين.. لم يفزع.. انها نتقن اللعب.. وكان جوابه الأخير:

* نشرت هذه القصة في جريدة المنار ، 1966/2/17.

- لا تمزحي.. فلن أستطيع هضم هذه الدعابات، ولسنا على عجلة من امرنا.. لنحيا الى زمن قادم ثم نحسم.. انصرفت بوجه جديد وهي تقطف دمعها من عينها.. وفي يوم الاثنين وجدها في الممر يلفح وجهها طالب اخر بهمساته.. راقبهما حتى انفصلا.. أسرع اليها.. اهأب بها:

- الا تعرفين هذا العريبي؟؟

أجابته وهي تلج القاعة - قال سيخطبني.. تجمد على الباب.. انحنيت على كتبها ورفعتها وعادت. .

هتف بها - انه يضحك عليك.. أنسيت سميرة وفخرية ونهى !!.

اشاحت بوجهها .

- انه لا يريد ان يعلنني بالوعود فتحيا معا أيام الدراسة ثم يهرب.. سيخطبني بعد أيام.

- وهل تصدقين؟. انتزع كلماته الصلبة .

ومن القاعة الأخرى انفلت الرجل الجديد وابتسامة مواربة.. تملأ وجهه.. توارى بعنف في ظل عمود.. وكان جسدان يهبطان السلم متجهين الى خلفية البناية الخارجية.. استدار منطلقا اثرهما.. هدى تسحب جسدها الى الجوف والفتى يعالج الباب الاخر..

سيحسم الان... انها تتلفت... انقض باتجاه السيارة... جر قبضة الباب.. انه مغلق من الداخل.. قرع زجاجة النافذة.. هدى.. هدى... صمت.. يد تجره من كتفه بعنف.. انها لن تكون لغيري - هدى.. أنزلي.. قبضات ثقيلة تصك جمجمته.. مطر من القبضات.. لفه هدوء فتداعى الى الأرض وعبارة الآخر تغور في جوفه.. انها لي.. كان ممددا في فراشه.. وبياض كثيف يصر في ذهنه ونقطة دم متجمدة على جبهته.

* * *

الصرير*

دفع الرجل المعروق عربته في الشارع المعتم.. راميا بعنف
صوته:

- شلغم.. شلغم

فيجاوبه صوت اخر من وراء شوارع عديدة.. شلغم..
أوقف عربته الخشبية المفككة.. ورفع الغطاء عن القدر فانفجرت
زوبعة من بخار مندى.. اعاد الغطاء.. لملم المواعين الصغيرة ورصها..
وجر قنينة الملح الى الزاوية.. انها تبرد.. تبرد كثيرا.. ولا بد انهم
مقرفصون الان خلف النوافذ المغلقة.. ينهمكون بمسح جلودهم بالدفء.. الحالة
ستسوء اذا وقع المطر، فمن ذا الذي يتجرأ على الخروج لياكل الشلغم..
سيبات ويبهت طعمه وتلفحني نظرات الاستهجان في اليوم التالي..
انه شغل بائس.. لكن هل اموت جوعا.. سبعة أشهر دست الطين حتى تشقق
جلدي واشتغلت عاملا في البناء حتى تنقبت من السباب..
وارتميت أخيرا على هذه العربة اجلب منها رزقي.. والله وحده
يعلم متى سابقي خلفها - ما دامت المدينة لا تمنح.. وما دامت لا تعرف
منانا.

- ابو الشلغم.. صاح صبي صغير يقف على باب بيت مضاء .

- تعال هنا.. كان البيت خلفه على عدة خطوات.. سحب العربة
ورصها أمام الباب. تقدم منه الصبي.

- يع لي بعشرة فلوس ... التقط القطعة المعدنية ودسها في جيبه
وراح يقطع الشلغم.. كانت عينا ام الصبي الواقفة في الممر ترصدان يد
البائع وهي تتاول لابنها الماعون.. انحنى ودفع العربة.. جحظت عيناه.. اذا
مر الوقت فلن ابيع بدرهمين والباقي سينكدس على قلبي وأعود بساقين
يابستين وذراعين متعوبتين .

* نشرت هذه القصة في مجلة جمعية الطيران العراقية ، آذار 1966.

العجوز مرمية بوجهها الممصوص على الحصير أمام الباب..
عينها مفتوحتان، وعلى سبع خطوات - الحرمة - مع الصغير الدامي
العينين.. تتسمعان الخطوات في الخارج. ماذا سيحل بهم اذا لم اعد لهم في
يوم ما.. يا رب امنحني القوة..

أز صغير الحارس الثاقب البعيد في الظلمة.. هبت دفقات ريح
واظئة.. صاح ليسحب الدفء الى قلبه المرتجف:
شلغم.. شلغم ... وعبر فسحة خالية وابتعدت صفوف البيوت،
امتدت أمامه خطوط من اشجار التوت.. أسرع في دفع عربته. لفحه صوت
سريع ناهر.

- ابو الشلغم ... تبيس في مكانه.. لم يلتفت وحط عينه في آخر
محجرها.. ولج رأسه ذات الصوت.

- لا تتعجل.. برز رجل أسمر الوجه.. يلف رأسه بغترة بيضاء
متسخة ويرتدي دشداشة داكنة اللون مهروسة شدا الى جسده بحزام جلدي
عريض.. رفع الاعجف يده اليمنى مبرزاً نصل الخنجر منها.. ثم بسط يده
اليسرى وفتح أصابعها مشيراً اليه:

- هات ما عندك من فلوس.

رجع بائع الشلغم خطوة.

- خاف من الله - انا فقير ..

أجابته الاعجف

- وانا ايضا فقير..

أجابته بائع الشلغم

- اذن لم تسرقني؟

أجابته ببرود :

- لا ترد... هات...

رد البائع.. منذ خمس ساعات أصرخ ولم ابع بمائة فلس..

أجابته الاعجف - هاتها..

بصوت يائس راوده - وامي.. وزوجتي.. وابني الدامي العينين..
والشلغم سينام على قلبي.. من اين استدين لاشترى شلغما جديدا..

قرب نصل الخنجر من وجهه

- اخرجها..

لم يابه بامر.. انما هتف

- خاف الله ودعني امضي..

لامس النصل وجهه - ستموت..

تھاوت إرادته تحت العزيمة الدموية ... مد يده بتخاذل الى جيبه
واخرج عدة قطع من ذوات العشرة فلوس، وضعها الاعمى في جيبه
وانصرف مستديرا في الطريق وغاب في فرع جانبي.. تدلت يدا البائع
ونظر الى عربته والنار تخبو في الموقد الموضوع تحت قدر الشلغم.. لم
يتحرك.. ومرت من جانبه سيارة بيضاء طويلة تنفر منها اغنية مرفهة..
ظل ينظر اليها حتى غابت.

* * *

الوقوف*

كم أنت بائسة أيتها الوجوه المزمومة، التي تعبر بصمت دروب المدينة.. في عيونك تحترق الأيام.. وعلى جبهاتك يتداعى الحاضر.. وانت يا ذا العنق المنتفخ ارم يأسك على الآخرين فجسدك المكدود يلتهب إلى الفيء.. أين يمضون.. من أين جاءوا وأين التقيت بهم- إنك لا تعرف.. كانوا يتدفقون من أزقة وحواري ذات ممرات عفنة معتمة وهمس يتعرف منهم- نريد حقوقنا المهدورة.. مئات الرجال.. آلاف.. خرجوا مع الصباح لينتزعوا حقوقهم.. فشاهدتهم وصحت ما دام هؤلاء البشر ضائعة حقوقهم فلا بد أن تكون حقوقي مهدورة.. انتظر هنيهة قرب الجدار.. واسأل رأسك.. هها هها.. أي سحابة مخزية كنت ستنفخ عليها ربحك المثلجة لتطمرها.. الناس ينصبون من الأزقة باستماتة.. وذلك الشروقي ما زال منحنيًا يعلق شمعة تحت باب- أبي شبيبة- لآياه.. جر الرجل الذي أكلت أخوات بغداد وجهه حتى انصرف الشروقي فسحق الشمعة ومضى منصرفاً.. ارم عينيك الخاويتين.. فلا ينفك أن توقد فيهما الالتماع فقد التحمت خطوتك مع الدرب في لحظة لاهية لم تدر ما وراءها.. ولم تحشم قدميك عناء الاستدارة.. فلأنك سرت فلتتمض.. فكثيراً ما يكلف الالتفات خسارة الماضي وليذهب الحق إلى العدم.. الحق.. أي لبانة باهتة سقط طعمها بمضغها هؤلاء السائرون بانتصاب وبيوسة (الى فتاة حسناء) حسناء.. وتأكد من حذاءيك.. هل هما صالحان؟

فالجسر طويل لا يعبره الحفاة ولا الحمقى.. سيعودون إلى الأزقة.. يخبئون وجوههم في الظلمة والعفونة وتأكّل عيونهم القمل.. وأصواتهم المهرأة وريح يسيرة تحملهم تطوحهم في برية النهاية.. وحفنة من مطر تمحو طبعات أقدامهم.. وسيهدأ هذا النصف المتأرجح من المدينة.. ويمتد الليل الصافي على المنازل فتتساوى جميعاً... ولن تنزلق في آذانهم إلا

* نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1966/7/6.

صبيحة الدرب المشفوق برمية سهم- لن تعود لكم المدينة - فماذا ستقدمون لها.. ماذا.. ستذبحون الحراس وتغلقون الأبواب.. لتفتحوا أبوابهم.. لقد تعبت المدينة.. شلها الترحال.. فاصمتوا وخبثوا خناجركم.. لعل الخير يسعى إلى بيوتنا المنكودة.. فقد ضجر منكم حتى الرب. كان شروقي آخر يعلق شمعة لأبي شيبه.. نظر إلى الباب المخضب بالحناء.. ثم رفع رأسه إلى أعلى البناية.. وكانت السحب تعبر بسرعة..

* * *

الانتظار*

- 1944 رزق بالامس السيد لبيب ولي ولدا ذكرا اسماء سرمد...
خبر صغير نشر في صحيفتين يوميتين وعلى الصفحة الخامسة منهما.
- 1949 حدق معاون المدرسة الابتدائية بالصبي الصغير... ثم مد
بصره الى الرجل الذي يقف الى جانبه واقتلع غطاء القلم قائلا:
- انه يبدو اصغر من السن القانونية... لكن لا بأس... سنسجله...
لم ينبس الرجل الواقف، بل فتح فمه وأغلقه ثم دفع اليه بصورتين
شمسيتين ودفتر النفوس.. اطبق عليهما المعاون بأصابعه الملبدة وطرحهما
بين اوراق الدفتر الكبير. وحين أصبح الرجل خارج المدرسة هز الصبي
قائلا:
- ستجيء كل يوم الى هنا...
وبمضض انسحب الصغير في منتصف ظل الرجل.

بعد تأميم قناة السويس

- المدرس يخط على اللوح الأسود كلمات علمية ... وتثاقلت
أصابعه.. كانت أصوات مجمعة تتساق اليهم، نزلت عيناه الى الأرض وقال :
- كان هذا محتوما. .
واستمرت الأصوات المجمع تخطو اليهم مقتربة.. ومن الجهة
الأخرى قدمت موجة ثانية..
صمت الصف جميعه والمدرس تصلب في وقفته.. اندفع الباب
الخارجي بشراسة ولم يفتح.. كان مقفولا بسلسلة حديدية متينة.. وارتفعت
الأصوات الغاضبة المجنونة تقرر ممرات المدرسة.
- افتحوا الأبواب ودعوهم يأتون معنا.
نظر المدير البدين الى وجه معاونه برهبة صامتة منتظرا
الجواب..

* نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب ، 13/7/1966.

بأدره معاون آخر - هل نفتح لهم..
أجابه المعاون العجوز - سنتعرض للمسؤولية..
هتف مدرس رفيع - اية مسؤولية.. افتحوا الأبواب ودعوا الطلاب
يعملون..

تنفس المدير بارتياح وأشار للفراش المتربص.

- افتح الباب.

كان الطلاب يتسللون من الصفوف رغم مدرسيهم. وحين انفتح
الباب انطلقوا لا يلوون.. وتناحرت الأصوات.. متفتحة بحلق في الهواء..
وطاب للصبي ان يغوص بين الرجال الكبار ويهتف بصوت اعلى من
أصواتهم.. وان يقفز أمامهم مخرجا منديلا من جيبه ملوحا به في تصميم
وغضب.

بعد تلك الحوادث في يوم غير معلوم بالتمام.

صب الفتى حروفا من دمه في طريقه.. كان يهبط في درج
يضيق.. وأبتدأ الصراع.

- 1960 بعد سنتين من السير المدمى... وقف الفتى يلقي بوعيه الى
المدينة ذات الرائحة العتيقة.. كانت مئات الاذرع تثبت من الأرض تلوح له
ان يسير ومئات تدفعه.. استيقظ جينه في قلبه، لكن لسانه استشاط غضبا
كالافواه الأخرى.. وحين مضى يعدو.. سقط جأشه وتوقف ملتجيا بذعره.

- 1964 في ليلة غير متوقعة كان يعمل ذهنه ليغطي مصروفات
جيبه.. وفي لحظة امحت النقود. كانت عيناه هادئتين تشقان جدار غيبوبته..
اندفع فاتحا صدره بهمة ثم استرخى يحلم ويحيا. وكان يتزحلق على خط
جليدي من الخيبة طوله سبع سنين.. يبتدىء ثم يلتفت ولا شيء خلفه..

- 1966 الامور تسوء كثيرا رغم انعكاسات الامل الملتزمة.. فتج
وعيه باكملة.. فمنذ ان بدأ يمشي بثبات لم تتفرغ في قلبه كلمات هادئة ولم
تمسح وجهه بسمه حقيقية.. وراح ينفصل عن المدينة وجرس يهزه.

- الصمت يأكل الخطوات والمفر محظور.

* * *

الدم المرتعد*

ارتحل كفي على جبيني يحصد ما عام عليه من عرق..
السابلة يعبرون مسرعين..
العجلات تحفر وجهها في الاسفلت اللدن..
رجعت الى الوراء فطللتني غلالة ظل..
- السيارة تأخرت -
تنفست بضيق وبهدوء مرير رصدت جسد الطريق الأسود وزحفت
كف متعرة مضمومة الأصابع متصلة أمامي..
- لله فلس واحد..
وارتدت منكشاً من الأصابع المحدبة.. لم أبصر وجهه، وعبرت
بنظري الى الجانب الآخر وقلت:
- ليس لدي نقود..
- فلس واحد..
عادت نبرته بالحاف.. يا له من سائل.. صرمت محجري مطلقاً
رصاص نظري..
الوجه هذا ليس بغريب...أه.. هتفت..
- انت..
أجابني:
اجل. تلمست عينيه... ملامحه هو هو بلا ريب.. قلت:
- لم تمت وقد غاصت السكين الى عنقها في بطنك..
او ما برأسه ايجابا.. نظرت اليه ونظر الي.. دسست يدي في جيبني لا
عطيه، وابتعد مسرعاً وتقب عريض في اسفل دشاشته يتماوج مع خطاه..

* نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1966/8/29.

امتلات حنجرتي بالنداء وكدت افذف صيحة لكن السيارة قبعث أمامي
وكان سلمها ممهدا ورماح الشمس الساخنة تتغرز في اعلى رأسي.. قفزت
واندست في أحد المقاعد الأخيرة، وأخذت أصابعي ترحف على ملابسي ثم
ترتفع تتلمس ذقني الكثة.. وغرزت اظفاري بين شعري حارثا الجلدة
الرطبة..

كانت صفوف المخازن تركض الى الوراء. المدينة. الفتيات الحسنات..
الناس ذوو الخطى الواسعة المتحررة.. وحولت عيني الى مؤخرة محجرتها
فأبصرت جاري يرقبني بطرف عينه.. كورت جسدي في طرف المقعد..
بعد قليل ساكون في بيت اختي في مدينة الثورة.. اغسل كل اثنال الأيام
المسجونة وامزق بعنف بطاقة القيد لامشي في الطرق كالأخرين.. ومن
زجاج السيارة أبصرت وجه المتسول فوق الحيطان وعلى مقدمات الازقة..
قبل تسع سنين طعنت هذا المتسول عندما كان فلاحا في مزرعة الشيخ
حمد، عندما قفز واقفا أمام السركال الذي كان يراود زوجتي.. اقسمت في
ذلك الحين على قتله.. وعندما واجهته بحاول الدخول الى كوشي بعد ذهابي
للعمل.. لم يحاول النكوص فقفزت عليه بخنجري، الا ان ذلك التحيس تلقى
الطعنة واستطاع السركال السيطرة علي بمسدسه وسلمني للسجن.
انغرز وجه السائل في جبهة الرجل الراقد في بيت اخته.. رفع الرجل
رأسه الى فوق.. وكان عنكبوت صغير يركض في زاوية الغرفة العليا، مر
بذبابه ميتة في شراكه ثم اختفى.

* * *

الطريق*

انحدر الراعي باغنامه مسرعا من جوف البرية، وقد خبا نايه وخنجره تحت حزامه.. كان المطر ينهمر بشدة وادرك ان لا مكان له في تلك الأرض المنسحقة الجرداء، وكان القطيع يندفع في خط مستقيم والماء يشق صوفه متكسرا الى الأرض.

رجع الراعي خلف القطيع وصرخ بصوت قوي صرخات متتالية حائا على الاسراع، فالفقرية ما زالت على مبعده خمسة اميال. واندفعت الاغنام في صفوف متراسة مسرعة، ولحظ الراعي تخلف حمل صغير فانحنى ورفع بين ذراعية ومضى به.. والتفت الى اليمين ثم توقف وصاح بخرافه يأمرها بالسكون وأشار اليها ان تتبعه. كانت تلة صغيرة على مسافة مائتي متر تبجس من بطنها مغارة.

وقال - انها تتسع لها جميعا رغم ما يشاع عنها انها مأوى للصوف. وتحسس خنجره، وتسلفت الخراف في عتمة المغارة الطويلة. وحين دخل داس بقدمه على سعة نخل يابسة فالتقطها وحطمها ست قطع. ورقدت الخراف جميعا على الأرض محركة ظهورها تنفض عنها الماء وامتلأت ذرات الهواء برائحة الصوف المبلل. وقدح الراعي عود ثقاب واشعل السعة. وأمام عينيه على حائط المغارة التصقت فتاة نحيفة طويلة القامة ترتدي ثوبا أخضر ملطخا بقطع طينية صغيرة ... ووجهها شاحب مرتعد. رفع يده ليكلمها ثم خفضها وتلاشى صوته في حنجرته. كانت عيناها تهوي في اعماقه.

وعاد بعد هنيهات قائلا - لا تخافي - ثم هتف - ما الذي اتي بك الى هنا.

ومن بين شعرها المنسدل على وجهها الخجول تسلفت كلماتها - لم احتمل البقاء في المدينة، كانت أصابع ابي تتسلل الى ذرات جسدي تعيث بها، تريد ان تدق المسامير، ولم أقر على السكوت حين

* نشرت هذه القصة في جريدة الفجر الجديد ، 5 أيلول 1966.

أحسست بلذغة المسمار، فتخفيت بعباءة واستطعت ان اتسلل الى خارج المنزل في ليلة خرج فيها الى المقهى وخلا البيت الارمل الامني، وركضت في الازقة وتخطيت القرية خارجة منها. كانت البرية سوداء، ولم أدر اين اذهب وبقيت اعدو وأبصرت هذا النل ولم ارهب الموت فهو اعذب لي من تلك الأصابع الشرهة ...

نهض الراعي والتقط خروفا صغيرا ومضى به الى الخارج وحين عاد كان يمسح عن يديه الدم.

قال لها - عندما يتوقف المطر سارجع بك الى القرية الموجودة في هذه الجهة - وأشار الى الجهة المعاكسة لقريتها- حيث يوجد اخوالي، ستسرين أيتها الفتاة.

وارتعشت الدموع في عينيها عرفانا. وحين خرجا كانت الخراف قد توقفت عن نفص الماء عن ظهورها.

* * *

الانحسار*

القصابون يمسحون دم البارحة عن سكاكينهم.. والمزارعون يكومون
محصولاتهم فوق السدة الترابية بانتظار العربات لتحملها الى السادة في
المدينة.

أيتها السموم هلمي مع الريح وامسحي الوجوه المتصنعة.. ادفعي أبواب
بيوت هذه المدينة واصلي الأبدان المتعفة.. انتبه.. انتبه.. السيارة ذات
الضوء الموضوع على مقدمة السقف تلوح من بعيد
- قف يا سائق الأجرة.. دعني اضع جسدي المتعب فوق المقعد ثم
انطلق بي.

البارحة كانت الشرطة تطارد السماسرة في ساحة التحرير بعد الساعة
السابعة مساءً، واختبأ احدهم تحت جدار مظلم.. كنت مسرعا وصوت
الشرطي يتناهى صارخا بواحد منهم يهرب.

- وين تزوح؟ وتلكات أمام السمسير وقلت له مستخفا:
- أناديه؟.. زمجرت عيناه في الظلمة، ثم ارتخى رعبا عندما
استدريت الى جهة الشرطي الذي كان واقفا تحت الضوء... وقال بتضرع
يائس

- ليش؟؟
كانت تتطلق في رأسي سيقان شيقة تقفز خفيفة.. خفيفة، ثم تلتهب
وتشتد وامواج من الرغبات تحلم وتتمزق. والتفت وتسلمت أمامي فتاة
صغيرة ترتدي ثوبا ناريا تقف أمام ظلين منكسرين مع فتى انيق.
قلت لعبد اللطيف صديقي - اليست هذه مني؟
حنق بها وقال - لا أدري يبدو انها متبدلة كثيرا.
قلت له.. انها مشدودة الى هذين الرجلين من هما؟
- احدهما صاحب الجريدة التي تشتغل فيها والآخر لا أعرفه.
- ندي رغبة لان اتعرف عليها.

* نشرت هذه الفصة في جريدة الفجر الجديد، 1966/10/17.

حق وجهه - لا تفكر بهذا الامر.. ابتعد عنها..

- لماذا؟

- هكذا اقول لك، فلا تسأل.

ولم اقتنع.. وحين جاءت السيدة البدينة تحمل اقداح الشراب تناولت واحدا، واذا بالشباب المرافق للفتاة والذي أعرفه منذ زمن قديم ينحدر اليها.. شد على يدي وهو يرفع كأس الفودكا، وانسلت منى خلفه.

قالت لي ونحن نتصافح:

- متى تصدر مجلتكم؟

- عندما تمنحنا الوزارة الآن.

ونظرت في أغوار عينيها، كانت عيناها تتراجعان وأحسست ان فيها شيئا أعرفه.. الجسر المحدودب يلوح غامضا عندما تنطفئ الانوار.. انتظرت سيارة لا عبره ولم تمر، وحملت الحقيبة التي جئت بها من المزرعة، وعندما وصلت الى المنتصف اتكأت على الحاجز وأبصرت من بعيد الأضواء تنطفئ على شاطئ دجلة.. وعندما وصلت نهاية الجسر حدقت تحته، رأيت رجلين منحنيين يطبعان ظلا واحدا.

البستان حيوان صغير اذا لم تعتن به فانه يموت.. هكذا كان جارنا يقول لنا. وكنت أعرف ذلك حق المعرفة، فاضل فيه عندما تقبل العطلة وتتوقف الدراسة، اراقب الفلاحين وهم يعملون واستحثهم أحيانا عندما يقعدون في الظل يلفون السيكاير ويثرثرون. لكنني عندما جاءت الدراسة تركتهم، وعندما وصلت الى المدينة شاهدت القصابين مسحون دم الأمس عن سكاكينهم.. ولم تستقر خطواتي. كانت تستعد لتعبر مطافا غامضا..

* * *

صرير في الباب المغلق*

شهقت على صدري وأنا اتفحص عينيها الباردين.. وتمتمت هي:
لن ادعك تفقر داخلي، الفارس في هز الانشودة يريد الاقتناص..
همست في عينيها: لا يهم الثمرة من يأكلها.. الثمرة مرغوب فيها منذ
زمن طويل.

وانا الهث.. مددت يدي، أوقفتي وقالت بتهرب يسير:
لا.. اني اقشعر من الخجل..
كان الفراش يرتجف... انسريت حبة عرق من جبتي وتزحلق الى
جانب عيني.

الباب مقفول من الداخل بالرتاج.. وعلى جانب الغرفة امتد سرير
حديدى اسود فوقه علق آية - لئن شكرتم لأزيدنكم - وفي زاوية الغرفة
ممر يفتح على غرفة صغيرة فيها مرحاض، ويتدلى من السقف دش حمام،
وعلى مسافة متر باب يوصل الى غرفة تطل على الزقاق المقابل لمصنع
تعبئة الاوكسجين..

هي ترقد على الفراش بمنامتها الزرقاء الشفافة فوق فراش على
الأرض... وانا منحن فوق السرير، اختلس اليها النظر.. ونظرت في كسرة
المرأة المعلقة أمام الممر، وأبصرت عيني (مجهد) تومئان لي واصبعه يمتد
اليها مشيراً.. تقدمت اليه وفتحت الباب المؤدي الى الشرفة فخرج وأغلقت
الضوء ونسيته.

اننا ننسى أيامنا الثلجية بنسمة دافئة تلمسنا.. هذه هي الغلطة.. لم يعد
بوسعي ابصار شيئين متعاكسين ينتهيان الى نقطة منتهية.. كل انطلاقة
تنتهي الى مطاف غريب - لكن لماذا ننكر التوافق في المسير.. بودي ان
اسمع الصوت الغافي الذي ينساب في عروقي مجدداً، اسمعه يهز ذراتي
منظراً: ليست الهزيمة ان نمضي منفردين، النصر تاج المنتهين، هذه هي
الآية التي يجب ان تسجد لها عقولنا، لماذا نرغب في النصر وليست هناك

* نشرت هذه القصة في جريدة المنار، 1966/11/1.

معركة. ان قلوبنا لا تمتلىء بالحب رغما.. هذه الأصوات عليها ان تنقرض،
فما دمت رجلا عصريا فينبغي ان تكون الى جانبي فتاة.. نجلس منفردين
اهمس لها عن الحب وانصت الى قلبها.
انصفق الباب الخارجي مغلقا وكان الهدوء شاقا عندما افلحت في فتحه
والتمسك الى الزقاق.
تقابلنا..

قالت: كل من يحيق بي ضرا سيضر مهما طال الزمن..
مزحت معها بكلمات جدية: لا لا تقولي مثل هذا الكلام القاسي، أخشى
ان يصيبني.
وانشغلت هي بقياس العباءة.

فتحت الضوء الآخر وصحت من وراء الجدار.
تمددت هي على الفراش الأرضي وجلسنا على السرير.
قال لي: اذا نزلت فجئ بقليل من الثلج. وأشار الى زجاجتي نبيذ..
أومات برأسي وكنت اعقد رباط حذائي - لا تنس. قال مؤكدا.
نظرت الى الساعة، انها العاشرة والنصف.
قلت: لا زال هناك ساعة من الوقت. سابقي ساعة أخرى وانصرف،
وعندها لا تتعجل اشربا ببطء.. فالصحو ممتد الى الصباح.
انزلق مفتاح من الخارج في ثقب الباب.
قال (مجهد): انه لطيف، وأشار الى حقيبته المفتوحة عمدا فوق
المنضدة..

قال لها: هل نفتح له، انه مغلق بالرتاج.
لم تجب. نهضت وفتحت. كانا اثنين. تراجعت هي وجلست فوق
الحقيبة الجلدية الطويلة، وانطرحت انا على الفراش الأرضي، بينما جلس
الثلاثة على السرير.(مجهد) ينحسر ويتراجع.. وكانت هي منحنية ورأسها
الى الأرض.. ونحن نحقق في بعضنا صامتين.
لم احتمل هذا اليأس. وقفت معلنا انصرافي. كان الأربعة يسلكون خطا
ممتدا.. والفراش الأرضي خال. والعمارة لا تتنفس.

رجفة في ظل السكين*

انقطع المطر.. لكن ظلت تتهدل من بطن السماء الكبيرة غيوم سوداء مضطربة، ترحف نحو الشرق ببطء.
وقرب باب مسجد تسمر شخص ناتيء العظام، انحنى ظهره قليلا للامام وتشابكت كفاه واختبأتا في بطنه.
الريح الباردة سريعة في الدرب.. والسيارات المقفلة النواذ تمر بسرعة تنتثر من عجلاتها رشاشات من ماء طيني.. لفت الرجل عنقه من فوق سور المسجد المظلم وقرع الباب الخارجي.. الريح تجرف رنات طرقاته.. اهتز جسده وازداد التصاقاً بالحائط.
لقد طرده صاحب الخان الذي يسكن فيه بعد أن استولى على تختته الخشبية وأصباغ الأحذية التي تعود إليه قال له (ما دمت لا تملك أجرة منام الشهر الفائت فهذه الأصباغ والمقعد رهن عندي حتى تجيئي بالدينارين التي أطلبها) وخرج من الخان لا يملك إلا ذراعيه.
مر لوري يدوي مملوء بشرطة مقرصين وعندما ابتعد مرقت في الجهة الأخرى من الشارع سيارة صغيرة.
- ما بال بيت الله مغلقاً!
حك كفيه بسرعة ثم نفخ فيهما نفخات متصلة وطويلة. عندما جرده صاحب الخان العجوز، الحاد العينين من أدواته.. لم يستمع إلى تضرعاته.. كان يريد إمهاله يومين يسدد بعدها دينه.. لكن العجوز اعتبرها كماطلات الآخرين التي لم يعد يصدقها ولم ينصت إليه.. البرد يدخل فاتحاً ثرات جسده متوغلاً إلى العظام.. أراد أن يجد له مكاناً آخر.. حك أذنيه وأرنبة أنفه ووس يديه في جيبي سترته المتأكلة.
ترى لماذا لم يتمهل في إرسال النقود إلى أمه.. لو تمهل يومين لكان قد سدّد أجرة الخان ثم أرسل لها ما تبقى..

* نشرت هذه القصة في جريدة النصر، 1967/5/22، العدد 40.

كان متعجلاً ومضطرباً.. فبعد أن غمر الفيضان قريتهم التجأت أمه وأختاه إلى القرية المجاورة.. وهناك كان كثيرون مثلهم.. جاءوا من قرى متعددة اكتسحها الفيضان.. الطعام قليل ونادر.. وثمرته مرتفع للغاية.. وسمعوا من جار لهم هناك أنهم اضطروا إلى مد أيديهم للآخرين..
فار الدم في رأسه وأرسل كل ما تجمع عنده من نقود.. البرد يتضخم ويتوالد أضعافاً..

حين عاد في المساء إلى الخان تسلل من جانب الحائط ميتعداً عن غرفة العجوز المضاعة بفانوس قوي والمفتوحة الباب دائماً.. وفتح باب غرفته الخشبي الغليظ وأبصر في الظلمة الخفيفة الرجال الثلاثة نائمين فتسلل إلى فراشه يسكون وارثد الباب مطلقاً ثم صمت.. كان يحس بفرح كبير لأن صاحب الخان لم يشاهده. اندفع الباب بعد دقائق بعنف وظهر صاحب الخان العجوز الحاد العينين وبیده فانوسه القوي.. أغمض الصباغ عينيه فوراً.. لكن العجوز لم تفته انطباقه الجفنين الخاطفة.. قال له:

- ها كاكأ حسن.. وين الإيجار؟
لم يجبه حسن بل سحب نفساً طويلاً.. تقدم إليه صاحب الخان وركله بقدمه

-ميفيدك النوم.. جيب الإيجار..
- فتح حسن عينيه باندهاش زائف وتملى بالعجوز باستفهام، احتد العجوز

- الإيجار.. وينه؟
اعتدل حسن في جلسته وهو يلم أصابع كفه يده اليمنى
- بس انطيني مهلة يومين وأني أعطيك الإيجار
أجابه العجوز:
- يومين.. لا.. هسه جيبها
قال حسن:
- هسه ما عندي
قال العجوز:

- كوم افنتشك

نهض حسن فوق فراشه المفتق وفتح الرجال النائمون عيونهم.. مد
العجوز يده في جيوب حسن ولم يعثر إلا على تسعين فلساً وضعها في جيبه
ثم التقط التخت الخشبي والأصباغ وقال له:

- هاي عندي رهن.. اطلع جيب الإيجار وتعال أخذه.. أراد وبيأس أن
يستوقفه.. من أين سيجيء بدينارين في هذا الليل.. رفاقه في الغرفة مفلسون
دوماً.. وخرج يجر خطاه مرعماً..

اصطكت أسنانه.. لقد توقفت الحركة في الشارع تماماً.. رفع عينيه
المرتجفتين مرة أخرى من فوق الحائط.. ثم أمسك الحافة واستطاع أن ينقلب
إلى القناء الخارجي للمسجد.. واقترب من الباب الداخلي وقرعه بعنف.. لا
جواب..

رعود تتغمر في السماء وبروق تلمع في نثيث المطر الذي أخذ ينحدر
إلى الأرض.

تكور حسن قرب الباب وانكفاً على جانبه وركبته تلتصقان بصدرة،
ورجفة حادة تهتز في جسده.

تكاثرت الرعود والمطر أخذ يشتد.. وعندما تسلل المؤذن في الفجر..
وجد جسداً متصلياً قرب الباب.. قلبه بيده وهو يتلو آية قرآنية..
ظل الجسد منكوراً.. وعينه متوقفتان ومذعورتان جداً.

* * *

الأجراس*

-1-

إنك تزرع شارتك دوماً في القمة أيها الموت.. وتختار الأفاصي حينما
تنحسر من منعطفات خبيثة.. تتوقف ثم تترك أثرك وتغيب..

-2-

امتد وجهه السمين يحدق بعينين خاليتين.. وأرتج عرق بارز في رقبتة
حينما قال:
- لا تنس أبداً.. عندما ينقطع المطر تنتيس الجذور.. شاحنة اللحم
تقترب مني أكثر وهمست هي أخيراً.. فأكثر، وتدس لهثة الكلمات في
عظامي.. واستأنفت الشاحنة.
- وستحترق العروق الظمئة.. إذن.. فليبق المطر معلقاً فوق جسد
الأرض.. ولأبق منتظراً الصباح من وراء الباب المغلق..

-3-

كانت مؤجرتي تدفع الفحم في المنقلة وأنا مقرص على حصيرة ملونة
أغمس عيني في باب المنزل المسود.
- كان أصحاب المنزل قد تكرموا بالسماح لي بالجلوس معهم على
دفاء النار قبل يومين.. وأبصرت قدم مؤجرتي التي تكاد تصيب الأربعين
عاماً.. بيضاء يرمي عليها اللهب لمعانا مشهياً.. كان زوجها يجلس في
طرف الغرفة مسترخياً واضعاً قدميه تحت بطانية عتيقة ويسحب أنفاس
نركيلة..
رفعت رجلي قليلاً.. من جانبي ألقى علي نظرات سريعة وخاطفة..
وغامضة.. كان الصمت يزيدي جفوة ويهرب الطمأنينة من رأسي.. طويت
زوجها بنظرة فارغة..

* نشرت هذه القصة في مجلة البريد الأدبي، 1968/1/28، العدد 14.

- لا نعرف أين تشتغل.. فأنت لا توضح شيئاً يذكر.. لم أهتم كثيراً
بسؤالها- فقد دفعت لها الإيجار مقدماً- لكن أجبتها ببطء:
- آه.. وأتمت بترأخ- السيكاير.
سوت ثوبها وأنزلته الى حافة كعبيها ثم أدخلت كفها في فتحة ثوبها
وحكت كتفها وهي تحرق عيري.. غرباء متجافون..
هكذا وجدت جسدي يضغط هذه الحقيقة إلى الأرض..
وعندما قمت إلى غرفتي تبعتني أربع عيون جافة.. حقاً عندما ينقطع
المطر تنبت الجذور.

-4-

تلاحقت ساعات ضئيلة ولم أسو مسألة ديون الآخرين علي.. مجتمتي
مكدودة.. منذ أشهر فصلت من عملي بدون سبب ولم يعطوني مكافأة على
خدماتي السابقة ولا أي مبلغ آخر.. كانوا يتهربون مني خشية، ففتجه إليهم
الشكوك.. وكانوا ينشغلون بأعمال لم أبصر واحدا منهم يؤديها طيلة سنتين
وأربعة أشهر- مدة اشتغالي معهم-.
- نظرت إلى النافذة.. لا زالت كتلة الظلام تتسطح.. وسمعت كرة
الباب تتحرك.. أدت عيني وشاهدت مؤجرتي تدخل وتغلق بهدوء.
جررت جسدي من الفراش وجلست.. قالت: تركته ينام وجئتك..
أفسحت لها مكاناً فالتصقت بجانبتي..

-5-

انحدر من خلف الباب سعال متصل.. قالت: إنه هو.. لم يكن نائماً
إن!!.. لم أدر ماذا أعمل فقد تغلغل يأس جاف في مخي.. المطر ينقطع..
ستحترق البراعم حتماً.. هبت مؤجرتي وأسندت الباب بكتفها.. دفع زوجها
كلماته:

أين تقرين.. لقد رأيته تدخلين هنا.. سيرى عشيقك أية نهاية سيلقاها..
أشارت بيدها أن أساعدها.. قمت إليها ووضعت كفي على الباب.. كنا
ندفع.. وأنا أضحك من سخافة موقعي.. وكان هو يضغط من الجهة
الأخرى.. ومن أفنية بيوت بعيدة.. ارتفعت أصوات الديكة بينما الفجر ينزل.

صغير الرحلة*

لقد كبرت الرحلة يا عباس.. كبرت.. وصار الجار لا يعرف جاره..
والرضيع ينكر أمه إذا قطمته.. و(تتكثك) هذه المرمأة في الزاوية الموحلة لا
يقترب منها الناس.. إنهم يذهبون إلى المخازن المضاعة حيث يضعون لهم
الحلويات في علب.. قم إلى الطرق الواسعة وبع هناك.. انهض فعظامك
تهرات في هذه الأزقة الرطبة..

- لا..لا.. لن أنحني لأزدرأ أولئك الناس الجدد الذين يرمقون بأعين
نصف مغمضة..

- سلتصق بالجدار صباح مساء، وتجرد قدميك الياستين إلى كوخك
الطيني خارج المدينة كل يوم.. وتلعن أجداد-كريمة- امرأتك.. ألم تمل من
الخبز والكراث والقمل؟.. لقد ألمتكم نعمتك يا عباس يوم وقفت تتشاجر مع
أخيك الكبير وأبناء خؤولتك على تزويج أختك من ابن عمك السارق.. أكلتكم
نعمتكم وأنت تتبرا منهم وتلعنهم ثم تهرب.. وها هي رياح المدينة تطيرك
ورقة ذابلة من أزقتها المهجورة.. يا عباس بعد تسع سنين تبصر الزقاق
الضيق المعتم وقاعه منقوع بالطين، ورائحة زنكة تنقب رأسك..

- أين كنت يا عباس وأين صرت.. طردت نفسك من ضفة الفرات..
من الناس الطيبين الذين يقضون أوقاتهم في دواوين أكواخهم يشربون الشاي
ويتحدثون عن الزرع والحج والزواج.. وحيث كل واحد ينادي الآخر
باسمه. إنك الآن مدين بنصف دينار لجارك.. وامراتك عاقر محبوسة ليل
نهار في الظلام..

لقد بددت فتوتك في الأزقة.. ورفضت المصنع الصارم.. بل رفضك
هو، فالقرويون لا مكان لهم مهم داخل المصانع الكبيرة.. ورغم فقرك أبييت
أن تكون خادما.. وحملت كبرياءك مائلا بها صدرك النحيل.. ماذا حصلت
بعد تسع سنين..

* نشرت هذه القصة في مجلة الشباب، كانون الاول 1968، العدد 6.

- أين فلوس هذا الطفل- ألا تستحي- تضحك عليه وتسرقها منه؟
 رشاش من صوت خشن تفجر من فم امرأة بدينة مخبأة في ملابس سود
 ووجهها حفرته أخوات بغداد..
 أرتج عباس- ماذا يقول هذا البرميل من اللحم؟. سألها بهوادة:
 - تقصدين أنا؟
 مدت يديها ضربت بظهر يدها اليمنى على باطن يدها اليسرى ضربات
 متتالية وسريعة.. وبصوت سافر قالت له:
 - لا.. غيرك.. ثم احتقن وجهها المأكول
 - لو كنت رجلاً شريفاً- ما سرقته فلوسه.. أنت تتسرب إلى جوف
 الأرض يا عباس وتغوص.. دماؤك تنضب.. ووجهك يتيبس.. وذل السنين
 السبع يطمرك ويصيرك جثة منبوذة.. تشرب هذه الأفاعي وأرشف سمها
 باستكانة.. محا عباس صوته المرتعد في جوفه.. ثار:
 - اذهبي من أمام وجهي وإلا هشمت رأسك..
 شحب برميل اللحم.. ساق الدرب أناساً كثيرين، صغاراً وكباراً و-
 حاصروهما في الزاوية.. صرخ برميل اللحم..
 - تجسر علي وأنت أوسخ من الزبل!
 لحظات جافة يا عباس لن تتخلص منها ببسر وفيها مصيرك بتذبذب..
 - لم أجسر عليك.. أستغفر الله.. أنت سببتني واتهمتني بالسرقة.. كانت
 عيون الواقفين مشدودة إليهما بضيق.. والتفت عيونهم جميعاً على فم المرأة
 حين انفتحت..
 - لن أكف عنك.. ولن تبقى في هذا الدرب..
 تحولت العيون إلى الرجل.. ها هي لحظة الانفجار تفتح بابها فجاهد
 لتغلقه وإلا سترمي منه كالنفاية.. لا تتخاذل يا عباس ولا تنتبه إلى هؤلاء
 الناس الذين يقفون وراءه..
 - اسمعي، إنك لن تخيفيني بصراخك.. اذهبي فأنت البائدة بالاعتداء..
 شق الوقوف شرطي متكلماً بخشونة:
 -ماذا يحدث؟

بادرته المرأة:
- سبني وأراد أن يضربني..
صمت الواقفون.. والنقط الشرطي زند عباس وضغط عليه:
-هل من الرجولة شتم النساء!!
وقال عباس محاولاً الانتصار:
- لم أقل لها حرفاً واحداً.. أسأل الحاضرين.
نفس الشرطي بوجههم فلم يجيبوا.. غلظ صوت الشرطي:
- لا نريد المشاكل.. اذهب من هذا المحل ولا تعدّ إليه.. النقطة عباس
التتكة وخطاً بموازاة الحائط.. أنت تقوم أخيراً ومخالب العيون تمزق
ظهرك.. ارفع التتكة إلى أعلى قليلاً.. واحمل الرزء يا عباس فالمدينة لا
ترحم الضعفاء ولا تجاملهم.. اعبر هذا الضجيج وتخطّ شريط الحديد الى
(كريرة)..
حول عباس التتكة من حضن يده اليمنى إلى اليسرى.. ألقى نظرة
واهية على الطريق وكان القطار في المحطة المجاورة يطلق صفارته إيذاناً
بالابتداء...

* * *

في ماض ما.. في الحاضر*

أكره صوت القطار لأنه يذكرني بك. لكنني مرغمة على الاستماع إليه.
إنه يمر أمام بيتنا في الساعة السادسة. وسيعبر بعد قليل إلى الغرب.
كانت تتكلم..

- إنك لا تتحرك. جامد عندما تجيء إلى بيتنا تكلمهم جميعاً وتغرب
عينيك عني. لماذا؟
كنت أحس أنني طفلة صغيرة لا تنير اهتمامك. وحين تكلمنا أخيراً
اندفعت إليك لنتوثق أكثر.. لكنك لا تتحرك.
وكانت تتكلم...

- لا أريد أن أفارقك إلى الأبد.
قلت لها - إنني مطوق.
- أعرف ذلك. ولكن لا بد أن أراك.
- سأتي غداً.
- سنطفي المصعد ونبقى معلقين بين الأدوار - وحننا. ساعات كاملة
هل توافق؟

- أه أيتها الصبية المبتردة. إنك مجنونة.
- اصمت القطار يعبر. ألا تسمعه.. وكانت تتكلم:
- أود لو أعلقك في صليب هائل ثم أحمل سوطاً وأنهال عليك ضرباً ثم
أنزلك ونجلس سوياً نيكياً. وكانت تتكلم:
- إنك عملاق تسد علي الدنيا كلها.. وأنا ضئيلة بجانبك.. إن عينيك
لامرأة عرفت رجالاً كثيرين. وما أريده - صدقك الكامل.. قلت ذات يوم..
إنك لم تعرف غيري من الرجال كيف أصدق امرأة متحررة ومشاكسة لم
تعرف رجلاً قبلي. لم أطلب منك إيضاحات حول هذه المسألة. إلا أن الكذب

* نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 12 آذار 1969، العدد 36. يبدو أن القاص
يشير هنا إلى شخص حقيقي مثل عبد الرحمن مجيد الربيعي ومؤيد الراوي... الخ من
الذين كان يرافقهم في المقاهي الأدبية في بغداد الستينيات. (المحرر)

هو الجدار النهائي الذي لا أغفره. وها أنت تميلين في صدقك، تطرحين ازدواجاً قاتلاً وتتسطحين في النهاية مع قدمي.

- هل تحبني؟ كم أنت مضحكة يا منال. إن لعبتنا صارت مملة..

في المقهى كنا نتمدد فوق الكراسي اللينة. إنها يومنا الأبدي.. سامي بصلعته المبكرة يشتم محمود درويش وكل خونة فلسطين.

شريف يطارد المزيفين بصخيه وفكاهاته.

عبد الرحمن يهمس لمن يجاوره بحبه الأخير.

أحمد يحصى أرقام الملاعق والأشواك التي سرقها من البار.

مؤيد مازال عاطلاً.. وكثيرون.. إنهم المدينة.. ونظل في المقهى..

نناضل فوق المقاعد اللينة..

إننا ملتصقون.. ومنفيون..

- منال: أنت طارئة ودخولك لم يكن موثقاً به.

منال كم أود لو تفهميني.. صديقي قتل في المظاهرة.. وآخرون سجنوا..

الفقراء يموتون على الأرصفة وأقدام الشرطة تدفعهم لتغيبهم في الأزقة.. والمحكرون يملكون المدينة.

الدماء ملء الأفواه.. الدماء ملء العيون. كم أود لو تفهميني. وأقول لها - لا أستطيع الخروج برفقتك.. لو تفهميني..

- لا أريد أن أفهم شيئاً. إنما أريدك. أنت تقسم علي. أنا أحرص عليك أكثر من نفسي. الأشياء فقدت شرفها. ولم أعد أحرص على شيء.. ما أكثر وأسهل طرق الموت في هذه المدينة.

لكنك تقدسين جسدك في قسري وحنيني.. وأهتف بها..

- " سنخرج معاً. انتظري بعض الوقت. وسنلتقي كثيراً. وتمدين جسدك عبر أسلاك التلفون لأتحسسه وأغمره.. انتظري بعض الوقت."

كل منا يعرف على طريقته كما يبدو.. كان بإمكانني أن أغمر جسدك إلى مكنتي وأغلق الباب.. لكنني لن أفعل ذلك. وإن كنت أشتهي أن أفعله.

كنت أسرع لأراك.. منذ أسبوع لم أسمع صوتك. وقد قررت أخيراً أن
نتوثق معاً وكلياً. وجعلتك من اهتماماتي النهائية. ووقفت في المحطة أنتظر
خروجك. وعبرت أمامي مع رجل آخر.

- منال. لماذا كنت معه؟

- لم أكن. إنما هو الذي مشى إلى جانبي.

- وكيف ارتضيت؟

- لم لا.. كان.. لا أدري.

- منال، لا تكذبي.. لو لم تريدي ذلك، لما كان يستطيع. وعرفت أنك
كررت عليه أحاديثك لي.

المرأة التي تتوثق مع رجلين عاهرة. وأيامنا الفاتنة تجعلني أحرص
عليك رغم أنك انتهيت.

- أحذري أن يعيث بجسدك ذلك الرجل، فتسقطين إلى الأبد. المدينة
صغيرة وآلاف الذكور ينتظرون من تعهر ليزحفوا إليها. لا تقسمي بأنك
تحبيني وما زلت حبك. لم أعد أصدقك فقد رأيتك مع رجل آخر.

وبغضب نهائي مزقتها

- إنك سهلة.. سهلة.. تدعين جسدك لمن يلتقطه..

- (وجع: وجع: وجع)

إنك تبكين.. لا تبكي أينها الخائنة.. لن نلتقي بعد الآن.. ولكنك في
دوماً.. المدينة صغيرة وآلاف الذكور ينتظرون..

ملايين الذكور ينتظرون
وأنا أنتظر.

* * *

الضوء والغبار*

-1-

كانوا يتقاطرون: من الواحات، وضفاف الفرات، والقرى الصحراوية،
لوريات مملوءة بالبدو والفلاحين والتجار والمهريين تزحف الى المدينة.
تطلع من رمل الصحراء المحيطة بها.
الغتر البيض والحر والزرق تتسدل من الرؤوس على الظهور،
والبنادق في الأكتاف.. الخيام طويت، والجمال المضيفة تزحف، كانوا
كثيرين، وجوههم شاحبة متوترة وينطوون في الظلام - ثمة أمر مبيت
وخطير.

اندلع الكلام بين عدة رجال يحتلون سطح احدى المقاهي:
الجميع بالانذار.

نهضوا وتفرقوا في الطرقات، وانطوا مع الغتر البيض والحر
والزرق في الليل.

- 2 -

مكبرات الصوت تغمر المدينة بالصوت المتسق الذي يهوي من فوق
المآذن الثلاث.

- ايها المؤمنون، هل ترضون لله ان يسقط.

البنادق بجانب الأجساد المتربعة على الأرض والممتدة كالامواج في
الباحة الضخمة .

ارتفعت الرؤوس الى القاضي والعيون تهدر بالفيضانات.

- كلا

امتدت يدا القاضي مفتوحة الكفين منفرجة الى الاعلى، وكمه الفضفاض
منزلق عن ساعده

* نشرت هذه الفصة في جريدة العمل الشعبي، 1 حزيران 1969.

من يقتل احدهم يدخل الجنة.
قطعت الامواج وارتطمت الوجوه الغريبة بالآلاف غيرها. الايدي تشد
البنادق والخناجر.
صرخة القاضي جمعتهم من قراهم البعيدة: وها هو يختتم خطبته
ويترك المنبر فتتفرج الامواج ويتقدم بينها.
خلع عمامته على باب الجامع ونشرها على كتفيه.
تحفزت الامواج وصرخت أصوات: سنعيد العمامة الى رأس القاضي.
استطالت الامواج.
توقف القاضي، وتوقف برجوازيو المدينة الكبار على جانبيه، وانتظمت
الامواج خلفهم.

- 3 -

كانت مقرات المنظمات المهنية في منطقة واحدة متقاربة ممتدة في
الشارع الرئيسي، وثمة مقاه صيفية بجانبها.
تباحث رجال المنظمات القلائل في الليلة الماضية عن الزحف الذي
جاءهم من الصحراء.
- هؤلاء الذين لا يملكون شيئا في هذا العالم خدعهم وجاؤا بهم
ليقتلونا. اما كان الاجدر بهم ان يقتلوا الذين يسلبونهم حتى أجسادهم؟ الفقراء
يقتل بعضهم بعضا وكبار المدينة وتجارها لهم كل شيء.
المقرات أقفلت أبوابها، والمقاهي تحفز فيها للرجال.
زحف القاضي وخلفه الامواج ترفع سكاكينها وبنادقها الى السماء.
التمت الرؤوس على سطح المقهى تحديق بالغتر.
انهم كثيرون.
- اذا وصلوا سيحطمون المقرات ويضرمون النار في الكتب
والآثاث وسيقتلوننا في الطرقات برصاصهم.
كان الشارع متحركا بالغتر الغزيرة. رفع احد الواقفين في المقهى
الصيفي يده وأطلق عيارا ناريا.
- تركز القاضي والغتر.

- حمل الهواء طلقين آخرين، ثم أربعة ثم ستة.
 - ضحك رجل في المقهى.
 - القاضي ينقلب راكضاً متدحرجاً في نهاية الحشود.
 - استدارت الحشود وانطوت في الازقة وفي دروب الصحراء .
 - أين بنادقهم، أين بنادقكم أيها الجناء.
 - انمسحت الغتر والبنادق من الشارع الرئيسي.
- ومن مقهى آخر في نهاية الشارع مزقت الهواء الجاف الراكد
 رصاصات قليلة فاستدار حشد صغير فاراً الى الخلف. نزل الرجال من
 المقاهي واتجهوا نحو الحشد الذي انحصر. كانت الغتر مبللة بالعرق
 والغبار، وتفرقوا في الاتجاهات والأيدي سقطت منها بنادقها وسكاكينها وهي
 تحمل ارتجافات متصلة.

* * *

ارتفاع رابع للحركة الحجرية في الجمجمة*

حرك الهواء الباب الخشبي ودفعه بعنف فدوى وهو ينغلق، وارتج الزجاج الخشن الضخم الذي يفصل بين الغرفتين، وتذبذب الظهر الأخضر خلف الزجاج ثم سكن..

الأوراق البيضاء المستطيلة فوق المنضدة. وفتحة الهواء في السقف تقذف من جهات سرية عواءات غامضة.. وعشر عيون تصعد من رقبتي إلى ذقني وصدري..

في الطابق الثالث كانت غرف أيامنا الصباحية تمتد الواحدة في الأخرى، مملوءة برجال ونساء ملونين. كانوا يتلامسون ويربطون رؤوسهم، يغنون ويرقصون ويحزنون ثم يذهبون إلى بيوتهم ليعودوا في اليوم التالي:

- بالأمس اشتريت من السوق قماشاً..

- تذبذب الآخر خلف الزجاج والتوى جسده على المنضدة الغامضة:

- كان غداء البارحة غير ناضج..

تحرك جسد آخر من الزاوية وصار بالجانب الملاصق للزجاج. انحني ثم انسحب بعيداً واختفى.. وقعت الأوراق المتراكمة دون أن أهتم بها.. فقد وقعت آلاف الأوراق في هذه الغرفة من قبل.. وستأتي آلاف غيرها.. فواجبي أن أكتب وأكتب ثم يأخذون الأوراق مني.

كانت رؤوس عديدة تمتد فوق منضدتي وهي تهمس:

- شد قوتك. يجب أن تملأ الأوراق. وأمسكت بأحد الرؤوس

- يجب أن أفرغ يوماً من هذه الأوراق.

- عليك ألا تفرغ منها.

- سامزقها.

* نشرت هذه القصة في مجلة العاملون في النفط ، اذار 1970. يستخدم القاص هنا أسلوب تيار الوعي حيث يدون كل الانطباعات والأفكار الواردة بدون الرجوع إليها خالفاً جوا سريالياً للقصة بالاستعانة ايضاً بالتشبيهات والأساليب اللغوية. (المحرر)

ونقاطعت خلف الزجاج أجساد سرية متحركة، تتوضح ثم تتلاشى،
وتعود سريعة في فتحة الضوء المتعلق في زاوية الزجاج المصنع الخشن.
جمعت الأوراق البيضاء ووضعتها أمامي ورفعت عيني إلى عشرات الأذرع
المشعرة.

كان رسغي يلتهب فوق المنضدة.
في الخارج يتساوى البشر.. كلهم متشابهون.. ارتفعت ذراع مبهمة في
الغرفة الأخرى وامتدت ضوضاءات الأصوات.

- الشاي.

- السرير.

- الحذاء.

- الحصان.

- دينار.

- التلفون.

- الحب.

العرق يغطي جمجمتي.. ونهضت لأفر.. وفكرت.. سيمعني الحارس
من الخروج لأن الدوام لم ينته. وسيقول:
إذا كان لي أن أخرج فعلي ألا أعود أبداً.
انسحب شبح في الزجاج وأمسك بقبضة الباب وفتحه واتصلت الغرفتان
وامتزجت الأصوات.

جلس الرأس الجميل بجانبني

- ماذا ستفعل

- سافر. ستقتلني هذه الأجساد المغزوة.

- عليك أن تموت من أجل هذه الغرف.

- كلهم ضحايا.. الجلاذ والقتيل.. ضحايا وهمهم الأجوف.

وطردت الرأس الجميل من الغرفة. وانتبهت إلى عواءات الفتحة
الهوائية. وحين أغلق الباب، امتزجت الأجساد الغامضة في حركات
متقاطعة.. تلتحم وتنفك.. ثم تلاشت جميعها.

خطوات على المنحدر*

ارتج لوري نازلاً في الطريق المنحدر، أمام نقطة الحدود، وهبط من باب الخلفي رجال ونساء وأطفال، وتجمعوا متلاصقين ببعضهم وهم يحدقون في الضابط الذي اقترب منهم وأخذ يصافحهم. وتقدمت امرأة فتية، وانحنى والتقطت حفنة من التراب وقبلتها وهي تبكي:

- قيل لي ستقتلين عندما تعودين الى العراق. لأمت ألف مرة في العراق ولا احيا خارجه.

وكانت الريح الباردة تهب، فيما التمتعت الثلوج على قمم الجبال. وأشار الضابط بيده، وراح الجميع يتقدمون صوب المدينة المهجورة.

* * *

* نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 1975/6/5، العدد 353، مع قصص: اختناق، شمس بعيدة، رجال الثلج، والجسر الضوئي.

الآقاصي*

طلت تحديق من زاوية النافذة الى جئة زوجها المرمية وسط الشارع العريض، وايفنت ان الجميع هبطوا الى الملجأ، وارتعدت عندما شاهدت الزاوية العليا من قميص زوجها تتحرك. ونظرت الى البناية البعيدة وحاولت ان تعرف النافذة التي يغرز منها القناص الرصاص في جسد زوجها الميت. وانبثق في ذهنها جازها الذي ركض لسحب جئة زوجها، لكنه اصيب في فخذه واختفى في البناية المقابلة.. وهزت رأسها لكنها لم تستطع البكاء.

* * *

* نشرت هذه القصة في جريدة الثورة، 1977/2/27، عدد 2629، مع قصتي الوليمة وشرفة في بيروت.

المخيم - 1 - *

تعالى صراخ طفله في المخبأ من بين صرخات أطفال عطاشى
عديدين، ونظر الى صنابير الماء التي خربها الأعداء من الخارج، ولمس
الاناء الزجاجي الذي جمع فيه النقاط الأخيرة من الماء عندما هز الصنبور
بيده واستطاع ان يرقب ست او سبع نقاط تراشقت على زاوية الاناء ولم
تسقط اية نقطة فيما بعد.

وركز انظاره على البئر البعيدة وجثة رفيقه المنطرحه بجانبها منذ
ساعات ودلوه المتدحرج. ولم يعد يسمع صراخ طفله، وسقط الاناء من يده.

المخيم - 2 -

انهمر الرصاص قربه وانفجرت ثلاث قنابل في الزاوية البعيدة من
المخيم، وأناه صوت الرجل الممدد خافتاً:

- آه

وضغط بيده على مسند بندقيته الرشاشة وهو يسمع رفيقه الذي
اصيب بشظية في بطنه عندما أراد العبور والوقوف الى جانبه. وصرخ
رفيقه من الألم عندما اشتد الدوي. ونظر الرجل الى طريق المخيم الذي
يغمره صفيير الرصاص وردد:

- انه يموت

ورفع بندقيته غاضباً ووجه ناره صوب جهة الأعداء، واستمرت
يده تهتز الى ان نفذ رصاصه.

وغمره الاعياء وهو يرى جسد رفيقه يتقلص ثم يسترخي.

* نشرت ' قصص من المخيم ' في مجلة الأديب المعاصر، العددان 22-23، السنة
الخامسة، آذار وأيار 1977.

المخيم - 3.

ضغط على عصاه وهو ينتقل بين بنايات المخيم ويتأمل الجدران التي هدمتها القنابل، وهمهم وهو يميل الى جانب فتى:
- انهم يقتلون الجميع
وأراد ان يتوقف ويتحدث عن صورة القنلة المتشابهة ولكن زخات من الرصاص انهمرت على المخيم، ورأى الفتى عصا تطير في الهواء، والعجوز يهتز ثم يهوي على الأرض.
وحدق الفتى في وجه العجوز وارتجف من نظراته الثابتة الحزينة الموجهة اليه.

* * *

الزهور الضوئية*

خفتت كافة الأصوات وتلاشت الضجة التي لاحقته منذ ساعات، وتأمل السرير الذي نقله صديقه ووضعته في غرفته، ونظر الى الكتب المكومة في الزاوية والى زهور الستارة المسدلة، وانتظر ان يعود صديقه الذي هبط الى باحة الدار ليجنب له العشاء، وسمع صوت أقدامه ترتقي السلم، ثم دلف وهو يحمل طبقين ويضغط تحت ابطه رغيغ خبز، واعتذر احمد:

- لا اشتهي.

ووضع سلمان الطبقين على المنضدة وامره برفق:

- هيا، لا اقبل اعتذارك. ونهض احمد.

ومع ارتفاع الملعقة البطيء والتصاقها الطويل بالطبق، تذكر المطاردة التي جرت منذ ساعات.

كان جالسا في غرفته عندما سمع رنين الجرس المتواصل، متأهبا وهو يستمع الى صوت ابيه يسأل القادم. وايقن من الضجة المنبعثة عند الباب الخارجي انهم أتون ليقبضوا عليه. وتسلسل وخرج من الباب الخلفي الى الحديقة.

وسمع صوت تدفق الرجال الى البيت وصوت يصرخ:

- انه هنا كنا نراقبه.

وحين اعتلى السياج الخلفي أصبحت غرف البيت جميعها مضاءة، وركض في الطريق المظلم واستدار الى منعطف، ثم واصل ركضه، وشاهد ثلاثة اشباح تقبل من اقصى الشارع، فتوقف وراح يمشي ونيدا، وحين مروا به وابتعدوا، عاد يركض من جديد. وأصبح قريبا من بيت سلمان ونظر في امتداد الشارع ولم يشاهد احدا. والتصق بالباب وهو يفكر ان هذا البيت هو ملاذه الوحيد في وقته العصيب ... وقرع الباب.. وامتد رأس امرأة عجوز وعرفت احمد. وخرج سلمان مسرعا ودخلا الى ممر المنزل. وروى احمد حادثته ثم اضاف:

* نشرت هذه القصة في جريدة الجمهورية ، 14 تموز 1977، عدد 3009 .

- هل انت مستعد لايوائي؟
وسحب سلمان من ذراعه وادخله المنزل. واعادت الام الترحيب وانكشئت اخت سلمان في كرسيها وراحت تراقبه.
وحاول احمد في تلك الامسية ان يراقب مدى الذعر الذي يخلفه وجوده بينهم، لكنهم تعاونوا على تهيئة ظروف مريحة له.
واستدار الى سلمان:
- ليس بوسعي بعد ان اتناول لقمة واحدة.
وفي الصباح هبطا الى الصالون وتناولوا الافطار. وذهب سلمان الى الكلية وعاد احمد الى الغرفة، وأخذ يقرأ كتابا، ولم ينزل الى الصالون الا حينما عاد سلمان.
- ومضت الأيام متعاقبة، متماثلة، واحمد ينتظر الظهيرة ليقرأ الصحيفة التي يجلبها سلمان. وفي الامسيات يكون الجميع في الصالون، يستمعون الى الراديو، ويتبادلون الاحاديث. وبين فترات متباعدة كانت ام احمد تزوره وتجلب له شيئا تحت عباءتها. ولاحظت ام سلمان ان احمد يخفض بصره دائما عندما يتحدث مع ابنتها او حين تصبح امامه، وكانت الفتاة هالة مقدسة، يستطيع ان يراها بدون ان ينظر نحوها، ولكنه يحجب صورتها ويحميها، وحين يصل صوتها احيانا اليه في الغرفة، يمعن في القراءة ويحس ان دفقا من الامان يحوطه.
- وفي صباح مبكر، أسرع احمد وسلمان بالخروج من المنزل، ثم سمعت الفتاة تصيح وهي قرب الراديو:
- الثورة... انها الثورة.
ونظرت الام الى ابنتها، وازاء الفرح، تملكتهما معا لحظة هلع. وفكرتا بالرجلين اللذين خرجا للمشاركة بالثورة، وعاد سلمان وحده في المساء وهو يحمل بندقية، وسألته أمه:
- اين احمد؟
وانتظرت الفتاة جوابه، وضحك سلمان:
- مر على منزله، انه لم ير أسرته منذ ثلاثة أشهر.

- وفاجأت أم سلمان ابنها بعد أيام:
- اليوم جاءت أم أحمد خاطبة لأحمد.
 - وخفض سلمان رأسه وأجاب:
 - أعلم ذلك.
 - ما هو رأيك؟
 - ورفع سلمان رأسه ونظر إلى أمه وإلى أخته التي اختفت:
 - انني موافق.
 - وانبثقت افراح عديدة..

* * *

أشـنات*

ابتسم الاقطاعي لبنات الفلاح الثلاث، الذي مات منذ شهرين،
وكانت مساومته معهن قد نجحت، واثنين راضيات لشروطه وقبلن ان يكن
خادمات في بيته مقابل ان يعيشن في أرضه.
وتأملن برضا وتخيل اشكال أطفال سيكونون بعد شهور .

* * *

* نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 24 آب 1977، العدد 466، مع قصص:
الوهج، الأعمدة الخشبية، الاقتحام، دروع، بيت بعيد، وثغوب.

الأعمدة الخشبية

جلس في الشرفة المرتفعة وكان البحر يمتد متقوساً، وبدأ من بعيد أعلى من الساحل، ورمق الشارع الجميل ثم عاد ينظر الى البحر.
وتذكر صديقه في مدينته البعيدة الذي حاول ان يثنيه عن الانتماء الى منظمة فدائية، وذكره بالبيت والأسرة و الأصدقاء، لكنه سافر وبقي صديقه في يقينه بأنه لن يعود حياً، و لن يفترق جسده عن التابوت.
وابتسم بسرور.

* * *

الافتحام

تحرك شبح أمام النافذة، ولم تواته شجاعته على النهوض والتفرس في الظلام. واقترب الشبح من النافذة ووضع يديه على الزجاج ونقر بأصبعه. ولاح له ان للشبح شعراً طويلاً، واتضحت الصورة تدريجياً، لكنها ظلت مختلطة فلم يصدق وهو في خوفه، ان يكون الشبح امرأة. واستمرت الإشارة تدعوه، ونهض مرتعداً واقترب من النافذة، وشاهد جارته التي تيقنت من نوم زوجها. وقفزت من فوق الجدار الذي يفصل بين منزليهما. كبر حقه نحوها، وسحب الستارة وهو يرتعد وحجب تماماً. وعندما تمدد على فراشه، لم يزاوله خوفه، رغم انقطاع النقر على النافذة منذ وقت طويل.

* * *

دروع

فتح الرجل العجوز عينيه وشاهد اقاربه المحيطين بسريره بعيدين
جداً.
وأغمض عينيه، ثم مات.

* * *

بيت بعيد

لم يكن الرجل يحمل ضعيفة لزوجته عندما ضربها بالمطرقة، لكنه ثار فجأة عندما شتمته، وها هي ذي راقدة في المستشفى حيث اقتادته الشرطة. ووقف الطبيب في الجانب الثاني من السرير يراقب وجه الزوج. ولم يقل الزوج شيئاً، وانتظر مع الآخرين تعليق الزوجة على سؤال المحقق:

- لماذا شتمته؟

وأجابت بوهن:

- أكرهه

وعاد المحقق يسألها عن سبب كرهها له، ولم يظهر عليها أنها تأبه للزوج وأجابت:

- لأنه يحبني

وتراجعت الانصاف العليا المنحنية للرجال الى الوراء ثم انحنت تتبع صوتها:

- انني أكرهه لأنه يحبني، لهذا شتمته.

صمت الجميع وهم ينظرون الى المرأة التي تهشم رأسها وهي تطبق علينا.

وأشار الطبيب اليهم ان ينسحبوا لأنها أصبحت متعبة لا تستطيع الكلام. خرج الجميع وأغفت المرأة.

* * *

ثقبوب

في المرة الاولى التي ذهبت فيها الى حفل، هلعت عندما راقص زوجها ابنتهما، ورضخت في المرة الخامسة لإلحاح الاصدقاء عندما طالبوها ان تشرب قدح بيرة وهي تتذكر بمرح كيف ضربها ابوها قبل ان تتزوج حين رفضت ان تلبس النقاب واكتفت بالعباءة. ومالت نحو زوجها وهمست:

- سأسكر.

وكان الزوج لاهياً يراقب الشباب الراقصين ويبدو حريصاً على الا تفوته متعة فيما بعد، وأجابها:

- اسكري

وكان الرجل ينظر الى الفتيات، وكانت هي تنظر الى الرجال، ولولا ابنتهما التي تجلس بينهما، لاعتقد من يراهما انهما لا يعرفان بعضهما.

* * *

الفقصة

انت تتذكر ايها الرجل، امرأة، كنت حميم العلاقة بها قبل سنوات ولم
ترها بعد ذلك أبداً. آه. انك تختبئ بين أطفالك وامراتك سليطة اللسان. انك
تختبئ كالقنبرة، لكنك لا تدري ماذا تفعل ايها الذئب الوديع.
وينظر الرجل الى امرأته وأطفاله الصاخبين ويعجب من تورطه في
الامه.

آه ايها السادة والسيدات، كم منكم انقلب الى ذئب وديع بعد زواجه؟
ويبقى يحلم وسط غابة الذئاب الوديعه.

* * *

أبواب مضاعة.. أبواب مغلقة

عندما فتحت باب السيارة أخيراً، وقيلت ان تمضي مع الرجل، لم تابه بنظرات صديقتها التي رمقتها وراحت تصفر .
ومضت ترتب اجوبة عن الاسئلة التي تطرح عليها وهي تختصر في ذهنها الرجل الذي لاحقها بسيارته حتى أصبحت معه
ونظرت الى جانب وجهه المبتسم، وارتعشت. واثبتت ندم عميق في داخلها لمجيئها معه، وأرادت ان تهرب، لكن السيارة أصبحت بعيدة عن المدينة.

* * *

طاحونة

تتأهب الحارس وهو يحمل بندقيته، وينظر الى الحقائق السوداء
ويستمع. وتوقفت سيارة أمامه، وفتح سائقها الضوء الداخلي وشاهد امرأة
جميلة. ناداه السائق وهو يشير الى المرأة:

- خذها

وفتح الباب ثم دفعها وتحركت السيارة وصرخ الحارس:

- قف، قف

ورفع بندقيته ولكنه تذكر الاوامر فخفضها ونظر الى المرأة حائرا.
وسمع صوت السيارة تدوي بعيداً.

* * *

رجال الثلج*

كان الجنود معزولين في القمة، بين الثلوج منذ أربعة أيام، ومضى الضابط يتسلق الجبل زاحفاً ويدوس الثلج برفق، وأصبح بين جنوده الذين جاؤا من الجنوب المغلي بالشمس الحارقة.
وتذكر مدينته الفراتية التي زارها قبل أيام والنهر الأخضر الغامق العفن واسراب الدود الأصفر على سطحه الراكد وزهوره اليابسة في حديقة منزله الصغير.
وعبر مرح جنوده المعزولين في القمة، سمع بغثة الماء المتدفق ورأى الزهور الملونة تتفتح في كل الامتدادات.
ولمس العراق.

* * *

* يذكر ان القاص خالد الراوي اراد ان يسمي مجموعته الرابعة رجال الثلج بدلا من العيون.

صدى

هدرت الاغاني الحماسية في مكبرات الصوت ووصلت صاحبة الى
العجوز الذي ابتسم ساخراً والتفت الى زوجته قائلاً:

- الى اين سنصل؟

وهزت زوجته رأسها مؤيدة، وان لم تسمع ما قاله بوضوح.
وكان العجوز لا يخرج من منزله ولا يزوره سوى بعض اصدقائه
القدامى ويدور حديثهم عن ذكرياتهم في العهد القديم ويقارنون بها كل احداث
العالم التي تخطر ببالهم.

وعاد يصيح بصوت اعلى:

- اين نذهب؟

وبادلتة زوجته نظرات القلق والانزعاج. وحملق العجوز في
زوجته ثم سد اذنيه بسبابتيه وفعلت هي مثله.

* * *

توهجات

- انحنى القاضي منصتاً الى الفتاة وهو يسألها ان كانت تقبل بالسيد
ب. ع. ع زوجاً لها، وسمعتها تردد بخفوت وحياء:
- نعم، واستدار عائداً الى الغرفة ومضى يوقع في دفتره، وتبادل
الجميع التهانى.
ورن جرس الباب ونادى والد الفتاة ابنه الكبير:
- انظر من بالباب؟
وعاد الابن الكبير هلعاً:
- انهم الشرطة
وقفز والد الفتاة منذهلاً وهو يتسائل:
- ماذا يريدون؟
وردد ابنه:
- لديهم امر بالقاء قبض.
وارتسم الذعر على الجميع وشحب وجه العريس. ووقف ضابط
الشرطة في باب الغرفة ثم اتجه صوب السيد ب. ع. ع وقال له:
- انت مقبوض عليك.
ونفض الشاب محاولاً ان يجد منفذاً له، لكنه أذعن أمام العيون
المحدقة به. وسأل والد الفتاة الضابط:
- ماذا فعل؟ ماذا فعل؟
وضحك ضابط الشرطة:
- ألا تدري ماذا فعل؟ يبدو عليك انك تحاول ان تسخر مني..
انه... إنه امة عربية واحدة!
ثم أمر السيد ب. ع. ع:
- تقدم
وابتسم ب. ع. ع. وخرج من الغرفة وسمع صوتاً نسائياً يتعقب رجال
الشرطة:

- يا قنلة الافراح
وجمع القاصي اوراقه، وهو يتمتم، بفرع، آية قرآنية.

* * *

الفرن

اتسعت حدقتنا السائق في الاصطدام المباغت للحظة واحدة ثم
انطفأنا، واخرجوا جسده من سيارة الأجرة التي يسوقها.
وحام صاحب السيارة حولها وراح يحسب ما سيكبده اصلاحها ولعن
سائقه الميت.
وفي منزل مهدم، وقفت امرأة السائق وأطفاله يبكون حول الجثة.
واستمرت الحياة في بغداد.

* * *

الشبكة

حاولت الفتاة ان تروغ من ابيها، لكنه ارغمها بنظرته الصامته الصارمة:

- ادخلي وحييه.
- ودلقت الفتاة الى الغرفة وجلست بجانب الرجل الذي وافق عليه الاب زوجاً لها، وإنشا الاب يرقبها متوعداً.. وسمعت الرجل:
- ما شاء الله.
- ووضعت اصبعها في فمها، وضحك الرجل:
- تحدثي يا امرأتي.
- واستدارت وأصبح وجهها قريباً من الرجل، وبغثة تقيأت على وجهه واندفعت هاربة.
- ووقف الاب يعوي وسط الغرفة..

* * *

دوائر

حاول السائق العثور على الطريق الذي اضاعه في الصحراء
الشاسعة ثم أعلن عن نفاذ الوقود، وأطفأ المحرك. واتفق الركاب الخمسة
على السير في اتجاهات مختلفة، وعند عثور احدهم على علامة تدل على
الطريق يعود الى السيارة. وانطلق الركاب واختفوا جميعاً في الأفق، ثم
عادوا تبعاً، بعد ساعات، وهم يلهثون من العطش، وارتموا واحداً بعد
الأخر على ظل السيارة ثم ازدادوا التصاقاً والشمس النارية تحوطهم.
وراح سراب كل واحد منهم يخترق سرابات الآخرين.

* * *

المدخنة

تفحص الشاب الآتي من القرية الصغيرة النائبة فتيات العاصمة
باسى، وتذكر فتيات قريته اللاتي لا يمكن مقارنتهن بهن.
وأمن الشاب المعدم انه لن يعرف فتاة جميلة وانيقة او يتزوجها في
يوم ما.
وانعطف الى درب خال وخلع حذاءه وراح يضرب به رأسه بقوة.

* * *

شرارة

فتش الهارب عن مخبأ يتوارى فيه، وأصوات ونداءات تطارده في
الازقة المتشابكة وهي تعلو خلفه كلما ابتعد عنها، ووجد باباً موارباً فدخل
عبره وأقفله، وتوقف في الممر المعتم يستجمع أنفاسه اللاهثة، وارتاعت
امراة لمحتة من باحة المنزل وهتفت:

- من بالباب؟
- وتقدم الرجل خطوات ثم توقف وأعلن:
- أنا.
- ونادت المرأة زوجها الراقد في الغرفة، وسأله بريية:
- ماذا تريد؟
- انهم يطاردونني.
- وتقدم منه الزوج
- انت هارب؟ هيا اخرج.
- وهز الهارب رأسه يائساً، وطوقه الزوج واندفع به صوب الباب
- وقذفه الى الخارج.
- وتعالت الصيحات المنتصرة قرب الباب وعاد الزوج الى سريره
- ضاحكاً.

* * *

الغرق

كان مجده في الحياة انه أصبح مديراً قبل ان يحال على التقاعد، ولا يني عن ثناء جهوده في تلك الأيام الصعبة ويردد دائماً انه وضع اسس مديرية ما زالت تعمل حتى اليوم.

- عشرون سنة.

كم هي طويلة تلك السنوات التي جلسها في بيته وكم راودته فيها الاضابير والتواقيع والاوامر والنصائح.

وتأق قبل ثلاث سنوات الى زيارة (مديرته) لكنه تاه في اروقته، ولم يعرفه احد سوى فراش عجوز، ولم يبح لنفسه ان يتوقف ويتبادل معه الذكريات.

وخابت امانيه في ان يسمع يوماً بابه يطرق ويستشار في معاملات الدائرة. لقد نسيه الجميع.

* * *

رياح ليلية

تمر الأجساد بطيئة متلفتة عبر الجدار، لتبصر شيئاً وتتلكأ متعذرة بسقوط شيء، أو اختلال يسير في الثياب، ثم تمضي، وتود لو يتاح لها أن تضع مرافقها على الحائط وتراقب المنزل إلى الأبد، ولكن هناك أنظمة واعرافاً، تجعلها تتحرك مبتعدة، ثم تعود مرات أخرى.

في الدار امرأة حسناء وحيدة، يقال أنها ممكنة بالرغم من أن أحداً لم يصل إليها. وهي تبدو أحياناً في الحديقة بثوب شفاف. وعندما تخرج إلى الشارع تتجمع الأعين على فتحة صدرها، وأجساد تتحرق إلى أن تنفض عليها، وأحياناً يقرع بابها، ويسأل جسد سؤالاً باهتاً، فتجيب عليه ببرود فيمضي. وأحياناً يقرع في الليل ويتلقى الجسد بصقة على وجهه فينصرف مذلاً.

* * *

رياح ليلية ، رياح ليلية

المرأة في المنزل، تتحرك بين الغرف، او تتفرج على مجلة، ثم تستمع الى الصمت الذي يملأ المنزل، فتلقي نظرة من الشباك الى الشارع، وتبصر أحد الملتكئين قرب الجدار، وهي تعرفهم جميعهم، فقد مروا مئات المرات، مئات المرات، مئات المرات.. وأصبح مرورهم عادة. وهي تنتشي عندما يطيل احدهم التردد، لكنها تكره أجسادهم، ولعلها تكره اي شيء مألوف لديها ويتقصدوها. وهي تعرف بدقة، الاوقات التي تمر فيها أجساد كثيرة، فتخرج الى الحديقة بثيابها الشفافة، ولا تنظر أبداً الى جهة الجدار. وعندما تتأكد ان العيون تملت بها، تدخل الى الدار وتختبيء خلف النافذة وتراقب بشغف، الأجساد الهائجة المتوثبة وراء الجدار.

* * *

رحلة فوق التلال

رأيت عبر باب التلفون الزجاجي، امرأة ، في نصف عمرها تبتسم بعد ان كانت تنصت الى الحديث المتسرب من فتحة الباب العاطل، وسحبت هي الباب وقالت متسائلة بعيد:

- كنت تتغازل؟

وفاجأتني عبارة المرأة التي لم اكن أعرفها سابقا، وتحول احتجائي الى يدي فقرصتها في فخذاها وتراجعت خطوة الى الوراء، وقالت:

- ما هذا؟

ولم يكن غضبها صادقا كما انني لم اخف... وتراجعت المرأة، وغادرت مبنى البريد بدون ان تستعمل التلفون. ولبيت انظر الى الموظفين المنهكين وراء المناضد العالية والستارات الزجاجية وتيقنت ان احدا لم ينتبه الى فعلتي، وغادرت المبنى.

فتماسكت وانا اتوقف بجانبها وبادرتني:

- كيف جرؤت على ذلك؟

- انت اثرتني

وتلفتت ثم سألت بعجلة:

- هل لديك مكان نذهب اليه؟

وتحركنا، وانا أتأمل ملامح وجهها، لاكتشف ذلك الملمح المشترك الذي يرسم على وجوه العاهرات.

وانتهيت وحذرتني:

- انني امرأة محترمة

فكانت هي سيدة فعلا بمشيئها المتتدة ووجهها الوقور، ولكن فضيحتها في صوتها الأبح.

وصعدنا سلم العمارة، ووقفت خلفي عندما قرعت الجرس.

وقلت لصديقي:

- معي امرأة
وأدخلتها غرفة النوم، وعدت الى صديقي المرتبك وبادرته:
- انها صديقتي
وضحك ساخرًا:
- من اين لك هذه الصديقة، لم أشاهدها من قبل ولم تتحدث عنها يوماً
وهي أكبر سنًا منك.
ورجوته:
- انها صديقتي
وأذن بخيبة وعدم تصديق.

وذات يوم، ونحن نمشي في الطريق قلت لها:
- تعالي هنا، هذا بيت صديق.
وتبعنتي. وحين أصبحنا في البهو، وجدنا مجموعة من الرجال الريفيين
متكورين بعباءاتهم، ولم نستطع التراجع. وسمعت صديقي يهمس:
- انهم أقاربي.. هل هي..
وعاجلته:
- انها صديقتي
وخفت صوته:
- احذر منهم، فهم يبحثون عن امرأة.
ونهض أحدهم وأمسكها من ذراعها ، ودفعها نحو غرفة النوم فتعلقت
بعباءته:
- الى أين؟
وأجاب ببرود:
- المسألة واضحة.
فأجبت بحدة:
- انها صديقتي، ولن أسمح لك بلمسها

ونظر الي ثم الي جماعته، وأطبق عليّ وأخذ يدفعني.
وتلفت مستجداً بصديقي الذي اختفى.
وفتح الرجل الباب ودفعني الي الخارج. ولمحت من خلال الباب قبل ان
يقفل، الرجال الخمسة ينهضون وينقضون على المرأة.. وتتأهي صوتهما
المتراخي يستجدي بي. وأمنت ان الباب لن يفتح مهما قرعته. وابتعدت دائماً
بالهوان والغضب.
ثمة حياة جديدة، غير مألوفة، تنبثق في المدينة، والأخلاق الزائفة
المستهترّة تعلن عن تحديها، ومن يستطيع وقف الانفجار داخل الإنسان؟
وحين ذهبت اليها، معتزراً، ابتسمت وقالت أن لا بد لي في الأمر.
وكانت قد لاحظت النظرات المختلطة بيني وبين الصغيرة المعذبة،
ودفعتني لتوثيق علاقتي آملّة ان أتزوجها.
وهجست، فيما بعد، ان الفتاة ترتاب بعلاقتي مع أمها، رغم أنها لم
تشاهدها في وضع يتعدى جلسة الجيران الأليفّة.
وذاّت يوم منحنتي الفتاة فرصتي في اتخاذ موقف حين عادت عصراً من
مدرستها. كنت جالسا مع أمها في الصالة، وبعد ان دخلت تلبّثت قليلاً معنا
ثم أعلنت انها ذاهية الي الحمام.
وسمعنا باب الحمام ينقل، وهرعت الأم الي باب الصالة وأوصدته ثم
تمددت الي جانبي.
وفجأة، اندفع باب الصالة، ووقفت الفتاة منذهلة، تحدق اليّ ثم صرخت
بهستيرية:
- ماما، ماما
وهوت مغمياً عليها.
وتخطيت جسد الفتاة وصممت عليّ قطع علاقتي بهذا المنزل الي الأبد..
وعندما ابتعدت أحسست اني أتحلرر من قرفي المستجد.

* * *

انهماكات

تدلى الفتى في أساس المجاري المحفورة حديثاً، وهيظ الى القاع وسوى كمية من التراب وجعلها وسادة ثم فرش فوقها جريدة، وتمدد. وشعر ببروده أرخت جسده. وكانت المجاري ملأذاً بعد ان خرج من أسرته. وتوقف حارس ليلي بجانب الأساس وراح يتبول فوقه، وانستفض الفتى وانزوى مبتعداً. وعندما انصرف الحارس بقي الفتى متصلياً في جلسته.

* * *

الغرق... الغرق

أقل الموظف القديم باب داره، وتشدد مع أفراد عائلته في الخروج عندما سمع نبأ تأمين شركة النفط التي يعمل فيها. وتناهت اليه أصوات المظاهرات التي تطوف في المدينة ولعلعة الرصاص الذي يطلقه المتظاهرون ، غزيراً لا يتوقف. وانبتق خوف ارتج من أعماقه عندما تذكر التقارير التي كتبها حول عمال عديدين، فصلوا وسجنوا إثرها. وعندما انتبهت زوجته في الصباح الى أنه لم يصح في موعده، حاولت إيقاظه، ولم يستيقظ، وكان قد مات قبل ساعات بالسكينة القلبية.

* * *

مصرع...

فتح الراكب باب الباص الأمامي ونزل وانحنى انحناءة خفيفة لرجل الدين
وطلب منه ان يأخذ محله، واعتذر رجل الدين وهو يلتفت في رغبة
السيارات، ووافق عندما وجدها خالية.
وتراجع الراكب الى الظل ينتظر سيارة أخرى الى الجنوب. وانطلق
الباص وركابه.
وأرجع رجل الدين عمامته قليلا الى خلف رأسه، وارتفعت دعاءات
الركاب.
وانسرب الهواء اللاfach داخل الباص المتموج في سيره. وحين مرت
السيارات فيما بعد ، وجدت الباص منسحقاً ومقلوباً على الجهة الأخرى،
وثمة لوري تهشمت مقدمته على جانب الطريق.
وقال رجل شرح للعابرين أن سائق الباص أصيب بنوبة قلبية قبل
الاصطدام.
وحقق الراكب الذي تولى عن مكانه، في الجثث المهشمة، ورأى جثة
رجل الدين.. وغمره حزن وفرح هستيريان.

* * *

سحب

وضع حقيبة السفر على الأرض ونظر الى المدينة:
الى المحلات والشوارع والسيارات والعابرين وبحث عن وجوه النساء.
كان متعباً وعرقاً. ورفع حقيبته ومضى يبحث عن فندق، ثم دفع باباً
وصعد.

وحين دخل الغرفة ارتدى على الفراش بملابسه.
وتطلع من خلال النافذة الى العمارة التي تواجهه والى شبايكها المفتوحة
والمغلقة.. وبدأ يتذكر وطنه الذي تركه وهو لا يعرف ما سيفعله.
وانتبه الى نافذة انفتحت وأطل منها وجه طفل نظر الى أسفل ثم تراجع
وأقفل الشباك.
وانقلب الرجل الى الجهة الثانية وحقق في الجدار، وغمره إحساس عنيف
بأنه تائه.

* * *

اختناق

جلس العجوزان، الرجل وزوجته، صامتين على الدكة العليا، وحدق الرجل مكثوفاً في الوجوه التي تمر أمامه، ثم خفض رأسه عندما خلا الطريق في الليل، والتفت الى زوجته وقال لها برفقة:
- لندخل.

وتوجهت المرأة الى غرفة طينية ملحقة بالمقهى هيئت كغرفة نوم. وجلس الرجل على تحت يقابل الباب الأمامي ينتظر عودة أولاده الذين انجرفوا مع آخرين واخترقوا الحدود الى الخارج.
وعندما أقفل المقهى نهض العجوز وتلمس طريقه،
ثم تمدد الى جانب زوجته، وظل يقطاً يتسمع الأصوات في الظلام.

* * *

الصحراء

دوت مكبرات الصوت بالأغاني الحماسية ووصلت صاحبة الى العجوز
الرجعي الذي ابتسم ساخراً والتفت الى زوجته قائلاً:
- انهم يهدمون البلد.

وهزت زوجته رأسها مؤيدة وإن لم تسمع ما قاله بوضوح.
وكان العجوز ينفر من الصحف المحلية والتلفزيون وينصت الى محطات
الإذاعات البعيدة، ولا يزوره سوى بعض أصدقائه القدامى ويدور حديثهم
عن ذكرياتهم في العهد الملكي ويقارنون بها كل أحداث العالم التي تخطر
ببالهم.

وعاد يصيح بصوت أعلى:

انهم يؤذوننا.. اين نذهب؟

وبادلته زوجته نظرات القلق والانزعاج.

وحملق العجوز في زوجته ثم سد أذنيه بسبابتيه.

* * *

انحناءات*

تمشى في الممر مترقباً انطفاء الضوء الأحمر الذي طال اشتعاله فوق باب صالة العمليات وتذكر انه سمع مرة ان حذاء الإنسان اذا كان مقلوباً فمعناه انه سيسافر، فهل ستسافر زوجته؟.. وكان قد شاهد احد نعلي زوجته مقلوباً قبل اجراء العملية، وعجز عن السخرية من فكرة الحذاء المقلوب، وأسرع يقطع الممر جيئة وذهاباً، وود لو ينحني ويقلب الحذاء، ثم ردد:

- لن يتغير شيء.

وظلت طفلته التي وضعها في بيت اخته، ماثلة في ذهنه، تنتظر تبيتمها.

وانفتح باب الصالة أخيراً، وخرجت ممرضة تحمل شيئاً ملفوفاً، واندفع يتفرس في اللفة وبادرته الممرضة وهي تسرع:
- ولد... مبروك... والام بصحة جيدة.

واتسع فرحه وهو يراقب اختفاء الممرضة بالطفل. ونظر الى الممر الخالي والى الحذاء المقلوب وتمنى ان يرفعه ويقلبه.

* * *

* نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 9 كانون الثاني 1985، العدد 850.

طيور*

أزت الريح وهي تعبر من فوق مكمته المرتفع على رأس جبل،
وازداد التفافا ببطانيتها وهو يرهف سمعه، ونظر الى الغيوم المتقطعة التي
بدت وكأنها تقترب منه. وتذكر ابنته الصغيرة التي تشبثت به وتوسلت اليه
ان يأخذها معه، ولم يستطع ان يملص من قبضتها الصغيرة التي تمسكت
بسترته. والحفت الصغيرة في توسلها به، واستجد بأمرها لكي تأخذها بعيدا،
فقد أزف موعد الرحيل. لكن الام اختفت في غرفة أخرى.

قال لها - سأخذك في مرة قادمة.

ورفضت الصغيرة، وذكرته بأنه وعدها بذلك في المرة السابقة. ولم
يكن يقدوره ان يقتلع قبضتها من سترته او ان يؤذيها، وجاءت الام
واحتضنتها وانطلق الرجل الى السيارة التي تنتظره.
نظر مرة أخرى الى الغيم الذي يقترب من مكمته ولمس طرف
سترته وودد لو يقبل طفله.

ارتطامات

نظر الى الافق البعيد. كان الصمت عميقا في تلك اللحظات، وحتى
الهواء والشمس والأرض كانت تبدو صامتة.
ونظر الى الأرض. وكانت أليات ما زالت تحترق: دبابات ولوريات
وعجلات صغيرة، ومئات من الجثث مسطوة وممتدة الى نهاية الافق. وكان
رفاقه يحدقون صامتين سويا وباتجاه واحد، وكان الرجال متعبين.. متعبين.

* نتناول القصص الثلاث التالية موضوع الحرب العراقية-اليرانية ونشرت في جريدة
الثورة، 1985/1/12.

اقمار

عادت المرأة وهي تحمل لعبة صغيرة لابنتها، وتلقفتها الصبية الصغيرة وراحت تستعجل فتح اللعبة. وقالت لها أمها:

- سأجيء لك كل يوم بلعبة.
- ولمست شعر الصغيرة وأحست بدمعات تتدحرج على خدها.
- لقد رحل الأب: استشهد قبل أشهر.

واحتضنت طفلتها، وكانت الطفلة منشغلة بلعبتها الجديدة ولم ترفع رأسها إليها.

ودلفت الأم ونظرت في المرأة ومسحت دموعها، وانتظرت ان يطفو بياض عينيها.

لكنها بكت من جديد.

* * *

قصص عن المعركة*

1. النابض

مضت ارتال الشاحنات العسكرية تنوي وتثير زوبعة من التراب على الطريق الممتد في أفاق الأرض المتموجة، وهي تحمل دباباب الى الجبهة. وحاول سائق الشاحنة الاولى ان يحدد استقامة الشاحنات التي تتبع شاحنته، وكان يرى حزما من التراب المتفجر يعلو ويعلو، ثم يعود ينظر الى السيارة (الجيب) التي تقودهم وراح يندن باغنية يحبها ونقر عدة مرات على مقود السيارة، وتحسس جيب قميصه ولمس صورة أطفاله الثلاثة، وكف عن الغناء برهة حين انبتقوا في ذهنه وسرعان ما انتبه الى انه اقترب كثيرا من السيارة (الجيب). وعاد يغني من جديد وببطء ومضى يرمق الشاحنات التي تسير خلفه.

واستدارت السيارة الصغيرة في منعطف طويل وتبعها الشاحنات ووجد الرجل نفسه أمام ارتال من الشاحنات والدبابات والسيارات المصفحة. وسمع دوي الانفجارات يأتي من بعيد ومضى يبحث عن مكان يقف فيه، وعاد يغني من جديد.

2. الرفاق

لم يتمكن من تجنب المرور في ذلك الطريق الذي يضم بيت رفيقه الذي استشهد منذ اسابيع. اجتاز الطريق لكنه عاد والتف من الطريق التالي ودخل من الجهة الأخرى، وكانت خطواته تقوده. لقد عاشا سوياً في نفس الوحدة العسكرية، وكانا صديقين متلازمين وقاتلا سوياً وكان احدهما يرعى الآخر.

* نشرت القصص الثلاث التالية عن الحرب العراقية-الأيروانية في جريدة الجمهورية، 1985/9/7، العدد 5846.

اشتدت دقات قلبه وهو يقترب ورأى ابن صديقه الوحيد يقف عند الباب ولم يستطع التحرك. وأشار الى الصغير ان يقترب وقال له:
- احمد، تعال.
ارتجف الرجل وهو يلتقط الطفل بين ذراعيه وفجأة اجهش بالبكاء وهو يجلس على الأرض والطفل بين يديه.
ومرت سيارة ضخمة يعلو منها الغناء وهي تتابع فتاة وحيدة في الطريق.
وظل المقاتل ينسج.

3. أمسيات أخرى

أقفلت الباب وكانت متعبة لا تكاد تقوى على الوقوف فقد امضت وقتاً طويلاً تنتظر أمام الباب ابنها الذي حان موعد عودته الشهرية من الجبهة لكنه لم يظهر بعد.
قالت بصوت مرتفع:
- سيجيء، سيجيء.
ولم تقنع بما تقول. وشعرت بشيء من القلق، وصاحت ابنتها من غرفة جانبية :
- هل ناديتني؟
ولم تحفل بالرد عليها، فقد كانت مشغولة تترصد الطريق من جديد.
- ربما لم يجد سيارة، سيأتي غداً حتماً. ولم يتخفف قلقها.
- بل سيجيء الليلة.
وجاءت ابنتها وقالت لها :
- انك تفعلين نفس الشيء كل شهر. انت تعلمين انه سيجيء.
وأرادت الام ان تبهرها، لكنها لن تقوى على ان تكون قاسية. وسحبها ابنتها من يدها واجلسها على كرسي في الصالة .

وسمعتنا صوت سيارة تتوقف في الشارع. وهرعت المرأتان الى الباب، كانت جارتهم تهبط من تلك السيارة.
وعادت المرأتان الى الصالة، وكان الوقت يمضي بطيئاً وهما تتسمعان أصوات السيارات.

* * *

شَطَط*

وأخيرا وجد نفسه يمشي تاركا المدينة المضيئة وهو يحمل حقيته الصغيرة التي وضع فيها كل ما يمتلكه في الدنيا، ووصل النزل القصي الذي كان يعرفه منذ أمد بعيد، واستأجر آخر غرفة في الممشى. أقفل الباب ووضع حقيبته على الأرض. واستمتع بالمتعة والهدوء وهما يملآن الغرفة، وكاد يغني لأنه اطمأن لأول مرة بعد ان ابتعد عن الناس الذين يعرفهم والذين تحولوا مع الوقت الى مطاردين له ليل نهار، كانوا ينظرون الى ساعته ليعرفوا الوقت ويمدون ايديهم في جيوبه ليحصوا نقوده ومنهم من كان يقلب ملابسه وآخر اوراقه واحس ان الكثيرين منهم يتمنون لو كان نفق يكفيهم ليدخلوه ويروا ما في عقله ومعدته واحشائه وتجاويف عظامه واعماقه..

واقترب من الستارة ورفعها لكي ينعم بنظرة الى أيامه الجديدة، ورأى جميع من يعرفهم يتكدسون تحت النافذة وبعضهم يوشر بيديه والآخر يتحدث ومنهم من يضع السلالم لكي يصل الى النافذة. اسدل الستارة، وأقفل الباب، وارتمى على السرير.

* نشرت هذه القصة والأثنان اللاحقتان في مجلة الف باء ، 28/2/1990 ، العدد 1118.

افق مستطيل قد يشبه التابوت

قال لصديقه وهو ينظر الى ساعته حاسبا للثواني والمسافة المتبقية الى بيته، يجب ان اكون هناك بعد سبع دقائق، فهي لا تفهم اي تبرير للتأخر.

ضحك صديقه ومازحه: لقد انتهت أيامك الجميلة، وافترقا، وابتسم الرجل وكلمات صديقه تنبعث في رأسه وتملاً حنجرتة: انتهت أيامك الجميلة، لقد انتهت منذ زمن طويل. واقترب ببطء من المنزل واعتقد للحظة ان المنزل يبتعد عنه، ودمدم بمرارة.

اخشى ان تقضم اذني ذات ليلة وانا نائم او تنهش كتفي.. متى كانت لي أيام جميلة؟

ونظر الى ساعته، وثقت أمامه دقيقة واحدة. وأصبحت امرأته أمامه، ولم تعره اهتماما واتسعت شفاهه بابتسامة، وكان يتمنى في اعماقه ان تمحي.

غابات بعيدة

احس انه متعب الى الحد الذي تمنى فيه ان تنتهي حياته فجأة. وكان جالسا على مصطبة حجرية يتأمل السيارات الفارهة والمارة والبيوت.. وكانت الشمس تتوهج في السماء. كانت السيارات تعبر وفيها نسوة جميلات. ولم يستطع ان ينكهن اين ستتوقف تلك السيارات واين سيذهب ركابها؟ وكان المارة يعبرون متقاطعين من جهتي الشارع، ولم يتمكن ان يعرف اين سيذهب كل هؤلاء الناس؟ وكانت البيوت تبدو هادئة لا حياة فيها. وشعر ان رأسه يحترق. وأسف لانه لم تكن لديه مظلة في يوم من الأيام.

* * *

قصص بلا عنوان*

* معظم هذه القصص كتبت في التسمينات ولم تنشر على الإطلاق، ربما لخشية القاص من أساءت تفسيرها خاصة وأنه نعد الإشارة في بعض منها بشكل غير مباشر الى الممارسات الخاطئة في وقته.

(1)

كان الرجل الذي يعتد بأنه حكيم يخطط لأن يستمتع بحياته أكثر من الآخرين، فترك القراءة لكي لا يضمحل بصره قبل الألوان ولكي يرى أجمل ما في الحياة، ولم يعد يعبأ بأن يسمع الأشياء التي لا تعنيه حقاً لكي يحافظ على قوة سمعه، وحاول قدر الإمكان أن يأكل ما يلزمه ولا يتعب معدته وهكذا بنى منهجه في الحياة.

وفجأة تغير كل شيء، فحين كان يسوق سيارته عبرت سيارة من الجهة الثانية وضربت سيارته، وحين أفاق في المستشفى وجد أنه فقد أصابع يديه وكسر ظهره ولم يعد يقوى على إمساك شيء أو يتحرك. وحين فكر في مستقبله، أيقن أن كل شيء قد ضاع. وتمنى لو عادت له أصابع يد واحدة.

* * *

(2)

لم يكن يحب أن يؤذي الآخرين لكنه كان مولعاً بالضحك عليهم حين يربكهم ويرتب لهم مصائب صغيرة. وكان يبالغ أحياناً فيؤذيهم من حيث لا يريد لهم ذلك.

وتبرع أحدهم ذات يوم ناصحاً له أن يكف عن مزاحه الثقيل، وفوجئ بكلمة (مزاح) إذ لم تخطر له على بال، وغضب كثيراً على صديقه وأراد أن يضربه لكنه خشي أن يفسر الضربة على أنها مزاح. وتركه، ثم ذهب إلى منزله في منتصف الليل وناداه. وحين خرج، أطلق خلفه عشرة كلاب هائجة راحت تطارده في المدينة الخالية.

* * *

(3)

كانت القرية برمتها ترمق ذلك المنزل الهائل على التل البعيد، وتحاول أن تصل إلى أجوبة واضحة عن الرجل الغامض صاحب ذلك المنزل والذي لم يره إلا قلة من أهل القرية مرة أو مرتين عندما جاء قبل سنوات وشرع ببناء ذلك المنزل المسور والمعزول والذي لم يسمح لأحد أن يدخله. ومما يثير استغرابهم أن العمال الذين جيء بهم من مكان آخر لم يدخلوا القرية ورحلوا جميعاً واختفوا بعد إكمال البيت. وتناقصت التكهّنات بشأن صاحب البيت الغامض الذي كان يخرج بسيارته ويذهب بها في الاتجاه المعاكس ثم يعود في آخر الليل. وفقد أهل القرية صبرهم من كثرة الأسئلة والتكهّنات التي ملأت حياتهم وانفقوا على أن يذهب ثلاثة من أكابر القرية لزيارة الرجل واستكناه أمره، وحسبت القرية أنفاسها وهي تتابع الرجال الثلاثة وهم يتقدمون صوب البيت الكبير، ويطرقون الباب وذهل السكان حين انقلب الرجال المتزيّنين راكضين بأقصى سرعتهم. وتدحرج أحدهم وهم يتجهون صوب القرية وكانت صدورهم تكاد تنفجر حين هب اليهم أهل القرية. وبعد أن استطاع أحدهم أن يلتقط أنفاسه ليجيب عن أسئلة الجميع عما حدث.

التفت مذعوراً صوب البيت الكبير وهو يقول - عندما قرعنا الباب، فتحة حيوان مرعب الشكل لم نر شبيهاً له، وفتح فمه وأراد أن يقضم رأسي. وهز قبضته غاضباً ولعن أولئك الذين ورطوه بالذهاب.

* * *

(4)

كان الجمع المتشابه في ملابسه وسحناته يربت على كتفي الرجل، وبعضهم يضغط على عضلاته ويشدها بحنو، وراح اثنان يربطان تحت قدميه حذاء ترحلق.

امتأ الرجل من كلمات الاطراء التي كيئت له، وصار ينظر الى الأمام، في الطريق المنحدر الذي يستدير خلف صخرة شاهقة ثم يختفي. كان لا يعرف ماذا يكمن خلف الصخرة، وسمع البعض يقول له: مع السلامة.

وقبل أن يرد عليهم، دفعه الجمع بقوة، وانطلق الرجل في الطريق، والتفت لبودعهم، لكنهم كانوا قد اختفوا.

استدار الرجل خلف الصخرة، ولم يكن ثمة طريق، بل هاوية سحيقة. والتأم الجمع من جديد فوق الصخرة، وراحوا يتراهنون حول المكان الذي تلاشى فيه الرجل.

* * *

(5)

ارتج وهو يتلقى صفعة لم يعرف لها مثيلاً طيلة حياته، وظل مسمر العينين على الجدار، قال له الصافع: انظر اليه.
وأشار إلى رجل مكوم مرعوب، وحاول أن يدير رأسه بالقوة نحوه، وعاد الرأس ينظر إلى الجدار.
وابتسم الصافع وقال له: من المناسب أن تنتظر داخل رأس ذلك المكوم.
وتناول من زاوية الغرفة مطرقة ومسماراً كبيراً. وضع المطرقة في الكف اليمنى للرجل والمسمار في كفه اليسرى، وسحبه نحو الرجل المرعوب الذي تكور.
وضع المسمار على رأس المرعوب وأمر:
اثقب رأسه.
ورفع الرجل المطرقة وهوى بها، واندفع المسمار وكسر قحف الجمجمة واندلقت سائل.
وكان الرجل يحدق في عيني المرعوب الجاحظتين، وصرخته تنكسر، ولم يجد ثمة ما يمكن رؤيته داخل رأسه.

* * *

(6)

نهض الرجل من سريره وسط الظلام، وهرع الى المرأة بعد أن ضغط على زر الضوء، قرّب وجهه من المرأة ووجد أن عيناً جديدة قد ظهرت في جبهته، ولم يعد عقله يعمل، بل راح يراقب ظهور أنف في خده الأيسر واذن في خده الأيمن.

ورأى عدة أيدٍ تثبت من صدره وظهره وصار يتسع.
واستدار ليذهب الى الباب ويطلب نجدة، ولكنه لم يقو على الحركة.
وانطفأ الضوء ولم يعد يرى أي شيء.

* * *

(7)

جلس الرجل الذي يشبه المستطيل الصغير البدين ناظراً الى الرجل الآخر الذي يتحدث من بعيد.

وكان الرجل يحاضر عن فرصة استثمار أراضي الكواكب الأخرى في توفير غذاء كثير للجوع، وتململ الرجل الذي يشبه قطعة (الدومينو) وراح يتصور نفسه بأنه خروف وسط المراعي الخضراء في الكواكب الأخرى. وشعر بخدر يسري في جسده ولم يستطع أن يسحب نفسه من أيدي الذين سحبوه ولم يترك البدين في القاعة سوى (معمعة) متلاشية.

* * *

(8)

علق حقيبتيه الصغيرة على كتفه، وانطلق يمشي تاركاً القرية، عازماً على المضى الى أمام لكي يكتشف الأراضي البعيدة التي لم يسبقه إليها أحد من تلك القرية، وكان منتشياً مليئاً بالعزم للتقدم، وتحسس حقيبتيه ولمس زجاجة الماء والغذاء، ولمس مسدسه الذي وضعه تحت حزامه. واستمر يلفت خلفه كلما ابتعد، وكانت معالم القرية تتضاءل وتتضاءل. وأصبحت الأرض أكثر انبساطاً أمامه، وأخيراً اختفت معالم القرية واستطالت الأرض وانتهت في الأفاق البعيدة. وكان طير ضخم يطير ويحط بعيداً عنه، وتذكر قصته عن طير مفترس انقض على مسافر وصعد، وتلمس مسدسه وراح قلبه يخفق بقوة وهو يمضي الى أمام والطير الضخم يطير ويحط بعيداً عنه.

* * *

(9)

الذي لم يعد يمتلك أي شيء سوى كرامته انتفض الرجل غاضباً
وصاح:
لن أسمح لك ان تهينني.
وحدق اليه الرجل المقابل صاحب النفوذ بنظرة باردة وأجابه:
وماذا ستفعل لو مسحت بك الأرض؟
أجابه الرجل:
سترى ماذا سأفعل.
ولم يصدقه المقابل، ومد يده ليمسكه من أذنه ويسحبه، لكن الرجل هجم
على سبابته وعضها وأدار رأسه حتى قطعها.
وأمام صراخ المقابل، دخل الغرفة رجال كثيرون، بعضهم انحنى
ليخفف ألمه والبعض الآخر ليجمع أشلاء الرجل الذي كان معتزلاً بكرامته.

* * *

(10)

أراد الرجل المتنفذ القاسي أن يزيد من متعته، بعد أن استمع في صبيحة، كان مزاجه فيها رائقاً، الى بلبل يغرد من حديقة الجيران، فأسر الى سكرتيه المؤتمن برغبته في الحصول على بلبل. ودبر له السكرتير بلبلاً في قفص، وحدق المدير في البلبل وسأل سكرتيه: هل يغرد البلبل داخل القفص كما يغرد في الحدائق؟ ولم يجروا السكرتير أن يجزم وأجاب بتردد: اعتقد.

ومضت أيام والرجل المتنفذ ينتظر أن يملأ البلبل البيت بصوته لكنه ظل صامتاً. واقترب من القفص وهو ضجر وحدق في عيني البلبل بشزر وسأله بصوت غاضب هامس:

لماذا لا تغني؟

ولم يبد على البلبل اكتراث.

وازداد غضب الرجل المتنفذ وتمنى لو كان البلبل أحد رؤوسه لعاقبه عقاباً لا ينشأه طيلة حياته. وشزر البلبل ثانية، وحين وجده لا يكثرث، قلص قبضته ودمدم: أيها البلبل الحقير.*

* * *

* أذكر أن القاص اعتمد في فكرة قصته هذه من حكاية حقيقية رواها له حميد المطيعي في التسعينات. وتروي الحكاية طبيعة مدير الأمن العامة في السبعينات، ناظم كزار، الذي كان يتلذذ بقتل المحتجزين بسبب شعوره بالنقص لعدم قدرته على الأجاب. ويذكر أن كزار كان معادداً على رقة تمسيده للقطط، لكنه يلوي بعدها رقابها ويدقها بيده مما يولد له شعوراً بالأرتياح. وقد عمد القاص على إبدال القطه بالبلبل لكي لا يؤثر الشكوك نحو الشخص الذي ينتقده. (المحرر)

(11)*

ضغطت على جبهتها وهي تعاني من ألم في مقدمة رأسها، ولم يبرحها
الألم رغم ذهابها الى عدة أطباء وتناولها أنواعا عديدة من الأدوية. وكان
الألم يكاد يندلق من عينيها.

تذكرت نصيحة إحدى صديقاتها بأن تترك غرفتها المعتمة وبيتها
المنعزل وتخرج. واتجهت الى حديقة واسعة، وبينما هي تمشي بين الأشجار
سمعت لغطاً، والتفتت فوجدت جمعا من الرجال يخرجون من الأرض
ويهجمون عليها. فركضت. وكانت تطير من الركض. وحين عادت الى
غرفتها اختفت أوجاعها.

* * *

* نشرت القصص الثلاث الآتية في جريدة بابل، 13 تشرين الثاني 1993.

(12)

كان بوده أن يتعلم السباحة منذ سنوات لكنه لم يفعل، وفجأة وجد نفسه
في زورق صغير بلا مجذاف في وسط نهر واسع والماء محيط بزورقه
المتأرجح.
وهبت عاصفة من بعيد وصارت تقترب من زورقه الذي ازداد
تأرجحاً. وراح يصرخ بأعلى صوته طالباً النجدة من أناس ربما يكونون
على الشاطئين.
وكانت العاصفة شديدة تميد بزورقه ولم يعد هو نفسه يسمع صراخه.

* * *

(13)

ارتفق بكاحله على سياج سطح العمارة العالية، وكانت الأنوار تتلألأ في المدينة، وأضواء السيارات تتقاطع هنا وهناك، ولم يستطع أن يرى أحداً تحت.

وقال إن المدينة تبدو في الليل جميلة وهي بلا بشر، وأحس بيد تجتذبه بقوة وصوت يسأل:

- ماذا تفعل؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ وحاول أن يتملص منه وهو يجيبه:

- جئت لأتفرج على المدينة الجميلة.
وفاجأه الصوت:

- هل تحاول أن تخدعني.

ورفعه من وسطه وقذفه من أعلى العمارة ولم يعد أحد بعد ذلك الرجل يستمتع بجمال المدينة من سطح العمارة في الليل.

* * *

(14)

انزعج الشاب المنتفخ وهو يكبح موقف سيارته الفارهة، بعد ان ارتجت
فجأة، واصطدمت بشيء لم يره.
وولولت امرأة عجوز: ولدي الوحيد.
فتح الشاب المنتفخ باب السيارة، وراح الناس يسحبون جنّة القتي.
قال احدهم مؤكداً:
- مات.

وارتفعت أصوات النساء صارخات بقوة. ونظر الشاب المنتفخ الى
مقدمة السيارة ليرى اضرارها، ولم تكن واضحة، وعاد راضياً خلف المقود.
انطلقت السيارة وبقي الفقراء يصرخون في الطريق.

* * *

(15)

انفجارات، انفجارات. بروق من لهب ضيائي. أصوات طائرات تتقاطع
وتمضي. هدير متصل، دوي، دوي، حزم من أنوار تتفجر. ويحل الظلام
الدامس، ولا تعود الأنوار تبدو سوى في أعالي السماء، مصحوبة بانفجارات
متعددة.

يهب الرجل من فراشه، وينظر عبر النافذة إلى السماء، ولا يسمع هدير
الطائرات، ويرى آلاف الإطلاقات المتوهجة ترتفع عاليا.*

* * *

* أستوحى خالد الراوي هذه القصة من ذكرياته عن حرب الخليج عام 1991.

(16)

كان الرجل الثري يهلع عندما يمد يده الى محفظته ويستخرج قطعة
من النقود لتذهب الى الآخرين.
في ليلة، شعر بال ألم في صدره ولم يقاوم هذا المرض فذهب الى
الطبيب. وحين فحصه الطبيب امره ان يأخذ سيارة أجرة ويذهب فوراً الى
غرفة الانعاش في المستشفى العام.
وآلمته فكرة ان يصرف نقوداً، وقدّر ان المسافة الى المستشفى العام
ليست طويلة، فقرر ان يذهب مشياً. وحين وصل الى مدخل المستشفى لم
يعد يقوى ان يتقدم خطوة واحدة. فسقط ومات.

* * *

(17)

شعرت الفتاة المحاصرة بأن انفاسها تضيق وهي تتقل نظرها الى افراد اسرتها وهم يتفحصونها وكأنها ستختفي فجأة او تذهب بعيدا الى الابد. وهممتم مع نفسها لا تخافوا علي. ونهضت لتأخذ نفسا منعشا في الحديقة، وتبعها افراد عائلتها وتحلقوا خلفها وهم يبدون ملاحظاتهم.

- لا تضعي قدمك فهناك حفرة صغيرة.
- اياك ان تلمسي الوردة ففيها شوك.
- يبدو ان الهواء ابرد مما يجب، سيؤثر ذلك عليك.

وراحت الكلمات تططمها، وعادت الى الغرفة لتحاصر نفسها من جديد.

* * *

(18)

كان الطالب قد انجز كتابة اطروحته وجلس في قاعة المناقشة لينال الشهادة العالية. واتخذ استاذة مقعده قربه. وكان الاستاذ يستمع الى لجنة المناقشة وهم يبدون ملاحظاتهم على الاطروحة. والتفت الى تلميذه ورأى ان اذنين طويلتين تشبهان اذني الحمار قد بدأتا تنموان بدلا من اذنيه. وأغمض عينيه وعاد ليتأكد مما رآه، فوجد الاذنين قد استطالتا وأصبحتا بحجم اذني الحمار. وحنق طويلا في تلميذه وأراد ان يفر من القاعة هاربا، لكنه تهالك على الكرسي ولم يعد يسمع سوى نهيق تلميذه.

* * *

مسرحیات

الرائي*

(أصوات قديمة وحديثة، علنية وخفية تتحدث دائماً)

(المسرح مليء بالضوء ، وعلى جانبه الأيسر سلات زهور ، وجذع شجرة
ضخم.. وثمة رجل وحيد يتكلم ببطء)

الرجل: أطوف في فراغي الواسع

وأدور بلاتوقف

وفي قبضتي أزهار متييسة

صمت -

أطوف حول نوافذكم المغلقة

وأهتف يا حبيبتي

وتسيل حماساتي في الظلام

صمت -

أصبح يا امرأتي المحزونة

ضيئي نورا

فقد أضعتك.

صمت -

الذاكرة تمتلئ بالعشب

وتكون الصحراء طيوراً مهاجرة تحلق حولي

وتدعوني لأسفار عميقة

صمت -

آه.. أيتها الحبيبة

* يستخدم الكاتب في هذه المسرحية، التي هي أشبه بمسرح العيث، طريقة الإلقاء المنفرد حيث تتأجى الشخصية شبح الحبيبة التي نخلت عنه، بسبب حبه الذي لا يستطيع التحكم به. (المحرر)

إنني أتناثر
 أجمعيني بأفراحك العذبة
 فربما أمسك شيئاً
 (تمر فتاة من الزاوية مع حبيبها، وتشير الى الرجل ثم تتسائل)
 الفتاة: مع من يتكلم هذا الرجل؟ لا أحد هنا
 حبيبها: لا أعلم ، وليس مهما أن نعلم، فله أذنان تستطيعان سماع صوته في
 النهاية.
 (يخفيان)
 الرجل (يتكلم من جديد) :
 الليلة تتبعث الذكريات المحطمة تأريخها المتقطع
 فترتجف عاطفتي من برودتها.
 — صمت —
 كانت تلقي ياسها الى ياسي
 بعرس منتحل
 لحب دام لا يرى
 — صمت —
 حيناً شمس في الريح
 لا يلمس منه القلب
 سوى الدفء المضطرب.
 — صمت —
 إنني أختنق
 أنكرس لفرح ناء يغطيني بعريه
 ويقفلني في عذمي
 (يقطع الرجل المدرج ويمشي صوب الجذع وينظر الى بعيد ثم يعود)
 الرجل: حذك بفتح حبي
 مرجعاً فيه
 يقظات خطرة
 وأتعلق خارج جسدي

بين الذاكرة والضوء
وأثوه تماماً
— صمت —
إنني القاتل الآتي
من صبرات متناقضة
أحمل براعتي
(يصرخ صوت بعيد)
الصوت: قاتل .. قاتل ..
(ينظر الرجل صوب الصوت .. ثم يقول)
الرجل: أعود الى البحر
بأعراسي الثائفة
المنفردة بويلاتها
— صمت —
وأنت تهبطين معي
من حلم الأسرة
الى البحر
— — —
نهبط معاً من السقف
الى أفراسنا الهائجة
فتركضين أمامي
في صحرائي
وفي عطشي الفتاك
— — —
إنني أهبط الى شهوتك
الى البحر
وأغرق في حبي القاتل
(يصرخ الصوت البعيد مجدداً)
الصوت: القاتل .. القاتل ..

(ويشير الرجل بيده الى اتجاه الصوت منذراً.. ثم يقول)
الرجل: قاتل؟ من هو القاتل؟ أنا قاتل؟
 أه أيتها الأفعنة الفاجرة، لنخلعك واحدة، واحدة.
 أينها القوانين الفخمة الغليظة
 أيها القلب المنتفخ بأكاذيبك
 إنني لست وحيداً
 (يمر عجوز يبدو عليه الثراء، فيستوقفه الرجل سائلاً)
الرجل: هل يبدو علي أنني اقاتل ؟
 (يجفل العجوز ويسرع خطواته بدون أن يلتفت الى الرجل أو يجيبه،
 ثم يختفي)
الرجل: شتاء للحياة
 وصيف للموت
 شتاء للموت
 وصيف للحياة
 لا شتاء. لا صيف. لا حياة. ولا موت.
 — صمت —
 تكبر متوسعين في الهواء ثم نغيب
 — صمت —
 أنا في الدائرة
 وأنت خارجها
 أخاطب ذنوبك البقطة
 (يقرع الرجل الأرض بقدمه، ويشرق نور بعيد من زاوية المسرح).
الرجل: إنني أستيقظ على حلم شامل وأنحصر في تلج أسود ينغمر من
 مجهولات
 أكون في الريح. في الغبار. في الضياء
 وأغتسل في مياه الآخرين
 أكون في الدم. في الخط المتوازي في الدائرة. في الربح والخسارة.
 في الثورة

في الخيانة . في الحرية .
في الطلقة . في الدمعة . في الخوف والهزائم .
إنني أتقسم . أهرب أجسادى .
(تعود الفتاة مع حبيبها . ويجدان الرجل في مكانه ، فتسحب الفتى الى
خلف الجذع وينصتان)
الرجل : العالم يفتح لي في حرارتي لك
أتخطى أوهامى المتلاحقة المتجددة وأغوص في بحرك الدامي الأبدى
— صمت —
كل النساء باطلات إلا أنت
كلهن افراح محرفة
وأشباح تبتعد . تبتعد .
الى عدمها المؤكد
— صمت —
أنت حقيقي . حلمي . قدرتي
وبعدي الذي يمتد الى فنائي .
أه . انت تملئين لي العالم بحبي الذي لا ينتهي .
— صمت —
تنتشرين في الضوء الأزلي
وتختلطين في دمي
(تهمس الفتاة لحبيبها)
الفتاة : إنه مجنون . ألا يبدو عليه ذلك .
حبيبها : من يعرف ؟ عندما يكون الإنسان حقيقياً
يعده الآخرون مجنوناً .
الرجل : أه هذا التمزق
ضوء يكبر ويتباعد في أعماقي
وتتكسر حدته بالفاظي
— صمت —
إنني أسمع نظرتك

وأشم نبضك المطرد
والمس رقنك المتمهلة
إنها تلتقي بحرارتي
فتعزل الى الأبد بفرحتنا الدامية

الفتاة (لحبيبها) :

إنه يكلم امرأة ما، حبيبته؟ أم امرأة وهمية؟

(تضحك)

(الرجل ينتفض ويحدق الى الأمام)

الرجل: ها هو سحرك ينبئ

يتقدمك معلنا

عن وجودك

صمت - -

أتقدم مضطرباً

وانزلق عبر زجاجك الكثيف الوهاج

الى حبك المنطفئ.

صمت -

في الغرفة المضلعة

المغلقة بعيون الأوغاد

كنا نختلس نظرة لحبنا

نظرة صغيرة محطمة

ثم نخشاها ونفترق

صمت -

هل أصبحت عاطفتي مستحيلة؟

إن حزني يكبر بآسه المطلق

ماحياً كل اللذات

ويقيني يتناثر .

صمت -

كتبت ورقتي ورميتها في الهواء

— صمت —

وحدثني تقسمين
تسمع امرأة سرية
ترن خطواتها الغامضة في غاباتي
امرأة لا لون لها. لا تحفل. لا تمسك.
لا تجيء ولا تروح.

— صمت —

ماذا للتمس من امرأة مفصولة
أية حرارة مزورة يمكن أن تملأني

— صمت —

أنحني على زمني
ضاماً حالاتي الضاجة
ملوحاً لامرأة تأخرت
(تظهر امرأة وتصل الى جانب الرجل)
الرجل (يهتف) : أتيت أخيراً
(تتوقف المرأة وتتنظر اليه)
الرجل: أغمض عيني لحظة هادئة وأقول
أيتها الفرحة العظيمة. اقتربي رويداً
واحميني.

احمي وحدثني من التكرار .

(يقترب الرجل منها أكثر)

الرجل: انتظرتك طويلاً

المرأة: لماذا تطاردني؟ ألم نفترق؟ إنني لا أعرفك الآن

(وتمضي ويقفز الرجل خلفها ويمسكها من ذراعها

يطبق الرجل بأصابعه على عنقها ويقول):

الرجل: ليمتزج الحب بالموت

(تصرخ المرأة وتخرج الفتاة، يتبعها حبيبها من وراء الجذع

ويركضان نحوهما. ويمسك الفتى بالرجل وينتزع أصابعه، وتحرر

المرأة وتتلمس عنقها. ويسأله الشاب وهو متمسك به):
الشاب: هل أنت مجنون؟ كدت تقتلها.
(يضحك الرجل ضحكاً طويلاً وعميقاً ويقول له)
الرجل: أنت لازلت صبيهاً. كيف أقتلها؟ إن العواطف الخطرة يقظة دائماً
عندما تكون حقيقية.
الفتاة (تكلم المرأة):
عودي اليه فهو مغرم بك
إنه يرفضني أحياناً. وهذا ما يدفعني لأن أهرب منه.
الرجل: تعالي أيتها المرأة . فسنحرق كلانا في النهاية
وإذا كان سيحدث شيء. فسنحرق كلانا في النهاية.
(تذعن المرأة لعاطفته وتبتسم له .. وينحني الشاب والفتاة ويحملان
سلسلتين من الزهور الى الرجل والمرأة ..وتتلاشى الأنوار ثم يسود
الظلام.)

* * *

رجلان في الشمس*

المشهد الأول

المكان: سفينة تغرق..

المرثيون: رجلان ليس لهما وجوه

الأول - الشمس سحابة مختلفة تمطر جمرًا..

الثاني - والبحر انهكه الغضب.

الأول - بالأمس لم أنم.. كانت الأمواج تتفجر تحت نافذتي..

الثاني - وأنا كنت امحو الملح المقذوف على الزجاج..

الأول - ثم تذكرت رسالة لم افضها..

الثاني - من اين انتك؟

الأول - من خطيبي المنتظرة في قريبتنا النائية..

الثاني - عليها وضعت قلبها فيها ليحرسك.

الأول - كانت الدموع تنحدر من الكلمات..

الثاني - السفينة تبحر الى القرار.. ناولني الرسالة..

(يعطيه الرسالة).

الثاني - يقرأ - هواي المغترب.. تذكرت عينيك حين كنت امرح فيهما

بالأمس، وأنا واقفة تحت الناعور.. وكان الفرات يحمل بسمتك الي..

وغسلت دم الفراق المتجمد على جبتي حين سمعت جدي العجوز

يقول:

لا بد للجنر ان يغوص ويحيا.. ولا بد للبرعم ان يفتح يوما.. ولا

بد للقلب ان يسعد بقاء المحبين. .

والمغتربين -.. انك ستجد دما على الورقة.. انها بعض دم قلبي الذي

سانظرك به.

* نشرت هذه المسرحية في جريدة صوت العرب، 1966/1/25.

(صمت موجز ، الماء يرتفع الى أقدامهم)
الثاني - خذ هذا القلم واكتب اليها.. بينما اهبط قنينة..
الاول - وما يفيدها قلب غريق؟
الثاني - ينبغي ان نتعجل.. فالماء يتسلفنا الى الاضلاع.
الاول - ماذا اقول لها.
الثاني - اكتب - سأعود-
(يكتب الاول.. ثم يجاهدان للبقاء على سطح السفينة ريثما يسدان
فوهة القنينة.. ثم تختفي السفينة بكاملها).

المشهد الثاني
صفحة الماء تلتئم.. وليس عليها سوى قنينة مترنحة تائهة.

* * *

الحقيقة تصفو في ظل الرصاصة*

(أشعة القمر الخافتة تمسح بقعة منزوية انتصب عليها قبران.. الصمت داج.. تخفت الأشعة وتغدو ظلالاً.. ترتفع جمجمة مرتكزة على عظم هو رقبة من القبر الأول.. تتحنح كأصوات المطرقة المرهقة.. ثم تهتف..)

- إنني أهبط إلى الأسفل بازدياد.. وكلما قاومت تدليت بشراسة.. إنني أبذل منتهاي لأرتفع.. ولكن مفاصلي ستفكك حتماً ويسقط نصفي الأسفل. إن محاولة الارتفاع تفقدني بقائي الرخو..

(تبرز جمجمة من القبر الثاني.. تفتح شقوقها متثابة بصوت مجروش متكسر.. ثم ترد)

- إنك تتألم دوماً. ألا تراني فقدت القدرة على استيعاب تهديتك المضجرة..

الجمجمة الأولى: المسألة تختلف.. إنها تختلف.. إن فراغاً يتمطى تحت أقدامي.. يتمدد وينتفخ.

الجمجمة الثانية: إنها توهمائك التي تتوسدها.. فيها قد مضى علينا ألف عام وكنت كل ليلة تخرج وجهك الغباري لتجار.. ثم تدسه قبل أن تصل إلي حروفك.. وحين أنظر إليك ولا أجرك أقفل أذني فتتسرد كلماتك تائهة بائسة.

الجمجمة الأولى: لا ترسم لي صورة سيئة.. فصنعي لم يكن متقناً.

الجمجمة الثانية: إذن لأدرّ ظهري إليك فما وجدت لأحمل تأرجحاتك ولأرهن ارتكازي الصافي إلى الدعة.

الجمجمة الأولى: إنك تتملص من الواجب المجرد لتتلفت بلا جواز.

الجمجمة الثانية: يكن فهذا ما أشق إليه سبيلي.. فقد سقط المنطق.. وما عادت النتائج إلا أوتاداً يخرجها الرجال الخوص من

* نشرت هذه المسرحية في جريدة الفجر الجديد، 1966/3/11.

جيبوهم ويثبتونها متى شاءوا.. وهي متوافرة لهم
كوجودهم..

الجمجمة الأولى: لا تهرب وتدعني أسقط.. فلا بد من مساعدتي.. إنني
أضرع إليك أن تمد لي ولو همسة دافئة أتمسك بها.

الجمجمة الثانية: إنك انتهيت فما عاد يفيدك الترقيع ولا الطلاء.. وستلقى
نهایتك الأخيرة..

الجمجمة الأولى: إنها المعركة التي هربت منها.. وها إني مقود إليها..

الجمجمة الثانية: إنه العقاب على عويلك الإعجف..

الجمجمة الأولى: إنها غلطة.. سأصلحها إذا ساعدتني..

الجمجمة الثانية: (بضحك بغضب فيضائي) – إنه المفتاح الذي ضاع وتركك
في سجن لا منفذ فيه..

الجمجمة الأولى: إذن ما العمل.. أكاد أنفصل..

الجمجمة الثانية: ستتفكك مفاصلك وتسقط.. وتكف عن تأرجحاتك فأستطيع
أن أهدأ.. الوداع..

(تدخل الجمجمة الثانية في قبرها.. تبقى الجمجمة الأولى مرتفعة.. ثم تختفي بغثة تاركة
صرخة مدوية في الفضاء.. تمحي ظلال القمر وتحلوك الظلمة).

* * *

الصبيحة*

المسرح رومانسي الأضواء. في المنتصف وقرب الجدار كرسي انتصب فوقه الرجل المرقوم بـ (1). يضع فوق ساقيه عصا ضخمة. منهمك بقراءة جريدة. أمامه وبالضبط وضع مقعد مرتفع المسند يخفي امرأة غارقة في جوف عباءة. ترقم بـ (2). هناك شباك على بعد متر من الرجل.

- صمت لمدة نصف دقيقة بعد ان تفتتح الستارة-

2. الساعة، خبرني، كم مضى من الوقت ونحن نضع ايدينا اليمنى على ايدينا اليسرى.

.....1

2. اثنتا عشرة ساعة تقراً في نفس الصفحة، هل تسمرت عيناك وتبيس نظرك؟ ام هناك أشياء تبهج غير الصالحين.

اني أرى عروق رأسك تلهث، دعني أرى المخازي (لا تجشم نفسها عناء الوقوف، تظل جالسة) دعني اراها.

.....1

2. لن ترنيها اذن - بلهجة باكية - منذ ربح من السنين لمست قلبك وانت نائم فوجدته بارداً، في تلك اللحظة نزعت خفي وسرت حافية القدمين حتى الشاطئ، اطفأت رأسي المحموم فيه وما زلت في كل ليلة اذهب لأتلق، لكن حارس الغابة الابرص رماني بتينة من بين الصخور فاخافني، استحلفك بالله ان تفتته.

... 1

2. الن تفعل، استمع اذن ايها الخنزير المطلي.

* نشرت هذه المسرحية اول مرة في مجلة العاملون في النفط ، شباط 1966، واعيد نشرها في مجموعة الجسد والأبواب، 1969.

بالأمس رأيت عينيه داخل ملابسي، وحين صرخت نهض الاف الرجال
من وراء التلال يتمطون ويحملون بي، وكان الابرص يمتص قصب السكر
بجنون.

1. هل افرط:

2. في امتصاص قصب السكر؟ لم انتبه، انما كان يحشو الرجال بالفتك،
يقول لهم سأخدمكم حتى تبيض عظامي فتجفل منها الكلاب، فقط
اغرقوا هذه الملتهبة عجرفة في هوة العجائز الدميات.

1. الوعد، نسي كلبنا الذي التقطه من المزيلة فحملة الينا بعد ان التهمت
البيكتريا ساقاً ونصف ذراع منه (صمت ضئيل) انك تروقين لي حين اراك
بسبعة اعشار وربيع العشر من بصري، اكاد اغدو مسماراً في الكرسي.

2. (تنتهد) انك تبهجني حتى اطرافي.

1. اذن فنرقص، أعرف رقصة كنا نرقصها على دقات الصفيح اسمها،
اسمها.

2. لنعلق باطراف الشيطان.

1. (بعصبية) انسيت ان الذي تقاطعينه هو سيف الكون (صمت ضئيل).

حقاً ان خميرة الأرض بدأ يذب فيها الفساد .

2. يبدو انك نسيت حلمك يا سيدي في قارورة الهدوء بغرفة التفكير .
هل اذهب لأتيك به؟

1. انت اليوم شديدة الطراوة، تنزلقين من اذني بانسيابة ارجو الا تكون
مفتعلة، اصمتي، بدأ قلبي يشحن بالحرارة وما اظنني الا سابكي.

2. يا زوجي، ضع الجريدة جانبا، لأرى وجهك الناقوسي الحزين.

1. هل اعددت الاغطية، الليلة تمطر وفراً كما تقول هذه الاخبار.

2. انهم كذابون بالامس قالوا عجولاً وفراخاً، فصفعتنا ذبول التراب حينما
خرجنا نعد الاقفاص والمخازن.

1. ما هذا السيل الكثيف من الضياء، يا للجنة، اذفي بعضه خارجاً،
افتحي الشباك، سأتمزق حالاً. سأتمزق حالاً.

2. انتظر لحظة (تنهض من المقعد وعباءة سوداء تلفها باحكام تذهب الى النافذة فتفتحها، يرتفع صوت متشنج يردد).
الصوت - يا أم العباءة، حلوة عباؤك.
2. (تنهقر الى كرسيها دون ان يرى منها لمحة) - انه هو يغني لي.
1. (بعصبية) من يكون هذا الاحمق؟
2. جارنا، باع الصراصر.
1. عليه اللعنة، ساقذه بالمقعد (يظل جالسا لا يتحرك).
2. انه يرصد الشباك منذ اعوام كثيرة، لن احملك على الغيرة فأنا امقت رأسه العصفوري.
- (صغير يرتفع من النافذة، ذات الصوت يعود).
- الصوت - اطلني ثانية يا حلوتي النادرة، لا ترتعدي من زوجك الملطخ بالهوان.
1. الأفاق المجدوع الانف، ساقنته (لا يتحرك).
- الصوت - اركليه في رأسه، صبي جردلا من الماء في انفه .
- صمت ضئيل - قفي في النافذة لاخطفك.
1. يختطفك ! اسمعي؟
2. انهض، اجلب البندقية، واقتب جسده مائة ثقب.
1. حسناً ساقنته توأ (لايتحرك).
- الصوت - يافاننتي المتلائة، يا قمرى الصوفي، هلا سمعت؟
1. دعيه يعوي في الظلمة، سأجعل جمجمته قيثارا.
- الصوت - انيذي هذا الجدي المصبوغ اللحية، هلمي الي.
2. (تنهض) انظر، ساجلده بتقريعاتي القاسية (تصل الى الشباك وتطل من).
- الصوت - مبهج، مبهج، لم يخب ظني هاتي يدك.
- كنت متيقناً انك مغرمة بي.
2. اذهب بعيداً ايها الحشرة الصلعاء .

- الصوت - يالللنبرة البديعة التي اشاعت في قلبي الاطمئنان وفي جسدي المكود الراحة، انطقي ثانية يا حسنائي، لتمتليء اعماقي بالفرحة.
2. قلت كفى، احمل وجهك المسخ وضعه في صحيفة.
- الصوت - لا تكوني مكابرة ان عينيك رائعتان حين تلتمعان في فضاء القمر، افقزي على حصاني الاشهل، انه لا يصهل حين يعدو في الوديان المقفرة وفوق الجبال المتلوجة.
- سيعبر بنا الغابة قبل ان يطرف رمش وحش من وحوشها.
1. انه يدعو حماره المجنوم فرساً، ان القملة لتدب أسرع منه.
- الصوت - من هذا المكابر الذي لا يعرف كلامه .
2. انه زوجي المفدى، انت لا تعرف اي الرجال هو .
- الصوت - هيع، هيع هاع (ضحك متشنج) .
2. الا تصدق انه يحشو البندقية.
- الصوت - هيع، هيع هاع (ضحك متشنج).
2. اننا نشفق على أرضية الممر البلورية من ان تتلوث بدمائك القانية، فاذهب الى حيث يعسكر صيادو الرؤى فيشفون امانيك المتوهجة.
- الصوت - ليس بمقدوري، فانت معطفي الابدني.
2. سأغلق النافذة.
- الصوت - سأرغمك على فتحها.
2. لن تستطيع.
- الصوت - لا تكوني مغفلة، فعود نقاب يندس تحت الباب يحرق المنزل الا يجعلك تفتحين؟
1. نيرون.
- الصوت - اراك تتباطئين، هل ترهيبينه.
- 2.....
- الصوت - خذي هذا الخنجر واذبحيه.
1. لا تأخذه.
- الصوت - ليصفو لنا البقاء، ونحيا كما نهوى، خذي.

1. القائل : لا تنصتي اليه.
تبدأ الأضواء بالخفوت والتلاشي وتحل الظلمة التامة.
تعلو صرخة، ثم تبدأ الأضواء ثانية بالانطلاق. الرجل رقم (1) ما زال ممسكاً بجريدته في نفس الوضع السابق.
اختفت المرأة ولم يبق من آثارها سوى العباءة ممتطية النافذة.
2. (من أسفل النافذة) النجدة.
الصوت - قلت لك اهدأي لن أمسكك الا بيد من حرير.
2. عباي.ي.
الصوت - دعيها.
2. (تصرخ ثانية) زوجي.
1. (بتساؤل) اجل.
2. اليّ، انني اساق الى الغموض، انجنني.
1. لا تجهشي بالبكاء ساقته (لا يتحرك).
2. الصوت - انا القشر الذي سيحميك أيتها الخلية الطاهرة.
تضحك بصوت مرتفع.
الصوت (مبتعداً) - وداعاً يا ظل النسر الهرم.

* * *

الهارب أمام المرأة*

المسرح مظلم.

صرخة - لا توغل كفك في جمجمتي، انك تمزق يقيني.
أصوات بعيدة- حين يعود الغريب مشلولاً دماؤه في عروقه من اللوعة،
ستصرعه الأفعى المختبئة في فراشه منذ أن رحل.
(تندفع النافذة، تمتد منها يد مشرعة سيفاً طويلاً.
ترتطم عليها سحابة نور موجزة، تتسحب اليد ببطء وتختفي.
ثم تمتلئ الغرفة بالنور. في جانب منها رجل يجلس على منضدة يحرق
في النافذة وعلى مقربة منه تكاً قارب مزخرف له جناحان، يستمر في
النظر باندھاش ثم ينهض إلى النافذة).

(في همس)

- الموت يغسل اغنام القرية. ودموع الراعي تنقّب بياض عينيه، وهذه
الريح الغادرة تدفع طولاً حين النهاية لتجرشنا.
يغلق النافذة - الموت هو اللعبة التي ينبغي ألا يمارسها المرء.
يعود إلى مجلسه خلف المنضدة، دقائق واهية على الباب يرفع رأسه قائلاً:
- ادخل.

انفتح الباب ودخل رجل ملثم يلبس ملابس الجيل السابق. ينظر متفحصاً
ثم يقول:

- اراك لا تزال حياً. ليس هذا مدعاة للفخر.
- ماذا تقول ايها الرجل الملثم - من انت؟
- أنا، يخلع لثامه.
- أبي.
- الاب - لا تصرخ بصوت مرتفع لئلا أتداعي متهدماً
- الابن - ألم تمت منذ عشرين سنة.

* نشرت هذه المسرحية أول مرة في مجلة العاملون في النفط، أيار 1966، عدد 51،
السنة السادسة. ثم أعيد نشرها في مجموعة الجسد والأبواب، 1969.

الاب - دعنا الآن، قم وانظر من النافذة، هل من (ما) تحتها.
 ينهض الابن.
 الابن - بعض الفرسان يعبرون محملين بالاسلاب التي اغتصبوها من
 القرى التي اقتلعت رجالها الزوابع.
 صوت يصرخ من خارج الباب.
 - أدركني، البرد يصفر بين اضلاعي.
 الاب - هذا حارسي، هل تأذن له بالدخول؟
 الابن يهتف مناديا - هلم ادخل ايها الحارس.
 يدخل هيكل عظمي مجلو العظام ماذا كفه الى الابن ليصافحه.
 الابن - بانكماش - : يكفي ان نهز رأسينا بالتحية، يمكنك الارتخاء.
 ينسحب الهيكل العظمي ويرتكز في زاوية.
 الاب - أرى سؤالاً يتمخض في عينيك منذ قدومي.
 الابن - حقا فيأنا ملي المرتجفة اسبلت جفنيك، ويعيني رأيت الحجارة
 والتراب تغيب تابوتك، وحفرتا اذني امتلائتا من الكلمات المحزونة.
 الاب - عبرت انهر الزمن المتيبسة، وقناطر السحر المخدرة علني أصل
 الى الغد الذي بلا نهار ولا ليل. وما زالت
 أقدامى التائهة راحلة بي، وعندك ارتميت لاختبرك بـ.
 الابن - ليمطر فمك القدسي الكلمات مهما كانت.
 الاب - كنت استجمع قواي ذات امسية فسمعت أصواتاً تذكر اسمك في
 قرار بانتهاء وجودك.
 الابن - عجباً ألم يذكروا علة سقوطهم علي.
 الاب - يبدو انه أمر محتوم عليهم ومجهول.
 الابن - بعد صمت - لن يهمني امرهم وسأفني كل من يتجرأ على التقدم
 مني.
 الاب - لكنهم مخلوقون من أجساد لا تعرف الموت ولا يعرفها.
 الابن - حسنا. ليأتوا فأغسلهم بالتجربة.
 الاب - ثبت رأسك على عنقك جيداً وبالتالي اجزم.

الابن - انني واثق.
 الاب - حين يخلو المرء بفكره يثق ويبنى أمثل ما يريد، وعندما يصل الى الواقع يفقد القدرة على التقدم.
 الناس يرون السماء بعيونهم، لكن السماء لا تحتاج الى عيون.
 الابن - ان باطني هو خارجي، وخارجي باطني، انني واثق.
 الاب - بحنان - انت بذرتي الميمونة التي لا تقدم للأنواء اي مجاملة. واي رجل انت يتفصد العزم من جبينك، انك تملأ قلبي.
 الابن - وانت العبادة المباركة التي تقيني، وان اليدين اللتين فتحتا اجفاني ستبيلانها بفخر.
 (الشباك يقرع، يفزع الحضور، الهيكل العظمي يلتصق باقصى المكان)
 صوت أجش من الخارج - افتح.
 لا ينتظر بل يدفع الشباك بعنف ويفتحه، يدخل رجل ضخيم قوي يرتدي ملابس الجيل الاسبق.
 الاب - يا للغرابة، اي تدبير غامض قذفك الينا؟
 انه جدك يا عزيزي، انكما لم تتعارفا من قبل.
 يتصافح الاثنان بدبلوماسية فائقة واحترام كامل، ثم صمت.
 الجد - لابنه - هل انت متأكد منه، بصيغته الكاملة.
 الاب - أجل.
 الجد - اذن لا بد اني وقعت في غلطة ما.
 الاب - ما هي؟
 الجد - لا شأن لك بها.
 الاب - لا بد لي ان أعرف.
 الجد - حسناً - سأنزل عند اصرارك : كلفت بانتزاع روحه.
 - يومئذ الى حفيده المرتجف.
 الحفيد - هلا اخبرتني عن هذا الاصرار اللافت عليّ.
 الجد - نحن اجدادك، نبقي في الزمن : كل منا يملك أرضه ولن نرضى للآخرين، شرقيين ام غربيين بالدخول فينا.

رغم اننا نحب الملاك.
لنا سماءنا الخاصة، كنا قديماً ونبقى، اننا منتشرون مثل الأرض.
اما انت فكننت تعطي دمك لفكر يمزق الأرض المستوية. لذا قروا طمس
وجهك عن ضوء العالم.
الاب - بتخشب - انك لن تتصاع لهم.
الجد - (تحديق).
الابن - لن تغسل يديك بدمك.
الحفيد - لن تغرز اضافرك في قلبك.
الاب - لن تسليخ جلدك. استحلفك.
الجد - وماذا سيفولون، انهم واقفون وراء الاشجار ينتظرون .
الاب - دعهم يبلغون انتظارهم المر، فالعاصفة تلوح وسيغيبون فيها.
الجد - اذن فلنصل عليهم أولاً، ثم أقرر .
الاب - ماذا تقول؟
الجد - سأخذكم الى دار لن يقرع بابها، ولا يصلها نداء وليس فيها نوافذ
كي ننجو أتأتين.
يهزان رأسيهما بالاجاب.
أصوات بعيدة - ذو الوجهين يهرب في المرأة، ثم يسقط في البئر، وجوه
كثيرة تهرب في طرق مختلفة لكنها أخيراً
تسقط في البئر ويظل القارب واقفاً.
أه. لا تموتوا ايها المسافرين سيحضر البحارة غداً.

* * *

سهرة تحت غيوم الصباح*

المشهد..

ساحل على بحر ممتد. الساحل والبحر عاريان بصفاء. وثمة رجل مغطى جسده بالرمل ورأسه منتصب تجاه البحر عكس المشاهدين. الرجل المغطى - تكون سعيداً، أيها السامع، وغير الموجود في الوقت نفسه، إذا انتبهت فجأة وأبصرت نفسك وحيداً صافياً إلى ما لا نهاية.. نفياً كمجنون. ومسست المسافة التي تفصلك عن الآخرين. وأحسست بطول السنتمتر الهائل الذي يبعدك.. (صمت قصير)

أيها السامع غير المرئي.. يا من تمتلك كتلة تماثل كتلتي وتمتلك وعياً وإحساساً بضار عانتي.. انت غريب عني وأنا غريب عنك ولن يعرف أحدنا الآخر أبداً مهما أفصحنا عن أفكارنا وأسقطناها في مرآة الوضوح.. ومهما فتحنا أبواب قلاعنا لندخلكم منها، فهناك أبواب سرية تظل مغلقة: شئنا أم أبينا. (صمت)

إذن، ما بقيت تلك الأبواب محرمة فلن يعرف أحدنا الآخر. ونبقى غرباء أيها السيد السامع، غير المرئي. (صمت). كل منا يقاتل كي لا ينتهك.. الافراح والهموم نطويها في أعماقنا ونحرسها لأنها متاعنا الروحي أيها المتاع العفن، بك يقيد الإنسان ويفقد حركته.. (صمت)

يدك هي القيد.. مدها إلى أحدهم فإذا استلمها فقد سقطتما معاً.. التفصيلات هي الدوامة التي تجمع في مقرها كل أجساد الأرض. الأجساد المؤهلة للنار.

أيها السامع، غير المرئي.. ان مؤامراتك القذرة الصغيرة التي تخلقها مع الآخرين تبقيك جسداً "حقيراً"، معدوداً برقم.. في هذا المنزل ستة.. في الشارع مئة.. في المدينة مليون.. في الدولة عشرة ملايين. ان فرقمك قد يكون 526ر101..7 (صمت)

* نشرت هذه المسرحية اول مرة تحت اسم 'سهرة تحت الغيوم' في ملحق جريدة النور، 14 تشرين الثاني 1969، ثم اعيد نشرها في مجموعة القناع، 1970.

لقد تجردت تطلعاتك وإنسانيتك ووجودك واضحيت جسداً وجلداً غير مميز : الأجساد تتساوى في الظلام.(صمت)

ايها السامع : نحن بعيدان.. قد نحدق ببعضنا في منعطف او في سيارة عامة.. لكننا سنغيب، وبينما اكون رافعاً رأيتي تكون انت بلا راية، بلا تاريخ يؤهلك لان تكون مواجهاً لي.. ايها السامع غير المرئي : ربما اشفت عليك حيناً من الدقائق.. فهل يجدي؟؟

انك تفكر بان ظلك الذي تجره خلفك تصنعه الانواء الجوية ولا تفكر بانك انت الذي يصنعه.. انه انت وليس النوء.. هكذا يجب ان تكون والا فلن نلتقي.. (يشق نهاية البحر زورق مملوء بحشد من الأجساد.. يقترب من الرجل المغطى، يصل الى الساحل ويقفز منه رجال ونساء كثيرون يواجهون الرجل المدفون).

واحد من الحشد - أبصرنا هذا الرأس النابت من الأرض .

هل انت حي ايها الرأس؟

المدفون - (سكوت)

امراة - هل لك اطراف؟

المدفون.(...)

امراة - لنقلعه من الأرض، ربما كان له جسده.

رجل - قد يكون بلا اطراف فخجل من وضعه بين الناس فجاء الى هنا ودفن نفسه.

امراة - ربما

رجل - كنت أعرف رجلاً سحقته أطرافه عربية.. ضجرت منه زوجته فحملته في حقيبة ضخمة وطوحت به في النهر.. ربما كانت زوجة هذا رقيقة فدفنته ليتأمل البحر قبل ان يموت.

هل تحب البحر كثيراً؟

- ضحك -

- تتحني امراة وتزلق أصابعها في شعره -

المرأة - انه جميل، عيناها جميلتان وعسيقتان.. ليتني أعرف حيا مثله
لكنك أحببته. هل انت أخرس ايها الرفيق المثبت.
رجل - انك تكلمين حجراً يابساً. انا أعرف هؤلاء. ان عاهاتهم تخولهم
امتيازاً خرافياً بايذاننا. ايها الشقي التعيس يا حثالة افراح البشر، انني لن اشفق
عليك. لكنني اخاطبك بألفة معينة وان كانت ضئيلة.. هل تريد ان تأتي معنا.
لن نتقل علينا، وإذا ضجرت فاطلب منا ان نرميك في البحر وسنفعل.
المدفون - (سكوت)
الرجل - سيخلق ألمنا لموت إنسان وحيد على ساحل بحري مهجور. هل
اخترت موتك ام أجبرت عليه؟
امرأة - انه ينظر إلينا بازدياء.. ويخيل إلي انه قد فهمنا.. هو يستطيع
الكلام، لماذا لا يتكلم؟
- نتحني عليه ونقرصه من شفتيه وخده -
المدفون (يصرخ) : ارفعي يدك أيتها العاهرة .
المرأة - بفرح - : انه يتكلم، يتكلم.
امرأة ثانية - لنعمل على انقاذه.. سأرتعب اذا كانت له رقة فقط تحت
التراب. هيا ايها الرفاق أنقذوه.
(ينحني الرجال عليه)
المدفون - أبعادوا أيديكم الملوثة ... أبعادوا ايها الخونة. لا اريد ان
تلمسوا ما يخصني.
رجل - لكنك تدفن نفسك... ستموت ببطء.
المدفون - ماذا يهمك من أمري.. انا وضعت خصوصياتي فلا
تلمسها.. هب أنك لم ترني، فهل كنت ستشفق علي وتتقنني، اذا اردتم
مساعدي فدعوني وانصرفوا.
رجل - انا واثق من جنونه.. لننصرف.
رجل آخر - ما دام الأمر قد كشف نهاية سيئة وما دام قد رفض معونتنا
وطلب منا تركه على حاله، فلننصرف.
رجل اخر - هيا ايها الرفاق، ان البحر يدعونا وثمة متع عديدة في
مرافئ كثيرة تنتظر.

- يتحول الجميع الى المركب.. تتخلف امرأة -
 رجل - يناديها - هيا يا فتاة، أسرع.
 الفتاة - سأمكث هنا.
 الرجل - هذا شأنك. تذكرني انك ستندمين فلن يعرج أحد الى هذا الساحل
 المعزول، ستقطعين عن حركة العالم.
 الفتاة - وداعاً
 (يشق الزورق البحر متضائلاً)
 الفتاة (تتادي الرأس) - ما يدهشني أنجذب فيه، وانت ملأتني بالدهشة :
 الأشياء الممكنة التفكك الى رموز تجعلني أحنى رأسي وأدخل فيها وألغي كل
 اللافعات المانعة والحواجر الجاهزة لصدنا من تحقيق تقدمنا في شيء الى
 نهايته..
 المدفون - يبدو بإمكاننا ان نتكلم سوية.
 المرأة - نلّك ما تدفق فيّ عندما شاهدتك.
 المدفون - من هم هؤلاء الذين جئت معهم ثم مضوا؟
 المرأة - انهم فتيان يعيشون بتنفسهم وعضلاتهم أسقطوا تاريخهم
 وعوائلهم القديمة ومدنهم، رفضوا انتظار المستقبل. انهم يعيشون حاضراً
 خالداً، يعملون ما يستهويهم ويتركونه بنزق اذا ما ضجروا منه، غرباء
 يجمعهم الزورق، اذا ابهر كانوا فيه، واذا غرق غاصوا جميعهم. يا لها من
 وحدة قاسية غير اختيارية كنا نعيشها. هل انت بخير؟
 المدفون - طبعاً
 الفتاة - هل وضعت نفسك بنفسك تحت التراب؟
 المدفون - يقيناً
 الفتاة - لماذا؟
 المدفون - الخطأ. اعتقادهم اني سأقتل تحت التراب. فحتي في هذا لم
 يعرفني احد. لقد دفنت نفسي اختياراً اختبر قدرتي على فحص قوتي. قررت
 أنا حبس نفسي أسبوعاً في التراب لأكتشف قوة جوعي وعطشي وجنسي. لم
 افكر أبداً بالانتحار. (صمت). عندما ينتحر الإنسان يفقد نفسه ويبقى العالم كما

كان، لن يتغير شيء، فلماذا ندمر أنفسنا هباءً، ولسنا نملك غير أنفسنا؛ الأغبياء هم وحدهم الذين يقدمون أنفسهم بتفاهة إلى الموت.(صمت). ان التفصيلات التي نعيش في حركتها وما تخلق من متاعب لهي اصغر من وجودنا، اننا نستطيع طرحها ونستمر.(صمت). نحن الذين نخلق ونحن الذين نفرز الوقائع ونلهبها بخيالاتنا.

الفتاة - هل وجدت شيئاً؟

المدفون - أحاول ان ابعث لحيويتي قوى جديدة في هذا العالم الذي تتشبث الأجساد فيه لبناء امجادها الزائفة : رغم انني امقت الجوع والعطش والحرمان.. أحياناً لكوني لا أجد ما أفعله سوى الاستمرار في الحياة. الفتاة - ستضطر الى السير في الازقة العتمة التي يخشى الاعتيادي المرور فيها وتعيش في غرف تمنع الأصوات والمقابلات ستحسر منعزلاً تحمل أثقالك وحيداً.

المدفون- أن لك ان تصمتي سأضطر لرميك في البحر.

الفتاة - لماذا؟

المدفون - لانك بدأت تخرجين لسانك من الدستور! (صمت) في الوحدة المقدسة يكتشف الإنسان كيانه برمته ويكتشف موضعه ويكشف العالم الموجود فيه.. حينئذ ستهوى المؤامرات والطموحات البائسة.(صمت). سينفرد راقياً ممثلاً بالهوية جامحة. (دودة ضخمة تثب من ثقب، وتمر ببطء فوق وجه المدفون ثم تتحدر الى الجهة الأخرى وتمضي في التراب)

الفتاة - ألم تر. انك لم تستطع الدفاع عن نفسك حتى تجاه دودة.

المدفون - هذا ما أردت أنا قوله، انها لا تختلف عن معظم أجساد هذي الأرض، تمر بك وتكاد تسحقك لكنك لا تملك الا ان تبعدا برفق لئلا تلتصق بك بأذاها الأبدية. ان عذابي يكمن في ان اعيش في مستقبل الحاضر، لا في الحاضر.

الفتاة - هل تأذن لي بإزالة التراب عنك.

المدفون - لا بأس.

(تخلع التراب عن ذراعيه ويأخذان سوية بخلع الكتلة عنه - ينهض
بملابسه الكاملة المتسخة)
الفتاة (مع نفسها) - كما كنت أحلم به.
المدفون - ماذا قلت؟
الفتاة - سأجعل لك كياني غرفة سرية تنتشر فيها، تصخب، تغني، تمرح،
تحزن بصفاء، وتنام فيها.
المدفون - لماذا أمانع؟ الأمور كلها سواء.
الفتاة - انها تختلف وستجد ذلك.
- المدفون يضحك مستخفا ثم يقول -
- انك جدية وهذا ما يزيد المسألة بلبلة. لن أقع في التباس.
الفتاة - هل نعود الى المدينة؟
المدفون - هيا
(يطبقان كفيهما ويسيران ببطء، يهبطان من المسرح ثم يمران بين
المشاهدين بتؤدة وهما مشغولان لا يحسان بأحد ثم يختلطان بالجميع)

(صمت)

* * *

الجدار وزهور البحر*

دائرة ضخمة من الماء راكدة، ابعادها الأفاق. مركب خشبي صغير ساكن،
ورجلان شاحبان يتكئان على الحاجز ينظران في البحر الخامد.

الاول - لا تدع قلبك ينتظر ريح الخلاص..

الثاني - صمتاً يا رفيقي، لا تطلع عني الامل، فالشمس مهما رمت أشعتها
فستصطدم وتقف.

الاول - انك لم تطل على حل المسألة ياعزيزي، المركب ثقيل والريح واقفة،
لا خلجان، لا مرافىء نحن في البحر، هذا السرداب المظلم الذي
تتخلق فيه الى حثقك رغم مشيئتك.

الثاني - لا تكتم أنفاسك بأصابعك الوجلة، قد تنشط الريح وتقذفنا الى شاطئ
مغيب عن اعيننا.

الاول - ارتو من هذه الخيالات الفتية واحش جمجمتك التعبى بها (يغضب
فجأة). قم الى سطح المركب دعه ينتفض ويسير الى بر النجاة.

الثاني - (يتململ) ستسقط عيناك المتعبتان من محجريهما ان ظللت تصرخ،
لم قواك واحفظها.(صمت).

صوتك الصحراوي يسر بني مع ارتخاء الريح المتلاشية:

ليكن صدرك المرتعش مملوءاً بالعزيمة وعامراً بالقوة.

اننا سنبقى ما دمنا ساكتين مسخرين لإرادة البحر، البحر الذي لا
يعرف لهفة الفرحة ولا نشوة الخطوة الواثقة.

الاول - حسناً سأنقل اليك خطوة واحدة وأضع بين كفيك هذا السؤال، أين
نحن؟

لقد خرجنا متجهين الى وطننا، ومنذ أيام هاج البحر وحطم
اتجاهنا وأصبحنا معلقين في دائرة ضخمة من عيون الصمت
المتربصة:

هيا افعل شيئاً

* نشرت هذه المسرحية في مجموعة الجسد والأبواب، 1969.

مد ذراعيك في البحر وجذف الى شاطئ ما، والا هل تترك
أجسادنا تضرر وتلفها كلماتها؟
الثاني — اليأس يهدر في وحشتك
ايها التائه : ايها التائه.
لا تقذف صوتك المحن من الالم، فانه يتبدد في غربة لا اذن فيها.
الاول — امنح حروفك لكلايب البحرايها الرفيق فستدهن بها عيونها المتعطشة
الينا، هيا لنغن. (في حلق موغل في اليأس).
هيا:
ايها الموت المنتظر خلف الامواج
أعطني زورقا لأجيء به اليك كي لا اجشمك عناء الانتقال، فلن
ندع الزمن يتعبك من اجلنا لحظات عاقرة تلتقط بها ارواحنا
وتمضي.
الثاني — سنزول ذرات وجهك الراسخ من التساقط يا رفيقي الجائع الى
الخلاص.
انصت الا تسمع شيئاً ينحدر الينا، خفيفاً وسريعاً.
مرتعداً كرفيف خفاش اطار صوابه نور متوهج
الاول — لا اسمع شيئاً سوى صوت قلبي
الثاني — قلبك!
الاول — انه يجار:
أيتها الريح لا تسقطي على شاطئ البحر ميتة.
انني انحب اليك، هلمي الى كياننا المتعب، ضميمه وانطلق به الى
اي شاطئ حتى ولو كان صخرة عارية يملكها غراب، الى أرض
يابسة متشققة، لا تدعينا واقفين نتصادم أجسادنا لنبدد مطامحنا
الأخيرة وامنحي هذا الرفيق الغريب بركتك القاسية، لانه بلا قلب.
- يلتفت اليه ويحدق فيه ويقول-
اتعتقد ان تلك اللحظة التي جمعتنا تولدت طبيعياً، ام ان المدن
الساحلية تقذف معرفة البعض على البعض بلا مقدمات.

- الثاني - لا افهمك جيداً
- الاول - كنت مدينياً بنصف هذه السفينة الى مرأب في المدينة وكان يريد بيعها، لماذا أتيت واشتريت حصته؟
- الثاني - لاني كنت اريد الرحيل عن مدينة ملئت طرقها وأبوابها القديمة ويشت من أسوارها وشعر بناتها المجدول ورجالها المزيفين : مدينة الافواه الزجاجية التي تنخر الغبار، انها تعشق أسوارها التي تصد زهور البحار الزاحفة : انها تخاف من الشمس.
- تباً للمدن التي تخاف من الشمس.
- انني ابحت عن مدينة حقيقية في هذا العالم، ولهذا أتيت معك.
- الاول - بدأت تلتصق بقلبي ايها الرفيق، انك الظل الذي يتقهقر في جانبي الخفي، والذي تنحسر اليه نفسي المنهكة.
- الثاني - وانت ايها الرجل المرهق، ما مضافك؟
- الاول - لم اعصر عمري كما ينبغي، بل تركته يتسرب دونما رجعة. كنت اتتبع رنين الدراهم تقودني الى كنز، كان الكنز وجودي، ولم أتل أخيراً الا سنوات يابسة نكلست على وجهي، وسنارة دين مفرغة نشبت في المركب ومزقت نصفه. والان نجوت من وهم رجوعي ثرياً. انتفخ بين قومي البسطاء سامضي لأحيا، ولا اجر هموماً زائفة.
- الثاني - امالك ألقيت الخوذة الثقيلة عن رأسك ان بعض الناس يجهدون رؤوسهم لان تصنع طبقات من الجذ يطلون بها هياكلهم بلا احتياج او مبرر، يمرون في طرقات المدينة بوقار وتؤدة، وجوههم صلدة، عيونهم حجارة. وحينما يدلفون الى منعطف ينحون القشرة فتظهر أجسادهم الحقيقية، انها الغلطة التي لا اغفرها ان يملك الإنسان جسدين، واحد يتعامل به مع الناس والآخر يتعامل به مع نفسه.
- الاول - لا تقذفني معهم، انا صنعت نمطي باختياري الثام، كنت أؤمن ان الفرد ذو اندفاعه وعليه ان يبدأها باتقان ونهجت تحديدي حتى افقدني البحر إرادة الماضي.

الثاني - إذن سنبدأ سوية، نجعل هذا الجسم الخشبي طائراً ونكون نحن جناحيه.

الاول - ألا تعتقد أننا تأخرنا كثيراً، ألا تحس الجناحين يتهمان.

الثاني - لا أدري ماذا تخبىء الدقيقة القادمة، ولكني أؤمن بأن هذا الوقوف المريع يخلع العزيمة والاصطبار.

الاول - انظر الى الاقداح والاوني، انها جافة تبعث رائحة هجر الطعام والشراب.

(يدير رأسه في الافق الاحدب مائلاً عينيه المهمومتين من السماء المطبقة على البحر والمكونة زرقة لا مطاف لها)

الثاني - انظر اليس هذا طائراً، انه يجيء من بعيد، يرتفع ويهوي على جلد البحر، انه يقترب من مركبنا انظر : انظر : انه يحط على المؤخرة : هذا الطائر الأسود.

(يجلس الرجلان وهما ينظران الى الطائر الذي بدوره ينظر اليهما).

الاول - ان صدره يكاد يتمزق من التنفس، انه يحدق فينا مرتعباً ايها الطير العزيز من اين أتيت، اخبرنا، ماذا وراء هذا الافق؟

(ينهض ليمسك الطير فيقعه صاحبه).

الثاني - لا تذهب اليه فتزعه.

الاول - كلا سيمنحني الجواب الذي اتمناه، ايها الطير دننا على الطريق.

(بفلت من أصابع صاحبه وينطلق الى مؤخرة المركب حيث الطير وينحني ليمسك به فينقلب الطير مضطرباً ويحرك جناحيه لكنه يسقط في البحر)

(الاول ينحني من فوق ويحدق في الطير الذي مات).

الثاني - لا بد انه وافانا من مكان ناء فهو مرهق جداً.

الاول - لا تلمني ان دفعته الى هلاكه، اريد مرفأً بنساق البنا يكشف لنا وراء ذلك الافق الراكد في أغوار البحر.

الثاني - لا تشغل فكري بهذا الامر، انه لو بقي يختلج لمات.

فالنضال التائه يورث الحسرة.

(يقترّب الرجل الاول من الثاني).

الاول — انك نزعّت عني جلدًا غليظًا، ألقيتّه عني بسرعة لم اكن اتوقعها.

الثاني — الحقيقة غالباً ما تفسد ما بينيه الإنسان في خلوته من امان بهيجة وأحلام رخيّة، الحقيقة دائماً صلفه لا تقيم وزناً لأية سلطة.

الاول — أخذت ارى الهواء الذي انتفسه، آه، وصلت عيني الى آخر نقطة في عري الأشياء.

الثاني — يولد أولئك الناس ليقفزوا من فوق الأسوار عراة ويلبسون احذيتهم في رؤوسهم اذا طلب منهم: من اجل بقعة ضئيلة لا يابه بها الآخرون، انما يدوسون عليها بعد أيام وربما يبصقون عليها.

الاول — أوقف جدول حديثك هنيئاً، وانظر : اما زال الطائر طائفاً

الثاني — (يجرّج خطواته) : اجل، انه مقلوب على ظهره. منقاره يأبى الغرق.

الاول — انتشلته، فقد ينفعنا هذا البائس في ركبتنا المميّنة هذه ويؤجل نهش احدنا للآخر.

الثاني — يأبى ظننا الا ان يتشبّث خلف الأسوار صامداً في وجه عدو موهوم يحارب بالف سيف، ظل وجهه يكره قفاه، ظل وجهه يقاتل قفاه، اذهب بعيداً واغرب عن عيوننا ايها الطير الأسود، اذهب، فعندما تقتحت عيني وأبصرت الشمس وقال لي صاحبي — ها قد وصلنا الآن.

تتقطعت وأبصرت جسدي الظمآن موثقاً في البحر ينتظر الموت : الآن اسفرت الرحمة عن وجهها المراني.

(ينحني منقباً عن آلة يلتقط بها الطير الأسود فلا يجد شيئاً ويعود).

لم اجد شيئاً ما ارفع به جثمان صديقنا الغريب.

((ينظر ثانية ثم يصيح)).

الأول — تعال انظر، انه يبتعد عن مركبنا، ينزلق على رعشة الامواج.

((يقف الرجل الاول ويسحب جسده الى الحاجز)).

- انه ينجاب كثيراً.

الثاني - (بفرح) : البحر يتحرك

الاول : انه يضطرب فيهبز مركبنا النائم ويدفعه، يندفع، يتمايل، البحر يتشنج والشمس التي تغلق الافق على البحر تفك القيود عن مركبنا، يا الهي دعني اسجد لك سجدة تليق بتحنائك.

الثاني — لم فرحك ايها المتهالك : ايها الشقي، البحر يسحبنا الى رغبته السرية.

الاول — ماذا نقول ايها الغافل.

الثاني — اين نمضي ايها البحار الماهر !! ان رغبة البحر المجهولة تسيرنا.

الاول — لا تأبه، فهذه الامواج التي لا عقل لها قد تدفعنا في غسق صاف الى جزيرة او شاطئ ماء، وقد تدفعنا الى ارض متوحشة.

آه لنقفنا الى اي مكان غير البحر، فعلى الأرض نستطيع ان نقاتل ونحيا، ولكن هنا في البحر، نلطمنا الموجة فنحنني لها ونتضرع.

لطالما جال بفكري سؤال هو — ماذا بعد وصولنا الى نتيجة عبقرية مذهلة؟ نفرح، نتفاخر، نكتئب، ماذا؟

هل نستطيع اجابتي؟

الثاني — لماذا يولد الإنسان ليموت؟ هذا هو الجواب الثمرة.

الاول — ان الكلمات لتتحسرج وهي تخرج من فم ميبس، افضل لو نرقد قليلا حتى نتدبر امرنا عندما يلوح لنا سبيل نجاة. يتمدد الاثنان على ظهر المركب ويأخذان مقطعاً طويلاً من النوم، وبعد ساعات يرفع الاول رأسه ويهبز الثاني فيجلسان.

الاول — لاشارة تؤملنا بالنجاة، لكننا سنجدها... سنجدها. هكذا تحدثني هذه الذقات المثلثة.

يقرع اضلاعه-

الثاني —

الاول — سابيع حصتي في هذا المركب وانطلق في البر مبتعداً عن هذا الوحش، فهل تشتري؟

الثاني — انا؟ كلا بالطبع، فقد تورطت وأعطيتك رقبتني.

يظهر في ختام الافق صار بحجم الاصبع ثم يكبر ويكبر حتى تظهر باخرة كبيرة، يفتح الرجلان صنبور حنجرتيهما بصرخات

الى الباخرة التي يقف على ظهرها جمع من البحارة ينظرون اليهما، ينزل تجاههما زورق انقاذ كبير، يلتصق الزورق بمركبهما، ويقول الاول لرئيس البحارة، اين هي وجهتكم؟
رئيس البحارة — سنعبّر البحر الى الجنوب.
الاول — خذانا معكم واتركونا في اول مرفأ.
- ينهمك البحارة بربط المركب الى زورقهم ليوصلوه الى الباخرة.
رئيس البحارة — أقرب مرفأً ببعد مائتين وسبعين ميلاً.
— يلتفت الرجلان احدهما الى الآخر ثم يتصافحان ويقول الاول :
وداعاً أيتها الأيام الكدرة.
يلتفت الثاني الى البحر ويقول:
لنا وحدنا الحق في ان نكتب ما نشاء عن حياتنا، فنحن الذين خلقناها وهي لنا بحذافيرها.

* * *

الرصيف*

كانت الغرفة نظيفة وخالية، لها باب رفيع ينحشر فيه الداخل ليتمكن من العبور، وكان رجلان أولهما يحمل عصا، والثاني يترنح وكأن يداً خفية ترفعه وتمنعه من السقوط قال الاول- سنبدأ من جديد، دوماً نبدأ من جديد، ويبدو اننا لن ننتهي هه؟

- الثاني لا يجيب -

الاول - افتح هاتين الشفتين، أعلن صوتاً واحداً!

- ينتقل الى مقدمة الغرفة ثم يعود الى مكانه: -

- ماذا تجد في الصمت؟

- الثاني لا يجيب -

الاول - لن يكسرني صمتك. ليس الصمت دائماً قوة المغلوب. (يتوقف ويقول بسخرية): مغلوب!

- يمسه بالعصا- :

- كلمة واحدة من فضلك!

- صمت -

الاول - لن نتكلم. هاه؟ سأحولك الى تيار من الكلام. (متحدثاً مع نفسه: سؤال صغير ينزل الى ذلك المكان السري الذي تختبئ فيه المعلومات ويرفع الحاجز فتتحدّر الاجوبة متدفقة. جواب السؤال الاول هو المفتاح الاساسي، ثم تبقى اضاءات صغيرة تنكشف تلقائياً. ان قيمته تكمن بالمعلومات التي ستظهر حتماً، ستحل المعلومات في الاوراق وتختفي قيمته). صدى لجوقة يرجع - تختفي، تختفي، تختفي.

الاول - هل تسمع النداء؟ أصوات تنفجر من صوتي.

الجوقة - انه لا يتكلم، انه لا يتكلم.

- يضئ الاول نوراً اقوى على المقيد ثم يمسه من شعره ويرفع سوطه الى الاعلى ويضربه فيترنح ويسقط على الأرض.

* نشرت هذه المسرحية في مجموعة القطار الليلي، 1974.

- الأول - اللعبة غير المجدية تكرر. يسقط ثم ارفعه، يسقط ثم ارفعه.
- يدخل ظل الى الغرفة -
- الظل - إلام ستضربه؟ انه لا يتكلم .
- (لا يلتفت اليه، يجيبه وظهره نحوه، بتقرير) :
- الأول - كلهم يتكلمون في النهاية ويغالون تاريخاً فات.
- (يستدير ببطء ويضيف) :
- التاريخ : عين مزورة غير موجودة في الحاضر .
- الظل - لكنه سيموت.
- الأول - لن يموت. انهم يمسون اللحظة البارقة بين الحياة والموت، فنضيء لهم مستقبلهم. انهم بحاجة الى هذه اللحظة ولذا ندفعهم، وندفعهم، فيسقطون بين أيدينا.
- ينسحب الظل-
- الأول - بين ايدينا نتفتح حياتك ايها الرجل، نتفتح أياماً جديدة.
- يذهب الى جانب آخر ويحضر دلواً من الماء يصب على الرجل الملقى، فيرفع رأسه:
- الثاني - اين أنا؟ أه. أه.
- (يصب عليه من جديد).
- الثاني - اين سأذهب؟ كيف جرى ذلك؟
- (يحدق في الغرفة ويتذكر).
- الثاني - لا جديد، لا جديد ايها الرجل.
- (ينهض ويواجه الأول متضرعاً):
- لا أعلم شيئاً، لا أعلم شيئاً.
- الأول - لا تقل لا أعلم شيئاً، من يصدق؟ (الى جمهور ما:) هل تصدقون ان رجلاً مثل هذا لا يعلم شيئاً بالمرّة .
- (يتحول الى الثاني) انك تعلم شيئاً. ولنقل شيئاً ما على الاقل، فحدثنا عنه.

(قبل ان يكمل حديثه، يتداعى الثاني على الأرض، فيسرع الى الدلو ويصب عليه فيفيق).

الاول - هل تصعب عليك البداية؟ ابدأ من اي موضع وساربط الحديث.
الجوفة - انه يجيد ربط الكلام، يجيد ربط الكلام، ربط الكلام، الربط.
الاول - وانا أمين، سأطلعك على حديثك ثم تصدق عليه (يتطلع اليه الثاني، ويقول بهذوء) :

- لا شيء لدي.

الاول - اذن ما زلنا مختلفين.

(صمت)

الاول - لن نموت، اطمئن، لكنك ستتوصل الى الموت.

(يرفع سوطه ويضرب بقسوة، يسقط الثاني على الأرض)

- يطفأ النور لحظة -

- 2 -

- تنار الأضواء قليلا، الرجل الثاني وحده.

يرفع رأسه:

- الجدران تتقدم نحوي وتستدير (يغطي عينيه ويدفع يده تجاه الجدران:-) ستتكوم علي (يصرخ): قفي. يفتح عينيه): أم تراني انا الذي أدور؟ اننا جميعا ندور، أخ. عشت مليون سنة. انني اخرج من عتمة للعصور محطما، يدي في بطني، وأصابعي في رقبتني، وعيني في كفي.

- يدخل الظل-

الظل - لقد اختصرت العالم الى جروحك، لا شيء داخل الغرفة وخارجها يتحرك سوى جروحك. والنتيجة انت ستوجد مع جروحك ولا شيء خارجك، اين رحل العالم. الى اية نقطة ابتعد عن نظرك؟

الثاني - العالم في جروحي .

الظل (بحميمية) - بالتأكيد لأنه هو الذي اوجدها، العالم الرديء طبعاً.

الثاني - انك جاسوس.

الظل - لست جاسوساً، لكنني صوتك الخفي الثاني - انت تهذي.
الظل - اين تكمن الحقيقة؟ وهل تأخذ شكى نهائياً؟
وكيف يسقط الإنسان ويقف ازاء نفسه والآخرين؟ واية مبادئ على
الإنسان ان يتحدد بموجبها ليكون واقفاً او ساقطاً في زمنه؟ الأرض واسعة
فيها آلاف المدن وملايين الأفكار. ولكل إنسان مدنه. لقد تهدم التاريخ ولم
يبق الا حطامه. ستقف وحدك فوق الاطلال المحرقة، ولن تغلت ابداً. التاريخ
انتهى واذا اردت فابداً من جديد فقد نفضوا الحطام عنك واخرجوك.
الثاني - هناك كثيرون. سنجتمع ونبني من جديد.
الظل - انت احمق، تصرخ في الفراغ، تمرقك خطيئتك.
الثاني - سنبني من جديد.
الظل - لكنك لن تنجو من هنا.
(يصمت الثاني)
الظل - اذن كيف سنبني من جديد؟
الثاني - لن نتقيني الهزائم.
الظل - انت مهووس بالتاريخ المجرد، التاريخ المتكون وفق قناعاتك.
الجوقة (تردد) - قناعاتك، قناعاتك، قناعاتك، قناعاتك.
الظل - ماضيك لن يتلوث لانه انتهى.
وسيجولك الحاضر الى اتجاه آخر، الى فعل آخر.
الثاني - وضميري؟
الظل - هنا الاشكال الأخير!
الثاني - لن اخون موافقي.
الظل - تستطيع ان تتغلق على ماضيك لكنك ستفقد حاضرك، واذا اردت
العمل فتستطيعه. تستطيع العمل بطرق مختلفة.
الثاني - أرسلوك لتزليقي سهلاً اليهم ايها الجاسوس (يبصق تجاهه):
اخرج
(يدخل الاول).

الاول - ما بين اللحظتين يكون الفراغ، لكنه فراغ متحرك، ايها الغرير .
تهياً للوقوف بين اللحظتين، بين الحياة والموت. بين الموت والموت.
- تطفأ الانوار قليلاً-
يدخل شخص معلناً للرجل الثاني:
- بعد ان عدت الى صوابك !! انت مطلق السراح.(كان الرجل الثاني
يستند بظهره على الحائط فيعتدل وتضاء الغرفة مجدداً ويصبح في مكان
واسع).
- يمر شيخ عجوز -
العجوز (يتمتم): انتهى، انتهى، لم يعد الا القطار يالئي وحده وانا احوم.
من هنا؟ من انت؟
الثاني (متباعثاً): انا عابر.
العجوز - وهل تحوم مثلي حول القطار؟
الثاني - اي قطار؟
العجوز - ذاك الذي يعبر مثل الريح، قطار من ضوء يشق الهواء انني
اتبعه، اسافر خلفه منذ زمن طويل، هل تجيء معي؟
الثاني - انصرف خلف قطارك ايها الرجل قبل ان يبتعد.
العجوز - انه يقف عندما اقف.
الثاني - اذن ابتعد.
(ينصرف العجوز وهو يحملق في قطاره غير المرئي).
(تمر امرأة زاهية، تتوقف امامه ثم تسأله)
المرأة - هل انت هنا منذ فترة طويلة؟
الثاني - أه. اي.
المرأة - ماذا تفعل هنا؟
الثاني - انني ابحت عن مدينة جديدة.
المرأة - مدينة جديدة؟ لا بد ان تكون بعيدة.
الثاني - الا تعرفين طريقاً الى اقرب مدينة؟
المرأة - الطريق الذي جئت منه.
(تقترب منه وتهمس)
تعال معي، سنجوب غابات الجمال الكثيفة ونطفو في هدوء الذهن ولن
نقف أمامنا جدران المدن.

- تصمت ثم تضيف:
- ستصعد درجاً أخذاً ويحل بك دفعه الأمل.
- الثاني - انني اركز اتعابي على الأرض، انها وحدها تتحملنا الى النهاية، انصرفي.
- (تتبعد المرأة بعد ان يؤكد اصراره على البقاء - أضاءات وانطفاءات، ثم يظهر طفل صغير جميل).
- الثاني (ينادي) - ايها الطفل، ايها الطفل.
- الطفل (متفتناً) - نعم، ماذا تريد؟
- الثاني - ألا تراني؟
- الطفل - لا اراك.
- الثاني - انا هنا، أبصر وجهي، وهاتان كفاي وهذا جسدي.
- الطفل - لا اراك، انت بعيد جداً بين أوراق شجرة كثيفة تطفو على الماء، لك قدمان مثل نهايات الجزر.
- الثاني - تعال الي، أنقذني.
- الطفل - المسافة بعيدة لا أستطيع، لا أستطيع.
- الثاني - اكاد اغرق، أمسكني من يدي، خذها.
- الطفل - ان يدك تطفو وحدها.
- الثاني - (يتوسل) : انقذني.
- الطفل - لقد تأخرت، سأذهب الى المنزل (ثم يبتعد).
- الثاني (وحده، الضوء يتوسع ويكبر، الأرض الجرداء. يهتف الرجل):
- كل إنسان ينتمي الى أوهامه وشجاعات أحلامه. وبين الأوهام والأحلام يأخذ العالم شكله. والإنسان لا يأخذ شكلاً واحداً. ولا يمكن ان يجمد ضمن تخطيط يضعه إنسان يجيد صياغة النصائح.
- (يصمت قليلاً ثم يضيف) :
- أناس يرتحلون الى عدمهم، عليه. والآخرون يفرون من العدم بطرق مختلفة، لكنهم يلتفون فوق الهاوية ويحذقون على فزعهم الذي لا ينتهي. ليس للإنسان قانون حقيقي الا الثورة، أو لا يبقى للإنسان الا انهياراته التي تغترس أفراده.
- يطفأ الضوء نهائياً -.

* * *

خواطر*

* نشرت هذه الخواطر في جرائد ومجلات أدبية مختلفة في الستينات وتم تصنيفها حسب عام النشر وبشكل تسلسلي. أول خاطرة أستطعت إيجادها نشرت والكاتب عمره 18 عاما. ومن أهم المواضيع التي تتناولها هي مسألة الشرق ونظرة المجتمع الى المرأة العربية والمعيار المزدوج الذي يستخدمه الرجل الشرقي في تقييده للمرأة وأعطاء الحرية المطلقة لنفسه في ممارسة كل الأمور الممنوعة. بالإضافة الى ذلك، يتطرق الكاتب الى صراعات الحب الجسدي محاولا تارة إنكاره وتارة أخرى الاستسلام عليه للوصول الى الحب الروحي. ويلاحظ الروح الثورية الجامحة التي ترفض قيود الماضي محاولة كسر الجمود والتبعية والنهوض بالواقع الرجعي للشرق عموما وللعرب خصوصا، وحظيت المسألة الفلسطينية بجل اهتمام الكاتب حتى في لحظة مناجاته لحب " " " (ر)

خاطرة

مرت على الإنسان فترات يحس بالوحدة المرة تطبق عليه مع أن لديه
العديد من الصحاب.. هذه حالاتي.. كثيراً ما أشعر بالوحدة تكتفني فأحس
بوطأتها القاسية تخيم علي.. فلا أستطيع لها دفعا سوى أن أفزع الى قلبي
أبته لواعجى.. بيد أنه طالما نحيته عني لأغرق في التأمل والتفكير.
وطالما هام بي فكري فأعيش لحظات تنبؤ بي عن هذا العالم المليء
بالأدران والرزايا.. ورفاقي أين هم؟.

بعيدون عني.. لا يحسون بقدسية الخيال والتأمل وأحيانا تقع أبصاري
على شخص أظنه جديرا بسماع همسات ذاتي.. وقبل أن أبوح له بشجني..
أفتح صفحة طويتها فأقرأها وسرعان ما ترتد أبصاري عنه محسورة..
فأرتد الى قمقم وحدتي.. أغلق فوهته علي وأنا أبتهل أن أجد من أتبادل
ولياه الأحاديث الرفيعة والمناجاة السامية.

(1962)

الى مسافرة

لا لن ادعك تذهبين وحيدة الى البعيد.. إن الذئاب الجائعة تسرح في
الدروب وهي تنهش الصخور.. لن ادعك تذهبين وحيدة فأنا هنا.. انظري
الي جيدا وضعي يديك في يدي ولنمض معا.. لتهرئ عظامنا الثلوج
ولتلسعنا لفحات الريح ولتمزقنا الوحوش.. إنما دعيني أسمع صدى وقع
أقدامي مع أقدامك وهي تتردد من بين الأرصفة.. تدوي أن الخطى سائرة
معا على الدرب البعيد.

(1963)

خاطرة

الريح تصفع شبابيكنا.. بجنون.. والمطر.. ينهمر.. عواصف..
تجتاح النخيل.. تهزه.. في حقد مريع.. والليل.. مهاوي مرعبة.. تتكسر
فيها الأماني.. والخيالات اللذيذة.. والبرق يضيء.. يومض بعنف.. الرعد
يمزق السكون.. بشيق محموم.. الدروب لفتها الظلمة.. وراحت أوراق
الأشجار.. تندفع.. وقصاصات الورق.. والفضلات.. تزوم.. تتكنس عبر
الدروب.. والسحب.. ادلهمت.. تكاثفت.. كأنها.. نيران جيش محصور..
غاب القمر.. ما عاد شعاعه إلا شحوبا.. هلاميا.. وارتفعت دقات لا يسمع
لها منحنى.. تتذف.. كأنها نعيق أشباح.. تقلى على ألف سفود.. في أغوار
الجحيم.. وعم الصمت الرهيب.. الأكواخ الطينية.. انطفأت كل أضوائها..
لترقب الليل.. ما سيأتي به.. يرقبون في هلع.. وتتكور الكلاب.. وتموء
القطط.. وعلى الأرض تسقط بيوض العصافير.. ما عاد الغرباء إلا عيوناً
واجفة.. تنظر العاصفة المجنونة.. تعيث بهم.. يرقبون في صمت.. الموت
يزحف إليهم..

كلمات لي

الأمواج الثائرة تتكسر على صخور الجرف.. كما تتحطم أماني اليائس
على صخور الحياة.. ليحصد كل إنسان شوكة بيديه.
القدر قهقهة ساخرة بالمرصاد لكل جبان..
- جمال المرأة في عينيها.. وأنوثتها في صوتها..
- أهول لحظة في عمر الإنسان حينما يفكر في الانتقام من حبه اليائس
- ما العمر إلا قشعريرة من خيبة ورعدة من فرح وسرعان ما تخبو
وتذبل كأوراق الخريف.

- الحب سيل هادر يجرف بلا هواده أدران النفوس.. والحب الأعمى
يجرف الأدران والعقل.
- من يشعر بالحب يدرك سر الحياة..
- الأم مشعل ينير درب الأطفال.. والحببة حزمة باهرة من الأضواء
تنير للفرد ذاته.

(1964)

همسات

قال لها..عينك بحيرتان من عسل.. بموج فيهما.. الأمل البعيد.. لغد
سعيد..وتسبح في رحابها.. شعاعات الأفق.. التي ترنوا أبدا.. الى المدى
الساكن.. فيا حبيبتي.. دعيني أعيد عينيك.. وأغرق في جمالهما..
تمضي الأيام.. وتعدو السنون.. وتبزغ الشمس.. وترحف الليالي..
والذكريات تظل أبداً ذكريات.. يتلهى بها الهائمون.. السارحون في القفار..
ينقبون عن غدهم.. وراء الصخور.. ويفتشون عن نبع صغير.. يقعون
بجنبه.. كأشباح تائهة.. يمجدون الماضي البليد.. ويرتلون آيات الهوى
السحيق...

(1964)

خاطرة

البقاع الجميلة.. تبدو نضيرة.. بلا ضياء الشمس.. فالجمال لا يزهو
بالمؤثرات الخارجية عليه.. بل سمة الجمال تبدو جلية للعين ذات المرأى
العميق.. فالسطح لا ينبئ عن العمق.. والموت لا يعني الانتهاء.. والوجوه
الياسمة لا تعني الترحاب بك.. فثمة ابتسامة واسعة تحمل أدراجها مهوى
فناء.. والدرب حين ينفتح أمامك.. ممهداً.. لا تتطلق فيه بكل قواك..
أفتدري ماذا يضم لك المنعطف؟ والفتاة حين تبسم لك.. لا ترم نفسك.. وإلا

سيأتي اليوم الذي تبيع فيه نهارك بعتمة الليالي.. وذلك الوجه الأصفر الذي
مر بك.. إنه يمضي.. إلى الانطفاء.. والحد يهشمه على الدنيا.. وضحكة
ملأى بالفحيح تنفطر منه.. يخدع بها الأنظار.. يزين بها وجهه الكالح..
والغيوم حين تنمزق مطراً.. لا يعني أن الزرع سيحيا وينمو.. ويعم
الأعصان الأخضرار.. وتتفتح الزهور.. بل ربما تجلب الصدا.. فالبقاع
الجميلة.. تبدو نضيرة.. بلا ضياء الشمس.

(1964)

خاطرة

حبيبتي، الي أنصتي.. أنصتي بقرارة أسماكك.. كي أناجيك.. وأسمعك
مزموري الهامس.. وأشدو لك أنغامي الخفية.. إنك إن سمعت.. قلن تسمعي
إلا صدى.. يلاحق صدى.. وهي تردد.. أحبك.. أحبك.. -
حكى لي الشيخ النحيل.. قال.. هناك على الربوة.. فوق الوادي
العميق.. وحيث الليمون والزيتون.. كان كوخ الصغير يهجع ثاوياً.. وفي
أحد الأيام.. ارتقى اليهود الربوة.. وطردوني من المنزل.. وصرخت بهم..
أيها القساء.. لم ترموني عرض الطريق.. ألا أنني عربي يجري في
عروقي لهيب البادية وتصدح في أنفي عاصفة الرمال.. أيها الرعايد.. لن
أهاب نيرانكم.. سأضمد جراحى.. لألقيكم في البحر.. الذي أتيتم منه.

(1964)

خاطرة

إننا في العراق.. نشترى الحزن.. نفوسنا قاتمة.. نتجث في كل
المناحي.. في المجالات المختلفة.. عما يثيرها ويهزها.. ويجعل الدموع..
تتدحرج من العيون..
إننا نهوى الحزن.. لما يحمله من مرارة وألم.

إن لمنيع الحزن.. الذي يزخر في جوف كل منا..أسباباً عديدة.. وكل نتيجة تتلوها الذكريات الوبيلة.. إننا لو نسينا الحاضر..وثقينا جدار الزمن.. ونفذنا منه الى الماضي.. لرأينا السبب.. في الاستعمار الطويل.. مزرعة الظلم والقسوة.. والاستعباد والرشوة.. وفي الكوارث العسيرة التي مني بها العراق.. وفي الفقر الأسود.. الذي ضيق دنيا الناس.. أماداً طوالاً.. فعمت النفوس.. واستروح الناس الى الحزن.. وجد الناس لذتهم في الحزن.. فطابت ليالي سمرهم في حكايات المآسي المخيفة.. وحتى أغانيها.. لا ننفلح بها.. إذا لم تكن مثقلة بالواقع الحزين.. والموسيقى لا تشدها الى أذاننا.. أنغامها البهيجة.. إنما نهنف حبوراً وطرباً حين تعلقو نغمة ناي حزينة.. أو مجموعة من الأنغام.. مترعة بالجرس الأليم.. إن الغروب حين يزحف.. لا تطيب نفوسنا لمراته العذبة.. إنما تهفو الى قرصه القاني الذي يعمل في أعماق نفوسنا..

(1964)

خاطرة

لا تقرأوني.. أيها الأصدقاء.. إن أوسع ما في الوجود.. السماء.. إننا لو غرقنا في الظلام.. سنحس.. أن السماء فوقنا.. واسعة تحتضن الأفاق.. كيان طويل هادئ.. أزرق شاحب ليس صفحة جامدة.. إن العابرين لا يرون السماء تنبض.. لأنهم يمضون سريعاً.. يتخطون وجودهم.. ينظرون الى الأرض.. يبحثون في قمامتها.. عن أشياء تلتهم.. وحين تتفغر هوة تحت أقدامهم.. حينذاك يصعدون أنظارهم الى السماء.. بعيون تملؤها الدموع.. ولكنهم لن يروا شيئاً.. إلا دموعهم.. فتحترق عيونهم.. يموت رؤاها.. فيضيق الخناق.. وعندئذ يصرخ الإنسان ملء أعماقه.. بصرخ.. والصدى صامت.. لا يحركه الأتني.. ولا الرياح.. ويظل الصراخ عالقاً.. يرن في أذنيه.. كقرع الأجراس.. وينظر الى السماء.. فتمر السحب كثيفة.. فيرفع أظافره ليمزق عقله.. بيد أن قواه

تتلاشى وتتلاشى.. فيسقط على التراب.. وحين يسري الانتباه فيه ثانية..
يكون قد بكى كل ماضيه.. وحينئذ يرى السماء..
أما الإنسان الذي لا يبكي.. فيمضي متخبطاً.. بين الصخور.. نحو
الانجماد..

(1964)

خاطرة

على حدود.. أرض فلسطين.. في ليلة شتوية.. سمعت صوتاً طفولياً..
ينادي.. من جوف خيمة.. من أين نحن.. أمه؟. وخيمتنا العتيقة..
الممسوخة الأركان.. ييصقنا فيها النهار.. نلحق أطرافها، والغبار.. خيمتنا..
تنزف منها الليالي.. حبات تلج.. ودفقات من الأمطار.. والدنيا السمراء
هذي.. دنيانا النائية.. مصدورة يوجعها المخاض.. من أين نحن.. أمه؟. ما
خطب الفجر يموء.. والليل يمزقه الريح، والسعال.. والغد يزحف على
ركبتيه متعباً هذه الفرار.. يصفع قلب الخيمة.. باحتصار.. وأحاله، أمه،
دوماً.. بل المس كفيه الشاحبتين.. تفتح عيني.. تغمس فيهما حفنة من
ضياء.. وأسمعه يقول.. أي صغيري.. تلك هي.. ويحملني على كفه
الطويل.. ويطلق الأخرى للأمام.. تلك هي.. غابة الزيتون.. وذاك ساحلك
القديم.. وتلك هي الدروب، التي لوثها الأفعوان.. ويهدري.. ستحمل
الصخرة يوماً.. وتلق رأس الأفعوان..
من أين نحن.. أمه؟ ولم نحن.. في هذي القفار..؟

(1964)

خاطرة

هو الذي خبر كل شيء فغني بذكره، يا بلادي..
ويصعد النشيد عالياً.. الى أعماق السماء.. ترتله الآلهة.. بين لحون
المزامير..

ذلكم كلكامش.. ألا تعرفه.. سأحكي لكم.. حين كان كلكامش يمر في دروب أوروك.. يفر الناس.. لم يغلبه أحد.. وأصاب البابليين الذعر.. فأخبروا الآلهة.. هات لنا رجلاً يصارع كلكامش.. فجاء أنكيكو يسعى إلى أوروك.. وتصارع البطلان في أسواق بابل.. أياماً طوالاً.. لم يفز أحد منهما.. فقبل بعضهما بعضاً.. وأصبحا رقيقين.. أخوين.. لا تصدهما قوة.. قتلا ثور السماء.. مخلوق عشتار.. حين التهم أفراداً من أوروك.. وقطعا أشجار الأرز وقتلا حارسها العملاق خمبابا.. قطعاً الفياقي والقفار.. اصطاداً كل الحيوانات..

ومرض أنكيكو.. فأخذ كلكامش يبيكي عليه.. وحين مات أنكيكو.. هرع كلكامش يبحث عن الخلود.. قطع جبل ماشو الذي يقف على بابهِ البشر العقارب يحرسون مشرق الشمس ومغربها.. وعبر مياه الموت برفقة أور-شناي.. ووصل إلى جده أوتو-نيسشم.. فدلّه على الخلود.. وأخذ كلكامش نبات الخلود..

وحين عاد.. متقلاً بالتعب.. جلس قرب نبع يشرب.. فسقط منه النبات.. وسرقته حية.. فأخذت تجدد به شبابها.. هذه الملحمة العراقية الملفوفة بالضباب.. أنشودتنا العظيمة.. هل قرأتموها يوماً؟

(1964)

خاطرة

في الجنوب.. حيث الأرض الواسعة.. وسنابل القمح.. وعيدان الحلفاء اليابسة.. والفلاحون المعروفون الأبدان.. والأكواخ الطينية العتيقة.. في الجنوب.. من بلادي.. تطأ ثقل الأرض.. المستنقعات الشاسعة.. المليئة بالشلب.. والبردي.. والأسماك.. والأفاعي.. تولد ملايين الحشرات.. وتمور الأفاق بأجمل الطيور..

في تلك المستنقعات.. حيث تطفو البيوت فوق المياه.. وتموت الدنيا في الليل.. فتصمت المجاديف وتسكن المشاحيف..

في تلك الأصقاع.. يا أخوتي.. يمضي الرجل يومه.. غاطساً في الطين.. تحت الماء.. يزرع الشلب.. ويرعاه..

ويوماً بعد يوم.. تنهرس رجلاه.. يأكل الطين عنفوانهما.. وحين
ينام.. تحرسه زوجته.. لئلا تأكل الكلاب قدميه النائختين..
ذلكم أبناء بلدي في المستنقعات.. إنهم أخوتنا.. إنهم لا يعرفون
الدنيا.. فلننر جانباً منها.

(1964)

خواطر

إلى أين تمضي؟
ناداه.. لم يابه.. استعطفه.. لم يلتفت.. فصرخ به من أعماقه.. إلى أين
تمضي في هذا الليل البهيم.. وتحت هذا الوابل المجنون من المطر..
إلى أين أيها الصامت..
إن كنت تبحث عن مرفأ يضمك في رحابه.. فالمرافئ بعيدة عن هذه
البراري الفاحشة.. وإن كنت تبحث عن النجوم فإنها لا تظهر هنا.. الليل هنا
طويل.. طويل.. والبرد هنا كالثلوج.. إنك تمضي إلى المقابر العتيقة التي
تراكم فوقها الغبار ونهشت حوافيها الرياح..
أنني اهتف.. مهما سقينا الصخور من دماء قلوبنا فلن ينبت فيها
زهور.

لن تذبل الزهور

همسات الليل تصل الي خافتة معشوشبة.. الهمس المرتعش.. إنه
يدغدغ أسماعي.. فيمر الوجيب متدفقا في عروقي.. متخطيا كل أحلامي
النديّة.. فتصرخ سبعة وحوش أسطورية في خيالي..
إن (...) لا تأبه بقلبك الصغير الذي يخفق كمذبح ذهني محشو
بالقنابل..
ويصرخ آخرون.. أيها الواهم إنها ترمقك بأطراف عينيها..

سأحمل لك يا فتاتي خمسين باقة زهر.. بيضاء.. أنقى من اللؤلؤ عند
كل غروب وأصفها في حافة نافذتك.. ثم أمضي.. فان فتحت نافذتك
فستجدينها.. ربيعاً كبيراً.. وإن تركته موصداً.. فستبذل الزهور.. باقة إثر
باقة.. وهي تذرف دموعها بصمت عميق..

قال لها

قال لها.. تعالي يا حبيبتي نمضي وسط الحقول.. وعلى الضفاف
نجد.. ونمضي بعيداً.. الى التلال.. نقطف الزهور البرية ونشم النسيم
الطري.. فالعيون المجدورة.. التي كانت ترصدنا قد فقاها الثوار.. فهاتي
يديك.. لنمض..

(1965)

العطر والرحيل..

-1-

حبيبتي، الي أنصتي.. بقرارة أسماعك، كي أناجيك.. وأسمعك
مزموري الهامس.. وأشدو لك أنغامي الخفية. إنك إن سمعت، فلن تسمعي
إلا صدى.. يلاحق صدى.. وهو يردد - أحبك.. أحبك..

-2-

أنت يا محارتي الذهبية.. إن طغى المد الرهيب.. وجرك بأذرع
المعروفة.. معه الى الأعماق المجهولة.. فلن أنساك يا محارتي الذهبية..
سأقعد أبداً على صخرة الشاطئ، وانتظر هنالك.. وأنا أنشد من أغوار
أعماقي.. لن أنساك يا محارتي الذهبية.

(1965)

الهجرة الثانية*

الدنيا لحن عذاب يقرع صدري.. دندن فيه الخراب.. النهار راح
والانشراس.. ويدور الناعور يغرف من قلبي يصب في حفر ظلماء..
المعاول ما زالت تصك الصخور منذ ما بدأت تمشي الدهور.. وعلى
أطراف السهول الحزينة تتجمد الخيول والمسافرون وتتخمر سحب
العزيمة.. وستظل الدنيا والسماء.. والناعور يغرف من قلبي ليصب في
حفر ظلماء..

ارتطمت على شاطئ عينيك.. وكانت الجسور قد تهدمت كلها..
وصرخت وحوش قلبك.. أيها الآتي من أقصى الخريف مغطى بالغبار.. لن
تصل.. ولن تفلح في تخطي الجدار.. وحين نرحل.. ستزحف عليك أفاعي
الوحشة.. ويكون الليل آنذاك. أغلق شبابيك السماء..

جبينك النضاح بالهوى.. مر من فوق الغسق.. يحمل الصمت.. يسحب
باقة من أنظاري الذابلة.. وكنت متعلقاً بهواية اللفة.. شرعت أمدد قلبي
المتيبس.. لكنك تمضين.. وصوتي المدمي يعبر الجدران - هتفت: يا
بسمتي الحجرية.. يا ناعوراً صب الطمى على جنتي المسكينة.. يا ناعوراً
أغرق أعماقي ودحرج انتظاري الى سورة من ضباب.. من جرف الى
جرف.. من غربة الى غربة.. من لفة الى لفة.. ثم أنشر شراع رحلتي
إليك.. أمزق تيار المحال.. لأتسلق الزهرة وأموت بين أوراقها..

(1965)

* نشرت هذه الخاطرة لمرّة ثانية عام 1966 تحت عنوان (ثلاثة أصوات مذبوحة).
(المحرر)

كلمات النهاية

-1-

حين يكتمل النصر. وتتحقق أهداف المهمة. أعود بالمعنى.. فإذا أخفقت. سأجمع أشلائي في قارب قصبي. وأترك صديقي النهر يحمله. يلقيه تحت أنظارك. ولو حلما. لتعرفي أن الرجال يموتون بجذوى. ولن أتورع حينذاك عن الصراخ. بأنني أحبك...

-2-

من صمت الغفوة المفرغة. من رؤاه الحزينة المثقلة بعناقيد الألام.. ينسج أحلامه العذراء الحبية، المحاطة بالعنفوان البريء.. فيتخطى العجز ومناعة المستحيل، ويصل مهدود القوى.. مغلق المحجرين.. مرتطما بالفراغ ثم الحطام.. ويلقى الليلي مقابر سرمدية.. طويلة، فيبدد أحلامه النبيلة.. يشق أنظاره على ربوة النهاية، سور المدينة الإلهي.. فيصرخ في أعماقه الحيرى حس مريع أملى مسافر مرتعب، أطاش صوابه عواء الذئاب، نعجن حبنا ونخيزه للسراب.

-3-

أيها الصياد الهرم، عبثا تطوح شباكك، في هذا البحر الأزرق الطويل. وسنارتك الصدئة يفوح منها العفن، دع الأسماك تغوص في الجوف الأصم. تأكل عيون بلوطون. ذلك الإله الحقيقير. الخائر في قيعان البحار. يزرد بيوض الحيتان، ويخفق الأسماك الصغيرة. أيها الصياد. ضع شباكك. على كتفك الواهن. وانصرف الى خيمتك البالية. وأرقد الى الأبد. على أنرعة الشياطين.

خاطرة

قال لها.. لو تريدن الشمس جوهرة تزين جيدك لجلبتها لك وعلقتها بخيط الآفاق.. ومن النجوم أتسج وأبني قصراً لك.. فنظرت إليه وأغمضت عينيها.. وتاماها في أحلامها..

(1965)

خواطر

سألته يوماً ما.. هل تعرف ما هي أعماق قلبي.. فقال لها.. من بسمه
الشيطان.. ورقص الخمرة في قعر القدر.. وركوب الملائكة البيض في
العربات الذهبية وهم يمجدون الله.. ومن قهقهة الغربان.. ووداعة الثعالب
حين تنصب الكمائن.. جبل قلبك الصغير.. يا حبيبتي الحسنة..

(1965)

كلمات للأرض

-أصوات للدم العربي الذي تفجر في 59 ولم يهدأ-

-1-

لم تصرين على العبور أيتها الأماني القاسية.. تخلفين آلاف الناس
يخبون في قلاع المدينة.. تدعين العصافير المجردة من الريش تهز
الأجراس، وتصب الجنون في الرؤوس البيضاء.. إنك تهربين حتى من
الأحلام.. تنزلقين ذاهبة في النهر بلا رجوع.. لكن اسمعوا أيها الأصدقاء..
أيها المختبئون في الأزقة المعتمة.. وخلف الجدران.. يا من ترتجف قلوبكم
من ثقل النعمة.. اسمعوا.. إن العصافير لن تهرب من أنفاسكم المكتومة ولا
من عيونكم الخبيثة في الظلام.. اخرجوا إلى الدرب.. فالمدينة ستعود لكم.

-2-

تريدين أيتها المحزونة العينين أن أكتب لك عن الحب والدنيا الحلوة..
والنار تلتهب في الموقد وأنا أمدد قدمي على سجادة وثيرة وعطرك يملأ
صدري.. ألا تسمعين العاصفة ترمجر في الدروب.. والعسس تصطاد كل
عابر.. والأصدقاء تشدهم نواير الفرصان إلى المذبح.. ابتعدي عن
خطواتي.. فلن أبصر بعد اليوم إلا الموت.

-3-

سألني عن الشاعر فلان.. أستاذي الذي جعلني أكتب فوق الوجوه الخلفية

سخط الحقيقة.. فقلت له: هو في السجن.. قال: عجباً - إنه لم يسلم منه في كل العهود.. وقلت: لأنه لا يعرف أن يبتسم للذين يصفعونه.. لا ينحني للريح التي تداهمه.. ولا يمد يده الى مائدة الطغاة.

-4-

تلكاي أيتها الدموع في المآقي.. فالدم يزحف من تلك الدروب الناقمة.. وأيتها الجروح كفي عن النزف.. وقفي الخذلان واطرديه خارج الأسوار ولنمض جميعاً بعزم.. فالنسر قد هزم ولن يستطيع الفرار.

(1966)

من دفتر الخيبة

-1-

يا حبيبي السمرء.. أرسلت بالأمس تقولين - ابتعد.. فأهلي سيوف.. غارقون في صرامة السنين المتعصبة.. والزهور المزروعة خفية في أرض صمتي لم تتفتح بعد.. فلا أريد أن تدوس في دربي.. قلت لها - كما تشائين.. وإن أردت أن أتغيب عن عينيك الى الأبد فسأفعل.. ولن أخطو أمامك ثانية.. لكنني سأراقبك من بعيد.. أجعل دمي ظلك.. عيناى اللتان تفتحتا عليك لن تغمضا إلا عليك.. يا حبيبي السمرء الصغيرة.. سأنتظر الشمس الضالة عليها تشرق يوماً على قلبك.. سأنتظر الى آخرتي..

-2-

حين ابتدأنا الرحلة.. ملأنا قلوبنا بالعزيمة.. وكانت الخلجان ترتجف تحت أقدامنا.. ونظرنا الى المدينة الساقطة في العتمة وقال لنا الريان المحنك - ما ضركم لو انتظرتم الفجر ثم تبجرون.. وبقينا واقفين نمد أبصارنا في جوف البحر حيث يتقلص القمر الجاف.. وقال رفيقي - لن يبرغ الفجر على هذه المدينة.. فحتى الفجر يكرهها.. وحتى الفجر يبقى صامداً وراء البحر بعيداً وجلاً.. ماقتاً.. فأنت أيتها المدينة الملعونة تسدين

أبوابك بوجه الشمس والسلام والحب.. توغلين الغبار والجفاء في عيون
شبيبتيك.. لكن البحر سينتفض يوماً ويجرفك من جذورك الى النهاية..

-3-

حبيبتي.. أيتها الكلمة الطيبة.. لقد أمانت صفاؤك عسكر هذه المدينة..
نزعوا عينيك ورموها في الصحراء.. وبنوا أمامي سداً من صخر الجفاء..
حبيبتي لو سمعت يوماً.. لو سمعت.. عن فارس خب حصانه مع الريح في
روحة لا عودة منها.. وعن مرهق ذابت خطاه في البحر ومات.. فهو أنا..
أنا الذي بنيت في عينيك كوخى ومرفأى.. وكنا لى الشمس والأرض
والمصير.. لكن أهل هذه المدينة لا يفهمون إلا الموت.. وما دامت النهاية
قد حتمت علينا فلنتقبلها مرغمين..

(1966)

أسفار

-1-

جر رغباتك المتأكلة أيها الفارس المنحدر.. اسحب همومك وصبراتك
واجلس خلف التلال بعيداً وتجرع كأسك وحيداً، فالمدينة لا يدخلها إلا
الأقوياء.. ولا تتفتح زهورها إلا للمتصرين..

-2-

امتدي أيتها السحابات في أعماقي وتكديسي على جيبيني أيتها الغربان..
فأهلاً بالرحلة الى الأمام.. حيث الضباب يلطم بطون عيوننا.. أهلاً
بالمجهول في الرحلة الختامية.

-3-

أيتها الحاملة فوق جمجمتك شارة الزهو.. الأيام تنهار أمام الجليد يا
ذات الوجه الهارب.. تلكأي وانظري هذا الواقف على الحافة يحدق الى
نبوتك.. ألقى إليه نظرة خاطفة.. سيتلقفها ويموت سعيداً..

-4-

لو أصبح الفارس صديقي في يوم ما.. لجئت وانتزعتك من هذه المدينة
العفنة. وجعلت البحر بيتي، حيث المحاذير تتساقط الى القاع وتنتهي..

-5-

لو كان قلبي زهرة لزرعته على باب بيتك لكنه دم ثائر أخشى أن
يبطش بالعابرين..

-6-

لنتوقف يا رفيقتي.. لقد أتعبني التجوال.. سأقول لك.. إذا كان ثمة لقاء
فسيحذث في يوم خارق، سأدخل غرفتي وأغلق الباب.. ولن يهمني بعد ذلك
إن كانت الشمس شارقة أو الرعود تمزق السماء.. أليس هذا هو الصواب
يا...؟

(1966)

أصوات

-1-

حين فقدنا الإرادة.. توجبت علينا الهزيمة.. لكننا تعلقنا بظل الالتهاب..
ومضينا نبنى المدن ونغسل الجزر بالسحاب.. وعيوننا تمتلئ بالدخان وهي
تقذف القوافل تبحث عن مرافئ.. نستلقي عليها ثم نذوب..

-2-

ما أسوأ أن نبحث عن أعين نلقي فيها أيامنا الجديدة.. نلقي فيها قرح
مدينتنا الهرمة.. وأغنياتنا القديمة تصلدت في أفواهنا.. إننا نطرح الكلمات

في الدروب الوسخة الموحشة.. ولا من باب يفتح يدعو.. ولا من قلب
يلهف لنا.. سندخل المغارات ولتصب السماء النار..

-3-

إن خيبتنا تدق الاندحار في وجوهنا المغيرة التي تكلس عليها صدا
الأيام الصحراوية.. والتوجد يظل يصرخ فينا.. أنتم أيها المنكشون على
وجوهكم.. ستظل النواير تصب فوق جثث قلوبكم زيت الخذلان اللاهب..
فأنتم أنتم الطريق بمشيئناكم..

قصة

أيها الملاح القاسي الوجنة.. اضرب هذه الموجات الشرسة بمجدافك
الثقيل.. فالبهر أسود الطوية.. لا يرحم ولا يقدم لراكبه أي ترحيب.. فترصد
لما تبقى في ساعدك من فتوة.. تلك المدينة الناهدة.. تذرفان خطاك الثابتة
وجأشك الذي لا يني.. إنك قبلت الرهان في ليلة الخميس في حانة - الأمل
- على الإبحار إلى الجانب الثاني من البحر.. ومضيت والآن ارتفع صدر
البحر.. والليل وشيك السقوط.. وها أنت تجار..
- أنا الأحمق، أيها العالم، قذفت وجودي في الضباب، بعد أن تبيس
عقلي.. أه لو أعود.. لكننا نحن الحمقى عندما نموت نعرف أننا كنا أحياء..
قفزت سمكة رفيعة ثم غاصت.. وبدأت ريح سريعة تتزحلق فوق
الموج.. (1966)

البحث عن المرفأ الضائع

-1-

جبت المدن وجزائر الوفر المهجورة.. أحمل يأس الثواني المفرغة..
أبحث عن عينيك الغائبتين.
الأماني تقطعها الأرض المتبيسة المصير ودقات الأنهار عند النداء
الختامي ترن.. أنا وأنت أو لا كلانا.. نختم طواف القافلة.

-2-

وجه المدينة النائي لاح أمامي في جبهة الضباب.. ناديت مدينتي.. أنا
ههنا مقررور في الغربة.. الأشواك.. الحجارة.. الأبواب.. تومئ الي.. أيها
الغريب.. أيها الغريب.. أيها المرتحل لن تعرفك فتاة عذراء ولا درب له
نهائية.

-3-

زهرتي الجميلة إنك تتألفين في مرآة الشمس.. هل سمعت بالومضة
الآخيرة.. إنها ومضتك النهائية.. إنني أرقبها من وراء النافذة.. سئبلين
ويغدو شذاك تبغياً.. ويهصرك بين أصابعه المتشنجة.. يفتت وجهك الداكن
ويطوح بهيكلك البالي خارج البستان..

(1966)

الفارس والنهر*

المنظر: فارس، طريق

صوت الأرض: أنت أيها الراحل في نهر الظلام.. علام تقذف بمركبك على
غير هدى.. اتكئ على الشاطئ برهة.. واستمع الى
صوتي.. صوتي أنا الذي تيبس من الهرم وغاصت الحكمة
الى قراري.

الفارس:

صوت الأرض: إنك تترك المدن العامرة.. تسوقك الهزيمة الأزلية، حيث لا
قلب يخفق لك في هذه المدينة.. ستدق أبواب الشمس
الموصدة تتوه في صحراء عينين لا نهايات لها.. وتسقط
أخيراً.. تجند لك أهداً مرفعة..

الفارس:

* نشرت هذه الخاطرة في جريدة صوت العرب، 13/1/1966 وفي مجلة جمعية
الطيران العراقية، شباط 1966، العدد 2.

صوت الأرض: انكرني وامض.. ولتحفظك مشيئتي النادرة والامثال..
(الفارس يسير في طريق طويل.. ممتد الى القيامة)
صوت القمر : ليغسل ضوئي الصافي دربك أيها الفارس.. وليمح الشر عن
مواطني خطاك.. لكنك تمنح وجهك للغيب.. الظامئ لا يرويه
ماء البحر.. والميت لا يحيا مهما كانت الصرخات حزينة..
الفارس: ...
صوت النجوم: تقدم أيها الفارس التائه.. تقدم الى الجانب الآخر من الظل..
حيث يهوي التائه والحائر والخائف.. تغترفهم الجدران
الأبدية..
صوت الحجارة: تقدم.. فصلايتي ستجوس بيقينك.. وعلى قبضاتي ستخط
نهايتك..
صوت القدر : أيتها اليوم حومي على هذا الفارس وأغرقه برفيف أجنحتك
المهلكة.. واملاي أيتها الأشواك برية أحلامه..
الفارس : أيتها الأصوات دوي.. دوي.. زعزعيني.. اخترت.
(1966)

كلمات الى الغد

- إننا نخلق حياتنا القادمة.. ولنا وحدنا هذا الحق.. وحينما يصل الغد
سنقرر أشياء أخرى.

-1-

ها أنا مطروح في الصحراء ممزق الصدر.. يلفحني سراب عينيك
القاتل.. أرثي اللحظات المتخذرة التي ربطت في ظلها قلبي..إنني ألمحك
من عل.. تمنحين وجهك لكل عابر.. تبحثين عن وجه دافئ السريرة.. وعن
أصابع تخرج عمودك الفقري من فمك بشره مميت.. فتملأ بسممة السخرية
رأسي.. وأحزن ضحكاتي المتشنجة.. وأغرق هزيمتي في البحر.

-2-

على شاطئ عينيك حام غراب أسود.. وكانت العاصفة تتجمع على
جبهتي.. هتفت.. يا بحر عينيك.. يا مدفني المحتوم.. لقد مضيت في العتمة
تشل عظامي اليأس إغماضة عينيك.. لكنني توقفت.. وصرخت بالمدينة..
أيتها الشاحبة.. وداعاً.. فغداً سأطمح وجهك الرتيب وأحمل قلبي إلى خليج
صاف، أجد فيه ذراعاً مريحة، أتكى عليها، وأموت..

-3-

بصوتي المجرور من السنين العاجزة.. أمد كفي إلى الأيام الآتية..
وناعور هرم يسحب سنابك الماضي على صدري.. وأظل أهتف في مدينتنا
المهجورة.. وأطرق أبوابها المغلقة.. ومن درب إلى درب تهوم نداءاتي..
والعيون يابسة والقلوب موصدة..

-4-

الغد يجيء.. قال قلبي الذابل.. ونمحو لوعات الترقب.. في الغد
تصطدم على ضفة بسمه صادقة فتسترد أنفاسك الجافة.. وتلج في عنين
امحت منهما الضلال.. ولن تجثو منتظراً من يحفر لك قبرك.. فالخطوات
داست وجه الحقيقة..

-5-

يا غداً.. يا صيفاً غيبت مأذنه الشمس وامتد إلى أقدام القيامة.. يا لوحاً
سأخط حروف مشيئتي عليه.. افتح بابك لأدخل..

-6-

أيتها الأمنيات البائسة، لا ترتحلي، فلن أدع خيبتني تطفو على أسوار
الإرادة.. امكثي بين أضلاعي وانتظري المصير..

(1966)

مفاعلات متناقضة

-1-

في شمس عينيك أزهر حزني يا معذبتني.. الرحلة مضنية والفارس
أنهكه الصبر.. ألغيت المسافة ما بين قلبي وقلبك وكان يحتم علي أن أعبّر
غاية اليأس.. نقشت في أول الطريق علامات عزيمتي.. ثم فقدت حضوري
عندما أغلق التناسي عيني.. هب لي يا رب القلب طريقك لأزرع لك زهرة
أبدية ثم أموت.

-2-

بحثت عنك في المدن المختلفة.. وطرقت الأبواب المقفلة.. وحين
وجدتك وضعت القيد في يدي ثم انطلقت هاربة.. وكسرت زجاج السماء
بقيودي فلم أجذك.. يا فتيات الأرض.. من منكن تريد قلبي؟ فلتأت وتأخذ..

-3-

حين انحدرنا من الجبال الجليدية.. سمعت صوتك في قلبي مبعداً
الوحشة.. مالنا أعماقي.. حبيبتني: الأشجار ميتة والتلج يحطم خطانا.. وأنا
أنكفي في العيون الغريبة.. ولا من باب أستطيع قرعه ولا من كلمات تسطع
شمس الحب في شطآنها.. ليأتي أعود لأعانق عينيك الدافئتين وأسلخ تغربي
الشريد.

-4-

خذ وجه الأرض في سفرك.. وارم الحظ في وطن البؤس.. وتحرر..

-5-

اغرس نارك في قلبي واقطع عني كل الأبعاد..

-6-

أيها العابر الى أقصى الأرض المهجورة.. خذ زهرة قلبي وازرعها
تحت الجليد..

-7-

اسمع صوتي يا موت.. يترنح في أقصى الرؤيا خوفي.. ترتعش
الأغصان المكسورة فوق جليد القلب الهاتف للحب.. ما من جدوى.. ما من
جدوى صوب مرافقنا تتحدر السفن المنهوبة.

-8-

في بئر الخيبة سأقذف يوما تنهداتي.. وأتحرر..

(1967)

جدار الساعة الثالثة

-1-

أه حبيبتي.. القراصنة يملأون الأفاق. يبتغون جسدي ليوثقوه في
البحر.. إنني أحملك في دمي ولن أدخلك الغابة السامة. سأهدم جدار هذه
الأرض. ونعبر الحراب والمحارات السحرية. أه.. أه.. أعبدك.

-2-

ما أضيق هذا البحر.. زورقنا السهل لا يمر. وعلى الجانبين يرصدون
توحدنا.. المياه تغيب.. ونعلق في أعماق النهاية.. سأمد جسدي في الشمس.
أصيح: أنصت أيها النسر الجائر.. سأغرقك بدمي لأتحرر..

-3-

ذلك الطير.. وتلك الورقة الخضراء في الخريف.. والقناديل المطفأة
على البحار.. تبحث عن الغريب.. المنفي داخل وعيه وذلك الغريب.. وتلك
التلوج التي لن تمحوها شمس. ترتجف في العيون.. وسماء لا تنتهي.
قفي يا بغداد؛ ولنتصارح حتى الموت.

(1968)

خاطرة

لدى كل امرأة شيء ما يلفت نظر الرجل.. قد يكون الأنف أو العينين
أو الشعر أو الشكل العام.. والمرأة الجميلة هي المرأة الرقيقة التي تنثر في
الأعماق خفقة عند النظر إليها. أنا أمقت مواد التجميل لأنها تزيف المرأة.

(1968)

الشجاعة

هي الجنون أو الموت

-1-

لأننا نمارس التزييف في كل لحظائنا.. نمارسه حتى مع أنفسنا.. كان
البحث عن الصدق والنظافة هو المصباح الذي يضيء أيامنا الغائبة..
وعندما نجد الصدق نشك فيه.. لأننا لم نتعود عليه.. إننا نخادع ونخدع..
وهي اللعبة التي تشدنا إلى البقاء في المباراة.. عندما نتحدث لي فتاتي
عن الآخرين.. وتبتسم لهم أكون مقتولا.. وعندما تروي لي عن حبيبها..
أهرب.. لئلا أموت مهاناً.. وتقول لي: لو لم أكن صديقة معك.. لما تحدثت
لك عن علاقتي بعالم الآخرين والأشياء.. إنها صراحة مخيفة.. إنها شمس
جديدة تضيء نهاية أعماق الشرق.. وأرتعب من كوني ملامساً لقشرتها..
وهي تقسم لي بأنها في.. أه يا فتاتي.. إنني رجل بائس من الشرق رجل
صحراوي فاعذريني.

-2-

أنا أَرغب فيك.. وأنت ترغبين في.. وترتعد هذه الرغبة على السطح فقط.. ثم تنتهي محسورة في أعماقنا، متعقدة لماذا نكون حركاتنا رغبات فقط.. إنه السجن الأزلي، الذي نصرخ فيه: وننعى أنفسنا.
إن الزمن الذي نكون فيه متألقين.. هو الزمن الذي نحول فيه رغباتنا الى أفعال.

-3-

الشجاعة هي الجنون أو الموت. والاستمرار الطبيعي في الحياة هو الجبن فكيف يمكن أن نكون شجعاناً بدون أن نموت أو نجن وكيف نستمر بدون أن نكون جبناً.. هنا يكمن التوتر النهائي الذي يخلق الازدواج: وجه يبتسم ووجه يعبس..
إننا ملزمون بأن نحيا في هذا التراكم.. وتتضاعف حياتنا من خلال وعينا بحقيقته.. وتكون مسألة إفراغ الفعل رجوعاً بالوعي ومدى ارتباطه بالظروف الخارجية أو الداخلية.
إن تفاعل الإنسان داخلياً - فقط - يؤدي الى أن يقذف ببحره السري الى العالم.. وفي هذه الحالة إذا عكس أفعاله مع الظروف الخارجية.. فحينذاك سيدرك أن أي فعل من أفعاله بقدر ما يحمل من رفض للعالم يحمل رفضه لنفسه.. وتكون سلبياته القشرة التي تغطي وتمطر علاقاته الإنسانية.

(1969)

انهيارات مضيئة البداية

أفكك جسدي فتسقط أجزائي في الانعطافات والقنوات الغامضة..
خرجت من أرض آشور: كنت غاضباً لأن الأرض فقدت زهوها وعفويتها.. أرض منشقة حرة.. أرض غاضبة.. أرض تحرر محتنها

للخوف.. الأرض - هناك - واحدة.. الجبل والوادي والسهل.. كلها تصلح للوقوف.. إذن لن تكون شجرتنا الوحيدة هي التي تمنحنا حمايتها، فكل أشجار العالم تيسر لنا سقوطاً.
أشور يا أشور.. أيها القوي، الإلهي السطوة، أيها القيد الذي يسطر الجميع: سئمت سطوتك وعنفك.. سئمتك.. فخذ بلادك واركني.
أرض تمد لك المشنقة وتحنني وترفع عنقك الى الموت.. بيت تدخله وتتعلق عليك ظلمته الى الأبد.. امرأة تعانقك للتلاشي..
أرض تنتشق، تلغز أغانيها طلاس لتفغر فيك جروحاً مدمرة.. أيها الماء النقي الذي يخترق الأعشاب المخضرة العطنة.. أنت وحدك الممجد لأنك تمضي بصمت دونما عنف يؤأخذ..
خذوا أرضكم أيها الأنذال.. خذوها وجاوروا جنتكم وهياكلكم العظمية واقضوا سهرة ممتعة.

السفر

عندما أنهيت بلاد أشور.. أخذت الأرض تتفتح لقدمي.. ضربت الهواء بمرح سرت مع سبع أشجار مزهرة.. كان الظل الذي تركه جسدي في أشور يكبر ويمتد خلفي ويسير أمامي وبحيط بي ويغطيني.. وكنت أسير مع سبع أشجار مزهرة..
- ثقيلة هي الأفراح.. وثقيل هو الحزن
- خفيفة هي الأفراح.. وخفيف هو الحزن
الفرح يساوي الحزن.. لكن الحياة لا تتعادل بالموت.. الموت نهاية فاشية لجسدنا الذي يمتثل بالأرض ويعمر بصخبها ورعبها وعنفها وجمالها..
- يا ظلي.. يا جسدي الثاني المبيت ابتعد.. انقطع عني..
- مدن جديدة.. مدن أخرى يتعمق فيها خزي مدينتنا العتيقة.. أربع شمس جديدة تتكئ
في زوايا المدن الأخرى.. تخلق حيوانات فارة معمرة تقبلك ضمنها دون قوانين.. أيتها المدن

الجديدة.. هذا جسدي وبيده مصباحه الذي حمله من مدينته الملعونة..
أخضعي شمسك الأربع
له..

هوامش

-1-

أيتها الرغبات التي استمرت بحدثها.. ثمة غلط جوهري في البقطة
للحياة..

-2-

طيور سوداء تهتاج عند نافذتي.. وحية سرية ترصدني من رف
علوي.. فهل ينهي هذا الليل حياتي؟

-3-

حية تطير، يصطدم ذنبها ولا تلتفت.. حية بيضاء ذات أجنحة حمراء..
الموت يقظ خلف الجبل الصخري.. صحراء شاهقة ينزل عليها خروف
ضئيل من السماء.. ينزلق والموت يقظ.. وأنا يقظ..

-4-

تلتبس الحركات والسكون.. لم أعد أرى شيئاً: رؤوس خلفية تتسحب -
وأنصاف وجوه توميئ ثم تختفي.. ووجوه كاملة ساكنة..

-5-

أيتها الرفيقة التي سرت معي، إنك متعبة تحمين تقدمي بصعوباتك..
أنزلي بطيئاً في قلبي ودعيني أتفكك وأحرك حياتي بك.. فأنت آخر ما
تبقي لي بعد أن سقطت الأشجار والشموس والأنهار والأرض لنمتزج
ونضيء دون توقف..

(1969)

نصائح الميت

ان إنكسارنا مرده تمكننا من وصف القمر وتربيته وما تحتويه وفوائدها
دون ان نملك واسطة للوصول اليه!
ان مسيرتنا مع حضارة العالم لا تكون بوضع قبعات فاخرة فوق
رؤوس منخورة: انها تتم بوضع العمل في السواعد المصممة والمسؤولة..
ان الميت لا يستطيع ان يصف للحي كيف يحيا!!!.

رياضيات وهمية

رهين هذه الأرض التي تفتح أزهارها لقناعات دورها البشري.. أرض
ابغي نفسها وتقويسها في نهايات غير مرئية لا يمكن مسها.. رهين أرض
الموتى: كيف لي أن أكسر خطوتي المئانية المحسوبة البعد؟؟
إن هذا شأني ولا أجد أحداً يستطيع تبخير بركي الطينية.. لا أحد
يستطيع فك قدمي من غلها الأرضي: سواي أنا.. إن فولاذاً نافذاً يصكني
ليحفرني في القاع.. حلقة سيزيف الخاوية.. حجة البشر المقدسة للموت
المجاني.. لحساب لن يتم: إنني أرفض سيزيف.. إن رغباتي هي إنهاء
حسابي مع الرياضيات الميتافيزيقية الهزلية: إنسان يحيا مرتين: مرة للموت
في الحياة: ومرة للحياة في الموت.. هذه الرياضيات أرفض جدلها.. أرفض
جدل بؤس بليارات البشر الذين تملأ جثثهم الأرض منذ آلاف السنوات..
تاريخي يتحرك معي.
إن الموت لا يخلق التاريخ.. التاريخ هو المستقبل: أيها الشجعان!!

(1969)

نصفنا الآخر*

-1-

فجأة.. سمعت صوتك.. مهلاً.. محتاراً..
ثم سمعت الصوت ثانية.. وقرأت كلمات طويلة..
لم أصدق الصوت والكلمات.. وكنت أشكك بالآخرين بعد قناعة
مريرة..
الثقة: وجود الإنسان، لا تمنح بنزق، لا تمنح أبداً إلا في أضيق حد..
وبحساب عدم الخسارة المؤذية..
عندما تعاملت معك على أساس من توقف الثقة عند نقطة معينة.. تكون
اعتقادك الأليم: بأنني لا أريدك.. وأن كل شيء.. يجب أن يتلاشى..
وعدت قائلاً: من الغباء أن تمنح ذاك لإنسان لم تره.. لا تعرف إلا
صوته التلفوني..
أشد الاحترق أن تمنح الآخر عاطفتك الجدية.. ثم يتفرج عليك من
مرقبه.. وقد يفونك في لعبة تتسطح فيها أمامه.. إن المواجهة هي الطريق
الوحيد لاكتشاف الأشياء.. ولكي أكتشف قنواك ومدنك وعظامك.. قد نقف
ونتوحد.. أو نفترق مبعدين كما ابتدأنا.. إن التصالب والتكاتف المأزوم لا
ينبغي أن يبقى معلقاً.. فسيلهب بحميته الإحساسات المنغصة ويسقط الإنسان
ضحيتها..
والإنسان هنا ضحية علاقاته الخارجية.. فمهمته أن يبقي علاقاته
الداخلية معافاة إلى درجة ما.. معافاة بعاطفتها ودرجتها الموازنة لشعوره
بموته الخارجي..
إننا محتضرون في لهائنا الأخير.. فلا نريد أن يجهز علينا أحد.. لأننا
اخترنا موتنا منذ البداية.. اخترناه خلاصاً.. اخترناه حياة تقيّة..

* نصفنا الآخر هي مجموعة مقالات كتبت عام 1969 على شكل حلقات أسبوعية في
مجلة الشباب التابعة لوزارة الشباب. وقد أشرت منها تسعة مقالات ذات طابع أدبي.
(المحرر)

-2-

ترسخت أمامي والى الأبد حقيقة
كنت أعرفها لكن لم أملك تطبيقها هي:
إن الإنسان لا يقدر قيمة الأشياء إلا إذا فقدها..
هذه الأشياء - رغم اسم الأشياء الجاف، غير الإنساني - تتبعث كبيرة،
تغرق الإنسان وتغلق عليه بواباتها عندما تبعد وتعد مستحيلة: إنها تنتزعه
في توحده وتقتله ملايين المرات.. تحرقه عبر المسافات، إنها موت لا
ينتهي..
في البداية يدهش الإنسان بالعلاقة ثم تغيب دهشته بعد استمرار
العلاقة.. وإزاء علاقة داهشة فقدت حيويتها ينسحب الداخل فيها ويضحى
خارجها.. وبعد أن تنتبذ الفجوة تبدأ العودة للدخول المجدد..
ضوء ينتهي وضوء يبدأ: لقد كنت لينا في اتخاذ موقف حاسم وها إني
ألتقي نتائج تلك الرخاوة المجرمة..
لقد اكتشفت نفسي الى نهايتها فيك..
اكتشفت قوتي وإنسانيتي ورذالتي: اكتشفت قنواني ومجاهلي والعالم..
أسقطت أولئك الأكوام من البشر - الأوراق، التفهة.. الأكوام من السفلة
الذين لا يملكون إلا تناحرات بدنية يومية، وحماقات..
ليس بمقدوري الآن أن أدخل.. ومن مسافة مستحيلة متمثلا أمامك لكي
أجرك الى موقع لا أرتضيه.. ويخيل الي أنك لن تغفري تهاوني.. وهذا ما
يفتح جروحي ويوقف طلباتي اليك..
إنني مقتول: اجعليني هكذا أمامك دوما..

-3-

نفذت الى قلبي: من كل الاتجاهات غزا حضورك جسدي..
امتلات بك وأصبحت لي قوتان مضاعفتان وانتشرت في لانهائية..
جسد يلغي الحدود: يعبر مضيئاً في أقواس الكون المشعة..
يلتمع متوحداً بشعلته على ساحل وعلى قمة نائية مثلوجة، ممتداً في
شموس ملونة، ومقدسة.. ورياح الأقمار تحمل حضورك الى غربي السرية

في البحر.. يتلاطم إنسان حديدي أتيا عبر زجاج البحر.. أتيا من مرافئ
العالم الضاجة.. يتوقف ويحدق بعينيه الفسفوريتين ويدفع الحائط داخلا..
ضربت بدنه الحديدي ببندقيتي: أفرغت عليه الرصاصات الجاهزة..
أمسك بالبندقية ورماها في الظلام وقال:
- الآن جردتك من سلاحك أيها العاجز، سلاحك الذي لا يجدي..
وثبت عليه بصفعة فانكسرت يدي.. وعدت مقهوراً الى الزاوية.
- يا سجين البحر.. أيها الموثق في الخضم.. دعني أحررك الى الأبد..
أمسك بي وشلني.. تقدمنا في المياه وتخطينا السفن الناهبة.. وقذفني
الى الساحل: كنت عارياً في شمس الأرض البرتقالية..
وكان الناس الملونون ببهجة يرفعون قلوبهم لي..
وكنت أنت تأتين وحيدة، متأنية من خارج المرفأ..
والتقينا وحيدين قرب المياه.. فقلت لك:
- لقد انتزعت الى المدينة.. قذفني إله حديدي: إله أنا صنعته.. ولما
نما ضجر من إرهابي فرماني هنا.. إنه مختبئ هناك، صغيراً، يرصدني..
- وأنا غريبة مثلك.. انتبهت فجأة في الصحراء فحثت الى المدينة..
هبطنا الجرف وقفزنا في زورق صغير.. قطعنا مرساته فتحرك مبتعداً..
غينا في عناقنا.. وكان الزورق يفتح البحر بعيداً..

-4-

الحب في الشرق يبدأ مندفعاً....
ثم يتوقف ويتوغل في الحزن.. ومرجع
هذه الطبيعة أن الأشياء كلها ساكنة في
الشرق: أجساد خامدة وأذهان كسولة وطبيعة فاترة.
إن الحب حركة تخرج الإنسان من وضعية ساكنة.. وحركة الحب
تنهض في الرجل.. فإذا كان طريقها الى الزواج فإنها تمضي وبعد ذلك
يقرر قانون الامتلاك فاعلية الحركة وغالباً ما تخبو بعد فترة..

وإذا كانت الحركة محفوفة بالرصد الاجتماعي البوليسي فإن المرأة هي التي تقرر مسار الحركة. واحدة ترفض هذا الرصد وتقيس حبيبها بالعالم وتضعه مكافئاً له..

والأخرى وهي التي تخرج مثقلة بالقيود والرعب من الرصد وتضع نفسها نتيجة لأشارات وتوجيهات الآخرين فإنها تغلق كل إمكانات النمو والتفتح وتسقطه في السكون..

لا لسكون العذاب البائس الذي يهبط فيه الشرقي، إنما سكون الانهيار الواعي الذي يفرقه تمزيقاً - الواعون فقط! - الحب الحقيقي - لا الحب المبتذل النفعي - يفتح الإنسان وينشره نافعياً به لحل الحدود الوقافة...
ان النفعية بأنواعها إذا كانت شرطاً في العلاقة فإنها تحيلها الى توجس ثم طعنة قاتلة..

فيتبغى الانفتاح من خلال الوعي والخروج من حالة السكون الشرقية وإسقاط القناعات الرائدة والسعادات الصغيرة التافهة التي تساق الى الإنسان لا التي يخلقها وعيه..
إنني أرفض الحب بالعذاب..

-5-

ثمة صوت سمعته بوضوح كثيف:

لدي أفكار تبدو لي في بعض الأحيان مستحيلة على الرغم من أن أي شيء لم يعد يهمني على الإطلاق (ليست لدي القوة الكافية لأكتب لك بالتفصيل).. إنني أجد نفسي في رؤية مستمرة تجتاح كل الأشكال المزيفة للوجود الإنساني، هذا الوجود المأساوي الذي ما إن نحس به حتى نجد أنفسنا في حالة عبر عنها أحدهم: ليس هناك طريق الى الخلف أو الى الأمام.. وليس هناك توقف.. فعندما نتواجد البداية كشيء تحاول أن تكمل مسيرتها بصورة مستمرة ومستمرة الى حيث لا نعلم: الى الأجواء المجهولة.. هذه الأجواء التي لا أكاد أكتشف جزءاً منها حتى أحس بالرعب يغمر كياني لأن كل شيء فيها مريب.. ليس للفرح معنى، فحتى لو انبثقت

لحظة فرح فسرعان ما تموت وتتجمد لأننا لا نجرؤ على أن نخوضها بحرية تامة..

حقاً ما نقول.. إننا بقدر ما نتطلع برغبة الى مباحج العالم ونحاول رمي أنفسنا فيها: نشدنا قواعد ثابتة في أعماقنا لنوازن بين صفائنا ونقائنا وما يمكن أن تستنزفه تلك المباحج منها.. وبقدر ما رأينا وكشفنا الأشياء.. كانت تسقط كلها.. ونجد أنفسنا وحيدين للنهاية.. لا نملك إلا البقاء لنحفظ رقعتنا.. إن وجودنا غير مبرر.. ولكن ما دمنا لا نملك إلا التواجد.. وما دمنا مقسورين على الاستمرار في الحياة.. فعلياً أن ننعم بأصواتنا الداخلية وحدنا، لأنها تعوضنا عن البشر الملعين والعالم الملعى..

ولكن هل يعني هذا أنني بالضرورة يجب أن ألغيك أنت أيضاً؟ انطلاقاً من نعمتي على الآخرين الذين خلقوا القوانين المجرمة.. وأفسدوا الإنسان.. لا أستطيع أن أجد الجواب في السلب أو الإيجاب.. لأنهما لا يمكنان من مواجهة الموضوع.. إنك الآن تملأين يدي ورأسي وعالمي اللامحسوس.. ضوءاً صاعقاً يكشفني.. يكشف حضوري..

لا أستطيع إلا أن أتملك.. فلتسقط الاستفهامات والأجابات الوضيعة.. دعيني أحملك في غرفة قلبي وأقربك..

-6-

ماذا يبعث توحد الإنسان؟

في البدء ينحسر الى الأعماق بلذة مهووسة منهياً ارتباطاته وعلاقاته وانتماءه للأرض والآخرين ولجسده.

وعبر حرارة الانقطاع ترتفع قوة حركة فعله إيجابياً؛ إنتاجاً وتجديداً برؤيته للأشياء..

وترتبط هذه القوة وأمدّها بعلّة التوحيد.. فإذا كان السبب استياءً خارجياً أو انكفاءً من قواهر تعاملية.. فإن التوحيد يسقط عند أول مصالحة مع تلك الظواهر.. ويتميز هذا الإنسان بالمزاجية والترجرج..

أما التوحيد الحقيقي فيكون ناتج انكشاف سر أفعال الآخرين والأشياء وعياً بلا جدليتها بعطيه كإنسان.

هذا الإنسان الوحيد.. الإنسان الخاص.. ما هي علاقته بالمرأة؟ انشاء احتدام فعل التوحد تسكن المرأة كشيء: كباقي الأشياء.. وتصبح موضوعاً خاضعاً للكشف وحسب..

إن عاطفته تتحجر تجاه وضعية خاصة.. قبالة كيان محدد.. وتكون علاقته بوضع شامل، غير ملموس على الأغلب.. شمول يغمره للحظات كاملة.. ثم ينطفئ العالم وتتحول أنواره الى الداخل. هذا الإنسان الخاص الذي يشك في كل شيء: من جنواها ودفعها لنموه.. تكون علاقته بالنساء قابلة للانقطاع والانهاء في كل لحظة لأنهن السبب.. فالعلاقة التي لا يروح بها الإنسان ويبدأ بها عابرة.. تمضي في عبورها الى أن تهياً لها فجوة الانقطاع فتسقط في فراغها..

امرأة واحدة فقط هي التي تنتهي العلاقات المبددة لهذا الإنسان وتقرر على احتوائه من الداخل والخارج - مهما كانت المدة - .. امرأة يمنحها أشياء من غريته وأنواره وثلثه وعنفه لتملأ هي أشياء من تماثلتهما تحركه للوثوب الى الأفراح..

-7-

الغيرة جنون الحب ونهايته عندما يغار طرف يكشف افتقاده الثقة (بوجوده) لدى طرفه الآخر. فيكون هو المزعزع أولاً، فيعمل على اكتشاف ثقله وحسبما تقرر قناعاته بضع النتائج.. إن اختيار الطرف الثاني ختام نضال عسير.. عليه أن يجهد ليجد ساحله وبحره وباخرته فيه، وعليه أن يفحص الثاني بمنطق صارم ولا يعلق بزواية أو بواجهة واحدة يبني عليها مصيره: يغطي بتلك الزاوية أو الواجهة التي شدته الى الطرف الآخر الزوايا والواجهات التي تقنل حياته.

إن الزاوية التي تبرر الزوايا الأخرى سرعان ما يسقط دماغها فتهمج الزوايا الأخرى بمساوئها ونفائضها له، مما يحذوه الى أن يتخذ موقف الدفاع عن نفسه: من هنا يبدأ انهيار الحب..

لقد قرأتك.. إن الغيرة بالتحليل النهائي دفاع عن النفس.. أبصرتك
بحياد فعرفتك بإيجابياتك وسلبياتك.. وقبلتك ككل.. ولقد اختبرت ثقلي
وديمومته لديك.. كنت أجهد لأريك سيئاتي.. فلست ذلك الرجل الذي يرهق
بتزيين جسده ووجوده أمام فتاة ما ثم تكتشف أليافه العفنة بعد انتهاء التمثيل.
أنا أمامك بضوئي وظلامي.. وأنا تسلفت اليك واكتشفت ماذا تحتوي
عظامك.. وأنت ارتضيتني..

حسنا كسرنا وجه التمثيل منذ البداية.. ووقفنا محددين بوضوح.. لم
يرغم أحدنا الآخر على اتخاذ موقف زائف، ولم نرتض بعضنا بخل.. وأنا
وائق بنفسي الى النهاية، لذا لن أتيح للغيرة أن تجرني.. فأساسا لست سيدا
عليك ولا ملكا أحكمك: في الوقت الذي تكتشفين أنك أخطأت في طريقك
معي تمدين يدك الي وفترق.. وليكن دم الحزن المقدس مغرقنا لا الغيرة..
إنني أحرص عليك في حدود ما تتبحه المحافظة، لكن إذا فككت أنت
المحافظة معي: لن أحافظ عليك.. إن حفاظي مرهون بحفاظك معي.
وخلال الصراعات والتناقضات والفجوات والإغراءات التي تحرك
حياتنا، لا أملك إلا أن أقول لك.. وبأقصى ما يمكن من نقاء صادق: إنني
أحبك..

-8-

تضيء علاقات القلب بقوة ووضوح حين صحوت فجأة، وفي يوم
واحد وإذا بالمكونات التي رسخت كحجر - كما خلت، والى الأبد - قد
تمددت وارتخت.. صحوت على وثائق ملموسة تربط الجميع.. وجوه
تفيض.. روابط تنتفس.. حميمية تمر مرتبطة في أجساد الجميع، شمة
منشأبك ومتحرك يلتقي دونما انتهاء..
الحصوة في الأعماق تدوي وتتضرب ثم تتبخر وتمتليء بالحرارة
والتجدد.. قنوات جافة تزدهر وعيون تنير في جسدي للخارج: جنيئا أكون
- مندهشا ومضطربا: هذه المجسمات التي كنت أحقرها.. أنا أتمسها
بحنين جهوري ومدوم..

أيتها المرأة.. أيها الجانب الخفي الذي نكتشف فيه ظلمتنا.. إن الإنسان بتوحده لا بد له من أرض يستند عليها أو جدار يتكئ عليه – لا يمكن أن يتعلق بتوحده رغم كل الإعصارات التي تهب عليه وتجعله ينكمش داخلا في داخله..
أنت راسخة كأرض وجدار، تكيفين الخطوات والوقوف حسب تكوينك. من الذي يحدد قبل وبعد؟
كنت أنا أحدد باختياري متقبلا النتائج..
وحتى لا تعتقدي أنني أصبحت ظلا لك: أبقى منتظرا: فالحصاة القديمة ما زالت تعذبني بضبابها وتقل ترسبها..
اكتسحي بتوحدك معي شأخصاتي الهرمة وانفيها..
فهل تستطيعين؟؟

-9-

في السبت كنت أتهيا لسماع صوت بعيد.. كان صوتا مجهولا ملينا بالحياة.. والتقينا ذات يوم واكتشفت أنني أعرف الصوت جيدا.. لكنها أرادت أن تنكر نفسها.. ولم أمنحها فرصة للكذب.. ثم قالت: سمعت أنك تحب غيري..
فشرحت لها: عندما يكون الإنسان نقيًا: لا يزج وجوده في علاقات زائفة قد تقدم له لذات آنية – لذات يلهيها في لحظات ثم تقتنصه لتمزيق ينهي نقاوته..
لا أريد أن أقوم بدورين متناقضين. أن أصرح بحبي وأحميه وأن أنكر حبي والفتاة..
الفاعل هنا مضمينان: أن أموت وأن أحيأ في وعاء واحد.. لا أستطيع أن أحمي حبي لأسباب مائعة في الوقت الحاضر.. ولا أستطيع أن أنكره والفتاة لأنهما ضوئي وقاربي في بحر العالم المظلم.. أية سنابك حادة تنغرز في كياني.. وأية شظية تثب من الظلام لتقسمني الى كيانيين: كيانيين ضعيفين واحد للنور وواحد للعممة..

هذه الحيرة تدفع للنصيحة التالية: ليس أسهل من التخلص من هذا الانقسام من اختيار طريق وإسقاط الآخر..
هذه النصيحة السهلة، والمدمرة مخيفة: لبساطتها وسهولتها.. وأخيراً جاء حل مسموم: الصمت.. لقد اشترطت عليها أن تطرح سرية العلاقة.. لكنها صمتت..

فهل الصمت حل للارتباط؟

إذا صمت أنت ورحلت.. فهل أصمت أنا وأرحل في الطريق الآخر.. هل يمنح الصمت إطفاء للنار التي تلتهب في داخلي.. ويجعلني أقف بحزني أتطلع إلى العالم الضاحك، السعيد بفرحه.. كلا: إنني لن أصمت.. ولن أجعل وجودي أرضاً تسقط عليها بقايا الأفراح والتطلعات المنتشية.. ولن ألتمس فرحي أبداً في قوانين الآخرين..

كيف نقيس الوهم بالسانتيمتر

-1-

الزمن يفتح ليقينكم فغوصوا. انفخوا بأبواقكم عالياً، عالياً، عالياً، لقد اعتدتم التواطؤات. الأيدي اللينة المموهة لا تؤذي، لكنها تنفضح بالمطر. الخيانة تنزلق على الأكتاف فتتمو أعشاب زرقاء تنسدل على الأذرع. وتبرز أصابع من الحنجرة تنقض على العشب. وتخرج من ثقوب الكتفين عصافير ملونة تحوم حول الرأس. وتتبعق من الجسد أشرطة ملونة. لا تغضبوا لا تفرحوا. فالرجل يذهب بأشروطه وعصافيره خلف الجدار. وتسقط الأمطار عذبة لتغسلني تماماً.

-2-

كيف نقيس الوهم بالسانتيمتر؟ إنه يفتح يوماً جديداً متأنقاً أمام أصواته المكبرة: يختلس من الهواء مزميراً سرياً. التراب والرجال والأعشاب يرتفعون في الفراغ منتشين بنشوة مزيفة رنانة. ثم يسأم فيمد كفه ويغرسه في الأرض: ادخلوا في الثقب أيها المحترمون. ادخلوا.

-3-

من الذي يفتح قميصه في الهواء. من الذي يقذف صورته الجميلة في النار. من الذي يرفع بندقيته ويسدها الى معذبه. من؟ لا أحد. إذن فلنخلق هذا اليوم. وليبدأ الزجاج بإخراج راقصات المشاعلات.

-4-

عاطفتي تستعصي. فأتقدم مثلوجاً أنحني فوق مدن العالم أبحث عنك. أنت التي أصبحت وهمية. وعلى أرضة العالم وجدت ملايين النساء. وكنت كلما أمسكت واحدة أعطت نصفاً منها لي وغيب نصفها الثاني.. نساء مقسومات.. فأسيتير.. وانزلق في الهواء.. في الهواء.. في الهواء..

-5-

هذه الليلة الدائمة تجزئ زمنها مئات الليال: أضواء بعيدة ترشح من نجوم غائبة لا تلمس. وهواء أسود يتقاطع بصمته المركز. وأرض تجدد امتدادها الصحراوي. انحنى وجه هائل، ذابل. نهضت وتسلفت حلمه المرتجف ودخلت في مجتمه. أبصرت من عيونه الألوان أيها المرفهون بقناعكم. لقد حسبتني الجمجمة. وها أنا أصرخ من فمها: وداعاً.

(1970)

خاطرة

عندما بدأت تقتربين لم أكن واهماً في هواجس التاريخ وحاولت أن أضع جداراً لكنك أيها الطائر المفترس تعرفين كيف تقفز فوق الجدار وتدخلين من الثقوب.

أردت أن أهرب لكنك أطيقت علي وسجننتني وصحت أنا أخافك.
وحاولت أن تطيري بي إلى الظلام وكلما أطلقت عليك النار أصبت أنا. أيها
الطائر المفترس إنك تقتلعين قلبي، كم أود أن تذهب بعيداً لكن لا تخف لا
أريد ذلك.

(بدون تاريخ)

أشعار

لقد تكسرت الإشعاعات

ذات مساء.. والظلام مخيم والرياح العاتية تجتاح المدينة الهاجعة
والنجوم اختبأت رعباً خلف أمواج الغيوم الغاضبة
وعلى عمود نور
استندت طفلة صغيرة
أوصالها تهتز.. وأسنانها تصطك
والرياح القاسية القارصة
تلسع جسدها المتوارى خلف الخرق
الخرق المتهرئة
كانت الطرقات خالية
تصفر على ذاتها
والأضواء الخافتة تتراقص
كالأشباح
وارتعدت فرائص الطفلة
وأطلقتها
صرخة: أماء.. أماء..
وأجابها صوت من قراراتها
إني لك أم أيتها البائسة
وتناهي إلى أسماعها حفيف
الأعصان
وهي تنكسر في الظلام
وسرت برودة الخوف وأحاطت بمداركها
فركضت ومن تخال الأبالسة حولها
وعيونهم تبصق النيران
وأيديهم تمتد إليها.. تجذبها
فازدادت سرعتها.. وازدادت
وعثرت قدمها بصخرة نائنة

فانكبت على وجهها مولولة
وترأت لها الشياطين..
فجحظت عيناها
وارداد الفرع والضجيج
وعلت صرخات الطبول
فنهضت تحاول إمساك شيء
(حيث لا شيء)
وانتفض بدنها وارتجفت حناياها
وأطلقت ضحكة معرودة..
ثم اثنتت وهي تبكي
تهدد الظلام والبرد والأبالسة
ثم اختفت في الظلمة الحالكة

(1963)

* * *

الجسر

على الجسر علقوا أسماء المذبوحين
وكانت السفائن تحمل أجدائهم
إلى الميناء
وعلى أبواب مطارح القبائل
نقش الغزاة حروفهم المعسولة
وفي الفجر كان اللصوص
يبيعون للحانات ثمار بسائتنا الكادحة..
هل تسمعين
الصوت من وراء التلة عاد يلهب ظهر الوداع
والعينان جاءتا من خليج الصيف مسودتي الشراع
الصيف الآتي ابن الصيف الماضي
والشتاء هو الشتاء
وفي بحر الدفء ركضت وفي يدي راية المستقبل
حين نامت المدينة
هل نلتقي..

(1965)

* * *

أجراس الزمهير

جذر الزمن المغروس في الآن.
جسر يحمل أعباء العصر المتشنج.
يقذف أثمار الماضي لفم المستقبل.
للحاملين دفنهم فرق جماجم أبنائهم..
لن يصحو الميت على حزن الصرخات
جئكم مستعيراً وجهاً فسيفسائي الصيغة
حاملاً عبء السنين القادمة
وحكايات مجدولة من ليف الفراغ
أبحث عن قلب دافئ
عن بيت أرمي على عتبة أهاتي
وأدخل متحرراً.
تعفنت جثة الانتظار.. فتوقفت
وكانت أمطار الهزيمة تهطل بشدة
وكان المجوفون يحملون غناءهم ويمرقون
وتحت الجدار وضعت أيامي المنتهية
جلست أتفرج وأمزق قلبي بأسناني
وأحصي دمائي المتبخرة.
تلج الوحدة سد ثقوب على جبهتي
حجر فروسية قلبي البائس
وكان ندى الأسى يعيش في جبهتي.

(1965)

* * *

سقوط الاحتمال

جانب الموت مدينتنا الواهية الأسوار
خط علامات فوق الحيطان
علق شاراته في الأغصان وتسمر..
زرع الجندي حرابه
في الجبهة
ضم مصيره
وبكى..
أشباح ترفع رأيتنا
ورجال من خوص غروا
جيروت المستقبل
رميت سلاحى ومضيت
عاري الخطوة..

(1966)

* * *

الخاتمة

عيناك
يا نهرأ من صمت
يجتاح قباب الشمس
يا نارأ تتحبب للثلج المتساقط
من قلب الموت
ألقي في ياسي حجراً من لهفة
عيناك،
-إلهي-
موتي.

(1966)

* * *

الغياب في الضوء

أيها الضوء المختفي في نهاية كوني
امنحني بعض شعاعك
امنح قلبي اقترا بك
وضوءك العظيم
أيها السر الخبيئ في انقساماتي المحترقة
اقتربي مني.. غيبي في عيوني،
في رئتي، في يدي
ولتشكل قوة الأضواء وقوة الأرض
امنحني قلبي اقترا بك: يا نهري
الوحيد في العالم..
يا....

(1969)

* * *

أطلقني يأسك الكثيف

يحطمون جمجمتي، عيوني، فمي، يدي، جسدي.
هل ترصيك أجزائي؟
انحني وخذي
وضيفي يأسك الدائم
إلى إنهيار حرיתי.
إنني مقسم أيتها الملكة
لكذك لأترين سوى وهمي
ستتهار رغبائك الأمرة
عندما أتساقط عدداً لا ينتهي من الإشراقات.
لقد شملت عذريتك
وسمعت نفسك المعتم
يدور حولي بأفئعته العتيقة
إنني أنفذ كسهم إلى سماء الهزائم
بدون أن أمس شهواتك المنصهرة.
إنني مدعو إلى كهوف
لأترى ولا تلمس
إن هناك من ينتظر
حالاتي التي لا تحد.
أيتها الملكة إنك ترزئين
بحبك اليأس
وتطوفين بجسدك الذي تيبس
أبعدي طعناتك لأغيب في الأمام
إلى الأمام
اصطحبي ذراعي أيتها السيدة
إنني أدخل الهواء
أقدم متعجلاً
جزعي المتوسع

الى جزر ومحاور لا توجد
إنني ألقى رغباتي المتوحشة
الى قدرها المجهول
ثم أنتظر
أزهاراً حمراء تتوهج من قدر
مضاد
أمامي كل شيء وخلفي لا شيء
وعندما أستدير ، تستدير الأشياء ،
يبعد لا يتغير
من يدي الضاحكتين
أي نحيب يغطي كنتي
في هذه الليلة
إنني أترك لكم أشياءي
وأرحل متجردا بجسدي المحطم.
عاطفتي تحتشد في أجزائي
تراوغ شهودك المصطفين
إنكم تتكلمون بصوت موحد
مطالبين بخلع أقنعتي الحقيقية
عشرات الأيدي تتكدس في يدي ولا أعرف يدك
إنها مشاعة بين الأيدي التي
جلبتها
إنك تستعيرين أصواتاً متعددة
وأمام يقيني الذي تخرب إزاءك
ارتجفت غاضباً
وامتسقت سيفاً لأقطع أصواتهم
لأقلعهم عن جسديك
لكنهم يكبرون كالحرائق التي لاتحد.
لم أعد أميزك.

(1970)

عواطف

لم يبق للقلب إلا أوعيته النازفة
هناك في قمة الجسد،
غابات من ماء،
زهور صفراء متأرجحة،
تنزل كثافتها اللينة،
وتبدأ في الجلد،
يتجرد الجسد من أفراحه ومباهجه
وأحزانه وضوابطه
يتعلق برنينه الدائم
إزاء خطوته المنتقية على سطح الصخب
من الذي يدعو في هذه الصحراء؟
ومن ذا يجيب؟

(1970)

* * *

حزيران

انهيارات دامية
لتوحيد اليقين
إنهم يبعثون مصانعهم
وكيمياويهم وأنابيههم
لفحصنا، وخلقنا من جديد
لا بهم أن تكون كلباً أو حذاءً
أو كرسيًا حجريًا مكسوراً قرب الشاطئ
لا بهم أن تكون إنساناً أو بقرة
فالأشياء تتساوى بعد مغادرة المصنع
بعد مغادرة المصنع. مغادرة المصنع. بعد مغادرة
المصنع.
مغادرة.
بعد.

حزيران

تقنين في: فنائي
نسر يحترق: أرض معادة
أيتها الأنثى: الجسد: الكون
الحقيقة هي الوطن المخيف
جنود لم تبقى إلا أسماؤهم في الجرائد
مياه أبدية في الأفواه، وفي ساعة الديمومة
أعشاب تتيسر: مدن تختفي
شمس تسقط، رجال، نساء
بيوت، حجرة قارب
مسافات تنهض: تغيب
ثائر لا يعرفه أحد يموت في النضال
أو يتجمد في قمة معزولة

ماذا يتبقى للأبطال والخونة: لا شيء
مقهى يحترق: أقدام تحترق: أنهار تذبل
أجساد يابسة تطيرها الرياح
وفي عري جنثنا الشفافة نحلم بالنصر المستحيل
أيها الغريب ارفع شراعك: لا تقف..

(1970)

* * *

ليست قصيدة*

-سما-

أخذت الحمامة قلبي وطارَت الى الله
يا حمامتي الجميلة
أه أينها الحمامة الذهبية
وطارت الحمامة بعيداً
ترى هل يستطيع رجل راح قلبه أن يقف إلا مثل قصبة؟
وهل يستطيع أن يواجه عاصفات الريح والوحوش الكاسرة؟
هل يستطيع ذلك رجل أخذت حمامته قلبه
وطارت به الى الله.

يتقسم الرجل مثل الرمل ويصيح:
أه من قسوة الحب.
ترى هل يمكن للرجل أن يعزي نفسه؟
وكيف له أن يعزي نفسه؟
وقد أخذت حمامته الذهبية قلبه
وطارت به الى الله.

(1994)

* * *

* كتب خالد الراوي هذه القصيدة عام 1994 تحديداً بعد ثلاثة أيام من وفاة أبنته سما على أثر حادث مؤسف. وقد أثر به هذا الحدث تأثيراً بالغاً وأضحى أكثر صمتاً وانعزالاً من ذي قبل. (المحرر)

قصيدة*

-1-

أنطوي
أتطأير
أكاد أزل
هل أبحر في الوهم من جديد؟
من أين يجيء كل هذا الحب؟
من أين تنبثق هذه الشعلة؟
لماذا تحيي الميت يا إلهي
دعه يذهب.
أوقدت لك شمعتين
الأولى في بداية العالم
والثانية في نهايته
سأحوطك من كل مكان.

-2-

من أي قمقم خرجت أيتها الطفلة الساحرة؟
كيف خلقت هذا الفردوس في هذه الصحراء المميّنة؟
أيتها الطفلة - المرأة. إنك تأتين مثل النسمة وتذهبين؟
تدخلين مثل الحمامة وتختفين كإطفاء الضوء.

* كتب خالد هاتين القصيدتين في أواخر التسعينات قبل وفاته بحوالي عامين، ولم يحدد هوية المرأة فيهما. ومن الممكن أنه وقع في حب امرأة، خاصة وأنه وقع القصيدة الثانية بأسم محمد موسى بدلا من أسمه الحقيقي. (المحرر)

وتتركبن السنة النار تلتهب.
أيها الوهم الرائع - أيها الوهم النقي الصافي.
اغفري لي كل حماقاتي وسيناتي، فهي كثيرة لا تحصى:
فانت إلهي.
لا تدعيني أتلاشى.

(1997)

* * *

ملحق – 1 –

كتابات نقدية

حول قصة ناعور في نهر يابس*

تتصادم التيارات الأدبية في هذه الفترة من حياتنا ويثور السؤال: أين هو الأدب الملترزم في بلادنا؟ وعندما تفتش عنه لا تجد الا لمحات سريعة وتائهة من هذا التيار... يعرض خالد في هذه القصة صوراً وأحداثاً متتابعة متلاحقة مر بها الكثير من شباب ورجال العراق الذين عاشوا أعواماً، سياسية منفعة فوارة الوقائع والأحداث. ناعور في نهر يابس سبك خالد الراوي خيوطاً حقيقية لا زالت تتراءى أمام أذهاننا التي لم تنس- وكيف تنسى- تلك الأيام الهائجة قبل سنين. ونقطة أخرى أود تسجيلها أن تلك الفترة العصيبة من الزمن لم تدفع أحداً من الكتاب العراقيين ليكتبوا عنها مع أنها داخلت الأجساد الى العظام، تجعلنا نتساءل: أين هي المعاناة أيها الكتاب النحارير!! تحية لخالد حبيب الراوي ونأمل من الملحق نشر المزيد من أمثال هذه القصص الجيدة.

* * *

* بلا مؤلف، ملحق جريدة الجمهورية، 21 تشرين الأول 1966.

الجسد والأبواب: وضوح بين الأصوات المدغمة*

كثرت في الأيام الأخيرة المنشورات العراقية، فترة خصيبة جداً، كتب صدرت وأخرى ستصدر، دواوين شعر، مجاميع قصصية، روايات، ولكنها فورة غير منظمة، اختلط فيها الجيد بالهزيل، ومات فيها البريء بذنب القاتل، اذ انه - وكما يبدو - ان كل من يملك ثمن طبع كتاب يفعل ذلك بلا شعور بمسؤولية العمل الخطير هذا، المهم النشر ليس الا، ولذا قرأنا ثرثرة وتقاهات سميت قصصاً او روايات .. الخ. ولذلك اطالب زملائي بمقاطعة كل الانتاجات الهزيلة واهمالها تماماً لنلا نمدحها بوسائل الحياة حتى يشعر أولئك الفارغون الذين سطروها بفداحة الجرم الذي اقدموا عليه.

ووسط هذه الفوضى نجد بين حين وآخر نماذج طيبة ومعافاة منها المجموعة القصصية الاولى (الجسد والأبواب) للزميل خالد حبيب الراوي. ولنتساءل اولاً: لماذا هذا الاسم (الجسد والأبواب)؟ لماذا وضعه المؤلف على مجموعته دون اسم آخر مع انه ليست في المجموعة اية قصة تحمله .. والذي يبدو لي ان المؤلف - وكما فعل زملاء آخرون له - قد التقط هذا الاسم ليضم بين دفتيه المضامين التي تدور حولها اقصيصه، وما دامت قصصه لا تدور حول الجنس كأحدى الازمات التي تواجه المثقف العربي اليوم، فلذا ان كلمة جسد هنا تعني الإنسان الذي يأكل ويطمح ويفكر ليعيش، اما الأبواب فهي هنا الحرية المنشودة من اجل ان ينعشق هذا الإنسان وتفتح له الأبواب ليتنفس ويعبر موكبه .

فقصص خالد حبيب الراوي هذه تدور اذن حول نقطتين هما الإنسان والحرية وقد اكدت عليهما جميع القصص التسع التي تحتويها المجموعة،

* عبد الرحمن مجيد الربيعي، مجلة الف باء، 9 نيسان 1969.

الإنسان البسيط وكدحه اليومي من أجل الحرية والخبز، فهو نارة زبال وأخرى سياسي وثالثة عامل عجوز لا يجد قوته وهكذا، ما عدا الحواريات الثلاث التي تحويها المجموعة أيضا جوار القصص فهي تدور عن الحرية بتساؤلات ميتافيزيقية مدغمة.

ان (الجسد والأبواب) ايزان بميلاد كاتب اجتماعي جديد يملك ملامحه الخاصة به والتي تتركز في التقاطه لحوادث بسيطة جدا وخلقه لقصص منها تذكرنا بأعمال القاص السوري وليد اخلاصي مع الاختلاف في المنطق، وهو يختلف أيضا عن زميله العراقي خضير عبد الامير مثلا الذي يملك نفس الاهتمامات الاجتماعية ولكن في الوقت الذي يعطى فيه خضير عبد الامير للعبارة استمراريتهما وللفعل مواصلته نجد خالدا يميل الى الجملة القصيرة المكثفة المحتفظة باللمحة الشعرية، ويميل ايضا الى تكثيف الحدث وانهاؤه بطريقة تفاجئ القارئ وتجعلها قريبة من القطع في غير اوانه، وهذه هي في رأيي نقطة الضعف في بعض قصص المجموعة التي حاول تلافيها في قصص أخرى وذلك بانهاؤها بجملة شعرية تترك الخيال هائما وتبعد عنه صفة القطع مثل (والريح ما زالت تحمل معاطف الثلج للأرض والأحياء) كما في قصة (الرصاص: البيوت) ومثل (استدار واضحى نقطة في الافق) كما في قصة (الحائط) ومثل (تكاثر الرعود والمطر أخذ يشتد) كما في قصة (رجفة في الضوء).

وعندما نحاول تقييم البناء الفني لقصص الراوي نجده لا يلجأ الى التجديد المتطرف، والسبب في رأيي هو بساطة الموضوع الذي يطرحه. انه اضاف اضافة بسيطة دون ان يلغي قيمة قديمة (نحن نسير بسرعة فائقة ولكننا ايضا نحمل امتعتنا القديمة الصالحة للسفر) على حد قول توفيق الحكيم، ولذلك فالراوي لم يبلغ شيئا بل اضاف للقصة هذا الاختصار المفرط الذي يجعلها تؤدي مهمتها باقصر وقت، ولكن هذه عملية خطيرة فقط تؤدي الى قتل القصة وتحوليلها الى خاطرة ولذلك فان عليه ان يحاذر قبل أعطاء القصة وجهها الأخير.

* * *

خالد الراوي: العلاقة والتجربة*

الإنسان المطارد المغلوب الذي لا يملك مقومات الصمود، هذا الإنسان هو الموضوع الأهم الذي يصلح إطاراً ويصلح صورة داخل الإطار أيضاً لقصص خالد الراوي (الجسد والأبواب). محمد الذي يبحث عن مأوى للاختباء وربما مكان آخر لمواصلة المعركة، وعامل الطين الذي يحلم بالعمل والذي تقذفه يد صاحب العمل إلى البطالة مع نظرات التشفي والشماتة، والمطروود من الخان الذي لا يملك إيجار الغرفة .. واللذان يبحثان في بحر راكد عن مرفأ الحقيقة، والباحث عن الخيانة في (الانزلاق) الذي يكتشفها فيه مؤخراً، يقول خالد على لسان أحد أبطاله الثاني في "الجدار وزهور البحر" .. - أنها الغلطة التي لا اغتفرها أن يملك الإنسان جسدين، واحد يتعامل به مع الناس والآخر يتعامل به مع نفسه.. ولكننا في الحائط نجد هذا الإنسان الباحث عن دراجته المسروقة والذي يجيء إلى الدار البعيدة عن المدينة لاسترجاع الدراجة التي ابتاعها صاحب الدار من السارق يترك موضوع الدراجة ليتحول إلى صاحبة الدار محاولاً اغتصابها.. وفي الانزلاق، نجد الشارب نموذجاً للخيانة مختبئاً تطارده عيون الشرطة، يلعن الخائن ثم يتحول إلى زوجة صاحب الدار التي تؤويه.

أراد خالد أن يتمرد على فرضيات الفلسفة معتبراً الانتهازية غلطة، ومن خلال هذه النظرة نجده يسلط العبارة شارحاً النماذج المتقدمة.. ومع أنه - أي خالد - يملك المضمون الدسم، إلا أنه أحياناً (رجفة في الضوء) نجده مرتبكاً في الحوار وفي الانتقال إلى الحدث، ومع ذلك فإنه يقدم المضمون الأكثر مأساوية، صباغ الاحذية المطالب بدفع الإيجار والذي يطارده البرد وصاحب الخان، وفي (المتربصون) يكاد ينعدم التوصيل في اللغة التي تجسد الحدث وتصل إلى لحظة الانفجار، وفي الاعتبار الأكثر انصافاً ينبغي

* شريف الربيعي، مجلة الإذاعة والتلفزيون، نيسان 1969، عدد 7.

ملاحظة ان مجموعة خالد هي اول مجموعة قصصية خلال هذا الموسم تسلط الضوء على الإنسان المنسحق المطارد بعيدا عن حذلقات المقلدين، بمعنى انك تقرأ قصة تحمل ملامح الأرض التي دارت عليها أحداثها والشخص الذين يطرحهم خالد موجودون بيننا.. ومع ان خالد لم يلجأ الى العالمية في حوار الأشخاص الا انه استطاع الى حد كبير ان يتغلب على حرجة التصرف عند ابطاله.

ملاحظة أخرى، خالد يبتعد عن التفاصيل التي ترهق القصة القصيرة أحيانا، وهو بالضبط يعي مسؤولية ان تكون القصة قصيرة، والى جانب اعتماده الصور الشعرية أحيانا فهناك العبارة التجريدية ايضا، وخالد يمشي الى النهاية في قصصه بشكل يعطي القارئ فرصة المتابعة اللذيذة، فهو يصل الى النهاية من خلال الملامسة الدقيقة فسي جريان الحدث وبعيدا عن المجاملة- خالد الراوي في (الجسد والأبواب) يمنحنا فرصة ان نطالب بقصة قصيرة تستوعب تجربة الإنسان العراقي ونقف عند جزئيات هذا الإنسان نتملك بعد ذلك لغة مميزة، مجموعة خالد تترك لنا فرصة ان نتفاعل بمجيء قاص اصيل، ولا بد ان نفهم ايضا ان هذه المجموعة هي الاولى، وفي قصصها ما يمثل ابتعادا زمنيا بالنسبة لزمن صدورها. ان السذي يجعل لقصص الراوي نكهة خاصة ومذاقا خاصا في المضمون وأسلوب المعالجة هو انها تبتعد عن التكلف الذي يلزم الافتراض ولغة معقدة، ورغم ان البساطة تلغي في أحيان كثيرة بوادر التفصيل والكشف، الا ان الراوي استطاع ومن خلال هذه البساطة ان يمررنا بتجارب ابطاله عبر التمر وعبر الانزلاق وعبر الحلم. وهذا لا يمنع ايضا فقصص الراوي تنتمي الى الواقعية.

* * *

أبواب الجسد المقعي*

يقينا ان خالد حبيب الراوي، كان يدري اي موضع سيحتل بنهجه للتكنيك الواقعي، ففي الوقت الذي أخذت فيه أصوات الطليعة من كتابنا الشباب نتجه للبحث عن اراض أكثر ملائمة لهمومها واتعابها يأتي صوت: خالد الراوي كرافض لكافة التطلعات الفنية والمناهج العديدة، رافض بين الرافضين، وهو لا يكف بقناعة شخصية فقط، بمدرسة تشيخوف وموباسان بل بالتأكيد عليها سواء في تناوله للمسرحية او القصة القصيرة (ثمة ثلاث مسرحيات في مجموعة الجسد والأبواب يمكننا الحديث عنها على انفراد)، اقول هذا بمعرض الحديث عن الكتاب الذي صدر للزميل خالد حبيب الراوي في الأونة الأخيرة، لقد قرأت قصة: ناعور في نهر يابس عام 1965 في ملحق الجمهورية، بينما كان زمن قصه، الرصاص: البيوت هو عام 1969 في مجلة العمل الشعبي، فما هو يا ترى الشوط الذي بلغه كاتب الجسد والأبواب خلال المسافة الزمنية تلك، وما مدى تطوره التكنيكي؟

يبدو ان كتاب المدرسة الواقعية لا يحلمون بصياغة الواقع كما يجب، بل كما هو عليه وكما هو في قصص الجسد والأبواب، واذا كانت ثمة مساوئ في هذا المنهج، فهي مدى التصاقها بتراب الأرض، حيث يتحول الكاتب الى مجرد راو وحيث تسقط عملية التحويل الفني من يديه، ولن يجد ثمة ضرورة أخرى لتدخله كفنان الا في حالات قليلة كالذي حدث في قصة: ناعور في نهر يابس، اذ نجد ان المتهم يتغير ليحل محله رجل بريء، لا يدري من السياسة اي شيء، لكنه يلقي عليه القبض بحجة توزيع المنشورات السرية، وما عدا ذلك فلا نجد ثمة تطورا، واذا ادركنا ان القصة المذكورة هي سابقة لقصة الرصاص: البيوت او غيرها من القصص، تأكيد لدينا ما تعني الضرورة الفنية بالنسبة لخالد الراوي، وآخرين غيره ينجون نفس النهج - الواقعي - بمعنى ان الكاتب لم يكن (في القصتين والقصص الثلاث) أكثر من

* أحمد خلف، مجلة ألف باء، 18 حزيران 1969، عدد 50.

عدسة كاميرا تمتلك عاطفة النقل والتصوير مع حسن اختيار الزوايا التي يجب تصويرها .

ان الخط العام لقصص المجموعة بصورة كلية، هو التوتر الواقعي الملموس، فمن حالة شخص ما، يحمل حقيبة مناشير سرية، الى شخص آخر في المظاهرات، او بيت يعاني محاصرة السلطة، او رجل يبحث عن عمل فلا يجده، ولكن ما تتطلبه حالة المواجهة والحالات الشعورية لكل طرف من الطرفين، فقد اعذر خالد نفسه من ذلك، مستعصا عنه بما قدمه من جرأة صادقة، قد يتخلف عنها العديد من كتابنا الشباب، فبينما جاءت القصتان المذكورتان بنفس الحدة والتفاعل الصادق، كشفت قصة: - القطار الذي لن يعود - عن تحدي الكاتب لواقعه المعاشي، فهذه القصة تقدم نموذجها بلحمه ودمه، مواطن يحمل حقيبة كي يسافر، الحقيبة تحمل اثم السلطة السابقة، مناشير لكن الرجل المناضل لم يفلت من احد الوجوه التي تراقبه، حيث يقع في الأخير بين ايديهم.

حتى الان، تأخذ القصص طابع السرد بالتعاون مع الحوار الخارجي، اما ما تتطلبه حالة الشخص من عمق واستقصاء لا شعوري لهم، وما يجب الكشف عنه من نقاط ضعف، فلم اجد هناك ما يمكن الحصول عليه، فقد اهمل الكاتب كافة الكشوفات الفنية والفكرية للمحاولات العظيمة السابقة، من تداع واع وتداع لا شعوري، او استغلال الرموز والايحاءات، وتناول الحلم مثلاً، او الاسطورة.

ان خالد الراوي، مطالب قبل كل شيء باغناء عنصر المحاكاة في القصة اغناء فنيا لتجاوز المرحلة السابقة لكتاب الحدث الواقعي المشدود لأرض الواقع والاغراق في مناخ المحلية، وبذلك يستطيع (وهذا ما اراه وقد لا يتفق معي الكثير. ذلك ليس مهما البتة) تخطي الاساليب السكونية الرتيبة، التي سنها تسيخوف وبلزاك وموباسان وغيرهم لنا، من ملامح القصة الواقعية.

ولكن ثمة شيء آخر حول المسرحيات، انها لم تأت بالصورة المطلوبة، فبينما تدرك المنهج الواقعي في القصص القصيرة، نجد ان المسرحيات تجاوزت هذا كله الى الشعر والحالات الاعترافية السريعة ذات اللهجة

الخطابية، ولكن ربما جاءت المسرحيات لتقرأ فقط، هذا مهم من ناحية، ولكن تسميتها بالسريعة يظل محل اعتراض بسبب من عدم تحميلها عناصر المسرحية ومقوماتها ... اني اجد فيها تلك اللوحات الفنية المتراوحة بين الحالة التجريدية والتعبيرية، فبينما تنمي المسرحيتان الاوليتان ذلك المنهج، تجد القيمة تختلف عنهما بشكل خاص - تقريبا -

ثمة نقطة مهمة اريد تسجيلها، لمجموعة الزميل خالد الراوي، وهي ان واقعية الجسد والأبواب، ليست واقعية الحدث النامي تدريجيا ليتفجر في الأخير، تاركا نقطة ضوء على جسر العبور الفني، انما هي واقعية رامية بسبب من فقدان الحدث ثم تلاشي الزمن الواقعي، بمعنى انها تعيش على حافة خارج وداخل الزمن المعاش دونما السقوط في شراكه المغرية.

* * *

الى القاص العراقي خالد حبيب الراوي*

مودعة، وبعد..

"الجسد والأبواب" قصص فيها طعنة صائبة من قلم علم سطر الوعي، طالعتها بسرعة، لأن الكلمات تنزلق كالقطعة الثلجية الطالعة من كانون الثلج، كنت جيد الاحدثة، معاصر اللفظة، حساسا في التعبير، تعرف كيف ترجع الى السطر من جديد، وكيف تتساب، الحق اقول لك انك احسنت، واصببت، وتوفقت .

انتم يا جيل المتمردين، بتمردكم تفتحون أبواب التحول العصري، من اعماقكم ومن روافدكم وجداولكم، وينابيعكم تولد أصوات المياه تحت اغصان السديان والنخيل .

أحسست ان شفرتي الزراعة، قد تحولت في يدك الى ضوء يهدي التائهين الباحثين عن نار القرى. مع فائق مودتي واخلاصي .

* * *

* الأب يوسف سعيد، مجلة الأديب اللبنانية، سبتمبر 1969.

مع خالد حبيب الراوي في (الجسد والأبواب)*

لن تكون مدهوشاً أمام مجموعة (الجسد والأبواب) للزميل خالد حبيب الراوي، إلا أنك سوف تقرأها برغبة، تتعطش لكل ما جاء فيها، يمكن أن تحلم وأنت تقرأ، يمكن أن تتحسر وأنت تقرأ، غير أن هذا كله لن يجعلك مدهوشاً أمام القصص، لأنها لم توضع بعد معاناة مقروءة كما لو كنت فيها تصنع برجا من البيض أو تحفر بئراً بآبرة عوجاء، وإنما سوف تحس ما يبتغيه المؤلف من إيضاح ذوات أبطاله في سياق يتلقفه الشعر في أحيان كثيرة (البحر لا يعرف لهفة الفرحة)، ولا نشوة الخطوة الوثاقة ولا تمنعه الصرخات المسرحية من فن مشدود متكامل (لا تدعينا واقفين تتصادم أجسادنا لتبدد مطامحنا الأخيرة). ثم ترى العالم وهو يبدأ في الصغر على طول الصفحات - عملية تنقية هائلة مدروسة - تتركب من طموح يتبدد إلى خوف الإنسان العادي من طقوس العالم الغامضة، ومن هنا يقف الرجل المسحوق وجهاً لوجه أمام الشرطي وهو يخنق بأصابعه ساعد الرجل النحيل ليصرخ فيه أن تحرك، وحين يبدأ السير يمكن أن تحس تخاذله، ورعيه، وحين يأخذنا المؤلف داخل القبر في قصة (القطار الذي لن يعود) يمنعنا من الكشف عن بقية الحقيقة، فقط لأنها معروفة من التعب الأول، منذ ولادة هذا الجيل، بل منذ وطأنا وجه الأرض: العذاب، السخرية المريرة، التنكيل، ومسيرة أقدام. ثم نقع على قصتي (الحائط) و(الكلب) وكنت احسهما أقصر نفساً مما يجب. أن ثمة خاصية في هاتين القصتين وهو كونهما بحاجة إلى دراية بمفهوم المضمون، ليس في أن نعرضه على القارئ وننتهي منه كتسجيل جنائي سريع، أو جملاً قصيرة مبتورة، انهما بحاجة إلى شيء من الوصف، أن لم نقل العمق، فما ذنب البطل في القصة الثانية وهو ينظر تارة إلى الكلب ثم إلى سيده ويكتفي بالقاء ضوء بسيط على القصة بأن يقول (وكان ثمة خط متعرج يتعري بين التراب خلفه) لماذا؟ إلا يستحق مضمون هذه القصة - على ما فيها من كآبة حقيقية - أن تأخذ من جهد الكاتب أكثر

* عرض: عبد الستار ناصر. لم أستطع تحديد فيما لو تم نشر هذه المقالة أم لا، لكنها موجودة في مكتبة القاص خالد الراوي. (المحرر)

مما رأينا ؟ وهل يجب - اذا حاولنا ان نكون اكثر قسوة - ان ننتهي من القصة في يوم واحد.

إن فقد أصبحت القصة لدى الزميل خالد مجرد عرض ليس غير، وربما نقول مثل هذا في قصتي (الانزلاق) و(المتربصون) وربما (الشاحنة) ايضا، غير أن القاص في المسرحيات الثلاث المعروضة كان قد أعطى أهمية أدق في طرح المواضيع وبشيء بسيط من الرمزية الواقعية رغم ان مسرحياته قد تميل الى هيكل القصة القصيرة .

ان (الجسد والأبواب) مجموعة من القصص تعبر عن مرحلة دقيقة من حياتنا في اطار أضيء من قبل على يد الكثيرين من القصاصين الشباب، الا ان خالد الراوي جاء بالجديد الخالي من الكلفة والمبالغة وقد اكتسبنا من المجموعة لمحات سياسية كادت القصة القصيرة في العراق ان تغفل عن طرحها الا في مناسبات متباعدة، وفي الوقت الذي نثمن فيه جهد المؤلف نتوقع ان تكون مجموعته القادمة اكثر من هذه كرماً في طرح المضمون وان نرى قصته ابعد من كونها (قصة قصيرة - مختصرة) فذلك ليس بالعطاء الوافي، ما دما بحاجة الى أدب اكثر جودة.

* * *

القناع بين الصوفية والوجودية*

(1)

قرأت هنا وهناك، الصفحة الاولى، الأخيرة، عنوانات غريبة وليس غريبة جدا فيما أصبح معتادا من العنوانات، وقرأت: الخيول تركض والفرسان يضحكون طريفة، ايجابية، اما مسألة الغموض فلم تعد مسألة، ثم اما ترى الباحث عن منفذ لثورته.

ولتعتبر هذه وهذه .. ولنقف لنقرأ "أصبحت أقلامي طيوراً". ان المسألة التي يعرضها الكاتب غير واضحة الحدود ولكنها لا تمر من نفس الى نفس دون اثر من مشاركة بالمأساة، ولكن بعد ذلك المأساة ما تكون .

ولتقرأ "100 ذراع" فنحس بان الرجل ينكشف اكثر واكثر ويدلنا على أشياء من وجودية في المسؤولية والحرية، وليكن فإنه يحسن امتلاك الأشياء ويحسن ان يكون قويا في فنه.

والكتاب يقرأ، والمؤلف فنان، خذ مأخذ الجد - ان شئت - تجده معربا عن ضيقه وضيق جيله وقد استحال الضيق كابوسا، وخذ مأخذ الهزل، فلك ذلك، ولكني لا ارى الى الهزل سبيلا ان اللعبة تجاوزت حد الطرافة.

(2)

ولنبداً بالبداية، ولنقرأ، ليس بين القصص - او الاقاصيص - السبع عشرة ما يحمل عنوان المجموعة: القناع، ولكن الدنيا التي تعيش فيها هذه الاقاصيص مقنعة، لها ظاهر ولها باطن، والاسرار تكمن وراء القناع، وعلى سكان هذه الدنيا ان يبحثوا عن الاسرار ويعملوا على تمزيق القناع لانهم

* الدكتور علي جواد الطاهر، مجلة الف باء، 1970/9/2، العدد 110.

يريدون ان يتخلصوا من الزيف ومن العرف ومن القواعد التي وضعها العقل وقيدھا بالمنطق.

ولا يكون هذا القناع على رأس فقد يكون في الرجل، وقد يكون في اليد وقد يكون تحت الأرض .. ومن هنا انبثقت حرية لا بد منها، لا تلبث ان تؤدي الى كشف ما يؤدي الى راحة ما، راحة يقرها اهلها ولا يراد منها ان تقر من قبل الآخرين الذين يريدون لانفسهم ان يبدوا طبيعيين وقشرين - اي مبتزين عادة.

ولا يكون التمزيق هينا لينا، وانما هو شاق رهيب يخشى الكثيرون السبيل اليه، اما نحن، فيجب ان نسير ونسير، وليكن من الرهبة ما يكون.

(3)

القناع: مجموعة اقاصيص، صغيرة المدى الورقي، وحسبك ان الـ 17 كلها لم تستطع ان تشبع الـ 75 صفحة الصغيرة الحجم القليلة الكلمات، ولكن العبرة في المدى العمقي، مدى ما وراء الورق، اذ انت في جو، واذ انت مع "الشخص" تفهمه وتتابع حركاته وسكناته كأنه طبيعي وكأنك رأيت امثاله. انه ليس طبيعيا بالمعنى المألوف، ولكن القاص يعايشه معايشة عجيبة وينقل ذلك اليك في يسر والفة .

ليس في الـ 17 قصة 17 بطلا وانما هي الـ 17 صفحة من حياة "بطل" واحد لا اقول انه المؤلف، حتى لو كأنه، لانك لا تراه، ولانه لا يعترضك، فقد امتزج بالكلي وأصبح قطرة في بحر .

(4)

هذا "البطل" ضائق بالحياة حتى "القرف"، مشمئز حتى الثورة عليها، ساخر منها حتى الكفر بكيانها المكون ..
تقول: رأينا امثاله في قصصنا الجديد.

واقول: لم ار مثله حتى في هذا القصص الذي تعنيه.

- وكيف كان ذلك؟

- كان: انه قوي، ليس سائبا وليس واهيا متهاويا ضائعا سخييا، ضعيفا يغرق في الغائط حتى اذنيه ولا يخرج منه الا البصاق، انه قوي ويجمع الى ذلك الخفة والنوق واللباقة، انه وجودي، ولكنه ليس من هذا النموذج المتهرىء الذي تتبناه قصصنا فيلوك كلمات، المسؤولية والحريية والرفض والاختيار والغربة كالارد الذي يعلك "المسكي" ثم انه يختار النهاية التي يتغلب بها على مبتزه ويعرف معنى الانتصار على الخصم سلاح الخصم، ولا بأس في ان يروض نفسه طويلا كي يصل الى ما يريد ان يصل اليه. وقد استعرت كلمة "يروض" من الصوفية، ولا غرو، ففي بطل القناع أشياء من الصوفية، وفيه من الوجودية، وفيه من المسيحية، الا ان المهم فيه انه قوي - وليكن بعد ذلك أو قبله ما يكون، ويدخل في القوة الجانب الايجابي في الحياة .

(5)

واني، اذ اتكلم على "البطل" كاني اتكلم على المؤلف عبر فنه، انك في جملة الـ 17 قصة، ازاء فنان لبق، شاعر خفيف الظل، يجعل الواضح على شيء من غموض يجتذبك، ويغور وراء الغامض حتى يقرب من الوضوح ويبقي منه شيئا يروقه، انه يكتب غامضا عن موقف يحس به واضحا في نفسه فيمر منها الى نفس القارئ، كأنه غير غامض وهو متمكن في ذلك لا يتكلف ولا يفتعل ولا يتعقل كأنه ينطلق من دفق شاعري تفتح أمامه الطريق فينبع منه ما ينبع ويبقى تحت القاع ما يبقى، وفي هذا الذي يسيل على الحافة دلالة على ذاك الغائر .

ثم انه لا يفقد سيطرته فيدع قسما يطغي على قسم وموجة تلطم موجة، انه يدير مجموع الهيكل بمهارة منذ البداية مارا بنبضات الحدث المعنوي حتى النهاية، وكثيرا ما يترك هذه النهاية مفتوحة على مداخل من وميض. الفاظه وتعبيراته انيقة، كل شيء سهل من دون ابتذال، سهل راق.

(6)

واليك امثلة من امثلته:

"هذا الزمن الذي فقد الناس جرأة التصدي لضربة غامضة" - ومهما فتحت أبواب قلاعنا لندخلكم منها فهناك أبواب سرية تظل مغلقة: شئنا ام ايينا" - لكنني اغرم، أحياناً، بمعرفة النتائج"، العلاقة لا تبدأ من جوازات السفر والدين، انما من التطلعات الإنسانية العامة"، لقد انتهى زمن الامتلاك، الإنسان يسعى لان يملك نفسه وحدها، كافة الأشياء لكافة الناس دون احتكار ودون امتلاك ايضاً".

وفي لغة ما تدخل البلاغة الجديدة من اوسع أبوابها، ومن ذلك: "دخلت الجنة في جمجمتي"، "القحوف .. علامات الحضارة"، استحالت قدمي الى فضاء صلب تصعدان وتهبطان على صحراء شاسعة". ووراء التعبيرات حياة ومشاعر وذكاء، واوصيك خصوصاً بـ "ساموث قبل خمسة الاف سنة". وتجد من مفرداته ما كان على الغاية من الفصاحة ولكنها تمر في سماحة مثل سواها، من ذلك: تزججت، النوء...

(7)

انك تتحدث عن "القناع" وكأنها كلها محاسن، وقد بالغت ..

- اما بالغت، فلا اني لم اقصد الى شيء من ذلك، وانما هو اهتزاز الاعتزاز، ومثل هذا قد يطير بصاحبه الى سماء ابعد مما يريد له الآخرون، وابعد ما يريده لنفسه أحياناً، ولكنه يرى ان يترك الامور تجري على رسلها. - اما كلها محاسن ؟!

- اما كلها محاسن، فلم اقل ذلك، وليس من المعقول فهنا وهناك ما لا يدخل في هذا الباب او ذاك، والا فاني كنت اتحدث عن المجموع، ولا تخسر اذا قرأت المجموعة كلها، ففيها فن، ودعك من التفصيلات اما اذا اردت الخصوص فابدأ من المجموعة بـ "القارب" اما قبل ذلك فقد يطفو عليه نوع

من التفريرية والخطابة الواعية. كان الكاتب يقصد الى ان يدخل الموضوع
الفلاني جنسيا مرة ووجوديا مرة وفلسطينيا مرة، والى ان يمزج المعالجة
بالكوبييس والأحلام، وما الى ذلك من مستلزمات السريالية ..
ولم تخل اللغة من خطأ كان يقول "عشرة عيون" و "هاتان الفتاتان
تريداني" و "بطنها منتفخة"، "تعلم متى يطلقو" .. والصحيح عشر، تريداني،
منتفخ، يطلقون ..

(8)

- انك، عندما تهتز، تطوي العيوب.
- لا ولكني استصغرها الى جوار المحاسن.
وتبقى الحقيقة هي هي، ان اثرا جميلا يجب ان يهز، وان العبرة في اثار
الشباب بالاستمرار فلا تكفي ان تجعل من صاحبها قصاصا بمعنى الكلمة،
وانما هي علاقة تغرسه على اول الطريق، ولا بد لنا من ان نقف عند هذه
العلامة ونعجب اذا كانت مثار اعجاب، اما العلامة الثانية فهو المسؤول عنها
وهي التي ستوضح موقفه ايجابا وسلبا، ولا بد للثانية من ثالثة ورابعة - في
مجتمعنا.
اجل، قرأت "القناع" وسأعيد قراءة عدد من قصصها، وفي طليعة هذا
العدد: "القارب" و"سهرة تحت غيوم الصباح" وقد تكون الاولى اجمل، وقد
تكون الثانية اجمل.

* * *

عراقي ايضا لغته صورة*

"تلك الحفنة تأبى ترك البشر يعيشون في مسراتهم الصغيرة"

تصورت وأنا أقرأ قصص العراقي خالد حبيب الراوي، بالإضافة الى صور أدبية كثيرة في الذاكرة آخرها تلك التي قدمتها لجمعة اللامي... وكانت مكتوبة في اشكال مختلفة كزهرة او كصليب او كمسدس، وكذلك روايات مصطفى ابو لبدة، تصورت وأنا أقرأ واتذكر ذلك وكل المحاولات الكتابية الجريئة التي بدأت في هذا القرن، اننا على وشك ان نودع عصر الكلمة، الكلمة هذا الرمز المجرد، لنبدأ دخول عالم المراثيات الحسية، عالم الاشكال الفنية التي تخاطب كل الحواس، وتحسرت، اذ اي صبر بعد سيجبر قارئ المستقبل على مراجعة التراث الأدبي الإنساني في تاريخه الطويل.

لكن تصوري هذا بالطبع سابق لأوانه، فالقصاصون الجدد، ومثلهم الشعراء، لا يزالون ايضا تحت سيطرة الكلمة وضمن اطار دائرتها، وإن كانت محاولاتهم تنقلهم من القلب الى اطراف الدائرة، فالصورة السينمائية قامت بقفزة رهيبه قواها هذا الاستعداد الكبير لانتقال الذهنية الحالية الى الإحساس العصبي حيث تمكن العودة الى البدائية، بعد كل التعقيد الحضاري، والى البدائية الراقية.

في المجموعة القصصية التي تحمل اسم "القناع" يبدو واضحا جدا هذا التدرج من السرد الروائي الى السرد السينمائي، وليس خالد الراوي الاول، لكن قصصه هي الاقرب الى ما يسمى السيناريو السينمائي من حيث التقطيع المشهدي، والتعليق، والحوار والجو. هذا الجديد ليس هو ما يضع هذا القصاص بين الطليعيين الشباب بل ايضا المحتوى، اي نظراته الى العالم والعلاقات الإنسانية، وهو ينتمي الى خط زكريا تامر (السوري)، وجمال ابو حمدان (الاردني) وإن كان تأثره بالرائد السوري اوضح: "ملا بندقيته بالرصاص، وأخذ يطلق على النار، سقطت أخيرا على الأرض البيضاء

* عصام محفوظ، جريدة النهار اللبنانية، 13/11/1970، صفحة 11.

قتيلاً، ولم تخرج من جسدي قطرة دم". وهذه ليست المرة الأولى حيث يتحدث الميت عن نفسه، كما يفعل أبطال تاملر في مجموعته الأخيرة "الرعد"، وأن كان الرمز هنا يفقد بعض توتره الموجود هناك لعدم تخلص العراقي الشاب من الشرح الزائد، برغم اتباعه أسلوب السيناريو حيث الاعتماد على الصورة، إذ كثرة الصور أيضاً يقتل بعضها بعضاً، خاصة أن الشرح الموجود عند الأردني يشفع له الشعر، والصورة إذا لم تدخل رواق الشعر، أو إذا لم تكن ذات إيجاز نثري عنيف وصارم، تصنع الكثير من قدرتها على لقط القارئ إلى النهاية، وهذا يبدأ مع أول كلمة في أول جملة في أول قصة موجهة إلى القارئ.

والقصص الجيد من يستطيع أن يضع اصبع القارئ على الحبة الأساسية في المسبحة لتكر الحيات من ثم في سهولة مريحة ولذيذة، لكن القاسم المشترك بين هذا الكاتب ورفاقه السابقين هو أصالة التعبير الذي يدل عليها التصاق المضمون بجو الأرض التي يعيش عليها الكاتب، الأرض وناس هذه الأرض، ومحتنهم.

هناك جو من الرعب يغلف كل إنتاج هؤلاء الحساسين، فيجعل أحاديثهم بسبب هذا الرعب، أقرب إلى الرمز، وبالتالي إلى الشعر، وبالتالي إلى الحقيقة المطلقة، وهذا ما يجعل هؤلاء الشباب يعالجون من خلال تفصيل واقعي رهيب، كل المعاني التي هي أبعد من الواقع، أو التي قد تكون أكثر واقعية من الواقعي على الصعيد المستقبلي .

"الخيول تركض والفرسان يضحكون"، "أصبحت أقدام طيوراً"، "رجل له سبع أقدام"، "سهرة تحت غيوم الصباح": إنها عناوين شاعرية لوقائع لا تمت إلى الشعر بصلة، يظل يعلوها حتى يصيرها مزيجاً من كل العواطف الإنسانية ورغباتها، من كل ما يقيد هذه العواطف أو يطلقها عبر إحساس إنساني قوي التأثير. يقول في إحدى قصصه: "عندما ترفع البندقية لتكون حراً لن تخشى السفاكين، وإذا كنت حراً تضطر إلى القتل أو الفرار، تلك الحفنة من سفاكي العالم تأبى ترك البشر يعيشون في "مسراتهم الصغيرة". ربما هذه الجملة مفتاح فهم قصص الراوي شكلاً ومضموناً.

القناع*

في - القناع - مجموعة القاص الثانية، فإن العالم المرفوض هو امتداد لنفس العالم الذي استهلكه الكاتب في مجموعته الأولى. غير أن طغيان الخيبة السياسية والهزيمة الفكرية والجذب الجنسي هو الخط الهارموني الذي يحدد الملامح الأساسية لمجموعته الجديدة .. والكاتب هنا يطرح نفس البديل الأخلاقي لعالمه المرفوض .. لذلك نراه سلبياً في موقفه إزاء العالم المثالي الذي يحلم ببنائه وتأتي قصصه السبع عشرة في لوحة متفردة ذات خلفية متماثلة لتصب في ذلك النهر المتدفق الكبير من عشق عظيم للإنسان .. والحرية .. والعالم .. ان التأكيد المفرط على الشكل المجرد يحول دون الغوص بعيداً في أعماق الشخصيات الداخلية، وهذا التأكيد الحاد هو الذي يحدد صورة القلق الكبير الذي يعيشه الكاتب خالد حبيب الراوي في عالم يفتقر إلى النظافة. ولعل مما يشكل ثغرة كبيرة في قصص المجموعة هو تأكيد القاص على استعمال الجمل الجاهزة والتعميمات والشروح - "التاريخ طبقات من تراب متراكم" و "لكي نولد دائماً ومجدداً ينبغي المضي وحدثنا فلا فائدة من الكشوفات، اذا كان هناك من يراقب .. الخ".

* * *

* يوسف الحيدري، مجلة الكلمة، نيسان 1971، السنة الثالثة، العدد الرابع.

القطار الليلي *

يواصل القصاص خالد حبيب الراوي في مجموعته الجديدة ما بدأه في مجموعته (الجسد والأبواب) و (القناع): اتقان القصة القصيرة جدا الجامعة بين مطالب الصحافة والبناء القصصي، ويضيف اليه عودة جديدة الى الموروث، والى منهج همغوي خاصة: الفوتغرافية القصصية الصحفية الرمزية البليغة: (زوجة المحارب، الالتحام، الشاحنة، أضواء) او الى الواقعية الخمسينية العراقية وقد أمست أكثر دقة وتهذيبا واحتفاء باسرار البناء ومطالب الجمال الداخلي: (القوس). وقد يجنح في قصة (العصفور الأسود) الى محاكاة زكريا ثامر هاجسا وتشكيلا: شريحة واقعية مصنوعة في ضربة صحفية مقالية حوارية بالغة التركيز وان لم تكن كاملة الإشعاع .. ووراء اغلب القصص نزوع دقيق واضح الى النقاط ابعاد الواقع السياسي والطبقي الاجتماعي وأضاء تناقضاته المتشابكة عبر دراما واقعية ناضجة المحتوى بليغة الشكل تتخذ من اللغة الصقيلة الدقيقة الموقعة هدفا واداة في آن واحد. "ان قصص الراوي ذات (نقاط صارمة) واشعاع رمزي سهل: (البنادق). ووراء الاستفاضة المألوفة المبررة تناقضات اكبر وواقع اشمل ونظرة اهدأ. ان (القطار الليلي) كسب للقصة العراقية المعاصرة نبذ فيه القصاص تقعر الإنشائية الدخيلة وغموض الرمز. لقد أمست قصص الراوي اسهاما في واقعية صقيلة معاصرة وانيقة".

* * *

* بلا مؤلف، مجلة الف باء، 31 كانون الاول 1975، العدد 380.

القطار الليلي*

بمساعدة وزارة الإعلام ومن منشورات مكتبة التحرير في بغداد، كانت قد صدرت مجموعة "القطار الليلي" القصصية، للقااص خالد الراوي، وفيها يقدم القااص صورة لأسهامه في القصة العراقية، بلون نستطيع ان نسميه قصة "اللقطّة" او "الموقف"، التي سبق وقدمها في مجموعتيه: "الفنّاع" و "الجسد والأبواب".

ففي هذه المجموعة .. اقاصيص قصيرة جداً، تكاد لقصرها تقرب من الموقف الواحد او اللقطّة الواحدة، لكنها رغم صغرها هذا، تأتي محكمة من الناحية الفنية بكثافتها .. ورغم انها تطرح رؤى محددة للعبث واللا توازن في حركة الشخص والواقع من جهة أخرى، الا ان إنسانية رواها وامتلاءها بأحاسيس قوية، منحها القدرة على البقاء في ذهن القارئ، وان كانت الاقاصيص في بعضها الآخر تبدو وكأنها مبتورة او غير مكتملة او انها صورة درامية صغيرة فقط. وتتجج هذه الاقاصيص: "افراح"، "اشراقات"، "العنكبوت"، "آه"، "تمور من ورق"، "العلبة"، "العصفور الأسود" في طرح موقف احتجاجي نابع من موقف إنساني عام.

وفي قصة "رجل ما .. دون النقاء" يرصد الكاتب حركة تشير الى وضع إنساني طالما عرضه الكاتب في اقاصيصه، وهي عزلة الإنسان ومحاولته اقامة الصلة بالعالم، رغم سقوطه في العجز "الرجل يعاني لحظات الموت" .. والجدير بالإشارة هو تأكيد الكاتب لعلاقة الإنسان القوية بالامل. فهذه الشخصية التي تعيش لحظة موتها، تمنلىء بالريجات فهو يخاطب اهله: "انتم متعبون .. تعالوا وناموا بجنبي". وهذا ما يمنح هذه القصة ايجابيتها رغم صفاقة العالم حوله. وفي قصة "الاختفاء" يطرح الكاتب صورة الصدق عند

* عبد الرزاق المطليبي، جريدة العراق، 27 كانون الاول 1976، العدد 257، صفحة 8.

الشخصية القصصية على مستوى الفعل الدرامي، ولكنها تبدو لشدة كثافتها غير مكتملة، وهي من أقاصيص الموقف أو اللقطة. وفي قصة "الفوس" وهي ليست أطول قصة في المجموعة فحسب، بل إنها قصة طويلة، ولكنها تأتي ممطوطة، يعوزها الكثير من الضغط والتكثيف، فهي تستغرق الكاتب في نقاشات مجردة، وتطرح تصورات ذهنية، لا يبرر لها كونها ضمن المناخ الذي تبحث فيه الشخصية عن القناعات أو أساسيات الصدق في الفعل وفي الموقف الإنساني، وهذا ما جعل الرموز فيها كرمز السيدة، وكالايحاء الرمزي للشخصيات يشحب كثيرا على مستوى التحقق الإنساني للشخصية، ولكن إيجابيتها تمنحها شيئا من النجاح القصصي.. خاصة في نهايتها وفي حركة شخصها، فقد طرحت القصة في حركتها الأولى بحث البطل عن ثقل إنساني لوجوده في مقابلته لشخصية المرأة التي كانت أكثر تماسكا وقدرة على رؤية خلاصها، ثم في حركة النهاية التي انتهى البطل من خلالها إلى وجود ثقله الإنساني في الانتماء للنضال الساخن في حركة الإنسان العربي بانتمائه إلى حركة الفداء العربية .

* * *

العيون وتفجير التناقضات*

على الرغم من انقطاع الكثير من القصاصين عن كتابة القصة القصيرة جداً، فإن القاص خالد حبيب الراوي ظل مواظباً على كتابتها، وفي الوقت الذي كانت القصة القصيرة جداً مجرد موضحة عابرة لدى القصاصين الآخرين، فإن خالد حبيب في الوقت الذي يمتلك اسبقية الكتابة فيها، حيث انه سبق الغالبية من كتاب القصة، فانه أيضاً بقى حريصاً على ان تكون الاقاصيص الصغيرة هي المسيطرة على اهتماماته وعلى جميع مجموعاته القصصية .

ولم تخرج عن هذا الخط مجموعته القصصية التي صدرت مؤخراً عن وزارة الإعلام بعنوان "العيون"، فهي تواصل الحفاظ على النهج ذاته حيث تسجل أكثر الموضوعات تعقيداً وسعة في العلاقات الى قصص قصيرة جداً، مضغوطة بكثافة وقوة تركيز، وحيث يحتفظ القاص بالتناقضات التي تنطوي عليها الموضوعات دون التوضيحية بأي جانب منها، ودون ان يقوده الشلل الى الاستسلام للسكون في التعامل مع التناقضات، وجعلها معزولة عن ارهاصات الحركة، والصبرورة والتأثير .

ان اعتماد شكل القصة القصيرة جداً يؤدي بالقاص الى الابتعاد عن الاهتمام بالتفاصيل ذات المحتوى النفسي والشعوري، والى التركيز على الاوصاف والحركات الخارجية للشخصيات وذلك ما حصل فعلاً، بيد ان القاص حاول التعويض عن ذلك بالنقاط الوصف الأكثر قدرة على تجسيد وابرار الحالات الشعورية كما انه يضع الشخصيات وفق اطر ملائمة لطبيعتها، وهي تمارس أفعالها ومواقفها انطلاقاً من الوضع الخاص بها، ولذلك فان القارئ لا يتعب كثيراً في التعرف على هذه الشخصيات رغم ضيق المساحة المحددة لها في النص القصصي .

وبهت القاص خالد حبيب بالتناقض والتضاد لكشف شخصياته وتحديد نوعياتها، وان هذا الاهتمام في الوقت الذي يتخذ فيه شكل وسيلة الكشف، فانه أيضاً يشكل القوانين الداخلية لمجرى حركة وتفكير الشخصيات، ففي

* بلا مؤلف، مجلة الاذاعة والتلفزيون، بلا تاريخ.

قصة "العيون"، يبرز التناقض كمحتوى أخلاقي، وكذلك في قصة "مسافات" فيما يتحدد التناقض في قصص أخرى مثل "الرجل" و "رجل الممرات" و "النصاق" في الحقيقة والوهم، حيث تفصل الأفكار والمشاعر والمواقف عن التوقعات والحقائق، وحيث تفكر الشخصيات بعكس ما يحيط بها من مظاهر وعلاقات .

وإضافة إلى ذلك فإن التناقض في بعض القصص مثل "شرفة في بيروت" يتحدد في التباين بين البراءة ودموية الحرب، والتناقض بين الواقع والأحلام، أو التناقض في تفكير شخصيات تنتمي إلى مواقع طبقية متناقضة مع بعضها.

ويعتمد القاص خالد حبيب على عنصر المفاجأة في قصصه القصيرة جداً، حيث تنتهي خاتمة كل قصة بمفاجأة معينة غالباً ما تكون ممتعة بسبب كونها تسير بالشخصيات إلى نهايات غير متوقعة، وإلى نهايات متناقضة مع بدايات كل قصة، والمفاجأة هنا في الوقت الذي تعمل فيه على تجسير التناقضات أو حلها بشكل غير متوقع، فإنها العنصر الذي تتجسد فيه مضامين ومحتويات القصص، كما أنها تقوم بتحديد مصائر الشخصيات وتوجهاتها وتحديد المصائر في قصص "العيون" من أسباب متعددة، وغالباً ما تستسلم الشخصيات إلى مصائر لا تتفق مع مطامحها وأحلامها كما أن هناك شخصيات أخرى تمارس حضورها وإرادتها في تحديد مصائر الشخصية . وعلى العموم فإن هذا التحديد مرتبط بالحدث ونوعيته، وعلاقته بقوى خارجة عن إرادة الشخصية، أو بقوى الشخصية ذاتها .

إن شخصيات خالد حبيب بسبب ضيق المساحة المرسومة لها ضمن إطار القصة القصيرة جداً لا تعطي كل ما تملكه من طاقات وعلاقات ولا تقدم من حياتها سوى لحظة أنية ليست بتلك الأهمية من الثراء، ولذلك فإن ما بقي من طاقات هذه الشخصيات ظل دفيناً، ورهنًا بقدرته القارئ على تخيل حياة هذه الشخصيات خارج إطار القصص، أو تخيل وضعها ضمن هذا الإطار .

* * *

قراءة في قصص خالد الراوي القصيرة*

لقد اصدر القاص خالد حبيب الراوي مجموعته الاولى (الجسد والأبواب) عام 1969 .. وقد تميزت قصص تلك المجموعة بالطابع الاجتماعي والإنساني والسياسي، وكشفت عن موقف القاص الواضح والثابت والتقدمي في عملية الصراع الطبقي .. غير ان تلك القصص كانت ذات نفس قصير اقرب الى اللوحة الوامضة، واللقطة السريعة، والصورة التخطيطية الحادة منها الى القصة الكلاسيكية ذات الحدث والبناء الدرامي والشخصيات الأساسية والثانوية واللغة السردية .. الخ، ولذا فان جملها هي الأخرى قد جاءت ذات طابع تلغرافي وبرقي سريع مباشرة وحادة، متشنجة وصادمة!

اما قصص مجموعة خالد حبيب الراوي الثانية (القناع) الصادرة عام 1970 فانها اعتمدت ايضا التخطيط السريع، الحاد والغامض، اكثر من اعتمادها على النمو الطبيعي لابعاد القصة التكنيكية والفنية .. وقد تناول القاص في تلك المجموعة القضية العربية الفلسطينية وظروف القتال والكفاح المسلح، وخاصة في قصتي (الحدقة) و (مياه)، ولكن تلك القصص قد تناولت الجانب السلبي والمعتم من تلك القضية والظروف .. حتى وان كانت واقعية وموضوعية !! ولذلك فان القارئ لا يحس بانجذاب روحي او ذهني نحو القصة، ولا تستطيع هي بدورها ان تعمق وعي القارئ او تنتزع تضامنه السياسي والروحي والأخلاقي مع القضية الفلسطينية .

وقد عاد القاص خالد حبيب الراوي الى تناول ومعالجة القضية العربية الفلسطينية في مجموعته الثالثة (القطار الليلي) التي صدرت هذا العام بشكل اوسع واعمق .

ومع ان القاص من اكثر القصاصين العراقيين تناولاً للقضية الفلسطينية في قصصه القصيرة ككل - فان قصصه تلك لا تختلف عن باقي القصص

* مؤيد الطلال، جريدة العراق، العدد 287، 2 شباط 1977، صفحة 6.

العراقية الضعيفة، وتظل قريبة من الوجه السلبي والتجريدي لهذه القضية .. اي تعبر عن الخصائص السلبية في القصة العربية التي عالجت هذه القضية. واكثر تلك الخصائص السلبية وضوحا في قصص خالد حبيب الراوي - اضافة الى الضعف الفني - التجريد المحض الذي يحول القصة الى تصور خالص، الى فعالية ذهنية وليست تجربة إنسانية حية ومعاشة، حتى وان كانت هذه القصص تتناول فعاليات العمل الفدائي واشكال النضال الشعبي، كما هو الحال في قصة (الجدران) مثلا!!

فالمحارب او الفدائي او المناضل العربي الفلسطيني، يبدو هنا كما لو كان رمزا مجردا خاليا من الاسم والدم واللحم. والهوية الشخصية، خاليا من الحياة .. وكذا الحال بالنسبة للأرض او القرية العربية، فانها تظهر في القصة كما لو كانت مكانا غريبا، مجهولا وغير مأنوس .

ولعل هذا العيب في القصة العربية عامة، وقصص خالد حبيب الراوي خاصة، يظهر اكثر ما يظهر في القصة القصيرة جدا اذا صح مثل هذا المصطلح .. فمثل هذا اللون الأدبي (الذي يميز أعمال خالد حبيب الراوي مثلا) لا يتحمل التعبير عن قضية مهمة ومتشعبة كالقضية الفلسطينية، مهما كانت زوايا النظر والصور التي يستطيع ان يلتقطها ويكتفها القاص، ومهما كانت النوايا طيبة، حيث ان استدرار عاطفة القارئ العربي ليس سيلا فنيا ناجحا لامتلاك ناصية او تثبيت موقف سياسي واع، كما في قصة (زوجة المحارب) مثلا .

ومن هنا تصبح الجمل الثورية البليغة والافكار السياسية والفلسفية المجردة نافلة، ان كانت متخللة قصة قصيرة جدا او قصة مسرحية الطابع، كما هو الحال في (الرصيف).

ومع ان القاص خالد حبيب الراوي يستطيع ان يكتب قصصا متكاملة، ومع ان قصصه القصيرة جدا هي بمثابة لقطات متكاملة تمتلك العناصر الأساسية للقصة الجيدة، كالحدث والموضوع والعنصر الدرامي والاثار النفسي .. الخ، غير اننا لا نستطيع ان نفهم سر ولعه الشديد في اختزال

قصصه الى حد غريب وغير مألوف في القصص العالمية، مهما كانت قصيرة، كما هو الحال في قصة (افراح) من مجموعة (القطار الليلي 1975). تلك هي القصة كاملة، وكان من الممكن ان تكون قصة جيدة وذات دلالة إنسانية رائعة لو ان القاص وسع من ضفافها واكساها باللحم والشحم اللازمين ليستوي هيكلها العظمي كيانا حيا .. ومع ذلك فان هذه اللقطة الحساسة الذكية قد وفت بالغرض من كتابتها .. حتى وان كانت بهذه الطريقة التلغرافية السريعة!

وككل فان أعمال (خالد حبيب الراوي) تتصيد اللقطة السريعة الوضاعة او الحادثة الصادمة او المفارقة الغريبة .. في حين يظل أسلوبه واحدا، متميزا، ونفسه القصصي قصيرا ولاهئا: جملة متشنجة وبرقية، وحواراته، مختزلة، تقترب بعض قصصه من الاداء المسرحي أحيانا ومن الصورة الفوتوغرافية أحيانا أخرى، وان كانت تلك اللقطات والصور الخاطفة مشبعة بالمحتوى الإنساني والفكر التقدمي.

ومع ان القاص يستخدم أسلوبا واحدا في جميع أعماله، غير انه يعالج موضوعات متنوعة ومتعددة تتراوح بين القضايا السياسية الكبرى (كالقضية الفلسطينية) وبين قضايا المجتمع الحياتية والعاطفية .. الخ . وقد تجمع قصة واحدة الاهداف السامية والامور الشخصية الثانوية في آن واحد، كما هو الحال في قصة (الفوس)!

والقاص خالد حبيب الراوي ميال ايضا لمعالجة الموضوعات الاجتماعية الأساسية والطابع وابطاله غير متميزين وغير واضحي الملامح: انهم علامات عابرة في مجاهيل الحياة .. رموز تجريدية بحتة .. انهم بلا أسماء، بلا ماض .. بلا مستقبل، شهب خاطفة، ولكنها سريعة الزوال.

* * *

العيون*

لم يبتعد القاص خالد حبيب الراوي عن الاتجاه القصصي الذي اختطه لنفسه، منذ بداية رحلته الأداعية، وهي كتابة القصة-الحالة أو القصة-الموقف عبر رؤية مكثفة للواقع الإنساني ونظرة فاحصة دقيقة، تجهد في فحص العلاقة الجدلية بين الإنسان والواقع، وبين الفرد والمجتمع، بين الحرب والحب والموت والحياة وذلك من خلال ضربات حادة، ولقطات سينمائية مستفزة دوماً .

و(العيون) آخر مجموعة قصصية صدرت عن وزارة الإعلام للقاص خالد حبيب. وهي تمتاز بالتنوع، وبسعة العالم الذي يتحرك إبطاله فيه، فهناك حالات اجتماعية تعيش وضعاً إنسانياً مأزوماً وتعاني من ظروف اقتصادية واجتماعية قاسية وتمزقات ذاتية مريرة وهناك مقاطع من مأساة الحرب اللبنانية جسد القاص من خلالها وعبر تقطيع مكثف صمود الإنسان العربي ازاء الموت المجاني وازاء عبث الفاشية الجديدة في تلك الأرض الطيبة .

وعلى الرغم من اقتصاده في رسم شخصيات قصصه الثلاثين وفي بناء الأحداث فإنه استطاع ان يعطي أضاءات سريعة، اشبه بالأسلوب البرقي، عن شرائح اجتماعية مختلفة، ومصائر إنسانية مسحوقة .

ومن خلال ضربات قصيرة أوجز القاص حياة بعض أبطاله الباحثين عن الحياة والمرأة والسعادة . فهناك رجل المحراث الذي يصاب بالشلل تتركه زوجته و(الرجل) الذي تركته زوجته لطول سفرائه ومسألة الهرب نجدها في أكثر من قصة: هرب زوجة أو هرب رجل سياسي خوفاً على حياته كما في قصة (الهروب) وهرب فتاة من رجل يطلب أكثر من صداقة .

وتتسم لغة القاص خالد حبيب بالإيجاء وبالعرف فهي قصيرة متوترة خشنة وحادة، وهو يمتلك قدرة جيدة في اختيار نماذج إبطاله من الواقع، كما ويكشف عن مصائرهم بوعي، وبخصوصية متفردة.

* بلا مؤلف، جريدة الثورة، 1977/10/16، العدد 2827، صفحة 6.

رحلة القصة عند خالد حبيب الراوي*

عالم القاص خالد حبيب الراوي متوتر دائما، يبحث بدأب عن الصور التي تعطي حالات متعاكسة لتضيء حالة أخرى ناشئة عنهما لكنها لا تكون مثلها، قد تكون أكثر كشفا لقسوة البشر مثل تصرفات محمود وافكاره في "السواحل المظلمة" وقد تكون أكثر إنسانية مثل حدث قصة "الجسر الضوئي" الأخير ولكن لماذا تدخل في عالم مجموعة "العيون" الأخيرة مباشرة؟ لننتحدث أولا عن قصص خالد الأولى:

اصدر القاص عام 1969 مجموعته القصصية الاولى "الجسد والأبواب" ثم اصدر بعد سنة واحدة مجموعته الثانية "القناع" والمجموعتان مترابطتان مع بعضهما، تحملان تلك اللغة الستينية الحادة المتوترة والشكل فيهما يستفيد بشكل واضح من اخر مبتكرات فن القصة القصيرة (التقطيع السيناريوي، الموافقة، الفلاش باك) لكن الذي يميزهما عن سائر المجاميع التي صدرت آنذاك، ان أهم القصص فيهما ليس فرديا ولا رافضا للحياة بشكل عديمي، فالمجموعة الاولى تعيش واقع المقاومة الفلسطينية التي عاش القاص جزءا من حياته في خضم انتصاراتها وهزائمها، اما مجموعته الثانية (القناع) فتعرض صورا للقهري السياسي الملازم لبعض اجزاء الوطن العربي مقدمة نماذج متعددة تسعى لان تجد حياتها تحت شمس حرة، ولذا فان القصة عند خالد هم عام تنطلق خصوصيتها الحديثة من كونها جزءا من واقع يجب ان يسير الى امام، وحالات الرفض الموضوعية لما هو موجود والقسوة في تصويرها ايضا لا تعني عند القاص الوقوف عندها بل تجاوزها الى افضل. في قصص خالد حبيب الاولى تجد الشكل لا يتخذ مسارا واحدا فهو يميل للتسجيلية في قصص مثل (الرصاص) و(البيوت) و (اشراقات) ويتخذ شكل

* باسم عبد الحميد حمودي، جريدة العراق، العدد 508، 26 تشرين الاول 1977.

التقطيع السينمائي في (الجدار وزهور البحر) و (انقسامات الزاوية) التي لا تتميز بذلك فقط بل اعتمادها الفلاش باك بين مقطع وآخر .

وللتاريخ عند خالد مكان واضح في مجموعتيه الأولى، لا بمعنى أنه يكتب القصة التاريخية، بل بمعنى أنه يستلهم منه ضرورة التغيير وهو هنا يوافق التاريخ مع ذلك الاستخدام الجيد لعملية البناء الجماعي كما في قصته "سهرة تحت غيوم الصباح" و "ناعور في نهر ياس". وإذا اعتبرنا هنا مجموعته القصصية الثالثة "القطار الليلي" مرحلة إعادة بناء جديدة فأننا نجد في المجموعة التي صدرت له مؤخرا "العيون" احتفالا غير عادي بالإنسان لا ينطلق عن الحماس الذي صاحب المجموعة الأولى، إنما عن الوعي بشكل التغيير الاجتماعي الحادث في القطر وفي الوطن العربي.

وإذا كانت عبارات من هذا النوع تبدو كبيرة وتطلق جزافا أحيانا فأننا نشير إلى مجموعة من القصص القصيرة التي ضممتها العيون منها خماسية "القفز"، رمال، الطيور الجبلية، مسافات، الجسر الضوئي"، أنها قصص خمس تصور الحرب كحالة اجتماعية لها سلوكها الواضح على نفسية المقاتل الإنسان الذي يعي قضيته، وهي تحمل تفجراتها الداخلية الإيجابية على السطح أيضا، فيبدو التصرف الخارجي ردا لفعل الشعور الداخلي، والقاص في هذه الخماسية وغيرها يحسن استغلال الصور والتأكيد على هذا التوافق، وقد يستعمل أو يعطي للقارئ مواقف تدين بعض التصرفات والمشاعر التي نعوها لا إنسانية ولكنه حتى في ذلك يكشف جزء من نزعات الإنسان وتصرفات بعض شرائحه تجاه الواقع برود أفعال لا إنسانية كما في "المنحنى" و "الوهج" و "السلام" وقصة "السواحل المظلمة".

إن القاص الراوي لا يقف عند هذه الصور والمواقف فحسب بل يضعك أمام صور إنسانية تبدو رومانسية أحيانا وتوصلك بعالم الخمسينات الأخلاقي ولكنها تتحدث وتصور وتؤكد فعلا إنسانيا يحدث الآن كالذي يعطيه جو قصص مثل: (شرفة في بيروت) و (زوارق) و (أوتاد) و (المزلاج) و (العكازة) التي تشبه في أداؤها لواقع موجود عند بعض الشرائح الاجتماعية ما يصوره القاص من انزلاق نماذج من شرائح أخرى متدنية في قصته الأولى (العيون)

رغم طول الحدث في الأولى وقصره وسرعة ضرباته في الثانية واختلاف التفاصيل في كليهما.

ولا يمكن أخيرا هنا الحديث تفصيليا عن مجموعة (العيون) لخالد إلا ان الذي يجب ان يقال ان القاص يعمد أحيانا الى استخدام المرح استخداما غير موضوعي كما في قصته "عزيزتي سميرة" والى تقطيع حدث واحد ونشره على قصتين قصيرتين جدا مثل (التصاق) و (التصاق، التصاق) بحيث تحس ان القاص يبدو متعبا في هذه القصة او تلك .

ان هاتين الملاحظتين لا تعنيان ارتدادا او ضعفا في الجو العام وفي مهارة التناول وفي قدرة هذا القاص على التقاط الأشياء الحياتية الصغيرة وتحويلها الى نماذج موضوعية، وبذلك فان القاص خالد حبيب الراوي قاص يملك جوا متفردا يحسن توظيفه بادهاش ويقود قارئه الى توتر لذيذ ومستفز لمتابعة ما يحدث صانعا من القصة فعلا اجتماعيا متفوقا وحميما.

* * *

العيون - خالد حبيب الراوي *

بلغة لا تتعمد قدر ما تتعمد الافهام والبوح عن كينونتها، وهو اذ يعي ويتعمد ذلك فلأن شرط كتابة القصة (العيون) التي احتوت على ثلاثين قصة، تراوحت بين القصة القصيرة جدا، محاولة ان تستبطن حالات وشرائح إنسانية عديدة تنهيا للكشف عن نمطيتها الاجتماعية من خلال اللقطة السريعة والذكية التي تتميز بها قصص المجموعة .

ان القاص يعي بانه يكتب عن شرائح معينة من المجتمع هم فلاحون، بحارة، موظفون، جنود، ... الخ ولذلك فهو يطرح علائقها بعضها ببعض وفق منطلق فني يلتقط الصورة السريعة الدالة والموحية عن تلك النماذج المحملة بشرط كينونتها. وهو اذ يعي ويتعمد ذلك فلأن شروط كتابة القصة القصيرة جدا، القصة - الحالة - اللقطة - الموقف، تستوجب وتتطلب تلك الارهاصات التي يحس القارئ من خلالها انه ازاء قاص متمكن من شروط العملية الابداعية في هذا الميدان من ميادين القصة الذي يتميز بطرح حالات اجتماعية مأزومة تتحرك ضمن دوائر فعلية وتعاني من مصائرها الاقتصادية والسياسية الحادة والمريرة. والقاص حين يقتصد في الرسم والمعالجة فانه يعطي أضاءات برقية متوترة تستبطن الايماء والدلالة والعنف، وتكشف عبر تقاطيع مكثفة عن تلك الشرائح الإنسانية المأزومة، معبرة عن سخط وصمود الفرد العربي ازاء الاحداث والتناقضات التي تقتنص وجوده في كل مكان .. فلسطين .. لبنان ... وازاء العبث الرجعي والفاشي بصيرورته ووجوده .

ان قارئ (العيون) يشعر حقاً، انه يتجاوب تجاوبا كبيرا معها، لانها كتبت وفق رؤية شمولية وفاحصة لعلاقة الإنسان بالواقع، وعلاقته بالكينونة وعدمها والحب والموت معا.

* * *

* بلا مؤلف، مجلة الطليعة الأدبية، كانون الثاني 1978، السنة الرابعة، العدد 1.

رؤية

خالد حبيب الراوي في قصته "رمال" من مجموعة "العيون"

أقدار الإنسان وصراعاته*

تبدأ القصة بوصف لخروج الشاحنات من المدينة، وهذه البداية تشكل لاتجانسا بين المدينة والشاحنات، بينما ستنتهي القصة بالتجانس بين جنود الشاحنات والحرب. ويعتمد تطور القصة عبر البنية السردية على الكلمات المتعلقة بالحرب: شاحنات، جنود، طائرات، قذائف .. الخ، وكذلك على الأفعال القوية المعنى والتأثير والمتناسبة مع موضوع الحرب: يمرون، يحدقون، يلوحون، يستطلعون .. الخ، أما عن الصفات، فهي قليلة، واغلب الأفعال في النص تتضمن صفة واحدة أو مفعولاً، لا تزيد من جمالياته بقدر ما تضيف الى البنية السردية بعض التوتر: سمعوا أصوات القذائف البعيدة، رفع الجنود أذرعهم... الخ. ويتعلق هذا التوتر، بالطبع، بتتالي الأحداث، على إيقاع الشاحنات الذاهبة الى الحدود بسرعة، وعلى الرغم من قصر القصة (صفحتان) - اذ يمكن دعوة هذا النوع بالقصة المكثفة - الا انه يمكن تقسيمها الى وحدات أربع: الجنود في الشاحنات المغادرة للمدينة - الشاحنات تتوقف دون سبب معروف قبل الحدود - الشاحنات تخترق نقاط التفتيش وتقف في النقطة الأخيرة - ثم هبوط الجنود على الجبهة .

وللتعرض للآنية السردية، يجب البحث عن المتكلم في القصة، انه الراوي الذي يحاول ان يؤكد ابتعاده عن القصة حين استعماله ضمير الغائب (بصيغة الجمع هنا)، وانه لا يعرف عن القصة والابطال اكثر مما يعرفه القارئ. ومن الملاحظ انه اقل كلاسيكية من زميله في قصة "الامواج" لكازم الاحمدي، فهو لا يغوص في صدور الابطال واذهانهم، ولا يعرف ما لا

* افنان القاسم، مجلة الطليعة العربية، 13 كانون الثاني 1986، العدد 140.

يعرفونه، أي أن الراوي في سرده يعتمد أسلوب "التحديق" فهو لا يسعى إلى رؤية داخلية لعناصر القصة وإبطالها، ولا يرمي إلى سبر أغوار حياتهم الداخلية، بل يعتمد على طريقة "الرائي" ويسجل ما تراه عينه وعين القارئ معا.

ومنذ البداية، تبقى عناصر القصة مجهولة لدينا، فلا المدينة لها اسم، ولا الجنود، ولا الحدود، ولا الضابط، ونحن لا نعرف المصدر الذي انطلق منه نشيد الثورة في آخر القصة، ومن القصة نستنتج استنتاجا أن الوطن في خطر، وهو الذي ينادي الجنود للدفاع عنه، أنه أذن المنادي والمنادي، الطالب والمطالب به .

أما الفاعل فهو الجنود الذين يسعون وراء موضوع معين ينتظرونه، وأرادوه، وهو الذهاب إلى الحدود حيث الحرب تدور، فيشاركون فيها، لا ليحموا الوطن فقط بل ولحفظوا الثورة.

عنصر الزمان التاريخي غير محدد، ولكننا نستطيع أن نحس أن حوادث القصة تدور في المنتصف الثاني للقرن العشرين نظرا لاستخدام مصطلحات تقنية حربية حديثة مثل شاحنات، قنابل، طائرات، كما أن مدة القصة، أي المسافة الزمنية القائمة بين بدايتها ونهايتها، لا يمكن تحديدها، ونحن نعتقد أنها لا يمكن تحديدها، ونحن نعتقد أنها لا تتجاوز بضع ساعات من الزمن الواقعي، أما زمان القص، فهو يمضي في تسلسل زمني دون أي قطع يعود بنا إلى الماضي.

أما الجملة الأخيرة "ودى نشيد الثورة قويا"، ففيها استباق للاحداث التي ستقع في المستقبل حيث النصر محتم، حتى أن الراوي حين استخدامه للأفعال بصيغة الماضي، يضعنا على حافة هذا الاستباق للاحداث، لأن كل فعل يشكل تحولا إلى فعل آخر أكثر قوة، كما أن الزمان يأخذ صورة الجو القصصي، فهو بطيء لحظة التوقف والانتظار، سريع لحظة اقترابه من مكان المعارك، وعندما يسود الجو التراخيدي.

لقد لعب الزمان القصصي دورا هاما في البنية السردية، وأبدى أنه أحد العناصر الأساسية في الحرب وفي نفس الشعب العربي، فبإمكانه أن يقلب المعطيات التاريخية، ويجعل من الهزيمة انتصارا.

اما بالنسبة للمكان، فنحن نجده منقسما الى ثابت ومتحرك، المكان الثابت هو المدينة، يصفها الراوي بـ "قديمة" وهو المقاهي، والطرق، وكلها ثابتة تلوح لقافلة الجنود، تتصف بضيق الأفق ودون هوية. المكان الثابت ايضا هو الصحراء التي ترمز الى تقهقر الأعداء: "الشاحنات تمر فوق الشريط الممتد في الصحراء. انهم سيصلون في اي منعطف الى الحرب"، وهذه العبارة الأخيرة حاسمة في ما يخص عزم الجنود وتصميمهم على كسب الحرب، والصحراء هنا ثابتة، ولكنها واسعة، ممتدة، حاضنة لتقدم الجنود فيها، لا تحدها جبال، الصحراء هنا رمز للحرية. الحدود مكان ثابت، ولكنها رمز الثبات، فهي الأساس الذي ستبنى عليه باقي الرموز والعناصر القصصية منها يجب دفع الأعداء، وعليها تتم حماية الوطن وحفظ الثورة.

وفيما يخص المكان المتحرك تشخصه الشاحنات كعنصر حربي، لولاها لما انتقل الجنود ببنادقهم الى الحدود، فهي، اذن وسيلة وضرورة، وأحيانا لها شكل البطن الذي يلد ويحرض، لولاها لما تحقق للجنود املمهم بالمساهمة في القتال، ومن ناحية ثانية، تكمن ما بين الشاحنات والطائرات علاقة متناقضة، فعندما تقف الشاحنات، يجري البحث عن الطائرات وعندما تسير الشاحنات يذهب خطر الطائرات، هذا يدل على ان الحركة على الأرض ايجابية وفي السماء سلبية، وللانتصار لا بد من درء خطر السماء وعندما نعرف ان واقعة الطائرات في القصة لم يذكرها الراوي سوى مرة واحدة، فهذا يعني ان خطرها ليس جسيما، او انه، على الاقل، خطر مدروس، لمواجهته اتخذت كل الوسائل المناسبة. وعلى كل حال، تبقى السماء للطائرات المكان الواسع الانهائي لتزرع التفاؤل والامل (اذا كانت صديقة) او الموت والالام (اذا كانت عدوة).

اما القذائف، فلا تسمع الا أصواتها، وهي تضيء وتنطفئ في الجبهة الأخرى، تساهم في هزيمة الأعداء، وتهيء الجنود الذين وصلوا الى الجبهة نفسيا، ليقوموا بواجبهم.

اما الجنود، فلأجسادهم ابعاد المكان المتحرك: جلسوا على المقاعد .. أخذوا يمدون سيفانهم وايديهم ... أنزلوا قبعاتهم على جباههم .. الخ، وهم يرمزون بدورهم الى جسد الشعب العربي الذي ينتظر منذ سنوات الانتصار

على الأعداء، ومن ناحية أخرى، يرمز الجنود الى الجيش العربي الذي يسعى لحماية الشعب من قنابل الأعداء. وهنا يكسر الرمز ارتباط الجنود بالحكومات العربية البائعة للوطن، فهي ستبقى في مكانها الضيق وعدم التفتح على الشعب. انهم المجندون تحت رمز الجيش الذي من الشعب والى الشعب.. وكل هذه العناصر الزمانية والمكانية تشكل فواعل القصة حسب جريماس.

اما العنوان "رمال" فله رمز سردي يوحى بالكثيف، عندما نعرف ان المكان الذي تحتله القصة في المجموعة لا يتجاوز الصفحتين، وله رمز معنوي يوحى بامتداد مسافة الحرب، ووعي صعوبتها، الى جانب العزم والتصميم على قطعها ويمكن ان تكون "الرمال" اقدار الإنسان وصراعاته.

* * *

ملحق -2- قصص للأطفال

القبضة الوهمية.

في الصباح، ذهب حسن الى مدرسته حاملا كتبه التي تمزقت اغلفتها وهو يضرب الحصى والحجارة المرمية على جانب الطريق بقوة، كانت هذه عادته وطالما استخدم (التتك) الفارغ الموضوع أمام الأبواب ككرة قدم فتدوي الأصوات في الشارع.

ورفع حصاة صغيرة ليهدف بها على مصباح النور الموجود ليضئ الطريق فسمع صوتا ينهره ويمنعه من تحطيم المصباح لانه يضئ من اجلهم، فترك الحصاة تسقط من يده. ثم تذكر امه وهي تقول له - يا ولدي لا تعتز على الآخرين.. لانهم سيعتدون عليك ايضا.

وابتسم حسن وهو يفكر بقوته. دخل الى الصف متأخرا، وكان المدرس يقف على الباب وحين توجه الى نهاية الصف حيث يجلس، شاهد قدم احد الطلاب بارزة في الممر فداس عليها بقوة.

صرخ التلميذ وأمسك بقدمه وهو يولول.. فسأله المدرس:

-ماذا جرى؟

فأشار التلميذ الى حسن وصرخ باكيا:

-داس على قدمي.

توجه المدرس الى حسن وسأله.

-لماذا دس على قدمه؟

تصنع حسن الاعتذار وقال:

-لم اشاهدها، العفوَ.

رجع المدرس الى بداية الصف، وأخذ حسن يضحك ويخفي وجهه بين كفيه وحين انتهى الدرس وخرج الطلاب وقف التلميذ وانتظر حسن وحين مر بجانبه، أمسكه من يده وسأله بغضب:

- لماذا أدبنتني؟

دفعه حسن وأسقطه على الأرض ثم خرج من الصف.

ركض وراءه احد الطلاب وقال له:

-لماذا اعتديت عليه؟

تأهب حسن للعراك معه وهو يقول:

- لا تتدخل بيننا. انني اكرهه، لماذا يضحك عندما سألتني المدرس ولا

اجيب؟

وحين غادر حسن مدرسته بعد الظهر وجد التلميذ الذي اعتدى عليه في

الصباح يقف في الطريق، قال له:

-تعال.

تقدم منه حسن وهو يشدد قبضته، وهنا ظهر ثلاثة تلاميذ كانوا يختفون وراء شجرة ضخمة وأمسكوا به وأخذوا يضربونه بقسوة، فمزقوا ملابسه وأسألوا الدم من أنفه وكسروا احد اسنانه ثم تركوه.

عاد حسن الى البيت وجسمه يؤلمه من الضرب. فتحت له امه الباب، هتفت به:

-ماذا صنعت بنفسك. ماذا حدث؟

مشى حسن صامتا ودخل الى غرفته وتمدد على الفراش، لحقته امه

وهي تسأله من جديد، أمسك حسن بيديها ودمعة تسقط من عينيه.

-لن اعتدي بعد الآن على أحد.

نظرت اليه امه بحنان وانحنى على وجهه وقبلته في جبهته.

* * *

الدراجات*

أمسك نبيل بدراجته الجديدة ونظر إليها.. انه فرح بها لانها توصله الى مدرسته البعيدة عن البيت، وقد خلصته من تعب المشي صباحا وظهرا، ولا سيما عندما كان يعود جائعا بعد انتهاء الدروس.

لقد أمسك بمقودها عندما اشترأها له والده وطاف بها أمام ابناء الجيران واصدقائه متباهيا.. وعندما اقتربوا منه سمح لهم ان يلمسوها ولكنه انطلق بها بعيدا عندما طلبوا منه ان يركبوها ويجربوها.. وقد اشترى قفلا للدراجة لكي لا يستطيع غيره ركوبها.

كان يخرج في الصباح معلقا حقيبته بالمقود.. وكان ابناء الجيران يمشون بسرعة ليصلوا الى المدرسة.. وكلما مر واحد منهم سمعه ينادي: -نيل... نيل.. انه لا يلتفت الى الأصوات التي تناديه ... لانهم - كما يقول - سيطلبون منه ان يوصلهم معه الى المدرسة.

وعرف ابناء الجيران نيل يحب نفسه فقط ولا يريد ان يساعدهم.. ولهذا امتنعوا بعد فترة من الوقت عن مناداته عندما يذهبون الى المدرسة ويديرون وجوههم الى جهة أخرى عندما يشاهدونه.. وفي الصباح الذي ابتدأت فيه الامتحانات.. اعد نيل الادوات التي يحتاج اليها في الامتحان وتأكد من وجودها ثم خرج وركب الدراجة.

وفي منتصف الطريق شاهد من بعيد ثلاثة طلاب وقد انهمكوا في اصلاح دراجة كانوا يركبونها جميعهم. وحين رأوه، أشاروا له: - نيل، توقف، اننا نحتاج الى المنفاخ.

ونظر نيل الى منفاخ دراجته وقال لهم وهو يسوق مسرعا. -انني مستعجل، لا أستطيع ان أعطيك المنفاخ.

* مجلة المزمار، 25 ايار 1972، العدد 75.

فقال له أحدهم.
-لكننا سنمتحن جميعنا مرة واحدة.
ولم يهتم بهم وعبرهم وهو يضحك.
وفي استدارة الطريق سمع نبيل صوتا:
-فش ش ش
وأخذت دراجته تهتز وتقرقع، فتوقف وأخذ ينظر الى العجلة الأمامية
وقد فرغ هواؤها. وحين ادارها بيده وجد فيها مسمارا كبيرا فاخرجه ورماه
بغضب وتساءل مع نفسه.
-كيف سأصل الى المدرسة؟
وبعد قليل مر بجانبه الطلاب الثلاثة وقد ركبوا جميعهم على الدراجة
التي أصلحوها وبجانبهم طالبان يركبان دراجة أخرى.
فنظر اليهم نبيل وقال مستعظفا:
-هل يوجد لديكم لحام أستطيع به اصلاح العجلة؟
فأجابه احدهم:
-نعم، يوجد لدينا، لكننا لن نعطيك منه. تذكر ما فعلته بنا قبل قليل، ان
التعاون ينفع الجميع فلو تعاونت معنا لكنا الان جميعنا نصلح لك دراجتك.
وتركوه.
وأخذ نبيل يقود دراجته مشيا.. وعندما وصل الى المدرسة.. كان
الطلاب قد بدأوا في الامتحان.

* * *

الناعور*

كانت بقع الشمس تلتصع من بين أوراق الأشجار الكثيفة وتهتز متموجة مع النسيم البارد.

رفع احمد مسحاته ونظر الى عناقيد العنب التي بدأت تنضج وود لو أمسك بحبة وذاق طعمها.. ولكنه ردد ما كان يسمعه:
-سيدبل العنقود لو قطفت حبة منه.

مد عنقه الصغير وهو يحدق في الماء الذي يندفع في الساقية الضيقة ثم ينساب تحت اشجار العنب، ورفع المسحاة بين يديه وعرزها غرزة خفيفة في مجرى الماء وأخذ يراقب انشطاره وتحوله السريعين وانتبه فجأة الى ان الماء قليل، همس لنفسه مفسرا.

-ربما ابطأ الناعور، او تسرب الماء في سواقي جيراننا المفتوحة، كانت البساتين الصغيرة المتجاورة تعتمد جميعا في سقيها على الناعور الذي سمع صوته من بعيد يئن وهو يدور.
أكد احمد:

-اذن لا بد ان الماء يتسرب الى بساتين أخرى.
أقتلع المسحاة وخرج من باب البستان متتبعا ببصره مجرى الساقية، وأخذ يراقب فتحات السواقي الممتدة الى البساتين المجاورة وكانت جميعها مقفلة بسدود صغيرة من الطين ولا تتسرب منها قطرة.
اندهش احمد واستمر يرصد المجرى الى ان وصل الى الساقية الرئيسية التي يصب فيها الناعور وأطلق بصره الى ذلك الدولاب الخشبي الهائل ورآه يدور كعادته.. لكنه لمح بعض الاكواز التي ترفع الماء وهي محطمة.

* مجلة المزمار، 24 آب 1972، العدد 88.

تسلل بجانب الحائط الذي يهبط الى محور الناعور، خفيفاً ومحاذراً
اصدار اي صوت، واختياً خلف البناء الحجري الضخم الذي يرفع المحور،
فشاهد غلاماً يحمل بيده عصا صلبة يقف متوازناً على حجر في الحافة
يتأمل الاكواز المحطمة وهي تغوص في النهر السريع ثم ترتفع راشة رذاذاً
متطايراً.. ثم أبصر احمد قبضة الغلام وهي تتجمع على طرف العصا حين
ارتفع من اسفل كوز جديد ورفع عصاه وهوى بها على الكوز فتساقطت
حجارته المفخورة وانثال الماء منسرباً الى النهر. غضب احمد بعنف وهو
يتصور عناقيد العنب الزرقاء ستتييس وتصفى الاوراق الخضراء في
النباتين.. فتقدم وصرخ بأعلى صوته وبهتاف:

-لماذا تكسر الاكواز؟

يوغت الغلام بالصوت القوي الذي انبعث من ورائه.. فالتفت متحركاً
بذعر، واختل توازنه فانزلق.. واصابه طرف كوز مكسور في اعلى ذراعه
ورمته حركة الناعور الى وسط الماء وهو يصرخ متألماً.. هتف احمد.
-نلت ما تستحقه ايها الشرير.

وكان الغلام يمسك بذراعه المصابة وهو يحاول جاهداً البقاء طافياً،
والماء يدفعه بعيداً.

* * *

المدرسة الليلية*

كان جسده يتوسط الزقاق المظلم الضيق وهو يمشي متمهلاً في الصباح.. وحين أصبح في الطريق العريض الكبير كانت الشمس ساطعة والضياء يحدث لمعاناً إضافياً على المخازن والبنائيات الجديدة.. انحسر الصبي الى جانب الحيطان: كان نحيلاً، يرتدي قميصاً وينطلقوناً ملطخين بالزيت الأسود.. ويشبه بمجموعه قطعة طينية ملوثة..

نظر الى الأولاد الذين يماثلونه عمراً وهم يحملون حقائبهم وكتبهم واحس بضيق من ملابسهم النظيفة ووجوههم المغسولة.. وواصل سيره الى أن دخل في شارع (الشيخ عمر) ثم اتجه الى المحل الذي يعمل فيه.. كانت حركة السيارات بطيئة وثمة محلات لم تفتح بعد. لم ينظر اليه صاحب المحل ولم يكلفه بعمل بعد أن أمسك (بمكناسة) وأزاح التراب المتجمع أمام الباب.. ثم تمدد وأسند جذعه الى الجدار وكانت الصور تملأ عينيه بحزن والم.

في نهاية الزقاق المظلم كان بيته.. وكانت أمه، وأخته الكبيرة، تنتظرانه عصر كل يوم فتأخذ أمه الدراهم التسعة التي هي أجره لتدبر بها حياتهم. وكان ذلك منذ خمس سنوات حين دهست سيارة والده الذي كان عاملاً في أحد محلات تصليح السيارات في شارع الشيخ عمر. لقد كان والده يردد دائماً عندما يعود من عمله:

سادخلك المدرسة في العام القادم.

ثم يستطرد.

-سأجيء بمصباح كهربائي لكي تستطيع القراءة والكتابة في الليل ايضاً. وكان ينظر الى الفانوس المعلق وهو يضيء بخفوت ولكن قبل أن تبدأ السنة الدراسية: سمعوا عصر أحد الأيام طرقةً عنيفاً على الباب، وعندما فتحت أمه كان أربعة رجال يحملون جسد أبيه المدمى. وبعد شهر من موت أبيه أمسكت أمه من كفه وقالت له:

* مجلة المزمارة، 16 تشرين الثاني 1972، العدد 99.

-لم يعد لدينا نفود، اذهب الى (الايوسطه عباس) وتعمل عنده.
أراد ان يقول لها انه سيذهب الى المدرسة ولكنه صمت اذ رأى الدموع
من عيون امه واخته.
وعندما عاد في اليوم الاول من العمل كانت بضع نقاط من الزيت على
ملابسه وأصبحت ملابسه مثقلة بأنواع الدهون والزيوت وامتدت النقع الى
وجهه وأصبح بلون ملابسه.
احس بكثفه ينضغط تحت أصابع كبيرة قاسية.
-(ها شبيك اليوم؟)
نظر الصبي الى صاحب عمله، ثم قال وهو ما زال في استرخائه:
-اريد ادخل المدرسة
ضحك صاحب العمل مقيها
-لن يسمحوا لك بالتسجيل لانك ستوسخ المقاعد.
وارتفع ضحكه مجددا واقترب منهما صاحب المحل المجاور قائلا:
-اتريد الدخول المدرسة؟
وازداد ضحك صاحب العمل وهو يظن ان جاره سيشاركة في
السخرية.. لكن جاره كان جادا.
-لقد فتحوا مدرسة ليلية هنا.
وأشار بيده الى المنطقة المقابلة وأضاف:
-اذهب اليها بعد ان تنتهي من عملك.
انقضى الصبي واقفا وشعر بقوة مفاجئة تضج في داخله وكان يردد
بهمس:
-سأشتري اليوم ملابس جديدة واغتسل ثم اذهب الى المدرسة.
وأخذ يتحرك نشيطا وقويا وهو ينظر الى صاحب عمله وكأنما يقول
له:
-(غصبا عنك سأذهب الى المدرسة)

المياه*

كان الرمل الحار الذي يمتد على الشاطئ يجعل الأطفال يقفزون على مؤخرات أقدامهم ويطلقون صرخات فرحة وهم يهبطون إلى النهر.. ثم يتركون أقدامهم تغوص في الطين البارد وحينذاك يستردون بشاشتهم ويتحدثون بهدوء..

نظر أحمد إلى أصدقائه الثلاثة وهم يرفعون الماء في أكفهم ثم يحدقون في القطرات التي تتسلل من بين أصابعهم وتعود إلى النهر.. قال له أحدهم:

- لا يمكننا البقاء على الجرف.. لم لا تعلمنا السباحة؟

ابتسم أحمد وقال:

- لقد وعدت أهلكم أن لا أعلمكم السباحة.. ولكنني لم أعدهم بأن أمنعكم من النزول إلى الجرف.. فضحكوا.. وتلفت أحمد إلى مجموعة من الصبية يمرحون على مقربة منهم فلمسكه أحد أصدقائه من ذراعه وأشار إلى أحدهم ثم قال:

- إنه سليم الذي ضربك بالحجارة قبل خمسة أيام. ما رأيك في أن تنقض عليه من فوق بالحجارة وتأخذ بثأرك؟

انحنى أحمد ومد يده في الماء وأخرج قبضة من الطين السائل ومسح بها يده الأخرى ثم عاد وغسل يديه ولم يجبه.. ثم قال:

- إن كانوا هم جبناء فلا نريد أن نكون مثلهم. إنني أستطيع مسكه في الطريق وأجعله يندم على قذفي بالحجارة.. ولكن، ألا ترى أن بنيته ضعيفة؟

فقال له صديقه:

- دعنا نضربهم مرة واحدة حتى لا يعيدوا الاعتداء علينا.. وتعال صرخة من المجموعة الثانية، ثم أخذ الصغار الذين تراجعوا إلى الجرف يولولون ويشيرون بأيديهم إلى الماء دون أن يتقدموا. ركض أحمد وتبعه الثلاثة الذين كانوا معه متجهين إليهم.. هتف أحمد:

* جريدة فارس (عمان)، 7 آذار 1973، العدد 6.

- ما بكم؟
أشاروا جميعهم إلى الماء وقالوا بصوت متقطع:
- سليم.. سليم.. يغرق.
وارتفع رأس سليم فوق الماء ثم هبط.. فأسرع أحمد إلى البقعة التي غطس فيها ثم غاص.. وأخرج رأسه من جديد.. وحين استطاع المشي رفع يد سليم فأحاط به الجميع وسحبوه إلى الجرف.. وضع أحمد أذنه على صدر سليم فسمع دقات قلبه... وقال لرفاقه:
- سينهض بعد قليل.
ثم ترك أحمد المكان وأخذ يرتقي الطريق الصاعد. وفتح سليم عينيه وأخذ ينظر إلى أحمد والدموع تبلل وجهه.

* * *

العبور.

عندما خرج صباح من بيته صباحا ذاهبا الى المدرسة لم يكن في ذهنه شيء مما سيفعله بعد قليل.. لكنه كان يعلم شيئا واحدا هو انه لم يحضر دروسه ولم يكن على استعداد للأجابة على اي سؤال يطرحه اي استاذ وكانت هذه المسألة محيرة حقا، لا يدري كيف سيتداركها.

في الطريق حدث ما جعل مشكلة ثانية تخلق لصباح، ذلك انه صادف مسيرة للطلّاتع تتعلّق صباحا لممارسة تدريب فوقف متفرجا مع النساء والرجال بينما أسرع رفاقه الى المدرسة، ذلك لانهم يدركون ان دوامهم امر مهم وان الطلائع الذين يتدربون الآن سيداومون في الوجبة الثانية.

وصل صباح المدرسة فوجد ساحة المدرسة خالية لان جميع الطلاب كانوا قد دخلوا المدرسة ولم يبق في الساحة احد.. تسلل صباح الى الصف ودق الباب مرتبكا وكان الاستاذ قد غطى السبورة كتابة وهو يتحدث عن الاواني المستطرقة.. اضطر الاستاذ الى التوقف عن الشرح وسمح لصباح بالدخول، ثم اكمل الدرس مستعينا بالطلاب الذين كانوا متحمسين للمناقشة والشرح.

في نهاية الدرس طلب الاستاذ من صباح ان يلخص له الموضوع وقف الولد مرتبكا لا يدري ما يقول وتمتم بكلمات اعتذار فقال له الاستاذ (لا اريد ان اقول شيئا كثيرا فقد اخطأت عندما تأخرت وعندما دخلت الصف وقاطعتني وعندما لم تفهم ما قاله اصدقائك عن الموضوع بحيث انك لم تجد كلمة واحدة للحديث عنه.. انك مطالب بان تغير وضعك هذا والا تخلفت عن زملائك) ودق الجرس عند ذلك معلنا انتهاء الدرس الاول.

خرج جميع الطلاب الى الساحة يقرأون رغم ان الفرصة خمس دقائق وبقي صباح جالسا على رحلته وقد أمسك القلم ليخط على ورقة امامه رسوما وكلمات وهو في حالة من الحيرة والالام يحدث نفسه قائلا: لماذا

تأخرت، لماذا لعبت كثيرا امس الجمعة ولم استغل ساعة واحدة للدرس..
جميع اخوتي كانوا يقرأون الا انا ماذا سأفعل الان؟

في الدرس الثاني بدأ جميع الطلاب الأجابة على اسئلة امتحان الجغرافية، كانوا جميعا منحنين على اوراقهم يكتبون بفرح لان الاسئلة كانت واضحة وقد وقف الاستاذ على مقربة من باب الصف ينظر اليهم ببهجة وهو يراهم يكتبون، كان سعيدا لان طلابه قد استوعبوا المادة لكنه لمح صباحا لا يكتب شيئا.. اقترب منه فوجد ورقة أجابته ببضاء الا من الاسم.. لم يتحدث معه وظن انه يفكر في الأجابة.. لكن صباحا سلم الورقة بعد خمس دقائق وخرج الى الساحة.

في الساحة صادفه المدير ووجده وحيدا.. واستغرب ان يكون صباح قد أجاب بهذه السرعة.. أخذه معه الى غرفته ودار بينهما حديث طويل.. ووجد صباح نفسه ينفجر باكيا ويعترف للمدير بتقصيره وشعوره بأنه لا يستحق هذه المدرسة.. لكن المدير قال له: "ان شعورك هذا دليل على استعدادك لبناء مستقبلك من جديد.. وانا سأساعدك في ذلك، سأطلب من معلم الجغرافية ان يسمح لك بامتحان آخر في صف آخر في وقت تحدده سوية على ان اجدك منذ الغد الطالب المجتهد الذي لا يتأخر عن الدوام او عن اداء واجباته".

ابتسم صباح وقال للمدير (اعاهدك يا سيدي ان اكون عند حسن ظنك وان اكون الطالب الذي يفخر به اهله واساتذته) وصافحه السيد المدير مبتهجا.

عندما خرج صباح من غرفة المدير كانت الساحة قد امتلأت بالطلاب من جديد وكانت العصافير ترقزق على شجرة في جانب من الساحة.. كان يشعر انه قد عبر الجانب المظلم والقلق من حياته وانه قد غدا في الجانب الاخر من الحياة، جانب الثقة بالنفس والعمل الجدي من اجل النجاح والتفوق.. وامتلا قلبه الصغير بالسعادة والامل وسار بخطوات واثقة مندمجا مع طلبة صفه.

* * *

الولد الذي فقد ساقه*

كان الولد يسمع أصوات الأولاد الضاحجة في الطريق وهم يركضون أو يقدفون الكرة، وينصت الى صوت الكرة وهي ترتطم بالجدار اوالباب، ويود لو يكون بينهم، لكنه يتذكر ما حل به عندما لعب مرة معهم، لقد تلكأ في الوصول الى الكرة وأخذ رفاقه يحثونه لكنه سقط على الأرض، وسمع صوت ضحكة مزقته كالكسكين، وعندما التفت اليهم كانوا يعرضون بوجوههم عنه، وأخذوا يعنفون الولد الذي ضحك، وهكذا ترك اللعب. انهم طيبون، بلا شك، فقد دعوه للعب معهم، لكن حركته محدودة، وهذا يكفي لأن يجعله يبتعد عن لعب الكرة. وهم يلحون عليه بين حين وآخر عندما يكون جالسا على عتبة الباب، لكنه يشكرهم ويفضل مراقبتهم وتشجيعهم. ويتذكر في جلسته داخل البيت، السيارة المسرعة التي دهسته قبل أربع سنوات وحطمت رجله، كانت السيارة قد خرجت من منعطف، سريعة للغاية، وتفاجأ بها، ولو لم يقفز بأقصى قوته، لكانت قد قضت عليه، ورقد ثلاثة أشهر في المستشفى، خرج بعدها وهو أعرج. ان الحادثة مغروزة بعمق في داخله، لأنها غيرت حياته كلها، فقد كان يهوى كرة القدم ويصرف معظم وقته بلعبها ويقود في الوقت المتيقن دراجته في الشوارع القريبة من بيته، وفي الليل كان يجلس أمام التلفزيون يشاهد البرامج كلها، وبالطبع كانت معدلاته في الدروس ضعيفة، ولم تقلح معه نصائح والده، واكتشف بعد الحادثة ان قوة الإنسان لا تكمن في عضلاته فقط، انما قوته العظيمة هي عقله. وكانت المفاجأة الكبيرة التي تلقاها اهله ورفاقه انه نجح في نهاية السنة اولا على مدرسته، وارتاب مدير المدرسة في درجاته، فقد كان يعرفه

* مجلة المزمارة، كانون الثاني 1975، العدد 210.

متهاوناً في دروسه، وطلب تصحيح أوراقه وامتحانه شفهيأ أمامه، وحضر الولد الى المدرسة غير ساخط على هذا الاجراء الاستثنائي، وتم امتحانه أمام المدير الذي لم يتمالك نفسه وأخذ يردد متعجباً بهمس:

-انها معجزة، معجزة.

ثم سأله:

-لماذا لم تنجح هكذا منذ البداية.

وابتسم الولد ولم يجبه.

وأخذ المدير يتحدث عنه في مختلف المناسبات ويضربه كمثل للطالب المجتهد الذي يستطيع ان ينجح بتفوق.

وعندما اقيم احتفال توزيع الجوائز للوائل.. احس الولد الاعرج ان عديداً من الأولاد كانوا ينظرون اليه بحب، اما رفاقه فقد صفقوا وهتفوا له بحرارة.. وأصبح مألوفاً ان ينجح اولاً في السنوات التالية.. وصار مفخرة لرفاقه الذين يلعبون الكرة أمام المنزل. انه يسمع أصواتهم الضاحجة وارتطام الكرة.. ويبتسم بفرح لان رفاقه يتمتعون بوقتهم.

* * *

ملحق -3-

خالد ... الإنسان

خالد

خالد، أيها الإنسان الذي يعرف كيف يغرس في جذور العالم
نبعاً من ورود الأرض الحزينة
أحبك صافياً
أحبك لأنك إنسان
والإنسان في مدينتي يفقد حتى ظله
فلنتبع أنت
لأنني أحبك فيك أنت

إنسان
عبد القادر العزاوي

* * *

ولدي خالد*
بغداد-الجمعة- 1944/5/26

هالأنذا أخط هذه الرسالة بعد ميلادك بساعتين فقط، لقد ولدت في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر من يوم الجمعة الموافق 1944/5/26. ولدي: لقد أشرفت على السادسة والعشرين من عمري، فأطلت في هذا العام على نافذة الوجود الذي مله أبوك، لأنه عاش في مجتمع يموج بالفوضى، والاضطراب؛ وما كان ظهورك الى هذا العالم رغبة مني ولا اختياراً، وما كنت أود لك أن تشهد هذه الحياة التي مثل فيها أبوك دور البطل من المأساة، فقد تتابعت عليه أحداثها، وطوحت به نكباتها ولكن الله شاء أن يسير حتى الآن في الطريق، وهو لا يدري الى أين سينتهي هذا الطريق به وبك. إنني ذرفت الدمع حين بلغني خبر ميلادك، وفكرت في مستقبلك كثيراً، ولا أدري الى أين ترسو السفينة من بحر هذا العالم المصطخب الذي جن جنونه، وهو الآن شعلة تلتهب في أتون الحرب التي لا يعلم مداها إلا الله. لا أعرف كيف سيكون نظام المستقبل، حين تكون قد بلغت السن التي تستطيع أن تكون فيها عضواً اجتماعياً نافعاً؟ وهل سيكفل هذا النظام حياتك وحقوقك كما يكفل حياة الآخرين وحقوقهم، أم إن السفينة التي نمتطئها الآن، سوف تسير في طريقها قدماً، فلا يحدث تغيير ولا يطرأ تبدل.

* الأستاذ حبيب علي عبد الراوي (1920-1988)، حصل على شهادة البكلوريوس آداب لغة عربية عام 1944 من دار المعلمين العالية ودرس بعدها اللغة العربية في ثانويات الكاظمية والكرخ والأعظمية للبنين. وبعد حصوله على شهادة الماجستير في الأدب العربي من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1954، قام بتدريس اللغة العربية في كلية الملكة عالية للبنات، التي صار اسمها فيما بعد كلية البنات. أصبح حبيب الراوي رئيساً لقسم اللغة العربية ومن ثم عميداً لها. وبعد إلغاء الكلية، عمل أستاذاً مساعداً في كلية الآداب، جامعة بغداد في قسم اللغة العربية والإنكليزية وكتب العديد من الكتب والبحوث المتخصصة باللغة والأدب والتحقيق مثل "مأساة شاعر أو المعتمد بن عباد" (بغداد 1965) و تحقيق كتاب بالمشاركة تحفة الوزراء لأبي منصور الثعالبي (بغداد 1977). (راجع، حميد المطبعي، موسوعة إعلام العراق في القرن العشرين (الجزء الثالث)، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1998).

وما دمت قد جئت الى هذا العالم، فلتكن محباً للحياة، ممثلاً قوة، واثقاً بنفسك، معتمداً على إرادتك، فقد رأيت أن الضعف جريمة في هذه الحياة، ومواكب الناس لا تسير إلا وراء الأقوياء.

ولتكن شجاعاً مقداماً، ولكن في سبيل الحق، فإن الظلم مهاوي يندفع اليها الظالمون حيث لا رجعة ولا نهضة.

وعليك بالصدق والاستقامة فهما القوام الذي تركز عليه شخصية الإنسان.

ولتكن قادراً على النعمة والكيد لمن تشعر أنهم يريدون أن يكدوا لك، ويتربصوا بك.

إنني أكرر القول بأن تكون قوياً، معتداً بنفسك، كما أريدك أن تباعد عن الهموم والأحزان، ولتكن ضاحكاً في جميع الأحوال؛ اضحك من الكوارث حينما تدهمك، واضحك من الناس حين تظهر لك سفالاتهم ولؤمهم، فما تلك إلا دلائل الضعف الإنساني وما الابتسامة إلا السلاح الذي نستطيع أن نتصر فيه من هذا الكفاح، ألا وهو كفاح "الحياة".

وجسمك ذلك الهيكل المقدس، إياك أن تدعه نهياً للأمراض والأسقام، فحافظ عليه ما استطعت بوساطة الرياضة، واجتنب كل ما يؤدي الى هدم الصحة.

ولتكن نقي الفكر، فابتعد عن حمل الأحقاد للآخرين، والحسد، ولا تفكر إلا بما هو صالح ومريح لنفسك وعقلك.

وعليك أن تتمتع بالحياة البريئة، فتأمل الطبيعة ومشاهدها الرائعة، وبالموسيقى والغناء، والأحاديث الطيبة والاختلاط مع الناس الطيبين.

وفي الأخير، أتمنى لك حياة سعيدة، ومستقبلاً زاهراً، فما حياتك إلا امتداد لعمرى، وما جسمك إلا بقية جسمي، فإن بلغت ما تصبو إليه، ففي ذلك لأبيك عزاء وسلوة، وما أنت إلا بقية روحي وكبدى على هذه الأرض.

أبوك: حبيب علي الراوي

* * *

من هو...؟ خالد حبيب الراوي*

أبوه كان وسطاً في حبه وكرهه، وعمل في الجامعة وحاول أن يتوسط في كرم بين تلاميذه وأساتذة الدرس، فأحبه الجميع بلا إسراف، فيما أحبوه عن قناعة تذكر، وروح تسربت اليهم عن طريق نعومة وجدانه..

وكان خالد ابنه في توارث المزاج الروحية، لكنه أعنف منه في تشخيص الحالات. كان يرمي بنظراته المدببة الى الناس، فيقول: تعال أنت مشاكس من الداخل، تعال أنت مختال أو أنت (معداني) الطبائع أو أنت مرعوب لأن وجهك عذبت الخرافة. وفي يوم سألته: أية صفة توارثتها من مدينة (راوة)، قال: حنان الأنهار الى روافدها. وأية صفة توارثتها من أهلك، قال: إنني ابن طيف يتغذى على روحه. وابتسمت فاكتأب، لأنه كان يكره أن يبتسم الناس بلا معنى، وهو صريح وأنا أكثر منه صراحة، وهو يلتزم مع صمته، وأنا لا أحب صمت المبتسمين، وكلانا ابن تجربة مرة. هو عاش ثائراً على الأنماط، وأنا لا أجد في الأنماط إلا الموت. ويوم تعارفنا في أواسط الستينات، قلت له في مقهى البرلمان، أنت من أي اليسار، فضحك عالياً، وكان خالد في ضحكاته العالية يبرز لوناً خاصاً من السخرية على القدر الذي جعل اليسار محتته. وهي محنة (أبو الهول) وهو يحاور رياح القدر، وكنت في سري أحفظ لخالد براعته في صيد السذج من المتقنين، وفي ملاعبتهم بالنكت البغدادية الطريفة. وأحفظ له أيضاً، مهارته في شد اللحي بعضها ببعض، حتى إذا تعاركت هذه اللحي، نتف الشعرات التي يريدونها ويمضي الى سبيله البريء. وكان الناس كلهم يحبون خالداً، لأنه يملك داخلاً أشبه بداخل سقراط، يحركه السؤال الغريب ويملك ذاكرة تمشط الحياة على طريقة المنجمين، لكن الناس أولئك تخافه حين تجرح كوامنه، فينتفض كأسد بابل على دانيال النبي اليهودي، ويخرج وجهه مزمجرأ. فالويل لمن يمد أصابعه الى داخله والويل

1 نشرت هذه المقالة في جريدة الزوراء، العدد (38)، 26 شباط 1998.

لمن لا يعرف التحوار مع أشواقه الداخلية. ولحظة لمست دواخله، عرفت من أين تكونت، من (راوة) خيط السلالة، ومن كبت الزعامة التي حرم منها، ومن واقعته التي لا تقبل على أي الأحوال. هل هو يشبه العراقي تماماً، أظنه هو العراقي الذي كله تصلب، نصفه يشبه الوهمية الغامضة، ونصف آخر قد من أنسنة مجربة. وسألني مرة هل أنت أنت؟ ويقصد هل تكشف لي سرّك في الحياة؟ أجبت: مثلك تماماً.. يغرق في رحيله ويستمتع في لذة الأسئلة، وما عليكم الآن إلا أن تسألوه، هل أنت مثلما كنت أنت يا خالد؟ وأظن أنه سيجيب، هذه مهمتكم في اكتشاف النوايا، وأظن مرة أخرى أن نواياه هي أن يمتد ويلتد، فإذا التذ شقيق وتلك مأساته. أما ملهاته فهي أن يستريح من تعب الرحيل، فقد غص في بحر وجاب في النفوس، وطرق على الأبواب التي عصت على جلجامش القديم. عصي خالد على الفهم والإفهام، وعصي على أساتذة قسم الإعلام بالجامعة، ليس في قلبه ولا في عينيه، وليس في درجات الامتحان ولا في تعامله مع الأطروحات الأمية التي يقرأها للطلبة، إنما هو عصي في عمقه، ولا بد أن يكون عصياً على الناس، ما دام خلق ليبرح الحياة. فأولئك الواضحون كل الواضوح يسهمون دائماً في بناء النموذج الهش في الحياة، ويركلون الحياة تحت أقدامهم، إن كانوا هم المسيطرين على مقاليدها. وليس الغريب أن أرى خالداً يشبه وتيرتي كلما مر زمن على وجودنا في الحياة. أراه مزيجاً من مرارة ونقاء، ومزيجاً من تصادم الحي بالميت. لهذا صارت أخلاقه، أخلاق أمراء، وتصرفاته تصرفات الأمراء، حتى إذا شاهدته يمزح في صفة ويتخيل في بعد، تراه معاتباً الحياة بلغة أشبه بلغة المتصوفة، ويقول: تباً لهؤلاء يجرحون كبرياء الزمان، وتباً لأولئك يجرحون الحقيقة، ويصحو بعد غياب الصفة، ويلتفت وإذا هو ثورة متدفقة على على نفس سباق في السخرية على الحياة، وهو يسخر بلذعة القاضي، وأنا أسخر مثله بلذعة الشاعر، وكلانا نحب أن نسخر من تراكم الخطايا في لوحة الوجود، هل هو بحاجة الى وظيفة؟ ليس هذا حلمه، فقد طوح بكل المغريات عندما انتمى الى الحياة. هل هو مذنوب، وسخريته تعويض عن ذنوبه؟ ليس هذا أيضاً، إنما خالد عاش ليدين القبح في كل ذرة سابعة في التيار المعاكس لحيوات البشر الحقيقية، هو مثلي كئيب الى الأبد، حزين الى

الأبد، يصارع الوجود، أينما رأى الوجود يتفتت تحت ضربات القسوة والعناد واللاعقلية. هو مثلي تماماً، حين يرى، يرى وقد فاض الألم وتراجع الصحو وبلغ السيل الزبي، وخالد كله كتمان، حتى جوارحه لا تنطق الا بالكتمان، وهذه هي واحدة من غلطاته. وغلط آخر فيه، هو صمته في الكتابة، ولا يكتب إلا مرة في السنة، بينما كنا ننتظر من خالد أن يفرش حرباً في كتاباته، ويرسم في أفكاره طيراً أشبه بالحرية ويجعله يطير في سموات العشق والسفر والمحبة، ونسأله ما فائدة الأفكار، حتى المقدسة، إنْ هي بقيت في الرأس أو في القلب، له عذر لكننا لا نجد له عذراً قوياً قوة الحجة في القوانين. وعودة خالد الى الكتابة الأسبوعية، تزيد اللهب في خندق الحقيقة التي هي ترفس تحت أقدام أنصاف الكتاب الذين جاعوا على حين غرة الى ميادين النشر. وهي دعوة لكل من ترك الكتابة، بأن يعودوا ويفكوا لغز الحياة. ومع كل هذا، فخالد من أضلاعنا، وشاهد ساخر مع لوعة مرفوضة، ومتدفق لكن على شاطئ غريب. ومنذ زمان سألتني: كيف هي الصحافة؟ ولم أجبه، فعرف أنني مغرم بالصمت إزاء الصمت، وكلانا مغرم بالتناقضات وهي تسرع بغير هدى، وكلانا أحب أن يتموج داخل ذاته بالأسئلة التي يفكر بها، هو الى سبيل، وأنا أتحاشى سبيل الناس.

حميد المطبعي

* * *

صور وتداعيات من الداخل*

يبدو خالد حبيب الراوي بسيطاً تقتله البساطة في أحيان، لكنه معقد التركيب هائل الإحساس، في كل اللحظات، وأظنه منذ الطفولة خلق هكذا. ولعل الكثيرين لا يعرفونه كما تقتضي اللياقة العلمية، ويشاهدونه هكذا، طيب السريرة، حلو الحديث، ضرب الدنيا بيد العيث. وعيب هؤلاء أنهم يتناسون فيه شيئاً مهماً، وهو المزج بين العيث والسخرية وفكرة التلاشي، وهذه كلها تخدع الأبصار وتسوش على النظر فيتيه في النفوس ولا يستقر. إنه عكس ذلك حقاً، فهو وجودي من الداخل وصلب أخلاقي من الخارج. وإنسان يتصف بذلك هو حتماً إنسان يشاغب على الطبيعة ليقتنص منها الحكمة المجنونة، ويتسلل إلى الدواخل ليكشف طبائع كل المراهنين، وأهم مزاياه أنه يدرك أسرار العلاقة الاجتماعية فيهرب منها متعمداً، أو يختطف منها ما يوقف الآخرين عن التهور واللامبالاة، حركي اللقطة، منكس اجتماعي بأسلوب السياسة، مع الرأي العام بأسلوب رجال الدين، والغريب أن كل السياسيين شقيقيهم وغريبهم يعتقدون أنه معهم وهو ليس معهم، لأنه فهم لعبة السياسة منذ اكتحلت عيناه بوميض اللعبة السياسية، وكل الذين جالسوه أحبوه بدقة المحامي الذي يدافع عن ضحاياه، وكل الذين زاملوه لم يبق منهم إلا نفر قليل لأنهم طمعوا فيه ولم يربحوا سوى سذاجتهم. هو إذن حكيم بثوب البهلوان، وطبيب يعالج المرض بسخرية عجائز السياسة الغربية، وقد تستغربون إذا عرفتم أن خالداً يملك في أعماقه جحيماً كبيراً يدخره لأولئك المتسولين على موائد السياسة، وصمته الآن على أولئك كصمت حكام إفريقيا على الاستعمار. يالهذا الجحيم المخبوء تحت ابتسامات بغدادية الأزل، فإذا انفجر لم يبق أبلّيس يتجول في ساحات العهر السياسي، كريم وشفاف، وفيه نفحة من الفرات ونفحة من دجلة إذا غضب، إنه صلب لا أقوى من أحد، لكنه يعالج صلابته بحسن الكياسة التي تعلمها من العلويين الأشداء، تقوا به فهو قاض رؤوف، وتمسكوا به فهو يعرف أن يميز بين الشكران والعرفان،

1. لم يسبق لهذه المقالة أن نشرت، لكنها كانت محفوظة في مكتبة خالد الراوي.

وخلق لكي يبرئ ساحة المتهم البريء، وإذا رأيتموه غاضباً فتجنبوا الغازه، فهو غامض في لحظات الحزن الوحشي، وواضح في لحظات الشار الطبيعية، صامت باناة، جدلي ثائر كأبناء الملوك الثوريين، وإذا أراد كما يشتهي الانتهازيون لصار في هرم أعلى وحكم عدة دويلات ، لكنه قبل ثلاثين سنة آمن أن الانزواء عن الأضواء فرصة طيبة لمن يريد أن يسمو بنفسه، هو هكذا قانونه في البيت أو في منهج الدراسة أو في سلوكه مع العامة والخاصة.

حميد المطبعي

* * *

خالد حبيب الراوي*

لم يستطع قلبي أن يخط كلمة (المرحوم) أمام اسم خالد حبيب الراوي، برغم أن الموت حق، وكلنا فانون ولن يبقى سوى مشيئة الله الواحد الأحد. فالصديق الراحل خالد في فكري، وحبيب إلى قلبي ولن تسرق لحظات الموت وقدرته 35 عاماً... فهذه العشرة الطويلة توأم لي وله.. والمقربون إلينا نحن الاثنين يعرفون عمق هذه العلاقة التي تأسست في مرحلة الصبا ثم امتدت حتى غزا الشيب رأسينا.

ولج خالد حبيب الراوي، الصحافة متسلحاً بخلق رفيع، لكنها لم تستهوه ولم تكن هوايته الأولى أو الحبيبة إلى قلبه، بل كان الأدب والقصة على وجه الخصوص هما هاجسه وتعلقه، فكان يفرح إذا أطلقت عليه لقب القاص أو الأديب على لقيه العلمي الرصين (دكتور..).

ولعل الذاكرة لا زالت يقظة منبهة وهي تعود إلى بداية الستينات، حيث كان والده الجليل حبيب الراوي عميداً لكلية البنات. كنا ونحن في بواكير الحياة، نحث الصديق (خالد) بكل الطرق الملتوية والبريئة على الدخول إلى مبنى هذه الكلية المحرمة على الرجال بحجة السلام على والده ظاهرياً، بينما الهدف الرئيسي هو الالتصص على أجواء كلية البنات! كانت الخطوة تنجح مرة وتفشل مرات، ولا زلت أتذكر (أم زينب) تلك السيدة التي تقوم على خدمة العميد، تغمز من قناتنا وتتمازح مع ابن العميد (خالد) بكلمات حلوة!

كان خالد حبيب الراوي، يمتلك طيبة متناهية، لكنها طيبة مسؤولة، مما جعله يبدو لغزاً أمام من لا يعرفه أو له معرفة سطحية به.. ويمكن للحكاية التالية أن تبين بعضاً من ملامح طيبته. ففي عام 1968، كنت أعمل محرراً في جريدة الحرية لصاحبها المرحوم قاسم حمودي، ومن ضمن مسؤوليتي عمود يومي بعنوان (نافذة) يحرره عدد من الصحفيين والأدباء المعروفين. وفي هذا العمود نشرت يوماً مقالة لخالد الراوي، وفي اليوم التالي للنشر

1. زيد الحلي، "فم مفتوح.. فم مطلق: خالد حبيب الراوي"، جريدة الاتحاد، العدد 261، 1999-4-13.

زارني القاص عبد الرحمن مجيد الربيعي حاملاً معه رأياً معاكساً تماماً لمقالة خالد. ولخلق حالة من المساجلة وتطبيقاً لمقولة (الرأي والرأي الآخر)، سارعت الى دفع مقالة الربيعي الى النشر. وعند صدور الجريدة، فوجئت أن مقالة الربيعي كانت تحمل أيضاً اسم الراوي، حيث نسي (مداور الصفحة) أن يرفع سطر الرصاص الذي يحمل اسم الراوي من مقالة الأمس واستبداله باسم الربيعي.. فظهرت المقالتان المتناقضتان في الرأي وعلى أساس أنهما لكاتب واحد.. فلم يثر خالد حبيب الراوي برغم سيل الأسئلة والاستفسارات التي واجهها في حينه.. وقد تداركنا هذه الحالة في كلمة اعتذار في اليوم التالي.

إن الصحفيين الذين عملوا في أواسط السبعينات مندوبين عن صحفهم لدى وزارة التعليم العالي يتذكرون كيف كان خالد حبيب الراوي يمدهم بأخبار الوزارة أولاً بأول محطماً حاجز الروتين عندما تولى مسؤولية الإعلام في الوزارة المذكورة. فقد تعامل مع زملائه الصحفيين بمهنية عالية أتمنى أن يجد زملائي جزءاً منها هذه الأيام!

لم تنقطع جلساتنا.. وكان يشعر بسعادة غامرة عندما يلتم شملنا الصديق الصدوق حميد المطبيعي في جلسات ودودة بعيدة عن التكلف، فنراه يقهقه على غير العادة، مسروراً منتشياً، خاصة عندما يبدأ المطبيعي في استغزازه المحببة- وكان يميل برأسه هامساً (إن المطبيعي أوعى وأثقف من عشرات ممن يسبق أسماءهم حرف الدال)! وفي جلسة جميلة، هيأها مشكوراً صديق الإعلاميين ليث الكبيسي على شرف الزميل العزيز أحمد عبد المجيد، كان من بين الحضور خالد الراوي وحميد المطبيعي، فتحوّلت الجلسة الى ما يشبه المندى الثقافي ولم أر خالداً سعيداً مثلما رأيته في تلك الأمسية.. فقد ضحك كثيراً وبشكل عجيب.. وعند توصيلي له الى باب داره أصر على أن يناولني بضعا من (التمرّات) من نخلة عزيزة عليه تتوسط داره قائلاً: (تذكر يا زيد، أن حلوة التمر عندي هي أهم من كنوز العالم كله). كان حبه للعراق عظيماً. رحمك الله ياخالد.. يا حبيب.

زيد الحلي

هؤلاء عرفتهم*

الغربة سفر، والسفر غربة... ولعلنا عرفنا... الغربة المشبوبة بالنار حين حملنا حقائبنا الصغيرة وسافرنا بها من حديثة للدراسة في بغداد... وهناك عرفت الراحل الدكتور خالد حبيب الراوي، وأنا أجد نفسي وحيداً في زحام بغداد، وكان نجدة لي من السماء، أستاذاً قديراً في قسم الإعلام- ولم يكن كلية آنذاك- وطاقة قصصية ممتازة لها من الذكاء والمهارة، وتنطوي على قدر ملموس من الحيوية والخصوبة، ترعرع في أحضان الستينات، وعاش على فتات مشروعهما الأدبي. ولقد قامت بيننا صداقة وثيقة العرى ومنسجمة وراسخة تكفلت بتعويضنا- أو في الأقل- بتعويضني عن ذلك الشعور بالغربة، حين أتاح لي فيما بعد أن أستوعب تلك الرابطة العميقة الدقيقة، وأنا اعتقد بأنه لا ينبت الريش على جناح. مثل شمعة قدرها أن تعطينا عطراً، أحببت هذا الراوي، الذي وجدته عكس أساتذة آخرين كانوا كالسيوف المعلقة فوق رقابنا، ووجدته عن قرب، صافي الروح، حلو المعشر، باسم الثغر، موطاً الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، هينا ليناً، بعيداً عن التكلف، باحثاً عن شيء يقدمه فائدة لزم من قادم وجيل لم يولد بعد. وكان يريد أن يضيف ويغطي ثغرات ما زالت مثل ثقوب الفضاء مجهولة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، ويعترف لكل ذي موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، ويكره الظلم والتسلط على عباد الله، ويقول بصراحة: لا أحب أن أتسلط على أحد، ولا أن يتسلط علي أحد.

وكان كلانا يسأل نفسه والآخرين: ماذا يخسر الإنسان، إذا كان رقيقاً، وحنوناً، ولطيفاً، حضارياً، ومهذباً، وخفيف الظل.. وفي بعض الأحيان كنت أجده يختار الصمت عزوفاً عن مشادات يجدها إهداراً للحبر بلا معنى، واستهلاكاً للورق دون جدوى. وكنت قادراً على فهم جزء من مشاعره. كان الراوي يتسمر حتى آخر قطرة زيت في المشكاة، ويضحك في أحلك الساعات كآبة، ويرى أن الحياة أجمل من أن تضيع في العمل، وأنه من دون

1. نشرت هذه المقالة في جريدة "الوطن"، 2005/6/23، العدد 248، السنة الثالثة.

الضحك تصبح الحياة مللاً لا يطاق، ما يسر أمامه سبيل العيش اللاهبي العابت. وكانت له فلسفة مؤداها: أننا في قوة الخيل نجمع المال، وفي غباء الحمير ننفقه.. ويرغم تشبثه بالحياة وتفاوله بها، فقد غادرنا مستعجلاً ولم ينتظر حتى يكمل خواطره التي بدأها بقوله: يادامي العينين، إن الليل زائل.. لكن ومع رحيل الليل رحلت روحه هو الآخر وتحول فراش نومه الى فراش موته. وخالد حبيب الراوي- شئنا أم لم نشأ- من الذين بنوا قسم الإعلام حجراً حجراً، وأضاءوا قناديل فضته المعتمة. وقد ترك لنا في كل زاوية من زواياه، ما يترك البلبل على قمر عابر في القصيدة. ومثل هذا الاعتراف، ولو جاء متأخراً، وعلى شكل كفارة، هو تعويض أدبي بسيط نقدمه لأستاذ صحافة قدير أصبح خالداً في رحاب التاريخ. وأما الباقي والدائم والمستمر، فهو إيداعه، وعطاؤه، وتلاميذه. هذا إذا لم تكن نساير تقاليد بعض القبائل العربية التي كانت تقتل حصان الفارس حتى لا يركبه غيره!

أذكر أن الراوي رحمه الله قال لي، وقد خرجنا من كلية الآداب في باب المعظم قاصدين شارع المتنبى: لن نفترق..أمامنا البحار..والغابات وراعنا..فكيف نفترق؟ وها نحن افترقنا من دون أن أحظى منه بنظرة وداع قبل الغياب النهائي، أو أن أقول يا عزاء الميتين سلام عليكم.

رباح آل جعفر

* * *

الى والدي

خالد يانسمة بحر دافئة تهب في ليلة شتاء قارسة
توقظ الحس بفكرك وتلهب الروح ببسمتك
مررت كشهاب في السماء وأترت درب من أحببت بالضياء

(لنا وحدنا الحق في أن نكتب ما نشاء عن حياتنا، فنحن الذين خلقناها،
وهي لنا بحذاقها)¹

الكتابة عن خالد حبيب الراوي صعبة للغاية، ليس لأنه والدي، بل لكثرة ما يجب أن يقال ولقلة ما يمكن التعبير عنه. خالد كان أباً مميزاً لأنه عتيق بحبه وشديد بحنانه وقاس بتعنيفه وسريع بغضبه. على الرغم من حدة أعصابه وانفعالاته حتى في آخر يوم من حياته، كان يخليني، وأنا ابنه، من دماثة أخلاقه.

الحياة كانت بالنسبة له فرصة يجب استثمارها بالتعلم والبحث والمتعة والاستكشاف والمغامرة. والاستثمار هذا يعني التبحر في عوالم الكتب وتمحيص تفاصيل الحياة الدقيقة التي تدل على الحقيقة، سواء أكاديمياً أو صحفياً. أما العلاقات الإنسانية، فيحيطها بهالة من القدسية يجب على المرء الحفاظ عليها ورعايتها على الدوام، فهو كتوم لأسرار أصدقائه، ومن بينهم طلابه وما أكثرهم، وتوفي ولم يكشف سر شخص ائتمنه عليه. أما الحب، فهي عاطفة تجعل الإنسان يشعر بأدميته ولا يستطيع العيش بدونها أبداً. والحب لا يقتصر على المشاعر المتبادلة بين الحبيب وحبيبته،

1 خالد حبيب الراوي، مسرحية "الجدار وزهور البحر" في مجموعة الجسد والأبواب، النجف: مطبعة الغري الحديثة، 1969، صفحة 26.

بل تشمل العفو والتسامح والرحمة بين مختلف أنواع البشر. ولعل ما ذكره أحد شخوصه يعبر بدقة عن رأيه في طبيعة العلاقات البشرية، فهو يقول: "العلاقة لا تبدأ من جوازات السفر والدين، إنما من التطلعات الإنسانية العامة".² وكان مؤمناً أن الإنسان يفعل الشر لأنه لا يقوى في بعض الأحيان على فعل الخير، فهو مسير بظروفه الخارجية وطبيعته الداخلية. واستمر بالضحك على المصائب التي يجابهها، وما أكثرها، ويضحك على القدر وما يخفيه كأنه يقول "سوف أتغلب في النهاية". أصبح في سنواته الأخيرة متهمًا وساخرًا من غياب أدعياء الثقافة والعلم، وناقماً على الزمن الذي تباع وتشتري فيه المبادئ والقيم.

كان نزيهاً مع نفسه، حراً بروحه وفكره، ثورياً بميوله، خلاقاً في هواياته المتعددة التي شملت جمع السباح والأقلام وزراعة حديقة بيته بالزهور الغريبة والنادرة. ربما أراد أن يجد له منفذاً من روتين الحياة ومن رتابة التدريس الذي امتننه في السنوات الخمس عشرة التي سبقت وفاته.

أخبرني ليلة وفاته أن أجله قد حان، فصاح علي ليكتب وصيته. رفضت بشدة واستقرست منه، فقال: "جسدي كله بدأ يضعف"، لكنني لم أجلب له الورقة التي أرادها لكي لا أشجعه على التفكير بهذا الشكل. قال لي بعدها: "لا أريد أن تقام لي مراسيم العزاء للميت"، لأنه لم يرد أن يحزن عليه أحد. لن تفارقني ذكرى اليوم هذا ما دمت حياً.

يقولون إن خالد مات، لكنني أجزم بأنه يعيش. فهو يعيش في اشتياقي وفكري، أحمله معي في صلاتي ومناجاتي ومسراتي ومصابي. هنالك أناس يعيشون لكنهم أموات، وهنالك أموات لكنهم يعيشون مع الأحياء. لذا خالد لم يمت...

د. أحمد خالد الراوي

بغداد 2005

* * *

2 خالد حبيب الراوي، "رجل له 7 أقدام" في مجموعة القناع، صفحة 78.

رقم الأيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 295 لسنة 2006